مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب — الدكتور احمد فريد رفاعي بك
مكتبة القراءة والثقافة الأدبية — مدير مصلحة الصحافة والنشر والثقافة العامة المصرية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة احمد المقري المغربي المالكي الأشعري

مضبوطة ومشروحة ومعلقا عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الثامن



مطبوعات دار المأمون

الوقت من ذهب — مكتبة القراءة والثقافة الأدبية

الدكتور أحمد فريد رفاعي بك — مدير مصلحة الصحافة والنشر والثقافة العامة المصرية

سلسلة المصادر العربية

نفح الطيب

تأليف العلامة أحمد المقري المغربي المالكي الأشعري

مضبوطة ومشروحة ومعلقا عليها

راجعت وزارة المعارف العمومية هذا الكتاب

الجزء الثامن

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيد المرسلين أما بعد

فقد قال العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

بسم الله الرحمن الرحيم

***

أبو الحسن على ابن موسى ابن سعيد العنسى

وَمِنْهُمُ ٱلشَّهِيرُ بِالْمَغَارِبِ وَٱلْمَشَارِقِ، ٱلْمُحَلِّى بِجَوَاهِرِهِ صُدُورَ ٱلْمَهَارِقِ[1]، أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ ٱلْعَنْسِيُّ مُتَمِّمُ كِتَابِ «ٱلْمُغْرِبِ فِي أَخْبَارِ ٱلْمَغْرِبِ»[2] قَالَ فِيهِ: وَأَنَا أَعْتَذِرُ فِي إِيرَادِ تَرْجَمَتِي هُنَا بِمَا ٱعْتَذَرَ بِهِ ٱبْنُ ٱلْإِمَامِ[3] فِي كِتَابِ «سِمْطِ ٱلْجُمَانِ» وَبِمَا ٱعْتَذَرَ بِهِ ٱلْحِجَارِيُّ فِي كِتَابِ «ٱلْمُسْهِبِ[4]» وَٱبْنُ ٱلْقَطَّاعِ فِي «ٱلدُّرَّةِ ٱلْخَطِيرَةِ[5]» وَغَيْرُهُمْ مِنَ

---

(١) جمع مهرق: وهو الصحيفة يكتب فيها «لفظ معرب» جعلها غادة، وجعل كتابة ابن سعيد فيها حلية وعقدا يزين صدرها «أحمد يوسف نجاتى» (٢) كتاب «المغرب فى محاسن حلى المغرب» فى نحو ١٥ مجلدا، ألفه لمحيي الدين محمد بن محمد الصاحب بن الجزرى ـ وهناك كتاب «المغرب فى تاريخ المغرب» تأليف اليسع بن حزم الأندلسى، المتوفى سنة ٥٧٥ (٣) كتاب «سمط الجمان وسقيط المرجان» لابن الامام، وهو أبو عمرو عثمان بن على بن عثمان الأشبيلى فى المائة السادسة أيضا، وذيل عليه أبو بحر صفوان بن ادريس المرسى بكتاب «زاد المسافر» ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة «أحمد يوسف نجاتى» (٤) «المسهب فى أخبار المغرب» لحافظ الأندلس أبى محمد عبد الله بن ابراهيم الحجارى، صنفه سنة ٥٣٠ فى ستة أسفار «أحمد يوسف نجاتى» (٥) كتاب «الدرة الخطيرة فى المختار من

الْعُلَماءِ . فَمِنْ نَظْمِهِ عِنْدَ مَا وَرَدَ الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ :

أَصْبَحْتُ أَعْتَرِضُ الْوُجُوهَ، وَلَا أَرَى
مَا بَيْنَهَا وَجْهًا لِمَنْ أَدْرِيهِ
عَوْدِى عَلَى بَدْئِى ضَلَالًا بَيْنَهُمْ
حَتَّى كَأَنِّى مِنْ بَقَايَا التِّيهِ
وَيْحَ الْغَرِيبِ! تَوَحَّشَتْ أَلْحَاظُهُ فِى عَالَمٍ لَيْسُوا لَه بِشَبِيهِ
إِنْ عَادَ لِى وَطَنِى اعْتَرَفْتُ بِحَقِّهِ
إِنَّ التَّغَرُّبَ ضَاعَ عُمْرِى فِيهِ

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ مَلِكَ إِفْرِيقِيَّةَ أَبَا زَكَرِيَّا يَحْيَى ابْنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِى حَفْصٍ (١) :

الْأُفْقُ طَلْقٌ، وَالنَّسِيمُ رُخَاءُ
وَالرَّوْضُ وَشَّتْ بُرْدَهُ الْأَنْدَاءُ (٢)

شعر أهل الجزيرة » لأبى القاسم على بن جعفر المعروف بابن القطاع الصقلى المصرى ، المتوفى سنة ٥١٥ « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) كان بالأصل ابن أبى جعفر، والمعروف أن سلطان تونس هو أبو زكريا يحيى بن عبدالواحد بن الشيخ أبى حفص عمر، دخل تونس سنة ٦٢٥ وافتتح قسنطينة وبجاية سنة ٦٢٦ وانتزعهما من بنى عبد المؤمن، ثم ملك تلمسان من يدهم بعد ذلك، وبايعه أهل الأندلس، وتوفى سنة ٦٤٧ فبويع بعده ابنه وولى عهده المستنصر بالله، وسيأتى التعريف به (٢) الطلق الرائق الصافى والضاحك

وَالنَّهْرُ قَدْ مَالَتْ عَلَيْهِ غُصُونُهُ
فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْلَةٌ وَطْفَاءُ[١]

وَبَدَا نِثَارُ الْجُلَّنَارِ بِصَفْحِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ حَيَّةٌ رَقْطَاءُ[٢]

وَالشَّمْسُ قَدْ رَقَمَتْ طِرَازًا فَوْقَهُ
فَكَأَنَّمَا هِيَ حُلَّةٌ زَرْقَاءُ[٣]

فَأَدِرْ كُؤُوسَكَ كَيْ يَتِمَّ لَكَ الْمُنَى
وَاسْمَعْ إِلَى مَا قَالَتِ الْوَرْقَاءُ

تَدْعُوكَ: حَيَّ عَلَى الصَّبُوحِ، فَلَا تَنَمْ
فَعَلَى الْمَنَامِ لَدَى الصَّبَاحِ عَفَاءُ[٤]

وَلَهُ:

كَمْ جَفَانِي! وَرُمْتُ أَدْعُو عَلَيْهِ
فَتَوَقَّفْتُ، ثُمَّ نَادَيْتُ قَائِلْ:

لَا شَفَى اللهُ لَحْظَهُ مِنْ سَقَامٍ وَأَرَانِي عِذَارَهُ وَهُوَ سَائِلْ[٥]

المشرق ، والرخاء الريح اللينة اللطيفة سهلة الهبوب ، ووشاه زانه وزخرفه، والأنداء جمع ندى « أحمد يوسف نجاتى » (١) أى كثيرة شعر الهدب والحاجبين مع استطاله واسترخاء (٢) الجلنار زهر الرمان ، والرقطاء المنقطة الظهر (٣) رقمه نقشه وأعلمه، والطراز علم الثوب (٤) أصل العفاء الانمحاء والدروس وزوال الأثر ، يريد الذهاب والزوال (٥) فى « سائل » تورية

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ كَتَبَ بِهَا إِلَى مَلِكِ سَبْتَةَ ٱلْمُوَفَّقِ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي ٱلْفَضْلِ ٱلسَّبْتِيِّ[1] شَافِعًا لِشَخْصٍ رَغِبَ فِي خِدْمَتِهِ

بِالْعَدْلِ قُمْتَ، وَبِالسَّمَاحِ فَدِنْ، وَجُدْ
لَا فَارَقَتْكَ كِفَايَةٌ وَعَطَاءُ[2]

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ ٱلسَّعَادَةَ نَالَهَا
وَطِلَابُ مَا يَأْبَى ٱلْقَضَاءُ شَقَاءُ

وَمِنْهَا:

وَقَدِ ٱسْتَطَارَ بِأَسْطُرِي نَحْوَ ٱلنَّدَى
مَنْ أَنْهَضَتْهُ لِنَحْوِكَ ٱلْعَلْيَاءُ

طَلَبَ ٱلنَّبَاهَةَ فِي ذَرَاكَ، فَمَا لَهُ
إِلَّا لَدَيْكَ تَأَمُّلٌ وَرَجَاءُ[3]

وَهُوَ ٱلَّذِي بَعْدَ ٱلتَّجَارِبِ أُحْمِدَتْ
أَحْوَالُهُ، وَجَرَى عَلَيْهِ ثَنَاءُ[4]

ظاهرة، فهو امامن سال يسيل، أو من سأل يسأل « أحمد يوسف نجاتى »

(١) فى الأصل « النيشتى » وهو تصحيف ، فانى أعرف أن القائم بسبتة فى زمن ابن سعيد هو أبو العباس السبتى، وسيأتى حديث عنه « أحمد يوسف نجاتى ».

(٢) السماح الجود والكرم ، ودان بكذا يدين اذا جعله دينا له أى مذهبا وعادة (٣) ذراه أى كنفه وحماه وظله (٤) أحمدت أى وجدت محمودة

لَا يَقْرَبُ الدَّنَسَ الْمُرِيبَ، كَوَاصِلٍ
هَجَرَتْهُ خَوْفًا أَنْ يُشَانَ الرَّاءُ (١)

قَدْ مَارَسَ الْحَرْبَ الزَّبُونَ زَمَانَهُ
وَجَرَتْ عَلَيْهِ شِدَّةٌ وَرَخَاءُ (٢)

وَعُلَاكَ تَقْضِي أَنْ يَسُودَ بِأُفْقِهَا
لَا غَرْوَ أَنْ يُعْلِي الشِّهَابَ بَهَاءُ

وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

أَلِفَ التَّغَرُّبَ وَالتَّوَحُّشَ مِثْلَ مَا
أَلِفَ التَّوَحُّشَ وَالنُّفُورَ ظِبَاءُ

حُجَّابُهُ أَلِفُوا التَّجَهُّمَ وَالْجَفَا فَهُمُ لِكُلِّ أَخِي هُدًى أَعْدَاءُ (٣)

مَهْمَا يَرُمْ طَلَبٌ إِلَيْهِ تَقَرُّبًا بَعُدَتْ بِذَاكَ الْبَدْرِ عَنْهُ سَمَاءُ

لَـكِنَّنِي مَا زِلْتُ أَخْدَعُ حَاجِبًا
وَمُرَاقِبًا حَتَّى الْآنَ حِبَاءُ (٤)

---

(١) واصل بن عطاء المعتزلى، المتوفى سنة ١٣١ وكان ألثغ بالراء لا يستطيع نطقها كما هو معروف، فكان يعدل عنها فى كلامه لقوة بلاغته ــ شبه بعد المشفوع له عن الدنس والريبة ببعد واصل عن حرف الراء، وتقدم ذكر واصل وما قيل فى ابتعاده عن حرف الراء، وتصرف الشعراء فى هـذا المعنى « أحمد يوسف نجاتى » (٢) الحرب الزبون أى التى تزبن الناس أى تدفعهم وتصدمهم، أو التى يدفع بعض الناس فيها بعضا لشدتها وكثرتهم

(٣) التجهم استقبال المرء بوجه عابس كريه (٤) الحباء : الصلة والعطاء

وَٱلْأَرْضُ لَمْ تُظْهِرْ بُحَجَّبَ نَبْتِهَا
حَتَّى حَبَتْهَا ٱلدِّيمَةُ ٱلْوَطْفَاءُ (١)

قِيلَ - وَهَذَا مَعْنًى لَمْ يُسْمَعْ مِنْ غَيْرِهِ . وَقَوْلُهُ فِي خُسُوفِ ٱلْبَدْرِ:

شَانَ ٱلْخُسُوفُ ٱلْبَدْرَ بَعْدَ جَمَالِهِ
فَكَأَنَّهُ مَاءٌ عَلَيْهِ غُثَاءُ (٢)

أَوْ مِثْلُ مِرْآةٍ لِخَوْدٍ قَدْ قَضَتْ
نَظَرًا بِهَا ، فَعَلَا ٱلْجِلَاءَ غِشَاءُ (٣)

وَلَهُ مِنْ قَصِيدَةِ عِتَابٍ يَقُولُ فِيهَا :

وَلَقَدْ كَسَبْتُ بِكُمْ عُلًا ، لَكِنَّهَا
صَارَتْ بِأَقْوَالِ ٱلْوُشَاةِ هَبَاءَ (٤)

---

(١) الديمة السحابة يدوم مطرها طويلا ، والوطفاء الديمة السح الحثيثة اذا تدلت ذيولها واسترخت جوانبها لكثرة مائها، من الوطف : وهو كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول (٢) الغثاء مايحمله السيل من الزبد والوسخ والقذر ، والهالك البالى من ورق الشجر الذى اذا خرج السيل رأيته مخالطا زبده (٣) الخود الفتاة الحسنة الخلق الشابة والجارية الناعمة (٤) الهباء التراب الذى تطيره الريح فتراه على وجوه الناس وأبدانهم وثيابهم يلزق لزوقا ، وغبار شبه الدخان ساطع فى الهواء يرتفع فى الجو، ودقاق التراب ومنثوره على وجه الأرض — ويضرب به المثل فى

فَغَدَوْتُ مَا بَيْنَ ٱلصَّحَابَةِ أَجْرَبًا
كُلٌّ يُحَاذِرُ مِنِّىَ ٱلْأَعْدَاءَ(١)

وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ ٱلنُّجُومَ تَقِلُّ لِى
حُجُبًا، وَأُصْغِرُ أَنْ أُحُلَّ سَمَاءَ

فَلْيَهْجُرُوا هَجْرَ ٱلْفَطِيمِ لِدَرِّهِ
وَيُسَاعِدُوا ٱلزَّمَنَ ٱلْخَئُونَ جَفَاءَ

فَلَقَدْ شَكَوْتُ لَهُمْ إِحَالَةَ وُدِّهِمْ
إِنْ لَمْ أَكُنْ أَرْضَى بِهِمْ خُدَمَاءَ

إِيهٍ، فَذِكْرُهُمُ أَقَلُّ، وَإِنَّمَا
أُومِى إِلَيْكَ فَتَفْهَمُ ٱلْإِيمَاءَ

لَوْ لَمْ يَكُنْ قَيْدٌ لَمَا فَتَكَتْ ظُبًا
أَنْتَ ٱلَّذِى صَيَّرْتَهُمْ أَعْدَاءَ(٢)

وَلَوَ أَنَّنِى أَرْجُو ٱرْتِجَاعَكَ لَمْ أُطِلْ
شَكْوَى، وَلَمْ أَسْتَبْعِدِ ٱلْإِغْضَاءَ

لَكِنْ رَأَيْتُكَ لَا تَمِيلُ سَجِيَّةً
نَحْوِى، وَلَا تَتَكَلَّفُ ٱلْإِصْغَاءَ

ضياع العمل وذهاب أثره، ومنه قوله تعالى «وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (١) من قول النابغة الذبيانى:

فلا تتركنى بالوعيد كأننى الى الناس مطلى به القار أجرب

(٢) احالة الود تغيره، والظبا جمع ظبة حد السيف «أحمد يوسف نجاتى»

إِنْ لَمْ يَكُنْ عَطْفٌ فَمُنُّوا بِالنَّوَى
إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا أُهِينَ تَنَاءَى

وَقَوْلُهُ :

وَلَكَمْ سَرَيْنَا فِي مُتُونِ ضَوَامِرٍ
تَثْنِي أَعِنَّتَهَا مِنَ الْخُيَلَاءِ(١)

مِنْ أَدْهَمٍ كَاللَّيْلِ حُجِّلَ بِالضُّحَى
فَتَشُقُّ غُرَّتُهُ عَنِ ابْنِ ذُكَاءِ(٢)

أَوْ أَشْهَبٍ يَحْكِي غَدَائِرَ أَشْيَبٍ
خَلَعَتْ عَلَيْهِ الشُّهْبُ فَضْلَ رِدَاءِ(٣)

أَوْ أَشْقَرٍ قَدْ نَمَّقَتْهُ بِشُعْلَةٍ
كَالْمَزْجِ ثَارَ بِصَفْحَةِ الصَّهْبَاءِ(٤)

أَوْ أَصْفَرٍ قَدْ زَيَّنَتْهُ غُرَّةٌ   حَتَّى بَدَا كَالشَّمْعَةِ الصَّفْرَاءِ

---

(١) المتن : الظهر ، والضوامر الخيل الضامرة ، والخيلاء الزهو والاعجاب والكبر (٢) يصف فرسا أسود محجلا أغر، والتحجيل بياض فى رجله ، والغرة بياض فى جبهته ، وابن ذكاء القمر ، وذكاء علم على الشمس « أحمد يوسف نجاتى » (٣) الشهبة البياض يصدعه سواد فى خلاله (٤) الأشقر من الدواب الأحمر فى مغرة حمرة صافيـة يحمر منها السبيب والمعرفة والناصية، والعرب تقول : أكرم الخيل وذوات الخـير منها شقرها ، ونمقه حسنه وزينه والصهباء الخمر، يصف فرسا أشقر فيه قليل بياض « أحمد يوسف نجاتى »

طَارَتْ ، وَلَـكِنْ لَا يُهَاضُ جَنَاحُهَا
هَبَّتْ، وَلَـكِنْ لَمْ تَـكُنْ بِرُخَاءِ[١]

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ فِي اُفْتِضَاضِ بِكْرٍ :

وَخَرِيدَةٍ مَا إِنْ رَأَيْتُ مِثَالَهَا ... حَيَّتْ مِنَ الْأَلْحَاظِ بِالْإِيمَاءِ[٢]
فَسَأَلْتُهَا سَمْعَ اُلشَّكَاةِ ، فَأَفْهَمَتْ
أَنَّ اُلرَّقِيبَ جُهَيْنَةُ اُلْأَنْبَاءِ[٣]
وَتَبِعْتُهَا، وَسَأَلْتُ مِنْهَا قُبْلَةً ... فِي خَلْوَةٍ مِنْ أَعْيُنِ اُلرُّقَبَاءِ
فَثَنَتْ عَلَيَّ قَوَامَهَا بِتَعَانُقٍ ... أَحْيَا فُؤَادًا مَاتَ بِالْبُرَحَاءِ[٤]
وَوَجَدْتُهَا لَمَّا مَلَكْتُ عِنَانَهَا ... عَذْرَاءَ مِثْلَ اُلدُّرَّةِ اُلْعَذْرَاءِ
جَاءَتْ إِلَيَّ كَوَرْدَةٍ مُحْمَرَّةٍ ... فَتَرَكْتُهَا كَعَرَارَةٍ صَفْرَاءِ[٥]
وَسَلَبْتُهَا مَا اُحْمَرَّ مِنْهَا صَفْوُهُ ... فَجَرَى مُذَابًا مُنْجِحًا لِرَجَائِي

(١) هاض جناحه أي كسره فلم يقدر على النهوض والاستقلال بالطيران. والرخاء الريح اللينة الهبوب السهلة. أشبه الخيل بالطير والريح، وفضلها عليهما « أحمد يوسف نجاتى » (٢) الخريدة البكر لم تمس، والحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت الخفرة المتسترة قد جاوزت الأعصار ولم تعنس، والايماء الاشارة (٣) يشير الى المثل : عند جهينة الخبر اليقين ، ويقال للمحيط علما بخبر الشىء : هو جهينة خبره (٤) البرحاء الشدة والمشقة ، وخص بعضهم به شدة الحمى وأذاها (٥) العرار بهار البر، وهو نبت طيب الريح ، أو هو النرجس البرى، واحده عرارة، قال الأعشى : بيضاء غدوتها وصفــراء العشية كالعرارة « معناه أن المرأة الناصعة البياض الرقيقة البشرة تبيض بالغداة ببياض الشمس ، وتصفر بالعشى باصفرارها » « أحمد يوسف نجاتى »

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ :

أَحْبَابَنَا عُودُوا عَلَيْنَا عَوْدَةً
مَا مِنْكُمُ بَعْدَ التَّفَرُّقِ مَرْغَبُ
كَمْ ذَا أُدَارِيكُمْ بِنَفْسِي جَاهِدًا
وَكَأَنَّمَا أُرْضِيكُمُ كَيْ تَغْضَبُوا
وَأَزِيدُ بُعْدًا مَا اقْتَرَبْتُ إِلَيْكُمُ
كَالسَّهْمِ أَبْعَدُ مَا يُرَى إِذْ يَقْرُبُ
وَأَجُوبُ نَحْوَكُمُ الْمَنَازِلَ جَاهِدًا
وَمَعَ اجْتِهَادِي فَاتَنِي مَا أَطْلُبُ (١)
كَالْبَدْرِ أَقْطَعُ مَنْزِلًا فِي مَنْزِلٍ
فَإِذَا انْتَهَيْتُ إِلَى ذُرَاكُمْ أَغْرُبُ

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ :

سَأَلْتُكَ يَا مَنْ يُسْتَلَانُ فَيَصْعُبُ
وَمَنْ يُتَرَضَّى بِالْحَيَاةِ فَيَغْضَبُ
أَمَّا خَدُّكَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ؟ فَلِمْ غَدَتْ
تَحُلُّ بِهِ ضِدًّا الْقَضِيَّةِ عَقْرَبُ (١)؟!

---

(١) جاب البلاد والمنازل : قطعها منزلا منزلا (٢) العقرب منزلة من منازل

وَقَوْلُهُ وَقَدْ دَاعَبَهُ أَحَدُ ٱلْفُقَهَاءِ وَسَرَقَ سِكِّينَهُ مِنْ حِرْزٍ[١] .

أَيَا سَارِقًا مِلْكًا مَصُونًا، وَلَمْ يَجِبْ
عَلَى يَدِهِ قَطْعٌ وَفِيهِ نِصَابُ[٢]

سَتَنْدُبُهُ ٱلْأَقْلَامُ عِنْدَ عِثَارِهَا
وَيَبْكِيهِ إِنْ يَعْدُ ٱلصَّوَابَ كِتَابُ

وَقَوْلُهُ فِي تُفَّاحَةِ عَنْبَرٍ أُهْدِيَتْ لِلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ نَجْمِ ٱلدِّينِ أَيُّوبَ[٣]

أَنَا لَوْنُ ٱلشَّبَابِ وَٱلْخَالِ أُهْدِيـ
ـتُ لِمَنْ قَدْ كَسَا ٱلزَّمَانَ شَبَابَا

مَلِكِ ٱلْعَالَمِينَ نَجْمِ بَنِي أَيْـ
ـيُوبَ لَازَالَ فِي ٱلْمَعَالِي شِهَابَا

القمر يحلها، وهنا عكس الأمر، فقد حلت العقرب منزلة البدر ، وفى « عقرب » فى البيت تورية، وثانى المعنيين الصدغ، أى الشعر المتدلى على الصدغين، ويشبه بالعقرب فى الالتواء، وفى حماية الحدأن يمسه مقبل، وفى شدة تأثيرها فى نفس العاشق ونيله من فؤاده « وقد تقدم شىء مما قيل فى هذا المعنى . « أحمد يوسف نجاتى » (١) أى موضع حصين حفظت فيه السكين (٢) فى « نصاب » تورية ، فأحد المعنيين يد السكين ومقبضها ، والآخر نصاب السرقة الذى يؤخذ فيه بالحد . وقد سبق شرح هذين البيتين . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب كان ملكا عظيما وافر الحرمة، عظيم الهيبة، طاهر الذيل، خليقا بالملك توفى سنة ٦٤٧ . وسيأتى ذكره بعد « أحمد يوسف نجاتى » .

جِئْتُ مَلْأَى مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ... مِنْ شَكُورٍ إِحْسَانَهُ وَالثَّوَابَا

لَسْتُ مِمَّنْ لَهُ خِطَابٌ، وَلَكِنْ

قَدْ كَفَانِي أَرِيجُ عَرْفِي خِطَابَا (١)

وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ:

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَاعَةٍ ... قَدْ قَرَّبَتْنِي مِنْ عُلَا الصَّاحِبِ

وَلْيَعْذُرِ الْمَوْلَى عَلَى أَنَّنِي ... قَدْ كُنْتُ مِنْ عَلْيَاهُ فِي جَانِبِ

كَمَنْ أَتَى نَافِلَةً أَوَّلًا ... ثُمَّ أَتَى مِنْ بَعْدُ بِالْوَاجِبِ

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ:

فَإِنْ كُنْتُ فِي أَرْضِ التَّغَرُّبِ غَارِبًا

فَسَوْفَ تَرَانِي طَالِعًا فَوْقَ غَارِبِ (٢)

فَصَمْصَامُ عَمْرٍو حِينَ فَارَقَ كَفَّهُ

رَمَوْهُ وَلَا ذَنْبٌ لِعَجْزِ الْمُضَارِبِ (٣)

---

(١) الأريج تضوع الرائحة الذكية وانتشارها، والعرف هنا الريح الطيبة (٢) غارب في صدر البيت من الغروب ضد الشروق، وفى عجزه بمعنى أعلى الشيء وقمته، أصله غارب البعير، وهو السنام أو ما يليه (٣) يشير الى صمصامة عمرو ابن معد يكرب الزبيدى، سيفه الصارم المشهور، وكان لا يجيد الضرب به سواه وفى معناه قول الطغرائى:

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل الا فى يدى بطل

واذا نبا الصمصام فى يد غير أهل له فليس الذنب ذنبه، وانما الذنب للساعد الذى

وَمَا عِزَّةُ ٱلضِّرْغَامِ إِلَّا عَرِينُهُ
وَمِنْ مَكَّةٍ سَادَتْ لُؤَيُّ بْنُ غَالِبِ

وَقَوْلُهُ فِي فَرَسٍ أَصْفَرَ أَغَرَّ أَكْحَلِ ٱلْحِلْيَةِ

وَأَجْرَدَ تِبْرِيٍّ أَثَرْتُ بِهِ ٱلثَّرَى
وَلِلْفَجْرِ فِي خَصْرِ ٱلظَّلَامِ وِشَاحُ(١)
لَهُ لَوْنُ ذِي عِشْقٍ،وَحُسْنُ مُعَشَّقٍ
لِذَلِكَ فِيهِ ذِلَّةٌ وَمَرَاحُ(٢)
عَجِبْتُ لَهُ ـ وَهْوَ ٱلْأَصِيلُ ـ بِعَرْفِهِ
ظَلَامٌ ، وَبَيْنَ ٱلنَّاظِرَيْنِ صَبَاحُ(٣)

يضرب به — يريد ابن سعيد بالبيت ومابعده أن الغريب لا يظهر فضله ولا يعترف بمزاياه ،وان كان بعض الشعراء يرى غير ذلك ويقول: زامر الحي لا يطرب ، نعم ان المرء فى وطنه قد يكون أعز منه اذا اغترب « أحمد يوسف نجاتى»

(١) الأجرد الفرس القصير الشعر، وهو علامة عتق الجياد وكرمها ، والتبرى الذى لونه كلون التبر أى الذهب ، وجعل ضوء الفجر ونوره « فى عجز البيت » بمنزلة الوشاح فى خصر الليل الأسود (٢) لون العاشق الصفرة ولون المعشوق البياض تشوبه حمرة ، وفى البيت لف ونشر مرتب ، فالذلة راجعة الى صفرة لون العاشق،والمراح « أى الخفة والنشاط واللعب » عائد الى حسن المعشوق — وغرضه وصف الجواد بالنشاط مع طاعته وانقياده له « أحمد يوسف نجاتى » .

(٣) يصف عرفه بالسواد ،ومابين عينيه وهى الغرة بالبياض

يُقَيِّدُ طَيْرَ اللَّحْظِ وَالْوَحْشِ عِنْدَمَا
يَطِيرُ بِهِ نَحْوَ النَّجَاحِ جَنَاحُ[١]

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ :

إِذَا مَا غُرَابُ الْبَيْنِ صَاحَ فَقُلْ لَهُ :
تَرَفَّقْ ، رَمَاكَ اللّٰهُ يَاطَيْرُ بِالْبُعْدِ
لَأَنْتَ عَلَى الْعُشَّاقِ أَقْبَحُ مَنْظَرًا
وَأَكْرَهُ فِي الْأَبْصَارِ مِنْ ظُلْمَةِ[٢] اللَّحْدِ
تَصِيحُ بِنَوْحٍ ، ثُمَّ تَعْثُرُ مَاشِياً
وَتَبْرُزُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحُزْنِ مُسْوَدِّ
مَتَى نُحْتَ[٣] صَحَّ الْبَيْنُ ، وَانْقَطَعَ الرَّجَا
كَأَنَّكَ مِنْ وَشْكِ الْفِرَاقِ عَلَى وَعْدِ[٤]

وَقَوْلُهُ فِي غُلَامٍ جَمِيلِ الصُّورَةِ أَهْدَى تُفَّاحَةً :

نَابَ مَا أَهْدَيْتَ عَنْ عَرْ ... فٍ وَعَنْ رِيقٍ وَخَدِّ
حَبَّذَا تُفَّاحَةٌ قَدْ ... أَشْبَهَتْ أَوْصَافَ مُهْدِي[٥]

---

(١) يريد أنه يقيد الأبصار فلا تنظر الا اليه معجبة بحسنه، ويقيد الوحش بسرعة لحاقها ومنعها من الهرب لشدة سرعته، وهو من قول امرىء القيس «قيد الأوابد» وزاد هنا أنه قيد النواظر، وجعله طيرا وأرجله جناحين ، مع الجناس فى « نجاح ، وجناح » « أحمد يوسف نجاتى » (٢) فى نسخة « طلعة » (٣) فى نسخة « لحت » (٤) وشك الفراق : قربه وسرعته (٥) فى نسخة « نهد » « أحمد يوسف نجاتى »

بِتُّ مِنْهَا فِي سُرُورٍ فَكَأَنْ قَدْ بِتَّ عِنْدِي

وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

هَذَا الَّذِي يَهَبُ الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
وَبَعْدَ ذَلِكَ يُلْفَى [١] وَهْوَ يَعْتَذِرُ

إِنْ هَزَّهُ الْمَدْحُ فَالْأَمْوَالُ فِي بَدَدٍ
وَالْغُصْنُ مَا هُزَّ إِلَّا بُدِّدَ الثَّمَرُ [٢]

فَقُلْتُ لَمَّا بَدَا لِي حُسْنُ مَنْظَرِهِ
لَكِنَّهُ زَادَ إِشْرَاقًا : هُوَ الْقَمَرُ

مَتِّعْ لِحَاظَكَ فِي وَجْهٍ بِلَا ضَرَرٍ
إِنْ كَانَ شَمْسًا يَدَاهُ تَحْتَهَا مَطَرُ [٣]

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ :

لِي جِيرَةٌ ضَنُّوا عَلَيَّ وَجَارُوا
فَنَبَتْ بِي الْأَوْطَانُ وَالْأَوْطَارُ [٤]

---

(١) أو «يلقى» (٢) البدد : التفرق يريد هبتها ومنحها للمداح اذا أخذته أريحية الكرم، وفى الأصل «بدر» فى صدر البيت، وهو تصحيف «أحمد يوسف نجاتى» (٣) فى الأصل «تراها» بدل «يداه» (٤) نبت به الدار اذا لم توافقه، ونبا وطره أى بعد مراده وعز نيل غرضه. وفى البيت لف ونشر غير مرتب، فنبو الأوطان عائد على الجور، ونبو الأوطار راجع الى الضن أى البخل «أحمد يوسف نجاتى»

وَمِنَ ٱلْعَجَائِبِ أَنَّنِي مَعَ جَوْرِهِمْ
مَا قَرَّ لِي بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ قَرَارُ

وَقَوْلُهُ :

أَنَا شَاعِرٌ أَهْوَى ٱلتَّخَلِّيَ دُونَ مَا
زَوْجٍ لِكَيْمَا تَخْلُصُ ٱلْأَفْكَارُ
لَوْ كُنْتُ ذَا زَوْجٍ لَكُنْتُ مُنَغَّصًا
فِي كُلِّ حِينٍ رِزْقَهَا أَمْتَارُ(١)
دَعْنِي أُرِحْ طُولَ ٱلتَّغَرُّبِ خَاطِرِي
حَتَّى أَعُودَ وَيَسْتَقِرَّ قَرَارُ
كَمْ قَائِلٍ : قَدْ ضَاعَ شَرْخُ شَبَابِهِ
مَا ضَيَّعَتْهُ بَطَالَةٌ وَعُقَارُ(٢)
إِذْ لَمْ أَزَلْ فِي ٱلْعِلْمِ أَجْهَدُ دَائِمًا
حَتَّى تَأَتَّتْ هَذِهِ ٱلْأَبْكَارُ(٣)
مَهْمَا أَرُمْ مِنْ دُونِ زَوْجٍ لَمْ أَكُنْ
كَلًّا ، وَرِزْقِي دَائِمًا مِدْرَارُ

---

(١) امتار لأهله اذا طلب لهم الميرة أى القوت والرزق (٢) شرخ الشباب قوته ونشاطه ، والعقار الخمر ، وعجز البيت رد من الشاعر على القائل فى صدره « ضاع شرخ شبابه » (٣) استعار الأبكار لنتائج أفكاره وثمار قرائحه

وَإِذَا خَرَجْتُ لِفُرْجَةٍ هُنِّئْتُهَا
لَا ضَيْعَةٌ[1] ضَاعَتْ وَلَا تَذْكَارُ

وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنْ أَضِيعَ وَأَنْتَ فِي الدُّ
نْيَا ، وَأَنْ أُمْسِي غَرِيبًا مُعْسِرَا
أَنَا مِثْلُ سَهْمٍ سَوْفَ يَرْجِعُ بَعْدَمَا
أَقْصَاهُ رَامِيهِ الْمُجِيدُ لِيَخْبُرَا

وَقَوْلُهُ سَامَحَهُ اللهُ تَعَالَى :

وَافَى عَلِيٌّ لَنَا بِسَيْفٍ وَالْبَيْنُ قَدْ حَانَ وَالْوَدَاعُ
فَقَالَ: شِبْهٌ، فَقُلْتُ: شَمْسٌ قَدْ مُدَّ مِنْ نُورِهَا شُعَاعُ

وَقَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ فِي مَلِكِ إِشْبِيلِيَةَ الْبَاجِيِّ وَقَدْ هَزَمَ ابْنَ هُودٍ[2] :

(١) فى نسخة « صنعة » (٢) لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس قام بالثورة عليهم محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود ، ثار بجهة مرسية بعد وفاة المستنصر من الموحدين سنة ٦٢٠ وبايع الموحدون بمراكش لعمه عبد الواحد بن أمير المؤمنين يوسف ، ودب الخلاف بين أمراء الموحدين والسادة منهم ، فتصدر ابن هود للثورة — وهو من أعقاب بنى هود من ملوك الطوائف — فخرج بجيش سنة ٦٢٥ هزم به جيش والى مرسية يومئذ السيد أبى العباس بن أبى عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، ودخل مرسية ، وخطب

لِلّٰهِ فُرْسَانٌ غَدَتْ رَايَاتُهُمْ مِثْلَ الطُّيُورِ عَلَى عِدَاكَ تُحَلِّقُ

السُّمْرُ تَنْقُطُ مَا تُسَطِّرُ بِيضُهُمْ

وَالنَّقْعُ يُتْرِبُ ، وَالدِّمَاءُ تُخَلِّقُ (١)

للخليفة المستنصر العباسى ببغداد ، ثم بايع أهل شاطبة لابن هود سنة ٦٢٦ ثم بايعه أهل جزيرة شقر، فأهل جيان وقرطبة، وتسمى أمير المسلمين، ثم بايعه أهل اشبيلية ، ثم استولى على الجزيرة الخضراء وجبل الفتح فرضتى المجاز الى سبتة ، ثم بعد حوادث وفتن وثورات انتقض أهل اشبيلية وأخرجوا ابن هود وبايعوا لأبى مروان أحمد بن محمد الباجى الذى اتفق مع ابن الأحمر محمد ابن يوسف بن نصر ــ وكان قد بويع سنة ٦٢٩ ودخلت قرطبة فى طاعته ــ على مناوأة ابن هود، فزحف اليهم فانهزم، ونزل ابن الأحمر ظاهر اشبيلية ثم غدر بالباجى فقتله، وزحف سالم ابن حمود الى اشبيلية فامتنعت عليه ، ووصل اليه خطاب الخليفة المستنصر العباسى سنة ٦٢١ بالراية والخلع والعهد ولقبه المتوكل، فبايع له ابن الأحمر، ثم استعاد ابن هود اشبيلية. وفى أثناء هذا الخلاف بين ثوار المسلمين بالأندلس كان الأسبانيون ينتزعون الثغور والبلاد واحدا واحدا، فاستولوا على قرطبة سنة ٦٣٣ وبايع أهل اشبيلية سنة ٦٣٧ للرشيد من بنى عبد المؤمن، ثم زحف ابن الأحمر على غرناطة وملكها، ثم توفى المتوكل ابن هود سنة ٦٣٥ فولى بعده ابنه أبو بكر محمد ولقب الواثق . وتوالت الثورات والخلاف بعد ذلك حتى نفذ أمر الله فى الأندلس . « أحمد يوسف نجاتى » (١) السمر الرماح، والبيض السيوف جعل ضرب السيوف كتابة، وطعن الرماح ووخزاتها نقطا، وجعل النقع وهو الغبار الثائر تتريبا لهذا الكتاب « كانوا يجففون الكتب بالتراب » وجعل الدماء خلوقا أى طيبا لهذا المكتوب وزعفرانا ، ففى البيت مراعاة النظير من البديع ، وان كان أخذه من قول الشاعر :

وَقَالَ ارْتِجَالًا بِحَضْرِ زَكِيِّ الدِّينِ بْنِ أَبِي الْإِصْبَعِ (١) وَجَمَالِ الدِّينِ أَبِي الْحُسَيْنِ الْجَزَّارِ الْمِصْرِيِّ (٢) الشَّاعِرِ وَنَجْمِ الدِّينِ بْنِ إِسْرَائِيلَ الدِّمَشْقِيِّ (٣) بِظَاهِرِ الْقَاهِرَةِ وَقَدْ

وسطور خيلك انما ألفاتها سمر تنقط بالدماء وتشكل

ولكن ابن سعيد قد تصرف فى المعنى كما ترى . « أحمد يوسف نجاتى »

(١) زكى الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر المصرى الشاعر الأديب توفى سنة ٦٥٤ . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) جمال الدين أبو الحسين ـ وفى الأصل « ابن أبى الحسين » بزيادة « ابن » وهى زيادة فاسدة ـ يحيى بن عبد العظيم الجزار المصرى الأديب الفاضل، كان جزارا ثم عنى بالشعر وتكسب به ، وشاع ذكره فى البلاد، وتناقله الرواة . ومن شعره .

عاقبتنى بالصد من غير جرم ومحا هجرها بقية رسمى

وشكوت الجوى الى ريقها العذ ب فجارت ظلما بمنع لظلم

أنا حكمتها فجارت، وشرع الـ حب يقضى أنى أحكم خصمى

ياأميرا يرجى ويخشى لبأس ونوال فى يوم حرب وسلم

أنت موسى وقد تفرعن ذا الحـ ظ فغرقه من نداك بيم

لى من حرفة الجزارة والآ داب فقر يكاد ينسينى اسمى

والظلم آخر البيت الثانى بفتح الظاء وهو رضاب المحبوب وريقه ، وتوفى الجزار سنة ٦٧٩ . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) نجم الدين محمد بن سوار ابن اسرائيل بن الخضر بن اسرائيل بن الحسن بن على بن الحسين الشيبانى الدمشقى الأديب البارع الشاعر المشهور، كان روح المشاهد، وريحانة المجامع ظريفا مليح النظم رائق المعانى، ومن شعره فى مليح ناوله تفاحة :

لله تفاحة وافى بها سكنى فسكنت لهبا فى القلب يستعر

كفأرة المسك وافانى الغزال بها وغرة النجم حيانى بها القمر

مَشَى أَحَدُهُمْ عَلَى بِسَاطِ(١) نَرْجِسٍ :

يَا وَاطِئَ النَّرْجِسِ مَا تَسْتَحِي أَنْ تَطَأَ الأَعْيُنَ بِالأَرْجُلِ(٢)!

فَتَهَافَتُوا(٣) بِهَذَا الْبَيْتِ، وَرَامُوا إِجَازَتَهُ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي الإِصْبَعِ مُجِيزًا :

فَقُلْتُ: دَعْنِي لَمْ أَزَلْ مُحْرَجًا عَلَى لِحَاظِ الرَّشَإِ الأَكْحَلِ(٤)

وَكَانَ أَمْثَلَ مَا حَضَرَهُمْ، ثُمَّ أَبَوْا أَنْ يُجِيزَهُ غَيْرُهُ، فَقَالَ :

قَابِلْ جُفُونًا بِجُفُونٍ، وَلَا تَبْتَذِلِ الأَرْفَعَ بِالأَسْفَلِ(٥)

وَقَوْلُهُ فِي الْجَزِيرَةِ الصَّالِحِيَّةِ(٦) بِمِصْرَ — وَهِيَ الشَّهِيرَةُ الآنَ بِالرَّوْضَةِ :

أتى بها قائلى نحوى، فهل أحد قبلى تمشى اليه الغصن والثمر؟!

توفى بدمشق سنة ٦٧٧ عن ٧٤ سنة . « أحمد يوسف نجاتى » (١) فى الأصل « بسيط » (٢) تشبيه العيون بالنرجس معروف شائع ؛

وأحسن ما فى الوجوه العيون وأشبه شىء بها النرجس

وبيت ابن سعيد مليح جيد . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) من التهافت وهو فى الأصل تطاير الشىء لخفته وتساقطه ، والتتابع على الشىء والترامى عليه يريد أنهم أقبلوا على اجازته بسرعة، ولاكته ألسنتهم اعجابا به ، ويصح «تهاتفوا» من الهتاف بالشىء اعجابا به ورضا عنه (٤) ويروى : فقال دعنى لم أزل محنقا والمحرج والمحنق والمغيظ ضيق الصدر حرجا وغيظا (٥) ويروى... ولا تبدل .. يريد انظر الى النرجس ووازن بينه وبين العيون ، ولعله يريد بالأرفع العيون التى فى أعلى الجسم وأرفعه، وبالأسفل النرجس الذى هو بساط على سطح الأرض، بل غرضه لا تبتذل النرجس الذى هو كالعيون « فهو الأرفع » ولا تمتهنه بوطئه بالرجلين « وهما الأسفل . « أحمد يوسف نجاتى » . (٦) الصالحية منسوبة الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أبى الفتوح أيوب

ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدولة أبى المعالى محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمدبن أيوب، وهو السابع من الملوك الأيوبية قام بالسلطنة بعد خلع أخيه السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن الكامل فى ذى القعدة سنة ٦٣٧ وهو الذى بنى قلعة الروضة،وتحول من قلعة الجبل اليها وسكنها ، وكانت جزيرة الروضة مابرحت متنزها ملكيا ومسكناللناس، حتى بنى الملك الصالح بها القلعة،فعرفت بقلعة المقياس وبقلعة الروضة ،وقلعةالجزيرة،وبالقلعة الصالحية ،وشرع فى حفر أساسها فى شعبان سنة ٧٣٨ ثم هدم ما كان هناك من الدور والقصور وغيرها ،وغرس بها جميع الأشجار، وبالغ فى اتقانها، وعظمت عنايته بها ـ قال العلامة على بن سعيد صاحب الترجمة فى كتاب المغرب وقد ذكر الروضة: هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجزيرة، وبها مقياس النيل .. ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار، منهاقول أبى الفتح محمود بن قادوس الدمياطى :

أرى سرح الجزيرة من بعيد   كأحداق تغازل فى المغازل

كأن مجرة الجوزا أحاطت   وأنبتت المنازل فى المنازل

وكنت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها، فيزدهينى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرى اللون .. وقد تفرجت كثيرا فى طرف هذه الجزيرة مما يلى بر القاهرة،فقطعت فيه عشيات مذهبات ، لم تزل لأحزان الغربةمذهبات، واذا زاد النيل فصل مابينها وبين الفسطاط بالكلية ،وفى أيام احتراق النيل يتصل برها ببر الفسطاط من جهة خليج القاهرة ويبقى موضع الجسر فيهمراكب، وركبت مرة هذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محى الدين بن ندا وزير الجزيرة ، وصعدنا الى الى جهةالصعيد، ثم انحدرنا،واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلألأ، والنيل قد انقسم عنها، فقلت ـ وذكر الأبيات : وتوفى الملك الصالح فى شعبان سنة ٦٤٧ . « أحمد يوسف نجاتى » .

تَأَمَّلْ لِحُسْنِ ٱلصَّالِحِيَّةِ إِذْ بَدَتْ
مَنَاظِرُهَا مِثْلَ ٱلنُّجُومِ تَلَالَا
وَلِلْقَلْعَةِ ٱلْغَرَّاءِ كَالْبَدْرِ طَالِعًا
تَفَجَّرَ صَدْرُ ٱلْمَاءِ عَنْهُ هِلَالَا
وَوَافَى إِلَيْهَا ٱلنِّيلُ مِنْ بُعْدِ غَايَةٍ
كَمَا زَارَ مَشْغُوفٌ يَرُومُ وِصَالَا[1]
وَعَانَقَهَا مِنْ فَرْطِ شَوْقٍ لِحُسْنِهَا
فَمَدَّ يَمِينًا نَحْوَهَا وَشِمَالَا
جَرَى قَادِمًا بِالسَّعْدِ، فَاخْتَطَّ حَوْلَهَا
مِنَ ٱلسَّعْدِ أَعْلَامًا ، فَزَادَ دَلَالَا[2]

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ فِي مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ وَقَدْ جَهَّزَ وَلَدَهُ ٱلْأَمِيرَ أَبَا يَحْيَى بِعَسْكَرٍ

وَقَدْ أَرْسَلْتَهُ نَحْوَ ٱلْأَعَادِي كَمَا جَرَّدْتَ مِنْ غِمْدٍ حُسَامَا

وَقَوْلُهُ فِي قَوْسٍ :

أَنَا مِثْلُ ٱلْهِلَالِ فِي ظُلَمِ ٱلنَّقْـ
ـعِ ، سِهَامِي تَنْقَضُّ مِثْلَ ٱلنُّجُومِ

(١) ويروى « من بعد غيبة » وهو أحسن . « أحمد يوسف نجاتى » .
(٢) ويروى عجز للبيت : من السعد إعلاما بذلك دالا « أحمد يوسف نجاتى » .

تَقْصُرُ ٱلْقُضْبُ وَٱلْقَنَا عَنْ مَجَالِي

عِنْدَ رَجْمِي بِهَا لِكُلِّ رَجِيمِ

قَدْ كَسَتْهَا ٱلطُّيُورُ لَمَّا رَأَتْهَا كَافِلَاتٍ لَهَا بِرِزْقٍ عَمِيمِ (١)

وَقَوْلُهُ مِنْ أَبْيَاتٍ :

وَأَشْقَرَ مِثْلِ ٱلْبَرْقِ لَوْنًا وَسُرْعَةً

قَصَدْتُ عَلَيْهِ عَارِضَ ٱلْجُودِ فَانْهَمَى (٢)

وَلْنَذْكُرْ تَرْجَمَتَهُ مِنَ ٱلْإِحَاطَةِ مُلَخَّصَةً ، فَنَقُولُ : قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ : عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ ٱلْحَسَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ ٱلْحُصَيْنِ ٱلْعَنْسِيُّ ٱلْمُدْلِجِيُّ (٣) - مِنْ أَهْلِ قَلْعَةِ يَحْصُبَ، غَرْنَاطِيٌّ قَلْعِيٌّ (٤) سَكَنَ تُونُسَ - أَبُو ٱلْحَسَنِ بْنُ سَعِيدٍ، وَهَذَا ٱلرَّجُلُ وُسْطَى (٥)

---

(١) حسن تعليل لما في السهام المريشة من الريش (٢) يريد بعارض الجود ممدوحه، وراعى التناسب بين «البرق ، وعارض ، انهمى » . « أحمد يوسف نجاتي »

(٣) نسبة الى « بني مدلج » قبيلة من كنانة، وهو مدلج بن مرة بن عبد مناة بن كنانة ، وكان منهم القافة العارفون بتتبع الآثار «أحمد يوسف نجاتي»

(٤) نسبة الى قلعة يحصب ، وقد تقدم التعريف بها ، وكانت تسمى بقلعة بني سعيد، نزلها جدهم الأعلى عبد الله بن سعيد بن عمار بن ياسر . « أحمد يوسف نجاتي » (٥) وسطى العقد أنفس حباته وأكرم جواهره

عِقْدِ بَيْتِهِ، وَعَلَمُ أَهْلِهِ، وَدُرَّةُ قَوْمِهِ ـ الْمُصَنِّفُ الْأَدِيبُ الرَّحَّالَةُ الطُّرْفَةُ[1] الْأَخْبَارِيُّ، الْعَجِيبُ الشَّأْنِ فِي التَّجَوُّلِ فِي الْأَقْطَارِ وَمُدَاخَلَةِ الْأَعْيَانِ، لِلتَّمَتُّعِ بِالْخَزَائِنِ الْعِلْمِيَّةِ، وَتَقْيِيدِ الْفَوَائِدِ الْمَشْرِقِيَّةِ وَالْمَغْرِبِيَّةِ، أَخَذَ مِنْ أَعْلَامِ إِشْبِيلِيَةَ كَأَبِي عَلِيٍّ الشَّلَوْبِينِ[2] وَأَبِي الْحَسَنِ الدَّبَّاجِ[3] وَابْنِ عُصْفُورٍ[4] وَغَيْرِهِمْ. وَتَوَالِيفُهُ كَثِيرَةٌ: مِنْهَا «الْمُرْقِصَاتُ وَالْمُطْرِبَاتُ[5]» وَ«الْمُقْتَطَفُ

(١) قد تكون مصحفة عن «طرقة» بضم ففتح ـ وهو فى الأصل الذى يسرى حتى يطرق أهله ليلا، وهو بمعنى الرحالة. « أحمد يوسف نجاتى » (٢) سبق التعريف به، وتوفى سنة ٦٤٥ (٣) هو العلامة أبو الحسن على بن جابر النحوى المقرىء شيخ الأندلس، والسائد أهل عصره فى العربية، ولد سنة ٥٦٦ وتوفى باشبيلية سنة ٦٤٦ عقب أن استولى الأفرنج عليها، فانه هاله نطق الناقوس بها وخرس الأذان، فما زال يتلهف ويتأسف ويضطرب الى أن قضى نحبه رحمه الله. « أحمد يوسف نجاتى » (٤) أبو الحسن على بن مؤمن بن محمد ابن على النحوى الحضرمى الاشبيلى، حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس وكان أديبا ظريفا له مصنفات مفيدة، توفى سنة ٦٦٩. «أحمد يوسف نجاتى» (٥) ويعرف أيضا باسم «المرقص والمطرب فى أخبار أهل المغرب» فى الأدب قال انه رتبه على طبقات خمس: وهى المرقص، والمطرب، والمقبول، والمسموع، والمتروك فالمرقص ما كان مخترعا أو مولدا يكاد يلحق بطبقة الاختراع لما يوجد فيه من السير الذى يمكن أزمة القلوب من يديه ويلقى محبتها عليه، والمطرب ما نقص فيه الغرض عن درجة الاختراع الا أن فيه نسخة الابتداع، والمقبول ما كان عليه طلاوة عما يكون فيه غرض، والمسموع ما عليه أكثر الشعراء، والمتروك ما كان كلا على السمع. « أحمد يوسف نجاتى ».

مِنْ أَزَاهِرِ الطُّرَفِ» وَ«الطَّالِعُ السَّعِيدُ فِي تَارِيخِ بَنِي سَعِيدٍ» تَارِيخ بَيْتِهِ وَبَلَدِهِ – وَالْمَوْضُوعَانِ الْغَرِيبَانِ الْمُتَعَدِّدَا الْأَسْفَارِ ؛ وَهُمَا «الْمُغْرِبُ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ» وَ«الْمُشْرِقُ فِي حُلَى الْمَشْرِقِ» وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يَتَّصِلْ إِلَيْنَا ، فَلَقَدْ حَدَّثَنِي الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَكِيمِ [1] أَنَّهُ تَخَلَّفَ كِتَابًا يُسَمَّى «الْمَرْزَمَةَ» يَشْتَمِلُ عَلَى وَقْرِ بَعِيرٍ مِنْ رِزَمِ الْكَرَارِيسِ، لَا يَعْلَمُ مَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْأَخْبَارِيَّةِ إِلَّا اللهُ تَعَالَى. وَتَعَاطَى نَظْمَ الشِّعْرِ فِي حَدٍّ مِنَ الشَّبِيبَةِ يُعْجَبُ فِيهِ مِنْ مِثْلِهِ، فَيُذْكَرُ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ، وَفِي صُحْبَتِهِ سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ [2] ، فَجَعَلَ سَهْلُ بْنُ مَالِكٍ يُبَاحِثُهُ عَنْ نَظْمِهِ، إِلَى أَنْ أَنْشَدَهُ فِي صِفَةِ نَهْرٍ – وَالنَّسِيمُ يُرَدِّدُهُ [3] وَالْغُصُونُ تَمِيلُ عَلَيْهِ :

---

(١) سبق قريبا أن عرفنابه ، وصححنا التحريف الذى كان بالأصل فى اسمه «أحمد يوسف نجاتى» (٢) أبو الحسن سهل بن محمد بن سهل بن محمد ابن أحمد بن ابراهيم بن مالك الأزدى الغرناطى، كان من جلة العلماء الأدباء والأئمة البلغاء الخطباء، رئيسا فى بلده، جوادا محببا، متفننا فى العلوم والمعارف نالته فى الفتنة محنة ، وغرب عن غرناطة الى مرسية، حتى مات محمد بن يوسف ابن هود بالمرية سنة ٦٣٥ فسرح الى بلده، وتوفى سنة ٦٤٠ «أحمد يوسف نجاتى»

(٣) كذا بالأصل، وأحسبها مصحفة عن «يزرده» أى يجعل سطح مائه كالزرد، وهى الدرع المسرودة – وتشبيه النهر اذا مر فوقه النسيم بالزرد معروف

كَأَنَّمَا ٱلنَّهْرُ صَفْحَةٌ كُتِبَتْ أَسْطُرُهَا ، وَٱلنَّسِيمُ يُنْشِئُهَا
لَمَّا أَبَانَتْ عَنْ حُسْنِ مَنْظَرِهَا مَالَتْ عَلَيْهَا ٱلْغُصُونُ تَقْرَؤُهَا

فَطَرِبَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ . ثُمَّ نَابَ عَنْ أَبِيهِ فِي أَعْمَالِ ٱلْجَزِيرَةِ وَمَازَجَ ٱلْأُدَبَاءَ، وَدَوَّنَ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِهِ ، وَدَخَلَ ٱلْقَاهِرَةَ ، فَصَنَعَ لَهُ أُدَبَاؤُهَا صَنِيعًا فِي ظَاهِرِهَا [1] وَٱنْتَهَتْ بِهِمُ ٱلْفُرْجَةُ إِلَى صِنْوِ [2] نَرْجِسٍ - وَكَانَ فِيهِمْ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ [3] ٱلْجَزَّارُ - فَجَعَلَ يَدُوسُ ٱلنَّرْجِسَ بِرِجْلِهِ ، فَقَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ :

يَا وَاطِئَ ٱلنَّرْجِسِ مَا تَسْتَحِي أَنْ تَطَأَ ٱلْأَعْيُنَ بِٱلْأَرْجُلِ؟!

فَتَهَافَتُوا بِهَذَا ٱلْبَيْتِ وَرَامُوا إِجَازَتَهُ ، فَقَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ :

فَقَالَ : دَعْنِي لَمْ أَزَلْ مُحْنَقًا عَلَى لِحَاظِ ٱلرَّشَإِ ٱلْأَكْحَلِ

وَكَانَ أَمْثَلَ مَا حَضَرَهُمْ - ثُمَّ أَبَوْا أَنْ يُجِيزَهُ غَيْرُهُ ، فَقَالَ:

قَابِلْ جُفُونًا بِجُفُونٍ ، وَلَا تَبْتَذِلِ ٱلْأَرْفَعَ بِٱلْأَسْفَلِ

مألوف، وقد تقدم شيء منه، ومن أشهره :

نسج الريح على الماء زرد أي درع لقتال لو جمد

وزرد الدرع اذا سردها وأحكم نسجها كسرد «أحمد يوسف نجاتي» (١) أي في ضواحيها وخارجها (٢) وفي نسخة «روض» (٣) في الأصل «أبو الحسن» وهو تحريف . «أحمد يوسف نجاتي»

ثُمَّ ٱسْتَدْعَاهُ سَيْفُ ٱلدِّينِ بْنُ سَابِقٍ إِلَى مَجْلِسٍ بِضَفَّةِ ٱلنِّيلِ مَبْسُوطٍ بِالْوَرْدِ ، وَقَدْ قَامَتْ حَوْلَهُ شَمَّامَاتُ نَرْجِسٍ فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

مَنْ فَضَّلَ ٱلنَّرْجِسَ فَهْوَ ٱلَّذِي ... يَرْضَى بِحُكْمِ ٱلْوَرْدِ إِذْ يَرْأَسُ

أَمَا تَرَى ٱلْوَرْدَ غَدَا قَاعِدًا ... وَقَامَ فِي خِدْمَتِهِ ٱلنَّرْجِسُ ؟!

وَوَافَقَ ذَلِكَ مَمَالِيكَ ٱلتُّرْكِ وُقُوفًا فِي ٱلْخِدْمَةِ عَلَى عَادَةِ ٱلْمَشَارِقَةِ ـ فَطَرِبَ ٱلْحَاضِرُونَ . وَلَقِيَ بِمِصْرَ أَيْدَمُرَ ٱلتُّرْكِيَّ(١) وَٱلْبَهَاءَ زُهَيْرًا(٢) وَجَمَالَ ٱلدِّينِ بْنَ مَطْرُوحٍ(٣)

(١) الأمير الكبير عز الدين أيدمر الظاهرى الذى كان نائب دمشق فى دولة مخدومه، حبس مدة ثم أطلق، وتوفى سنة ٧٠٠ عن سن عالية . « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى الصاحب المنشىء أبو الفضل وأبو العلاء الأزدى المهلبى المكى ثم القوصى ، الكاتب الشاعر الرقيق المشهور ، ولد سنة ٥٨١ وكتب الانشاء للملك الصالح نجم الدين بيلاد المشرق، ثم لما ولى السلطنة بلغه أعلى المراتب، وأنفذه رسولا، ثم لما مرض بالمنصورة تغير عليه وأبعده ،لأنه كان سريع التخيل والغضب، يعاقب على ما يتوهمه، ثم اتصل البهاء زهير بالناصر صاحب الشام ، وله فيه مدائح عذبة رقيقة سهلة سلسة، وكان ذا مروءة ومكارم أخلاق، وديوان شعره مشهور متداول. وفيه السهل الممتنع وتوفى سنة ٦٥٦ ودفن بقرب الامام الشافعى رحمه الله « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) جمال الدين الأمير الصاحب أبو الحسين يحيى بن عيسى بن ابراهيم بن مطروح المصرى الشاعر ، الرقيق الرائق الديباجة، ولد بأسيوط سنة ٥٩٢

وَٱبْنَ يَغْمُورَ(١) وَغَيْرِهِمْ ، وَرَحَلَ صُحْبَةَ كَمَالِ ٱلدِّينِ بْنِ ٱلْعَدِيمِ(٢) إِلَى حَلَبَ ، فَدَخَلَ عَلَى ٱلنَّاصِرِ صَاحِبِ حَلَبَ(٣)

ونشأ هناك ، وتنقلت به الأحوال والخدم والولايات حتى اتصل بخدمة الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب ـ وكان اذ ذاك نائبا عن أبيه بالديار المصرية ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد الشرقية سير اليها ولده الملك الصالح نائبا عنه، فكان ابن مطروح فى خدمته، ولم يزل يتنقل فى تلك البلاد حتى وصل الملك الصالح مالكا لها فى أواخر سنة ٦٣٧ فرتبه السلطان نائبا فى الخزانة فى سنة ٦٣٩ ولم يزل يقرب منه ويحظى عنده الى ان ملك الصالح دمشق سنة ٦٤٣ فكان ابن مطروح فى صورة وزير لها ، ومضى اليها فحسنت حاله، وارتفعت منزلته، ثم توجه اليها الصالح سنة ٦٤٦ وجهز عسكرا الى حمص لاستنقاذها من نواب الملك الناصر، فعزل ابن مطروح عن ولايته بدمشق ، وسيره مع العسكر، ثم بلغه أن الأفرنج قد اجتمعوا فى جزيرة قبرس على عزم القصد الى الديار المصرية، فأرسل الى الجيش المحاصر مدينة حمص وأمرهم بالعودة لحماية مصر والمدافعة عنها، فعاد العسكر وابن مطروح فى الخدمة والملك الصالح متغير عليه لأمور يعلمها منه ، ولما توفى الملك الصالح وصل ابن مطروح الى مصر ،وأقام بداره الى أن توفى سنة ٦٤٩ وكان ذا أخلاق مرضية، وديوان شعره مشهور . « أحمد يوسف نجاتى »(١) جمال الدين موسى بن يغمور الباروقى، ولد بالصعيد سنة ٥٩٩ وكان من جلة الأمراء ، ولى مصر ونيابة الشام ،وتوفى سنة ٦٦٣ وتقدم تعريفنا به . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) فى الأصل « ابن القيم » وهو تصحيف ، وهو الصاحب العلامة كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة العقيلى ، ناب فى سلطنة دمشق، وتوفى بمصر سنة ٦٦٠ وقد تقدم تعريفنا به . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) هو الناصر صلاح الدين يوسف ابن عبد العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين ، ولد سنة ٦٢٧ وتولى السلطنة بعد أبيه سنة ٦٣٤ طفلا، ودبر المملكة سيف الدين لولو ، ثم

فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً أَوَّلُهَا :

جُدْ لِي بِمَا لَقِيَ الْخَيَالُ مِنَ الْكَرَى
لَا بُدَّ لِلضَّيْفِ الْمُلِمِّ مِنَ الْقِرَى

فَقَالَ كَمَالُ الدِّينِ: هَذَا رَجُلٌ عَارِفٌ وَرَّى بِمَقْصُودِهِ مِنْ أَوَّلِ كَلِمَةٍ ـ وَهِيَ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ ـ فَاسْتَجْلَسَهُ (١) السُّلْطَانُ وَسَأَلَهُ عَنْ بِلَادِهِ وَمَقْصُودِهِ بِرِحْلَتِهِ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ جَمَعَ كِتَابًا فِي الْحُلَى الْبِلَادِيَّةِ وَالْعُلَى الْعِبَادِيَّةِ الْمُخْتَصَّةِ بِالْمَشْرِقِ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمَّاهُ «الْمُشْرِقَ فِي حُلَى الْمَشْرِقِ» وَجَمَعَ مِثْلَهُ فَسَمَّاهُ «الْمُغْرِبَ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ» فَقَالَ: نُعِينُكَ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ الْخَزَائِنِ وَنُوَصِّلُكَ إِلَى مَا لَيْسَ عِنْدَنَا كَخَزَائِنِ الْمَوْصِلِ وَبَغْدَادَ، وَتُصَنِّفُ لَنَا الْمُغْرِبَ، فَخَدَمَ عَلَى عَادَتِهِمْ، وَقَالَ: أَمْرُ مَوْلَايَ بِذَلِكَ إِنْعَامٌ وَتَأْنِيسٌ، ثُمَّ قَالَ لَهُ السُّلْطَانُ مُدَاعِبًا: إِنَّ شُعَرَاءَنَا مُلَقَّبُونَ بِأَسْمَاءِ الطُّيُورِ، وَقَدِ اخْتَرْتُ لَكَ لَقَبًا يَلِيقُ بِحُسْنِ صَوْتِكَ وَإِيرَادِكَ لِلشِّعْرِ، فَإِنْ كُنْتَ تَرْضَى بِهِ، وَإِلَّا لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرُنَا ـ وَهُوَ الْبُلْبُلُ، فَقَالَ: قَدْ رَضِيَ الْمَمْلُوكُ

شب فدبر المملكة أحسن تدبير، وكان حسن الأخلاق محببا الى الرعية، وفي سنة ٦٥٩ . « أحمد يوسف نجاتى » (١) فى الأصل «فاستجلبه» وأراها مصحفة وهو ظاهر . « أحمد يوسف نجاتى » .

يَاخُوَنْدُ (١) فَتَبَسَّمَ ٱلسُّلْطَانُ، وَقَالَ لَهُ أَيْضًا يُدَاعِبُهُ: ٱخْتَرْ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ؛ إِمَّا ٱلضِّيَافَةَ ٱلَّتِي ذَكَرْتَهَا أَوَّلَ شِعْرِكَ، وَإِمَّا جَائِزَةَ ٱلْقَصِيدَةِ، وَإِمَّا حَقَّ ٱلِاسْمِ، فَقَالَ: يَاخُوَنْدُ، ٱلْمَمْلُوكُ مِمَّنْ لَا يَخْتَنِقُ بِعَشْرِ لُقَمٍ، لِأَنَّهُ مَغْرِبِيٌّ أَكُولٌ، فَكَيْفَ بِثَلَاثٍ؟ فَطَرِبَ ٱلسُّلْطَانُ، وَقَالَ: هَذَا مَغْرِبِيٌّ ظَرِيفٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ مِنَ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْخِلَعِ وَٱلتَّوَاقِيعِ بِٱلْأَرْزَاقِ مَا لَا يُوصَفُ وَلَقِيَ بِحَضْرَتِهِ عَوْنَ ٱلدِّينِ ٱلْعَجَمِيَّ (٢) ــ وَهُوَ بَحْرٌ لَا تَنْزِفُهُ ٱلدِّلَاءُ ــ وَٱلشِّهَابَ ٱلتَّلَّعْفَرِيَّ (٣) وَٱلتَّاجَ بْنَ شُقَيْرٍ، وَٱبْنَ نُجَيْمٍ ٱلْمَوْصِلِيَّ، وَٱلشَّرَفَ بْنَ سُلَيْمَانَ ٱلْإِرْبِلِيَّ (٤) وَطَائِفَةً مِنْ بَنِي ٱلصَّاحِبِ (٥). ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى دِمَشْقَ، وَدَخَلَ ٱلْمَوْصِلَ وَبَغْدَادَ

---

(١) كلمة تركية معناها « أمير ، عظيم ، كبير ، سيد » (٢) أظنه عبد الملك ابن العجمى الحلبى، كان فاضلا أديبا شاعرا مجيدا رقيقا، توفى سنة ٦٧٤ وابن العجمى أبو طالب عبد الرحمن بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن الحلبى، درس وأفتى ، وعذبه التتار على المال حتى مات سنة ٦٥٨ (٣) هو شهاب الدين محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى الأديب الشاعر المشهور، مدح الملوك والأمراء، وسار شعره فى الآفاق، وديوان شعره معروف توفى سنة ٦٧٥ وهو منسوب الى « التل الأعفر » موضع بنواحى الموصل « أحمد يوسف نجاتى » (٤) فى نسخة : ابن « بلبان » وهو الأديب شرف الدين سليمان بن سليمان بن أبى الجيش الأربلى الشاعر المشهور، كان أحد ظرفاء العالم ، توفى بدمشق سنة ٦٨٦ عن تسعين سنة « أحمد يوسف نجاتى » (٥) يريد الصاحب كمال الدين ابن العديم المتقدم، ومن بنيه الصاحب قاضى

وَدَخَلَ مَجْلِسَ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْمُعَظَّمِ (١) بِدِمَشْقَ ، وَحَضَرَ مَجْلِسَ خَلْوَتِهِ . وَكَانَ ٱرْتِحَالُهُ إِلَى بَغْدَادَ فِي عَقِبِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ فِي رِحْلَتِهِ ٱلْأُولَى إِلَيْهَا ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى ٱلْبَصْرَةِ ، وَدَخَلَ أَرَّجَانَ (٢) وَحَجَّ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى ٱلْمَغْرِبِ ، وَقَدْ صَنَّفَ فِي رِحْلَتِهِ مَجْمُوعًا سَمَّاهُ « بِالنَّفْحَةِ ٱلْمِسْكِيَّةِ فِي ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَكِّيَّةِ » وَكَانَ نُزُولُهُ بِسَاحِلِ مَدِينَةِ إِقْلِيبِيَةَ (٣) مِنْ إِفْرِيقِيَّةَ فِي إِحْدَى جُمَادَيَيْ سَنَةِ ٱثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَٱتَّصَلَ

القضاة مجد الدين أبو المجد عبد الرحمن، كان صدرا مهيبا، عالى الهمة والرتبة أديبا، توفى سنة ٦٧٧ والصاحب جمال الدين أبو غانم محمد انتهت اليه رياسة الخط المنسوب، وتوفى سنة ٦٩٤ وقد سبق تعريفنا بالصاحب كمال الدين بن العديم وبنيه وأسرته «أحمد يوسف نجاتى » (١) تقدم التعريف بالملك المعظم عيسى بن العادل سلطان الشام المتوفى سنة ٦١٤ والملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، أدركته حرفة الأدب كما أدركت ابن المعتز، فقد كان أديبا رقيقا ذكيا، وتوفى سنة ٦٤٨ « أحمد يوسف نجاتى » والملك المعظم أبو المفاخر صلاح الدين توران شاه ولد سنة ٥٧٧ وكان كبير البيت الأيوبى، وكان السلطان يجله ويتأدب معه، سلم قلعة حلب لما عجز بالأمان ، وأدركه الموت أثر ذلك ، فتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨ « أحمد يوسف نجاتى » . (٢) مدينة مشهورة بفارس ، بينها وبين شيراز نحو ستين فرسخا ، وكذلك بينها وبين سوق الأهواز ، فهى متوسطة بينهما ، ويقرب منها شعب بوان النزه الذى كان يعد من جنات الدنيا ، وينسب الى أرجان القاضى أبو بكر أحمد ابن محمد بن الحسين الأرجانى الشاعر المشهور المتوفى سنة ٥٤٤ « أحمد يوسف نجاتى » (٣) إقليبية حصن منيع بافريقية قرب قرطاجنة مطل

بِخِدْمَةِ الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللهِ الْمُسْتَنْصِرِ [١] ، فَنَالَ الدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ مِنْ حُظْوَتِهِ ، حَدَّثَنِي شَيْخُنَا الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرِ بْنُ الْحَكِيمِ أَنَّ الْمُسْتَنْصِرَ جَفَاهُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ وَقَدْ أَسَنَّ لِجَرَّاءِ خِدْمَةٍ مَالِيَّةٍ أَسْنَدَهَا إِلَيْهِ ـ وَقَدْ كَانَ بَلَاءُ [٢] مِنْهُ قَبْلَ جَفْوَةٍ أَعْقَبَهَا انْتِشَالٌ وَعِنَايَةٌ ـ فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِنَظْمٍ مِنْ جُمْلَتِهِ « لَا تَرُعْنِي بِالْجَفَا ثَانِيَةً » فَرَقَّ لَهُ ، وَعَادَ إِلَى حُسْنِ النَّظَرِ فِيهِ ، إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ تَحْتَ بِرٍّ وَعِنَايَةٍ . وَمَوْلِدُهُ بِغَرْنَاطَةَ لَيْلَةَ الْفِطْرِ سَنَةَ عَشْرٍ وَسِتِّمِائَةٍ [٣] وَوَفَاتُهُ بِتُونِسَ فِي حُدُودِ سَنَةِ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . انْتَهَى بِاخْتِصَارٍ . وَذَكَرْتُ حِكَايَةَ إِجَازَةِ بَيْتِهِ فِي

على البحر، قالوا لما أرادوا بناءه نقبوا فى الجبل، وجعلوا يقلبون حجارته فى البحر من أعلى الجبل، فسمى إقليبية اهـ ياقوت (١) هو أبو عبد الله محمد المستنصر بالله بن الأمير أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى الهنتانى « من فروع الموحدين بالمغرب، وجد هؤلاء الملوك من أصحاب المهدى فى العشرة الذين هبوا لبيعته، وصحبوه فى غربته » بويع بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧ ودخل تونس فى شهر رجب من هذه السنة فجدد بيعته بها، وهو أول من تلقب من الحفصيين بألقاب الخلافة، وانتهى أمره الى أن بويع له بمكة المعظمة، وبعث بالبيعة اليه، وكان ملكا سائسا عالى الهمة شديد البأس جوادا ممدحا، وقام بالأمر بعده ابنه أبو زكريا يحيى بن محمد واستولى على ما كان بيد أبيه من المغرب الأوسط ببجاية وقسنطينة، وفتح الجزائر، وتوفى سنة ٦٧٥ « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تجربة واختبارا (٣) فى كثير من المراجع ان مولد ابن سعيد كان فى سنة ٦١٥ « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلنَّرْجِسِ - وَإِنْ تَقَدَّمَتْ - لِاتِّصَالِ ٱلْكَلَامِ . قُلْتُ: قَدْ كُنْتُ وَقَفْتُ عَلَى بَعْضِ دِيوَانِ شِعْرِهِ ٱلْمُتَعَدِّدِ ٱلْأَسْفَارِ ، وَنَقَلْتُ مِنْهُ قَوْلَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ يُهَنِّئُ ٱبْنَ عَمِّهِ ٱلرَّئِيسَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ بْنَ ٱلْحُسَيْنِ بِقُدُومِهِ(١) مِنْ حَرَكَةِ هَوَّارَةَ :

أَمَا وَاجِبٌ أَلَّا يَحُولَ وَجِيبُ
وَقَدْ بَعُدَتْ دَارٌ وَحَانَ حَبِيبُ ؟!(٢)

وَلَيْسَ أَلِيفٌ غَيْرُ ذِكْرٍ وَحَسْرَةٍ
وَدَمْعٍ عَلَى مَنْ لَا يَرِقُّ صَبِيبُ(٣)

وَخَفْقُ فُؤَادٍ إِنْ هَفَا ٱلْبَرْقُ خَافِقاً
وَشَوْقٌ كَمَا شَاءَ ٱلْهَوَى وَنَحِيبُ

وَيَعْذِلُنِي مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَا ٱلْهَوَى
وَعَذْلُ مَشُوقٍ فِي ٱلْبُكَاءِ عَجِيبُ

أَلَا تَعِسَ ٱللُّوَّامُ فِي ٱلْحُبِّ، قَدْ عَمُوا
وَصَمُّوا ، وَدَائِي لَيْسَ مِنْهُ طَبِيبُ

---

(١) هو محمد بن الحسين بن سعيد بن الحسين بن سعيد بن خلف بن سعيد ،وستأتى ترجمته ـ وهوارة من قبائل البربر (٢) وجب القلب يجب وجيبا : اذاخفق واضطرب (٣) صبيب بمعنى مصبوب: أى مراق وسائل جار

يَرُومُونَ أَنْ يَثْنِي الْمَلَامُ صَبَابَتِي
وَلَسْتُ إِلَى دَاعِي الْمَلَامِ أُجِيبُ
وَفَائِي إِذَا مَا غِبْتُ عَنْكُمْ مُجَدَّدٌ
وَغَيْرِيَ ذُو غَدْرٍ أَوانَ يَغِيبُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنِّي الْوَفَاءُ سَجِيَّةً
لَكُنْتُ لِغَيْرِ ابْنِ الْحُسَيْنِ أُنِيبُ (١)
سَمَوْءَلُ هَذَا الْعَصْرِ حَاتِمُ جُودِهِ
مُهَلَّبُهُ إِنْ مَارَسَتْهُ حُرُوبُ (٢)
فَتًى سَيَّرَ الْأَمْدَاحَ شَرْقاً وَمَغْرِباً
أَبُو دُلَفٍ مِنْ دُونِهِ وَخَصِيبُ (٣)

(١) أرجع وأعود فى النسب (٢) السموءل بن عادياء مضرب المثل فى الوفاء، كحاتم الطائى فى الكرم ، والمهلب بن أبى صفرة من أعظم قواد بنى أمية وأخبرهم بأساليب الحرب ،وكان من أشجع الناس ، وهو الذى حمى البصرة من الخوارج ، وله معهم وقائع مشهورة،وكان سيدا جليلا نبيلا،وتوفى سنة ٨٢ هـ « أحمد يوسف نجاتى » (٣) أبو دلف العجلى هو القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل – ينتهى نسبه الى عجل بن لجيم بن صعب بن على ابن بكر بن وائل – أحد قواد المأمون والمعتصم ، وكان كريما سريا شجاعا مقدما جوادا، مدحه كثير من الشعراء مثل « العكوك » على بن جبلة وبكر بن النطاح ، وأبى عبد الله أحمد بن أبى فنن صالح مولى بنى هاشم وغيرهم ، وله وقائع مشهورة ، وصنائع مأثورة ، وتوفى سنة ٢٢٦ ببغداد

إِذَا رَقَمَ الْقِرْطَاسَ قُلْتَ ابْنُ مُقْلَةٍ
وَإِنْ نَظَمَ الْأَشْعَارَ قُلْتَ حَبِيبُ (١)
وَإِنْ نَثَرَ الْأَسْجَاعَ قُلْتَ سَمِيُّهُ
وَإِنْ سَرَدَ التَّارِيخَ قُلْتَ عَرِيبُ (٢)

والخصيب بن عبد الحميد كان عامل الخراج بمصر زمن هرون الرشيد وقد قصده أبو نواس ومدحه بقصائد غراء « أحمد يوسف نجاتى »

(١) رقم: وشى ونقش وزين ، وابن مقلة: هو أبو على محمد بن على بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور، استوزره الأمام المقتدر بالله الخليفة العباسى سنة ٣١٦ وتنقلت به الأحوال والحوادث حتى وزر للامام القاهر بالله سنة ٣٢٠ وبعد حوادث وخطوب استوزره الأمام الراضى بالله سنة ٣٢٢ ولاقى حوادث وأيام شدة ورخاء حتى توفى سنة ٣٢٨ وكان مولده سنة ٢٧٢ ببغداد، وكان مضرب المثل فى جودة الخط وحسنه ، أديبا بليغا له كل معنى بديع فى النظم والنثر، ومدحه ابن الرومى وغيره. وحبيب بن أوس هو أبو تمام الطائى الشاعر المشهور، توفى سنة ٢٣١ بالموصل « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) أبو مروان عريب بن محمد بن مطرف بن عريب من أهل قرطبة كان من أهل الأدب والمعرفة، حسن الايراد للأخبار ، وله مختصر تاريخ الطبرى، واستقضى بالفتنة على كورة رية، وقتل خطأ على باب داره سنة ٤٠٩ رحمه الله، ويريد بسميه آخر صدر البيت المسمى باسمه: وهو أبو الفضل محمد بن الحسين بن محمد المعروف بابن العميد الكاتب القدير المشهور وزير ركن الدولة بن بويه، توفى سنة ٣٦٠ هذا وفى الأصل تصحيفان فاسدان، فقد جعل سميه « سمية » و « عريب » فى آخر البيت « غريب » هكذا بنقط جعلت كل كلمة منهما عمياء أو عوراء . « أحمد يوسف نجاتى »

وَمَا أَحْرَزَ ٱلصُّولِيُّ آدَابَهُ ٱلَّتِي
إِذَا مَا تَلَاهَا لَمْ يُجِبْهُ أَدِيبُ (١)

وَمِنْهَا :

وَأَمَّا إِذَا مَا ٱلْحَرْبُ أَخْمَدَ نَارَهَا
فَفِيهِ تَلَظِّي مَارِجٍ وَلَهِيبُ (٢)

فَكَمْ قَارَعَ ٱلْأَبْطَالَ فِي كُلِّ وِجْهَةٍ
نَحَاهَا ، وَكَمْ لُفَّتْ عَلَيْهِ حُرُوبُ

وَكَائِنْ لَهُ بِالْغَرْبِ مِنْ مَوْقِفٍ لَهُ
حَدِيثٌ إِذَا يُتْلَى تَطِيرُ قُلُوبُ

بِعُرَّا كُشٍ سَلْ عَنْهُ تَعْلَمْ غَنَاءَه
وَقَدْ سَاءَهُمْ يَوْمٌ هُنَاكَ عَصِيبُ (٣)

---

(١) الصولى هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين الكاتب المشهور ، كان أحد الأدباء الفضلاء ذوى البلاغة والنظم والنثر نادم من خلفاء بنى العباس الراضى والمكتفى والمقتدر ، وله التصانيف الممتعة المشهورة فى الأدب ، وكانت له رواية متسعة ومحفوظات كثيرة ، توفى سنة ٣٣٥ وعم والده هو ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول تكين الأديب الكاتب الشاعر المجيد ، أشعر نظرائه الكتاب وأدقهم لسانا ، توفى سنة سنة ٢٤٣ والصولى نسبة الى جده صول ، أصله تركى ، وكان ملك جرجان ، وأسلم على يد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة أيام فتحه جرجان « أحمد يوسف نجاتى » (٢) المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد ، وتلظى النار شدة تلهبها واشتعالها (٣) الغناء

إِذَا مَا ثَنَى ٱلرُّمْحَ ٱلطَّوِيلَ كَأَنَّهُ
مُدِيرٌ لِغُصْنِ ٱلْخَيْزُرَانِ لَعُوبُ (١)

وَإِنْ جَرَّهُ أَبْصَرْتَ نَجْمًا مُجَرَّرًا
ذُؤَابَتَهُ مِنْهُ ٱلْكُمَاةُ تَذُوبُ (٢)

يَهِيمُ بِهِ، مَا إِنْ يَزَالُ مُعَانِقًا
لَهُ رَا كِعَاتٍ مَا تَحُوزُ كُعُوبُ (٣)

مُحَمَّدُ، لَا تُبْدِ ٱلَّذِى أَنْتَ قَادِرٌ
عَلَيْهِ، وَخَفْ عَيْنًا عُلَاكَ تُصِيبُ

الكفاية والنفع، وفى الأصل «عناء» مصحفة، وعصيب: أى شديد يعصب فيه الريق: أى يجف (١) يقول انه لفرط شجاعته يستهين بالحرب حتى كأن طعنه بالرماح لعب بعصا خيرزان فى يده. «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) أراد بالنجم سن الرمح وبذؤابته قناته، والكماة: الشجعان، جمع كمى

(٣) وعجز البيت فى نسخة هكذا: له را كعا فيما تحوز كعوب، وأحسبه يريد أن يقول ان قناة الرمح وأنابيبه تركع للمدوح، شبه انحناء الرمح وتثنيه وميله اذا تقلده ابن عمه بركوعه خضوعا منه واجلالا له — والكعوب جمع كعب، وهو عقدة ما بين الأنبوبين من القناة والقصب، أو هو أنبوب بين كل عقدتين، ويقال: قناة لدنة الكعوب — وكل شئ علا وارتفع فهو كعب — وقد تكون «تحوز» مصحفة عن «تحور» أى ترجع أى أنها لا تنفك عن ركوعها مع علوها ورفعتها، ولعل هذا كناية عن دوام استعمال الرمح والطعن به وتوجيهه صوب الأعداء، فجعل هذا ركوعا ولا يخفى ما فى البيت من القلق والتكلف والتعسف. «أحمد يوسف نجاتى»

نُفُوذُ سِهَامِ ٱلْعَيْنِ أَوْدَى بِمُصْعَبٍ
وَطَاحَ بِهِ بَعْدَ ٱلشُّبُوبِ شَبِيبُ (١)

(١) مصعب بن الزبير أخو عبدالله بن الزبير بن العوام وعضده الأيمن، ولاه أخوه عبدالله المدينة سنة ٦٥ وفى سنة ٦٧ ولاه البصرة، ثم سار مصعب الى المختار بن أبى عبيد الثقفى فقتله، وكان مصعب أميرا على العراق من قبل أخيه سنة ٦٨ وفى سنة ٧١ سار عبد الملك بن مروان الى العراق لحرب مصعب بن الزبير، فكانت بينها وقائع مشهورة أبلى فيها مصعب بلاء حسنا حتى قتل مثخنا بالجراح رحمه الله، وقد أسلمه أهل العراق، وخذله أهل الكوفة، وباعوه بأبخس ثمن، وهو فارس مغوار، وبطل نجد، وشجاع مجرب، وفيه يقول الفرزدق من أبيات :

فما ظنكم بابن الحوارى مصعب   اذا افترعن أنيابه غير ضاحك ؟!

وكان أبوه الزبير أشجع قريش ، وقتل مع مصعب ابنه عيسى بن مصعب. ومصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام كان فقيها محدثا توفى سنة ١٥٧ـ وحفيده مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت أبو عبد الله المدنى روى الموطأ عن مالك وكان محدثا ثقة توفى سنة ٢٣٣ ـ أما شبيب بن يزيد فهو أمير الخوارج ومن فرسانهم المشهورين ، وكانوا قد بايعوه ولقبوه أمير المؤمنين ، ودخل الكوفة سنة ٧٦ ومعه زوجه غزالة ، وكانت ذات شجاعة وجرأة، وكانت بينه وبين الحجاج حروب ظهرت فيها شجاعة الخوارج وشدة أميرهم شبيب وقوة بأسه ، وبعث له الحجاج عتاب بن ورقاء الرياحى فلقيه شبيب بسواد الكوفة فقتله وهزم جيشه، فجهز له الحرث بن معاوية الثقفى، فقتله شبيب أيضا، وكذا قتل من وجهه الحجاج اليه بعدهما، ففرق الحجاج وسار بنفسه، فاقتتلوا أشد قتال، وتكاثروا على شبيب فانهزم، وقتلت زوجه غزالة بعد أن قاتلت قتالا عجز عنه فحول الشجعان، ونجا شبيب بنفسه متنقلا من مكان الى آخر، ثم عبر على نهر دجيل ، فقطع به الجسر فغرق وعليه الحديد الثقيل فى سنة ٧٧ أو سنة ٧٨ ـ وأراد بالشبوب شهرة الذكر وارتفاع

أَلا فَهَنِيئاً أَنْ رَجَعْتَ لِتُونُسٍ
فَأَطْلَعْتَ شَمْسًا وَالسِّفَارُ غُرُوبُ(١)

كَوَاكِبُهَا تَبْدُو إِذَا مَا تَرَكْتَهَا
وَقَدْ جَعَلَتْ مَهْمَا حَضَرْتَ تَغِيبُ(٢)

إِذَا سُدْتَ فِي أَرْضٍ فَغَيْرُكَ تَابِعٌ
عُلَاكَ ، وَمَهْمَا سَادَ فَهُوَ مُرِيبُ(٣)

وَمِنْهَا :

كَفَانِيَ أَنِّي أَسْتَظِلُّ بِظِلِّكُمْ
وَمَنْ هَابَ ذَاكَ الْمَجْدَ فَهُوَ مَهِيبُ

فَأَصْلُكَ أَصْلِي ، وَالْفُرُوعُ تَبَايَنَتْ
بَعِيدٌ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَقَرِيبُ

القدر، من شبت النار اذا اتقدت وارتفع لهبها ، ويقال: شبت نار فلان: اذا سار ذكره، وارتفع قدره، وعلا أمره — وطاح به أي هلك «أحمد يوسف نجاتي»
(١) السفار بمعنى السفر ، وهو مصدر سافر ، يريد أن بعده عن تونس غروب لشمسها، ووجوده فيها طلوع لتلك الشمس، وفي الأصل وغيره «الشفار» وهو تصحيف لا معنى له . « أحمد يوسف نجاتي » (٢) يكنى عن اشتداد الأمر وعظم الخطب، أو يريد معنى قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر :

فانك شمس، والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

(٣) أراب: اذا كان موضعا للريب أي التهمة والظن والشك ، يعني أن غيره ليس أهلا للسيادة ، وفي بعض المراجع « غريب » بدل « مريب » .

وَحَسْبِيَ فَخْرًا أَنْ أَقُولَ مُحَمَّدٌ
نَسِيبُ عَلِيٍّ جَلَّ مِنْهُ نَصِيبُ
تَرَكْتُ جَمِيعَ ٱلْأَقْرَبِينَ لِقَصْدِهِ
عَلَى حِينَ حَانَتْ فِتْنَةٌ وَخُطُوبُ
رَأَيْتُ بِهِ جَنَّاتِ عَدْنٍ، فَلَمْ أُبَلْ
إِذَا أَوْصَلَتْنَا لِلْخُلُودِ شَعُوبُ (١)
فَقَبَّلْتُ كَفًّا لَا أُعَابُ بِلَثْمِهَا
وَأَيْدِي ٱلْأَيَادِي لَثْمُهُنَّ وُجُوبُ (٢)
وَكَيْفَ! وَلَيْسَ ٱلرَّأْسُ كَالرِّجْلِ؟! فَرَّقَتْ
شِيَاتٌ لَعَمْرِي بَيْنَنَا وَضُرُوبُ (٣)

(١) لم أبل : أصله « لم أبال » أجرى مجرى الأجوف « نحو لم أقم » تنزيلا لألف فاعل الزائدة فى بالى منزلة ألف أقام الأصلية فحذفت وجزم بسكون اللام ـ وذلك عمل سائغ سائغ بكثرة فى هذه الكلمة « لم أبل » وشعوب علم على المنية أى الموت « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) يريد بالأيادى العطايا والنعم والمنن، كما تستعمل اليد مجازا أيضا بمعنى القدرة والقوة «أحمد يوسف نجاتى» (٣) شيات : جمع شية، وأصله فرند السيف ونقشه الذى فى متنه ، من وشى الثوب يشيه وشيا وشية اذا نمنمه ونقشه وحسنه ، وشية الفرس: لون فيه يخالف معظم لونه ، وأظنه يريد هنا بالشيات الشعرات البيض ـ كما يدل البيت السابق المعروف منه أن ابن سعيد الشاعر شاب ، وابن عمه الرئيس الممدوح كبير جلله المشيب ـ ومن المجاز "وشى فيه

وَلَوْ كَانَ قَدْرِي مِثْلَ قَدْرِكَ فِي الْعُلَا
لَحَقَّ بِأَنْ يَعْلُو الشَّبَابَ مَشِيبُ
وَلَوْلَا الَّذِي أُسْمِعْتَ مِنْ مَكْرِ حَاسِدٍ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ وَهْوَ فِيهِ كَذُوبُ
لَمَا كُنْتُ مُحْتَاجًا لِقَوْلِيَ آنِفًا :
تَخَلَّيْتُ مِنْ ذَنْبٍ وَجِئْتُ أَتُوبُ
إِذَا كُنْتُ ذَا طَوْعٍ وَشُكْرٍ وَغِبْطَةٍ
فَمِنْ أَيْنَ لِي يَابْنَ الْكِرَامِ ذُنُوبُ ؟!
لَقَدْ كُنْتُ مُعْتَادًا بِبِشْرٍ ، فَمَا الَّذِي
تَقَلَّدْتَهُ حَتَّى يَزَالَ قُطُوبُ[1] ؟!

الشيب أي ظهر فيه كالشية ، وقد يراد بالشيات والضروب المزايا والفضائل والمناقب التي مازت ابن عمه وفضلته، فكأنها شيات حسية وحلى ظاهرة والضروب: الأنواع والصفات المختلفة ــ وفي بعض النسخ « شتات » ولعله جمع شتيت « كطويل وطوال وظريف وظراف » فيكون الغرض أن ابن عمه قد فضلته مآثر شتى، وضروب من الفضائل والمزايا متنوعة « أحمد يوسف نجاتي » (١) في بعض المراجع : لقد كنت تلقاني الخ ،ولعل « يزال » مصحفة عن « يدال » أي أن القطوب كانت له الدولة بعد البشر، فبدل ابن سعيد قطوبا وعبوسا بعد بشر وايناس ، وهو من قول الشاعر :

وكنت اذا ماجئت قربت مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لي بالعين التي كنت راضيا الي بها في سالف الدهر تنظر ؟!

أَأَنْ رَفَعَ ٱلسُّلْطَانُ سَعْيِي بِقُرْبِكُمْ
أُحَلَّأُ عَنْ وِرْدٍ لَـكُمْ وَأَخِيبُ ؟!(١)

فَأَحْسَبُ ذَنْبِي ذَنْبَ صُحْرٍ بِدَارِهَا
أَلِي ٱلْبِرُّ عِنْدَ ٱلْخَابِرِينَ مَعِيبُ(٢) ؟

وَحَاشَاكَ مِنْ جَوْرٍ عَلَيَّ ، وَإِنَّمَا
أُخَاطِبُ مَنْ أَصْفُو لَهُ فَيَشُوبُ(٣)

وتقلد الذنب: جناه، وأديل فلان من فلان: اذا كانت له الغلبة والدولة عليه « أحمد يوسف نجاتى » (١) حلأه عن الماء والورد: اذا منعه وطرده وذاده عنه ودفعه ، وفى الأصل « أأخلأ » وهو تصحيف وفساد على فساد قل أن تخلو صفحة منه « أحمد يوسف نجاتى » (٢) صحر: اسم لأخت لقمان بن عاد، عوقبت على الاحسان، فضرب بها المثل، فقيل: مالى ذنب الا ذنب صحر ، ويقال ان لقمان خرج هو وابنه لقيم فى اغارة، فأصابا ابلا، فسبق لقيم فأتى منزله فنحرت أخته صحر جزورا من غنيمته، وصنعت منه طعاما تتحف به أباها وتكرمه اذا قدم، فلما قدم لقمان قدمت له الطعام — وكان يحسد لقيما — فلطمها ولم يكن لها ذنب، فضرب بها المثل فيمن يعاقب على بره واحسانه . هذا وفى الأصل « صخر » بدل « صحر » بنقط الحاء، فصارت خاء معجمة أغلق بها المعنى — وكم كان فى هذه القصيدة من تصحيف مفسد وتحريف مشوه نبهنا الى بعضه كما ترى — ومن هذا المعنى قول البحترى :

اذا محاسنى اللاتى أدل بها ... كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذر ؟!

هـذا هو الشعر المطبوع ، لا النظم المتكلف والطريق المتعسف « أحمد يوسف نجاتى» (٣) أى يشوب صفو الوداد والرضا بكدر السخط والغضب وأظنه يعرض فى هذا البيت ببعض أصحابه الذين كانوا سببا فى تغير ابن عمه

صِحَابٌ هُمُ ٱلدَّاءُ ٱلدَّفِينُ ، فَلَيْتَنِي
وَلَمْ أَدْنُ مِنْهُمْ ـ لِلذِّئَابِ صَحُوبُ (١)
كَلاَمُهُمُ شَهْدٌ ، وَلَـكِنَّ فِعْلَهُمْ
كَسُمٍّ لَهُ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ دَبِيبُ
سَأَرْحَلُ عَنْهُمْ وَٱلتَّجَارِبُ لَمْ تَدَعْ
بِقَلْبِي لَهُمْ شَيْئاً عَلَيْهِ أُثِيبُ (٢)
إِذَا ٱغْتَرَبَ ٱلإِنْسَانُ عَمَّنْ يَسُوءُهُ
فَمَا هُوَ فِي ٱلإِبْعَادِ عَنْهُ غَرِيبُ
فَدَارِكْ بِرَأْبٍ مِنْكَ مَا قَدْ خَرَقْتَهُ
لِيَحْسُنَ مِنِّي مَشْهَدٌ وَمَغِيبُ (٣)

وفساد نيته، فهو يخلص لهم الود، وهم يشوبون صفوه بكدر السعاية والوشاية «أحمد يوسف نجاتى» (١) يفضل صحبة الذئاب على بعض الأصحاب، وفى معناه قول أبى فراس الحمدانى :

بمن يثق الانسان فيما ينوبه ؟! ومن أين للحر الكريم صحاب؟!
وقد صار هذا الناس الا أقلهم ذئابا علي أجسادهن ثياب؟!

وقال آخر :

ليت السباع لنا كانت مجاورة وليتنا لانرى فيمن نرى أحدا
ان السباع لتهدا فى أماكنها والناس ليس بهاد شرهم أبدا

ويشكو ابن سعيد من أصحابه الذين هم كالداء الدفين، فهم الذين وشوا به الى ابن عمه، ودبت اليه عقاربهم من حيث لايشعر «أحمد يوسف نجاتى» (٢) أكافئ وأجازى خيرا (٣) رأب الصدع والأناء: أصلحه وشعبه ، ورأب.

وَلا تَسْتَمِعْ قَوْلَ الْوُشَاةِ ، فَإِنَّمَا
عُدُوُّهُمُ بَيْنَ الأَنَامِ نَجِيبُ
فَيَالَيْتَ أَنِّى لَمْ أَكُنْ مُتَأَدِّبًا
وَلَمْ يَكُ لِى أَصْلٌ هُنَاكَ رَسُوبُ !(١)
وَكُنْتُ كَبَعْضِ الْجَاهِلِينَ مُحَبَّبًا
فَهَا أَنَا لِلْهَمِّ الْمُلِمِّ حَبِيبُ(٢)
وَمَا إِنْ ضَرَبْتُ الدَّهْرَ زَيْدًا بِعَمْرِهِ
وَلَمْ يَكُ لِى بَيْنَ الْكِرَامِ ضَرِيبُ(٣)
أَأَشْكُوكَ؟ أَمْ أَشْكُو إِلَيْكَ؟ فَمَا عَدَتْ
عُدَاتِى حَتَّى حَانَ مِنْكَ وُثوب
سَأَشْكُرُ مَا وَلَّى ، وَأَصْبِرُ لِلَّذِى
تَوَالَى ، عَلَى أَنَّ الْعَزَاءَ سَلِيبُ(٤)

مابينهم: أصلح، والمشهد: الحضور، ضد الغيبة (١) أى ثابت راسخ (٢) ويروى
وكنت لبعض الجاهلين مجنبا فهاأنا للهم الملم جنيب
يتمنى لو كان تابعا لبعض الجهلاء ، وجنب الفرس والأسير: قاده الى جنبه، فهو جنيب ومجنوب ومجنب (٣) مثيل وشبيه ونظير، وصدر البيت تبرئة لنفسه عن الغيبة والنميمة، وتنزيه لها عن الوشاية والسعاية (٤) مسلوب مفقود، والعزاء: الصبر ، يريد أنه يشكر الأيادى الماضية ويصبر لما توالى بعدها من حوادث السخط ان قدر على الصبر ، ولكنه عيل صبره، وخانه عزاؤه، لمصائب يعز الصبر عليها، ولا يلام الحر فى الجزع منها ، وفى الأصل « أولى » بدل «ولى» وهو بمعنى ماتقدم . « أحمد يوسف نجاتى »

فَدُمْ فِي سُرُورٍ مَا بَقِيتَ ، فَإِنَّنِي
وَحَقِّكَ مُذْ دَبَّ ٱلْوُشَاةُ كَئِيبُ

قَالَ وَكَانَ سَبَبَ ٱلتَّغَيُّرِ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱبْنِ عَمِّي ٱلرَّئِيسِ ٱلْمَذْكُورِ أَنَّ مَلِكَ إِفْرِيقِيَّةَ[1] ٱسْتَوْزَرَ لِأَشْغَالِ ٱلْمُوَحِّدِينَ

(١) يريدالأمير أبا زكريا يحي بن أبي محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص عمرالهنتاني الحفصي،وهو الذي استبد على بني عبد المؤمن بن علي،ودانت له عواصم ملكهم وقرارةعزهم، وقويت شوكته حتى تم لهملك المغرب،وبعث اليهبالطاعة سنة ٦٢٤ أهل اشبيليةوأهل سبتة، وبعث اليه أبو علي بن خلاص صاحب سبتة بهدية مع ابنه في أسطول أنشأه لذلك ،فغرق عند اقلاعه من المرسى، وفي سنة٦٢٧ استبد الأميرأبو زكريا بافريقية،وخلع طاعة الموحدين وبايعهأهل مكناسة سنة ٦٤٣ بايعه بها الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني مع أن دولة بني أبي حفص أصحاب تونس وافريقية انما كانت فرعا من دولة بني عبد المؤمن وشعبة منها « وهنتانة من صميم قبائل المصامدة وذؤابتها ، وتوفي السلطان يحي هذا سنة ٦٤٧ . وكان الشيخ أبو محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص الهنتاني في سنة ٦١٠ صاحب افريقية ؛ وكان أولا وزيرأبي يوسف يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي بويع بعد وفاة والده سنة ٥٨٠ وتوفي سنة ٥٩٥ وكان أبو يحي بن أبي حفص كبير وزرائه — وفي سنة ٦١٨ توفي صاحب افريقية الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، فبايع الموحدون بافريقية ابنه أبا زيد عبد الرحمن فقام بالأمر،وأطفأ النائرة، وأفاض العطاء، ومهد النواحي،ورتب الأمور، حتى ورد كتاب السلطان يوسف المنتصر — الذي بويع سنة ٦١٠ وتوفي سنة ٦٢٠ من مراكش لثلاثة أشهر من ولايته— بتأخيره وتولية السيد أبي العلاء الأكبر مكانه — وهو ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن— فقدم افريقية أواخر سنة ٦١٨ وأقام بها حتى توفي بتونس سنة ٦٢٠ واستولى على افريقية بعده ابنه أبو زيد

أَبَا ٱلْعُلَى إِدْرِيسَ بْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي ٱلْعَلَاءِ بْنِ جَامِعٍ[1] فَاشْتَمَلَ عَلَيَّ، وَأَوْلَانِي مِنَ ٱلْبِرِّ مَا قَيَّدَنِي وَأَمَالَ قَلْبِي إِلَيْهِ مَعَ تَأْكِيدِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱبْنِ عَمِّي مِنَ ٱلصُّحْبَةِ، فَلَمْ يَزَلْ يَنْهَضُ بِي، وَيَرْفَعُ أَمْدَاحِي لِلْمَلِكِ، وَيُوَصِّلُ إِلَيْهِ رَسَائِلِي مُنَبِّهًا عَلَى ذَلِكَ مُرَشِّحًا، إِلَى أَنْ قَبَضَ ٱلْمَلِكُ عَلَى كَاتِبِ عَسْكَرِهِ وَكَانَ يَقْرَأُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُتُبَ ٱلْمَظَالِمِ - فَاحْتِيجَ إِلَى مَنْ يَخْلُفُهُ فِي ذَلِكَ، فَنَبَّهَ ٱلْوَزِيرُ عَلَيَّ، وَٱرْتَهَنَ فِيَّ، مَعَ أَنِّي كُنْتُ مِنْ كُتَّابِ ٱلْمَلِكِ، فَقَلَّدَنِي قِرَاءَةَ ٱلْمَظَالِمِ ٱلْمَذْكُورَةِ، وَسَفَّرَ لِي ٱلْوَزِيرُ عِنْدَهُ فِي دَارِ ٱلْكَاتِبِ ٱلْمُؤَخَّرِ، فَأَنْعَمَ بِهَا، فَوَجَدَ ٱلْوُشَاةُ مَكَانًا مُتَّسِعًا لِلْقَوْلِ فَقَالُوا، وَزَوَّرُوا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُخْتَلَقَةِ مَا مَالَ بِهَا حَيْثُ مَالُوا، وَظَهَرَ مِنْهُ مَخَايِلُ[2] ٱلتَّغْيِيرِ

ادريس، وساءت سيرته فى الناس، وأقام على ذلك الى دولة العادل - عبدالله بن المنصور الذى بويع فى صفر سنة ٦٢١ - صاحب مراكش، فعزله، وولى مكانه عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص «واستوزر أبا زيد عبد الواحد ابن أبى حفص» ثم غلب عليه أخوه أبو زكريا يحيى المتقدم، وتداول ملك افريقية بنوه من بعده، واقتطعوها عن نظر بنى عبد المؤمن أصحاب مراكش، فلم تعد اليهم بعد « وتوفى أبو محمد العادل سنة ٦٢٤ » « أحمد يوسف نجاتى »

(١) وكان أبو سعيد بن جامع وزير أبى يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الذى بويع بعد وفاة أبيه محمد الناصر سنة ٦١٠ وتوفى سنة ٦١٨ «أحمد يوسف نجاتى» (٢) علامات وأمارات، جمع مخيلة

فَجَعَلْتُ أُدَارِيهِ وَأَسْتَعْطِفُهُ، فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهِ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ إِلَى أَنْ سَعَى فِي تَأْخِيرِ وَالِدِي عَنِ الْكَتْبِ لِلأَمِيرِ الْأَسْعَدِ أَبِي يَحْيَ بْنِ مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ[١] ثُمَّ سَعَى فِي تَأْخِيرِي، فَأُخِّرْتُ عَنِ الْكِتَابَةِ، وَعَنْ قِرَاءَةِ الْمَظَالِمِ، فَانْفَرَدْتُ بِالْكِتَابَةِ لِلْوَزِيرِ الْمَذْكُورِ، وَفَوَّضَ إِلَيَّ جَمِيعَ أُمُورِهِ، وَأَوْلَانِي مِنَ التَّأْنِيسِ[٢] مَا أَنْسَانِي تِلْكَ الْوَحْشَةَ، وَمِنَ الْعِزِّ مَا أَنْقَذَنِي مِنَ تِلْكَ الذِّلَّةِ :

فَرَدَّ عَلَيَّ الْعَيْشَ بَعْدَ ذَهَابِهِ
وَآنَسَنِي بَعْدَ انْفِرَادِي مِنَ الْأَهْلِ

وَقَالُوا إِذَا مَا الْوَبْلُ فَاتَكَ فَاقْتَنِعْ
بِمَا قَدْ تَسَنَّى عِنْدَكَ الْآنَ مِنْ طَلِّ[٣]

وَوَاللهِ مَا نُعْمَاهُ طَلٌّ، وَإِنَّمَا
تَأَدُّبُهُ غَيْثٌ يَجُودُ عَلَى الْكُلِّ

---

(١) كان الأمير أبو يحي بن أبي زكريا صاحب سبتة، وكان والد ابن سعيد متصلا به (٢) الأنس وازالة الوحشة (٣) الطل : المطر الضعيف أو أخف المطر وهو ماله أثر قليل — والوابل والوبل : المطر الشديد الضخم القطر وبلت السماء المكان تبل « كوعد » اذا أمطرته ، وتسنى الشيء : تيسر وسهل

رَآنِيَ أَظمَا فِي الْهَجِيرَةِ ضَاحِيًا
فَرَقَّ، وَآوَانِي إِلَى الْمَاءِ وَالظِّلِّ[1]

وَلَمْ أَزَلْ عِنْدَهُ فِي أَسَرِّ حَالٍ مَالَهَا تَكْدِيرٌ، إِلَّا مَا يَبْلُغُنِي مِنْ أَنَّ ابْنَ عَمِّي لَا يَزَالُ يَسْعَى فِي حَقِّي بِمَا أَخْشَى مَغَبَّتَهُ[2] وَخِفْتُ أَنْ يَطُولَ ذَلِكَ فَيُسْمَعَ مِنْهُ، وَلَا يَنْفَعَ دِفَاعُ الْوَزِيرِ الْمَذْكُورِ عَنِّي، فَرَغِبْتُ لَهُ فِي أَنْ يَرْفَعَ لِلْمَلِكِ أَنِّي رَاغِبٌ فِي السَّرَاحِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِرَسْمِ الْحَجِّ:

وَمَنْ بَلَّهُ الْغَيْثُ فِي بَطْنِ وَادٍ
وَبَاتَ فَلَا يَأْمَنَنَّ السُّيُولَا

فَلَمْ يُسْعِفْنِي فِي ذَلِكَ، وَلَامَنِي عَلَى تَخَوُّفِي وَقِلَّةِ ثِقَتِي بِحِمَايَتِهِ، فَرَفَعْتُ لَهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ:

هَلِ الْهَجْرُ إِلَّا أَنْ يَطُولَ التَّجَنُّبُ؟!
وَيَبْعُدَ مَنْ قَدْ كَانَ مِنْهُ التَّقَرُّبُ؟!

وَتَقْطَعَ رُسْلٌ بَيْنَنَا وَرَسَائِلُ وَيَمْنَعَ لُقْيَانَا نَوًى وَتَحَجُّبُ

---

(١) الهجيرة: القيظ وشدة الحر، وضحا الرجل ضحوا وضحوا وضحيا: برز للشمس، وضحى «كسعى ورضى» أصابته الشمس، ومنه قوله تعالى: «وأنك لاتظمأ فيها ولاتضحى» أى لك أن تتصون من حر الشمس فلا ينالك أذاها «أحمد يوسف نجاتى» (٢) المغبة: العاقبة «أحمد يوسف نجاتى»

وَلَوْ أَنَّنِي أَدْرِي لِنَفْسِيَ زَلَّةً
جَعَلْتُ لَكُمْ عُذْرًا وَلَمْ أَكُ أَعْتِبُ(١)
وَلَكِنَّكُمْ لَمَّا مَلِلْتُمْ(٢) هَجَرْتُمُ
وَذَنَّبْتُمُ فِي الْحُبِّ مَنْ لَيْسَ يُذْنِبُ
إِلَى اللهِ أَشْكُو غَدْرَكُمْ وَمَلَالَكُمْ(٣)
وَقَلْبًا لَهُ ذَاكَ التَّعَذُّبُ يَعْذُبُ
فَلَوْ أَنَّهُ يَجْزِيكُمُ بِفِعَالِكُمْ
لَكَانَ لَهُ عَنْكُمْ مَرَادٌ وَمَطْلَبُ(٤)
وَلَكِنْ أَبَى أَلَّا يَحِنَّ لِغَيْرِكُمْ
وَأَلَّا يُرَى عَنْكُمْ مَدَى الدَّهْرِ مَذْهَب
فَهَلَّا رَعَيْتُمْ أَنَّهُ فِي ذَرَاكُمُ
غَرِيبٌ؟! وَلَيْسَ الْمَوْتُ إِلَّا التَّغَرُّبُ(٥)!

---

(١) الزلة : السقطة والعثرة (٢) فى الأصل « ملكتم » وهو تصحيف لايظهر المعنى معه جليا . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) الملال : السآمة (٤) أخذه من قول النابغة الذبيانى :

ولكننى كنت امرأ لى جانب   من الأرض فيه مستراد ومذهب

وراد الكلأ اذا طلبه ــ يريد أنه كان يفارقهم الى غيرهم ممن يعرفون قيمته ، ويقدرونه حق قدره ، فيكرمون وفادته ، ويحسنون مثواه « أحمد يوسف نجاتى » (٥) ذراه : حماه وكنفه وظله « أحمد يوسف نجاتى »

لَزِمْتُكَ لَمَّا أَنْ رَأَيْتُكَ كَامِلًا
جَمَالًا وَإِجْمَالًا ، وَذَاكَ يُحَبِّبُ[(١)]

وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ اشْتِكَاؤُهُ
لِمَنْ إِنْ أَتَى مَكْرًا فَلَيْسَ يُثَرَّبُ[(٢)]

فَلَمْ أَسْعَ إِلَّا لِارْتِيَاحٍ وَرَاحَةٍ
وَغَيْرِي ـ وَقَدْ آوَاهُ غَيْرُكَ ـ يَتْعَبُ

فَأَنْتَ الَّذِي آوَيْتَنِي وَرَحِمْتَنِي
وَذُو الرَّحِمِ الدُّنْيَا لِنَارِي يَحْطِبُ[(٣)]

فَمَا مَرَّ يَوْمٌ لَا يُرِيدُ مُصِيبَةً
عَلَيْكَ، وَبِالتَّدْبِيرِ مِنْكَ يُخَيَّبُ[(٤)]

وَهَبْكَ ثَبُوتًا لَا تُحِيلُ ، أَمَا تَرَى
مَجَرَّ حِبَالٍ فِي الْحِجَارَةِ يَرْسُبُ[(٥)] ؟!

---

(١) أجمل : صنع الجميل، والمعنى مأخوذ من قول أبي الطيب المتنبي:

وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الأحسان قيدا تقيدا

ولكن شتان بين شعر أبي الطيب المتنبي ونظم ابن سعيد المغربي (٢) التثريب التعيير والاستقصاء في اللوم ، وثرب عليه فعله اذا قبحه وعابه، ومنه قوله تعالى : «لا تثريب عليكم اليوم» (٣) أي يجمع لها الحطب ليزيدها اشتعالا ويديم توقدها (٤) في الأصل «يحبب» وهو تصحيف. وفي نسخة «لا يدير» بدل «لا يريد» « أحمد يوسف نجاتي » (٥) في الأصل « وهبه ثبوتا لا يحيل » والاحالة التغير، يريد أنك مع ثباتك على الود وعدم تحولك عنه يخشى من تكرار

وَهَبْكَ لَهُ سُدًّا ، فَكَمْ أَنتَ حَاضِرُ؟

أُحَاذِرُ خَرْقًا مِنْهُ أَنْ يَتَسَبَّبُوا(١)

وَمَا إِنْ أَرَى إِلَّا الْفِرَارَ مُخَلِّصًا

وَمَا رَاغِبٌ فِي الضَّيْمِ مَنْ عَنْهُ يَرْغَبُ

فَأَنهِ إِلَى الْأَمْرِ الْعَلِيِّ شَكِيَّتِي

وَأَنَّ خُطُوبَ الدَّهْرِ نَحْوِي تَخْطُبُ

وَلَا تُطْمِعُونِي فِي الَّذِي لَسْتُ نَائِلًا

فَلَا أَنَا عُرْقُوبٌ، وَلَا أَنَا أَشْعَبُ(٢)

أَلَا فَلْتَمُنُّوا بِالسَّرَاحِ ، فَإِنَّهُ

لَرَاحَةُ مَنْ يَشْقَى لَدَيْكُمْ وَيَنْصَبُ

سَلُوا الْكَاسَ عَنِّي إِذْ تُدَارُ ، فَإِنَّنِي

لَأَتْرُكُهَا هَمًّا وَدَمْعِيَ أَشْرَبُ(٣)

الوشاية عندك وتواليها على السمع ، فان جر الحبال الضعيف يؤثر فى الحجارة مع صلابتها اذا توالى (١) يريد أنك وان كنت سدا حاجزا دونى ودون أذاه أخشى اذا لم تكن حاضرا أن يتسع الخرق منه، وأن يكون الوشاة والأعداء سببا فى احداث ذلك الخرق الذى قد يتسع بعد على من يروم سده. وفى نسخة «يتسيبوا» بدل « يتسببوا » أى ينسابوا من هذا الخرق، وهو معنى مناسب « أحمد يوسف نجاتى » (٢) عرقوب مضرب المثل فى خلف الوعد ، وأشعب مشهور يضرب به المثل فى الطمع ، وقد يكون الأصل « فلا أنت عرقوب ، ولا أنا أشعب » . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) مأخوذ من

وَلا أَسْمَعُ ٱلْأَلْحَانَ حِينَ تَهُزُّنِى
وَلَوْ كَانَ نَوْحًا كُنْتُ أُصْغِى وَأَطْرَبُ
فَدَيْتُكُمُ كَمْ ذَا أَهُونُ بِأَرْضِكُمْ
أَهَــذَا جَزَاءٌ لِلَّذِى يَتَغَرَّبُ ؟!
أَبُخْلٌ عَلَى أَنْ مَا سِوَاكَ يُصِيخُ لِى
فَهَلْ لِىَ مِمَّا كَدَّرَ ٱلْعَيْشَ مَهْرَبُ (١)
تَقَلَّصَ عَنِّى كُلُّ ظِلٍّ ، وَلَمْ أَجِدْ
كَمَا كُنْتُ أُلْفِى مَنْ أَوَدُّ وَأَصْحَبُ (٢)
أَذُو طَمَعٍ فِى ٱلْعَيْشِ يَبْقَى وَحَوْلَهُ
مَدَى ٱلدَّهْرِ أَفْعَى لَا تَزَالُ وَعَقْرَبُ ؟!
أَجِزْنِى لِأَنْجُو بِالْفِرَارِ ، فَإِنَّهُ
وَحَقِّكَ مِنْ نُعْمَاكَ عِنْدِىَ يُحْسَبُ (٣)

قول مهيار :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا
واذكروا صبا اذا غنى بكم شرب الدمع، وعاف القدحا

وأرى أن ابن سعيد يأخذ المعانى المسبوق بها فلا يحسن التعبير عنها حسنا يرضى بلغاء الأدب ونقاد الشعر ، وأكثر معانيه فى قصائده كذلك . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) أصاخ له اذا استمع وأصغى (٢) تقلص الظل : نقص أو زال وانحسر وألفى الشىء وجده (٣) فى الأصل « أجرنى أنجز » وأجازه كذا اذا سمح

فَلا زِلْتَ يَا خَيْرَ ٱلْكِرَامِ مُهَنَّأً

فَعَيْشِيَ مِنْهُ ٱلْمَوْتُ أَشْهَى وَأَطْيَبُ

وَصَانَكَ مَنْ قَدْ صُنْتَ فِي حَقِّهِ دَمِي

وَغَيْرُكَ مِنْ ثَوْبِ ٱلْمُرُوءَةِ يُسْلَبُ

وَلَمْ يَزَلِ ٱلْوَزِيرُ — لَا أَزَالَ ٱللهُ عَنْهُ رِضَاهُ — يَحْمِي جَانِبِي إِلَى أَنْ أَصَابَتْنِي فِيهِ ٱلْعَيْنُ، فَأَصَابَهُ ٱلْحَيْنُ (١)

وَطَيَّبَ نَفْسِي أَنَّهُ مَاتَ عِنْدَمَا

تَنَاهَى، وَلَمْ يَشْمَتْ بِهِ كُلُّ حَاسِدِ

وَيَحْكُمْ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْ كَانَ حَاكِماً

عَلَيْهِ، وَيُعْطَ ٱلثَّأْرَ كُلُّ مُعَانِدِ

وَقُلْتُ أَرْثِيهِ:

بَكَتْ لَكَ حَتَّى ٱلْهَاطِلَاتُ (٢) ٱلسَّوَاكِبُ

وَشَقَّتْ جُيُوباً فِيكَ حَتَّى ٱلسَّحَائِبُ

فَكَيْفَ بِمَنْ دَافَعْتَ عَنْهُ، وَمَنْ بِهِ

أَحَاطَتْ — وَقَدْ بُوعِدَتْ عَنْهُ — ٱلْمَصَائِبُ؟!

له به وسوغه وجعله جائزا (١) الموت والهلاك وانقضاء الأجل

(٢) الهاطلات : السحب الكثيرة الهطل والانصباب ، وكذلك السواكب

أَلَا فَانْظُرُوا دَمْعِي، فَأَكْثَرُهُ دَمٌ
وَلَا تَذْهَبُوا عَنِّي، فَإِنِّيَ ذَاهِبُ
وَقُولُوا لِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَنْدُبُ بَعْدَهُ
وَفَاؤُكَ لَوْ قَامَتْ عَلَيْكَ النَّوَادِبُ
لَعَمْرُكَ مَا فِي الْأَرْضِ وَافٍ بِذِمَّةٍ
أَيَصْمُتُ إِدْرِيسٌ وَمِثْلِي يُخَاطِبُ؟!
دَعَوْتُكَ يَا مَنْ لَا أَقُومُ بِشُكْرِهِ
فَهَلْ أَنْتَ لِي بَعْدَ الدُّعَاءِ مُجَاوِبُ؟!
أَيَا سَيِّدًا قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
تُرَابٌ حَوَتْ ذِكْرَاكَ مِنْهُ التَّرَائِبُ(١)
لِمَنْ أَشْتَكِي إِنْ جَارَ بَعْدَكَ ظَالِمٌ
عَلَيَّ؟ وَإِنْ نَابَتْ جَنَابِي النَّوَائِبُ؟!
لِمَنْ أَرْتَجِي عِنْدَ الْأَمِيرِ بِمَنْطِقٍ
تَحُفُّ بِهِ حَوْلِي الْمُنَى وَالْمَوَاهِبُ؟!
وَهِيَ طَوِيلَةٌ، وَمِنْهَا قُبَيْلَ الْخَتْمِ

---

(١) الترائب عظام الصدر جمع تريبة «أحمد يوسف نجاتى».

وَقَدْ كُنْتُ أَخْتَارُ ٱلتَّرَحُّلَ قَبْـلَ أَنْ
يُصِيبَكَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ صَائِبُ
وَلَـكِنْ قَضَاءُ ٱللهِ مَنْ ذَا يَرُدُّهُ ؟!
فَصَبْرًا ، فَقَدْ يُرْضِى ٱلزَّمَانُ ٱلْمُغَاضِبُ

وَمِنْهَا ـ وَهُوَ آخِرُهَا :

وَإِنِّى لَأَدْرِى أَنَّ فِى ٱلصَّبْرِ رَاحَةً
إِذَا لَمْ تَـكُنْ فِيهِ عَلَىَّ مَثَالِبُ (١)
وَإِنْ لَمْ يَؤُبْ مَنْ كُنْتُ أَرْجُو ٱنْتِصَارَهُ
عَلَيْكَ فَلُطْفُ ٱللهِ نَحْوِىَ آئِبُ

قَالَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ وَلَمَّا قَدِمْتُ مِصْرَ وَٱلْقَاهِرَةَ أَدْرَكَتْنِى فِيهِمَا وَحْشَةٌ ، وَأَثَارَنِى تَذَكُّرُ مَا كُنْتُ أَعْـهَدُ بِجَزِيرَةِ ٱلْأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْمُبْهِجَةِ ٱلَّتِى قَطَعْتُ بِهَا ٱلْعَيْشَ غَضًّا خَصِيبًا ، وَصَحِبْتُ بِهَا ٱلزَّمَانَ غُـلَامًا ، وَلَبِسْتُ ٱلشَّبَابَ بُرْدًا قَشِيبًا (٢) فَقُلْتُ :

هَذِهِ مِصْرُ ، فَأَيْنَ ٱلْمَغْرِبُ ؟! قَدْ نَأَى عَنِّى ، فَعَيْنِى تَسْكُبُ (٣)

---

(١) والمعايب : النقائص (٢) جديدا ، وهو من قول أبى تمام :
ولقد أراك ، فهل أراك بغبطة والعيش غض والزمان غلام ؟!
(٣) ويروى عجز البيت : مذ نأى عنى دموعى تسكب

فَارَقَتْهُ ٱلنَّفْسُ جَهْلًا ، إِنَّمَا يُعْرَفُ ٱلشَّيْءُ إِذَا مَا يَذْهَبُ
أَيْنَ حِمْصُ ؟ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا ؟! بَعْدَهَا لَمْ أَلْقَ شَيْئًا يُعْجِبُ

كَمْ بِعَيْشٍ لِي بِهَا مِنْ لَذَّةٍ
حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبُ (١)

وَحَمَامُ ٱلْأَيْكِ تَشْدُو حَوْلَنَا وَٱلْمَثَانِي فِي ذُرَاهَا تَصْخَبُ (٢)
أَيُّ عَيْشٍ قَدْ قَطَعْنَاهُ بِهَا ذِكْرُهُ مِنْ كُلِّ نُعْمَى أَطْيَبُ

وَلَكَمْ بِٱلْمَرْجِ لِي مِنْ لَذَّةٍ
بَعْدَهَا مَا ٱلْعَيْشُ عِنْدِي يَعْذُبُ (٣)

وَٱلنَّوَاعِيرُ ٱلَّتِي تَذْكَارُهَا
بِالنَّوَى عَنْ مُهْجَتِي لَا تُسْلَبُ (٤)

---

(١) الخرير صوت الماء ، ويروى « كم تقضى لى بها الخ — ويريد بحمص مدينة اشبيلية ، وقال محمد بن عبدون يذكرها :

هل تذكر العهد الذى لم أنسه ومودة مخدومة بصفاء ؟!
ومبيتنا فى أرض حمص والحجى قد حل عقد حباه بالصهباء ؟!
ودموع طل الليل يخلق أعينا ترنو اليناً من عيون الماء ؟!

وقال ابن بسام : دخل جند من جنود حمص الشام الى الأندلس فسكنوا اشبيلية فسميت بهم . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) الأيك : الشجر الكثير الملتف ، وشدا : غنى ، والمثانى يريد بها آلات الطرب كالعود ونحوه — وأصل المثانى من أوتار العود ، وتصخب : تصيح وتردد أصواتها لكثرتها (٣) أصل المرج الموضع ترعى فيه الدواب وتمرج : أى تلعب وتمرح ، ويريد هنا المكان بعينه (٤) النواعير يريد بها السواقى أو السوانى « أحمد يوسف نجاتى »

وَلَكُمْ فِي شَنْتَبُوسٍ مِنْ مُنًى
قَدْ قَضَيْنَاهُ وَلَا مَنْ يَعْتِبُ[١]

حَيْثُ هَاتِيكَ الشَّرَاجِيبُ الَّتِي
كَمْ بِهَا مِنْ حُسْنِ بَدْرٍ مُعْصَبُ[٢]

وَغِنَاءٍ كُلُّ ذِي فَقْرٍ لَهُ ... سَامِعٌ غَصْبًا وَلَا مَنْ يَغْصِبُ
بَلْدَةٌ طَابَتْ وَرَبٌّ غَافِرٌ ... لَيْتَنِي مَا زِلْتُ فِيهَا أُذْنِبُ
أَيْنَ حُسْنُ النِّيلِ مِنْ نَهْرٍ بِهَا ... كُلُّ نَغْمَاتٍ لَدَيْهِ تُطْرِبُ؟!
كَمْ بِهِ مِنْ زَوْرَقٍ قَدْ حَلَّهُ ... قَمَرٌ سَاقٍ وَعُودٌ يَضْرِبُ
لَذَّةُ النَّاظِرِ وَالسَّمْعِ عَلَى ... شَمِّ زَهْرٍ وَكُؤُوسٍ تُشْرَبُ

كَمْ رَكِبْنَاهَا فَلَمْ تَجْمَحْ بِنَا
وَلَكَمْ مِنْ جَامِحٍ إِذْ يُرْكَبُ

طَوْعُنَا حَيْثُ اتَّجَهْنَا، لَمْ نَجِدْ ... تَعَبًا مِنْهَا إِذَا مَا نَتْعَبُ
قَدْ أَثَارَتْ عِثْيَرًا[٣] يُشْبِهُهُ ... نَثْرُ سِلْكٍ فَوْقَ بُسْطٍ يُنْهَبُ

---

(١) شنتبوس جزيرة كانت من منازه بلاد الأندلس والمغرب، وكان بها منارة تضيء بالليل فتعكس أنوارها على صفحة النهر، فيكون لذلك منظر بديع يوحي الشعر ويسمو بالخيال. « أحمد يوسف نجاتي » (٢) الشراجيب جمع شرجب وهو عندهم الدرابزين من خشب فيه طاقات: يريد سور الجسر حيث يقف المتنزهون ويطلون منه على النهر، كما ترى في جسور نهر النيل وقت الأصيل وبعده. وفي نسخة «مغصب» « أحمد يوسف نجاتي» (٣) العثير: الغبار

كُلَّمَا رِشْنَا لَهَا أَجْنِحَةً — مِنْ قِلَاعٍ ظَلَّتْ مِنْهَا تَعْجَبُ
كَطُيُورٍ لَمْ تَجِدْ رِيًّا لَهَا — فَبَدَا لِلْعَيْنِ مِنْهَا مَشْرَبُ
بَلْ عَلَى ٱلْخَضْرَاءِ لَا أَنْفَكُّ مِنْ — زَفْرَةٍ فِي كُلِّ حِينٍ تُلْهَبُ[1]
حَيْثُ لِلْبَحْرِ زَئِيرٌ حَوْلَهَا — تُبْصِرُ ٱلْأَغْصَانَ مِنْهُ تَرْهَبُ
كَمْ قَطَعْنَا ٱللَّيْلَ فِيهَا مُشْرِقًا — بِحَبِيبٍ وَمُدَامٍ يُسْكَبُ
وَكَأَنَّ ٱلْبَحْرَ ثَوْبٌ أَزْرَقٌ — فِيهِ لِلْبَدْرِ طِرَازٌ مُذْهَبُ
وَإِلَى ٱلْحَوْزِ حَنِينِي دَائِمًا — وَعَلَى شَنِّيلَ دَمْعِي صَيِّبُ[2]

حَيْثُ سَلَّ ٱلنَّهْرُ عَضْبًا ، وَٱنْثَنَتْ
فَوْقَهُ ٱلْقُضْبُ ، وَغَنَّى ٱلرَّبْرَبُ

وَتَشَفَّتْ أَعْيُنُ ٱلْعُشَّاقِ مِنْ — حُورِ عِينٍ بِٱلْمَوَاضِي تُحْجَبُ
مَلْعَبٌ لِلَّهْوِ مُذْ فَارَقْتُهُ — مَا ثَنَانِي نَحْوَ لَهْوٍ مَلْعَبُ

وَإِلَى مَالَقَةٍ يَهْفُو هَوًى
قَلْبُ صَبٍّ بِالنَّوَى لَا يُقْلَبُ
أَيْنَ أَبْرَاجٌ بِهَا قَدْ طَالَمَا
حَثَّ كَاسِي فِي ذُرَاهَا كَوْكَبُ؟!

حَفَّتِ ٱلْأَشْجَارُ عِشْقًا حَوْلَنَا — تَارَةً تَنْأَى ، وَطَوْرًا تَقْرُبُ

(١) يريد الجزيرة الخضراء (٢) سبق الكلام فى الحوز وفى نهر شنيل .

جَاءَتِ ٱلرِّيحُ بِهَا ، ثُمَّ ٱنْثَنَتْ أَتُرَاهَا حَذِرَتْ مَنْ يَرْقُبُ؟
وَعَلَى مُرْسِيَةٍ أَبْكِي دَمًا مَنْزِلٌ فِيهِ نَعِيمٌ مُعْشِبُ
مَعَ شَمْسٍ طَلَعَتْ فِي نَاظِرِي
ثُمَّ صَارَتْ فِي فُؤَادِي تَغْرُبُ
هَـذِهِ حَالِي ، وَأَمَّا حَالَتِي فِي ذُرَى مِصْرَ فَفِكْرٌ مُتْعَبُ
سَمِعَتْ أُذْنِي مُحَالًا ، لَيْتَهَا لَمْ تُصَدِّقْ وَيْحَهَا مَنْ يَكْذِبُ
وَكَذَا ٱلشَّيْءُ إِذَا غَابَ ٱنْتَهَوْا فِيهِ وَصْفًا كَيْ يَمِيلَ ٱلْغُيَّبُ
هَا أَنَا فِيهَا فَرِيدٌ مُهْمَلٌ وَكَلَامِي وَلِسَانِي مُعْرِبُ
وَأَرَى ٱلْأَلْحَاظَ تَنْبُو عِنْدَمَا
أَكْتُبُ ٱلطِّرْسَ(١) أَفِيهِ عَقْرَبُ؟!
وَإِذَا أَحْسِبُ فِي ٱلدِّيوَانِ لَمْ يَدْرِ كُتَّابُهُمُ مَا أَحْسِبُ
وَأُنَادَى مَغْرِبِيًّا ،! لَيْتَنِي لَمْ أَكُنْ لِلْغَرْبِ يَوْمًا أُنْسَبُ!
نَسَبٌ يُشْرِكُ فِيهِ خَامِلٌ وَنَبِيهٌ ، أَيْنَ مِنْهُ ٱلْمَهْرَبُ؟!
أَتُرَانِي لَيْسَ لِي جَدٌّ لَهُ شُهْرَةٌ؟! أَوْلَيْسَ يُدْرَى لِي أَبُ؟!
سَوْفَ أَثْنِي رَاجِعًا، لَا غَرَّنِي بَعْدَ مَا جَرَّبْتُ بَرْقٌ خُلَّبُ

وَقَالَ بِقَرْمُونَةَ مُتَشَوِّقًا إِلَى غَرْنَاطَةَ :

(١) الطرس : الصحيفة مطلقا . أو التي محيت ثم كتبت « أحمد يوسف نجاتي »

أَغِثْنِي إِذَا غَنَّى ٱلْحَمَامُ ٱلْمُطَرِّبُ
بِكَأْسٍ بِهَا وَسْوَاسُ فِكْرِيَ يُنْهَبُ
وَمِلْ مَيْلَةً حَتَّى أُعَانِقَ أَيْكَةً
وَأَلْثِمَ ثَغْرًا فِيهِ لِلصَّبِّ مَشْرَبُ
وَلَمْ أَرَ مَرْجَانًا وَدُرًّا خِلَافَهُ
يُطِيفُ بِهِ وَرْدٌ مِنَ ٱلشَّهْدِ أَعْذَبُ
فَدَيْتُكَ مِنْ غُصْنٍ تَحَمَّلَهُ نَقًا
تَطَلَّعَ أَعْلَاهُ صَبَاحٌ وَغَيْهَبُ (١)
وَجَنَّتُهُ جَنَّاتُ عَدْنٍ ، وَفِي لَظَى
فُؤَادِي، وَمَالِي مِنْ ذُنُوبٍ تُعَذِّبُ
وَيَعْذِلُنِي ٱلْعُذَّالُ فِيهِ ،وَإِنَّنِي لَأَعْصِي عَلَيْهِ مَنْ يَلُومُ وَيَعْتِبُ
لَقَدْ جَهِلُوا ، هَلْ عَنْ حَيَاتِيَ أَنْثَنِي
إِذَا نَمَّقُوا أَقْوَالَهُمْ وَتَأَلَّبُوا (٢) ؟!
يَقُولُونَ لِي: قَدْ صَارَ ذِكْرُكَ مُخْلَقًا
وَأَصْبَحَ كُلٌّ فِي هَوَاهُ يُؤَنِّبُ (٣)

(١) يصف قده فوق ردفه، ويصف فى عجز البيت وجهه وشعره (٢) نمق حسن ووشى وزخرف ،وتألبوا: اجتمعوا اتفقوا (٣) أخلق الثوب: رث وبلى

وَعِرْضُكَ مَبْذُولٌ، وَعَقْلُكَ تَالِفٌ
وَجِسْمُكَ مَسْلُوبٌ، وَمَالُكَ يُنْهَبُ
فَقُلْتُ لَهُمْ: عِرْضِي وَعَقْلِي وَالْعُلَا
وَفَخْرِي لَا أَرْضَى بِهَا حِينَ يَغْضَبُ
جُنُونٌ أَبَى[1] أَلَّا يَلِينَ لِعَازِمٍ
بِسِحْرٍ بِآيَاتِ الرُّقَى لَيْسَ يَذْهَبُ
فَقَالُوا: أَلَا قَدْ خَانَ عَهْدَكَ، قُلْتُ: لَمْ
يَخُنْ مَنْ إِذَا قَرَّبْتُهُ يَتَقَرَّبُ
وَكَمْ دُونَهُ مِنْ صَارِمٍ وَمُثَقَّفٍ
فَيَا مَنْ رَأَى بَدْرًا بِهَذَيْنِ يُحْجَبُ[2]!
عَلَى أَنَّهُ يَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَ عِنْدَ مَا
يَزُورُ، فَلَا يُجْدِي حِمًى وَتَرَقُّبُ[3]
وَكَمْ حِيلَةٍ تَتْرَى عَلَى إِثْرِ حِيلَةٍ
وَذُو الْوُدِّ مَنْ يَحْتَالُ أَوْ يَتَسَبَّبُ[4]

---

(١) فى الأصل « جفون أبت » يريد أن جنونه فى الحب لا يلين لعزائم من يعزم بالرقى أو ينفث فى عقد السحر « أحمد يوسف نجاتى » (٢) الصارم السيف ، والمثقف الرمح. وهذا مثل قول ابن النحاس الحلبى :

ومحتجب بين الأسنة معرض   وفى القلب من اعراضه مثل حجبه

(٣) فى الأصل « حمى مترقب » (٤) تترى : متوالية متتابعة. وفى الأصل « على اثر حالة » « أحمد يوسف نجاتى »

عَلَى أَنَّهُ لَوْ خَانَ عَهْدِىَ لَمْ أَزَلْ
لَهَ رَاعِيًا ، وَالرَّعْىُ لِلصَّبِّ أَوْجَبُ
فَأَيْنَ زَمَانٌ لَمْ يَخُنِّىَ سَاعَةً
بِهِ ؟! وَهْوَ مِنِّى فِى التَّنَعُّمِ أَرْغبُ
وَلَا فِيهِ مِنْ بُخْلٍ ، وَلَا بِى قَنَاعَةٌ
كِلَانَا بِلَذَّاتِ التَّوَاصُلِ مُعْجَبُ (١)
وَيَارُبَّ يَوْمٍ لَا أَقُومُ بِشُكْرِهِ
عَلَى أَنَّنِى مَا زِلْتُ أُثْنِى وَأُطْنِبُ
عَلَى نَهْرِ شَنِّيلٍ ، وَلِلْقُضْبِ حَوْلَنَا
مَنَابِرُ مَا زَالَتْ بِهَا الطَّيْرُ تَخْطُبُ
وَقَدْ قَرَعَتْ مِنْهُ سَبَائِكَ فِضَّةٍ
خِلَالَ رِيَاضٍ بِالْأَصِيلِ تُذَهَّبُ (٢)
شَرِبْنَا عَلَيْهَا قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً
غَدَتْ تَشْرَبُ الْأَلْبَابَ أَيَّانَ تُشْرَبُ

(١) هذا من قول الشاعر :

وحياة عصيانى عليك عواذلى ان كانت القربات عندك تشفع
هل تذكرين لياليا بتنا بها لا أنت باخلة ولا أنا أقنع ؟!

(٢) فى الأصل « سنابك » بدل « سبائك » وهو تصحيف. وقد تكون « قرعت » مصحفة عن « فرغت » ورفع سبائك نائب فاعله، يصف انسياب

كَأَنْ يَاسَمِيناً وَسْطَ دُرٍّ(١) تَفَتَّحَتْ
أَزَاهِرُهُ أَيَّانَ فِي ٱلْكَاسِ تُسْكَبُ
إِذَا مَا شَرِبْنَاهَا لِنَيْلِ مَسَرَّةٍ تَبَسَّمُ عَنْ دُرٍّ لَهَا فَتُقَطَّبُ(٢)
أَتَتْ دُونَهَا ٱلْأَحْقَابُ حَتَّى تَخَالُهَا
سَرَاباً بِآفَاقِ ٱلزُّجَاجَةِ يَلْعَبُ
نَعِمْنَا بِهَا وَٱلْيَوْمُ قَدْ رَقَّ بُرْدُهُ
إِلَى أَنْ رَأَيْنَا ٱلشَّمْسَ عَنَّا تُغَرِّبُ
فَقَالُوا: أَلَا هَاتُوا ٱلسِّرَاجَ، فَكُلُّ مَنْ
دَرَى قَدْرَ مَا فِي ٱلْكَأْسِ أَقْبَلَ يَعْجَبُ
وَقَالَ: أَلَا تَدْرُونَ مَا فِي كُؤُوسِكُمْ؟!
فَلَا كَأْسَ إِلَّا وَهْوَ فِي ٱللَّيْلِ كَوْكَبُ(٣)
كَوَاكِبُ أَمْسَتْ بَيْنَ شَرْبٍ، وَلَمْ نَخَلْ
بِأَنَّ ٱلنُّجُومَ ٱلزُّهْرَ تَدْنُو وَتَغْرُبُ

ماء النهر صافية الى الرياض فى وقت الأصيل الذى يخلع على صفحات الماء حلة ذهبية « أحمد يوسف نجاتى »

(١) فى نسخة « ورد » (٢) أراد بالدر الفقاقيع. وقطب الشراب وأقطبه: مزجه، وشراب مقطب ومقطوب أى ممزوج — وقطب الشارب اذا زوى ما بين عينيه وعبس وكلح من شراب وغيره، فى قوله « تقطب » تورية لأنها تحتمل المعنيين كما هو ظاهر « أحمد يوسف نجاتى » (٣) أخذ معنى البيتين من أبى نواس وقصر عنه

ظَلِلْنَا علَيْهَا عَاكِفِينَ وَلَيْلُنَا
نَهَارٌ إِلَى أَنْ صَاحَ بِالْأَيْكِ مُطْرِبُ
فَلَمْ نَثْنِ عَنْ دَيْنِ الصَّبُوحِ عِنَانَنَا
إِلَى أَنْ غَدَا مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُ يَنْدُبُ
صُرِعْنَا، فَأَمْسَى يَحْسَبُ السُّكْرَ قَدْ قَضَى
عَلَيْنَا، وَذَاكَ السُّكْرُ أَشْهَى وَأَعْجَبُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ فِي إِثْرِ يَوْمٍ وَعُذَّلِي
وَعُذَّلُ مَنْ يُصْغِي لِقَوْلِيَ خُيَّبُ
فَيَالَيْتَ مَا وَلَّى مُعَادٌ نَعِيمُهُ! وَأَيُّ نَعِيمٍ عِنْدَ مَنْ يَتَغَرَّب؟!

قَالَ: وَقُلْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ ذَاكِرًا لِوَادِي الطَّلْحِ - وَهُوَ بِشَرْقِ إِشْبِيلِيَةَ، مُلْتَفُّ الْأَشْجَارِ، كَثِيرُ مُتَرَنَّمِ الْأَطْيَارِ، وَكَانَ الْمُعْتَمِدُ بْنُ عَبَّادٍ كَثِيرًا مَا يَنْتَابُهُ مَعَ رُمَيْكِيَّتِهِ[1] وَأُولِي أُنْسِهِ وَمَسَرَّتِهِ:

سَائِلْ بِوَادِي الطَّلْحِ رِيحَ الصَّبَا
هَلْ سُخِّرَتْ لِي فِي زَمَانِ الصِّبَا[2]؟!

---

(١) قدسبق التعريف بالرميكية جارية المعتمد بن عباد وما قيل فيها، وتقدم التعريف بوادى الطلح «أحمد يوسف نجاتى» (٢) تقدمت هذه القصيدة وشرحها «أحمد يوسف نجاتى»

كَانَتْ رَسُولًا فِيهِ مَا بَيْنَنَا　　لَنْ نَأْمَنَ الرُّسْلَ وَلَنْ نَكْتُبَا

يَا قَاتَلَ اللهُ أُنَاسًا إِذَا　　مَا اسْتُؤْمِنُوا خَانُوا، فَمَا أَعْجَبَا!

هَلَّا رَعَوْا أَنَّا وَثِقْنَا بِهِمْ　　وَمَا اتَّخَذْنَا عَنْهُمُ مَذْهَبَا!

يَا قَاتَلَ اللهُ الَّذِي لَمْ يَتُبْ　　مِنْ غَدْرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَرَّبَا

وَالْيَمُّ(١) لَا يَعْرِفُ مَا طَعْمُهُ　　إِلَّا الَّذِي وَافَى لِأَنْ يَشْرَبَا

دَعْنِيَ مِنْ ذِكْرِ الْوُشَاةِ الْأُلَى　　لَمَّا نَزَلْ فِكْرِي بِهِمْ مُلْهَبَا

وَاذْكُرْ بِوَادِي الطَّلْحِ عَهْدًا لَنَا　　لِلَّهِ مَا أَحْلَى وَمَا أَطْيَبَا!

بِجَانِبِ الْعَطْفِ وَقَدْ مَالَتِ الْـ
أَغْصَانُ وَالزَّهْرَ يَبُثُّ الصَّبَا(٢)

وَالطَّيْرُ مَازَتْ بَيْنَ أَلْحَانِهَا　　وَلَيْسَ إِلَّا مُعْجِبًا مُطْرِبَا

وَخَانَنِي مَنْ لَا أُسَمِّيهِ مِنْ　　شُحٍّ، أَخَافُ الدَّهْرَ أَنْ يَسْلَبَا(٣)

قَدْ أَتْرَعَ الْكَاسَ، وَحَيَّا بِهَا　　وَقُلْتُ: أَهْلًا بِالْمُنَى مَرْحَبَا

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالَّذِي شِئْتُهُ　　يَا بَدْرَ تَمٍّ مُهْدِيًا كَوْكَبَا

لَكِنَّنِي آلَيْتُ أُسْقَى بِهَا　　أَوْ تُودِ عَنْهَا ثَغْرَكَ الْأَشْنَبَا

فَمَجَّ لِي فِي الْكَاسِ مِنْ ثَغْرِهِ　　مَا حَبَّبَ الشُّرْبَ وَمَا طَيَّبَا

---

(١) فى الأصل « والهم » ـ واليم : البحر الواسع العميق أو لجته « أحمد يوسف نجاتى » (٢) بث الشيء : نشره وفرقه ، يريد أن النسيم ينثر عليهم أزهار الأغصان التى يميلها ويداعبها (٣) فى الأصل « أن يصحبا »

فَقَالَ: هَا لَثْمِيَ نُقْــلًا ، وَلَا تَشَمَّ إِلَّا عَرْفِيَ ٱلْأَطْيَبَا

فَاقْطِفْ بِخَدِّي ٱلْوَرْدَ وَٱلْآسَ وَٱلْ
نَسْرِينَ ، لَا تَحْفِلْ بِزَهْرِ ٱلرُّبَا

أُسْعِفْتُهُ[1] غُصْنًا غَدَا مُثْمِرًا وَمِنْ جَنَاهُ مَيْسُــهُ قَرَّبَا

قَدْ كُنْتُ ذَا نَهْيٍ وَذَا إِمْرَةٍ حَتَّى تَبَدَّى فَحَلَلْتُ ٱلْحُبَا[2]

وَلَمْ أَصُنْ عِرْضِيَ فِي حُبِّهِ وَلَمْ أُطِـعْ فِيهِ ٱلَّذِي أَنَّبَا

حَتَّى إِذَا مَا قَالَ لِي حَاسِـــدِي:
تَرْجُوهُ وَٱلْـكَوْكَبَ أَنْ يَغْرُبَا

أَرْسَلْتُ مِنْ شِعْرِي سِحْرًا لَهُ يُيَسِّرُ ٱلْمَرْغَبَ وَٱلْمَطْلَبَا

وَقَالَ : عَرِّفْهُ بِأَنِّي سَأَحْـ تَالُ ، فَمَا أَجْتَنِبُ ٱلْمَـكْتَبَا

فَزَادَ فِي شَوْقِي لَهُ وَعْدُهُ وَلَمْ أَزَلْ مُعْتَقِدًا[3] مَرْقَبَا

أَمُدُّ طَرْفِي ثُمَّ أَثْنِيـهِ مِنْ خَوْفِ أَخِي ٱلتَّنْغِيصِ أَنْ يَرْقُبَا

أُصَدِّقُ ٱلْوَعْدَ، وَطَوْرًا أَرَى تَـكْذِيبَهُ، وَٱلْحُرُّ لَنْ يَكْذِبَا

أَتَى وَمَنْ سَخَّرَهُ بَعْـدَ مَا أَيْأَسَ بُطْأً كَادَ أَنْ يُغْضِبَا

قَبَّلْتُ فِي ٱلتُّرْبِ ،وَلَمْ أَسْتَطِعْ مِنْ حَصَرِ ٱللُّقْيَا سِوَى مَرْحَبَا

---

(١) فى نسخة « شغفته » وفى الأصل « أشففته » ولعله من الشف بمعنى المهنأ ، يقال شف لك الشيء يافلان : اذا غبطته بشيء قلت له ذلك ، أى هنأته « أحمديوسف نجاتى » (٢) حل حباه : كناية عن ترك التوقر (٣) قد تكون « مقتعدا » أى جالسا فوق مكان عال أرقبه منه «أحمديوسف نجاتى»

هَنَأْتُ رَبْعِي إِذْ غَدَا هَالَةً ... وَقُلْتُ: يَامَنْ لَمْ يُضِعْ أَشْعَبَا

بِاللهِ مِلْ مُعْتَنِقًا لَاثِمًا ... فَمَالَ كَالْغُصْنِ ثَنَتْهُ الصَّبَا

وَقَالَ: مَاتَرْغَبُ؟ قُلْتُ: اتَّئِدْ ... أَدْرَكْتُ إِذْ كَلَّمْتَنِي الْمَرْغَبَا[(١)]

فَقَالَ: لَامَرْغَبَ[(٢)] عَنْ ذِكْرِ مَا ... تَرْغَبُهُ، قُلْتُ: إِذًا مَرْكَبَا

فَكَانَ مَا كَانَ، فَوَاللهِ مَا ... ذَكَرْتُهُ دَهْرِيَ أَوْ أُغْلَبَا

قَالَ: وَقُلْتُ بِاقْتِرَاحِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ نُورِ الدِّينِ صَاحِبِ حِمْصَ أَنْ أَكْتُبَ بِالذَّهَبِ عَلَى تُفَّاحَةِ عَنْبَرٍ قَدَّمَهَا لِابْنِ عَمِّهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ مَلِكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ[(٣)] :

أَنَالَوْنُ الشَّبَابِ وَالْخَالِ أُهْدِيْ ... تُ لِمَنْ قَدْ كَسَا الزَّمَانَ شَبَابَا

مَلِكُ الْعَالَمِينَ نَجْمُ بَنِي أَيْ ... يُوبَ لَازَالَ فِي الْمَعَالِي شِهَابَا

جِئْتُ مَلْأَى مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ

مِنْ شَكُورٍ إِحْسَانَهُ وَالثَّوَابَا

لَسْتُ مِمَّنْ لَهُ خِطَابٌ، وَلَكِنْ

قَدْ كَفَانِي أَرِيجُ عَرْفِي خِطَابَا

قَالَ: وَلَمَّا أَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الْأَبَّارِ[(٤)] كَاتِبُ مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ لِنَفْسِهِ :

---

(١) فى نسخة «المأربا» والمعنى واحد (٢) فى نسخة «لامذهب» أى لامعدل ولامقر (٣) تقدمت هذه الأبيات والتعريف بالملكين الصالحين (٤) تقدم

لِلّٰهِ دُولَابٌ يَدُورُ كَأَنَّهُ فَلَكٌ وَلَكِنْ مَا ارْتَقَاهُ كَوْكَبُ

هَامَتْ بِهِ الْأَحْدَاقُ لَمَّا نَادَمَتْ
مِنْهُ الْحَدِيقَةُ سَاقِيًا لا يَشْرَبُ

نَصَبَتْهُ فَوْقَ النَّهْرِ أَيْدٍ قَدَّرَتْ
تَرْوِيحَهُ الْأَرْوَاحَ سَاعَةَ يُنْصَبُ

فَكَأَنَّهُ وَهُوَ الطَّلِيقُ مُقَيَّدٌ وَكَأَنَّهُ وَهُوَ الْحَبِيسُ مُسَيَّبُ

لِلْمَاءِ فِيهِ تَصَعُّدٌ وَتَحَدُّرٌ
كَالْمُزْنِ يَسْتَسْقِي الْبِحَارَ وَيَسْكُبُ

حَلَفَ أَبُو عَبْدِ اللّٰهِ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ ابْنُ عَمِّي أَنْ يَصْنَعَ فِي ذَلِكَ شَيْئًا، فَقَالَ:

وَمَحْنِيَّةِ الْأَضْلَاعِ تَحْنُو عَلَى الثَّرَى
وَتَسْقِي نَبَاتَ التُّرْبِ دَرَّ التَّرَائِبِ(١)

تَعُدُّ مِنَ الْأَفْلَاكِ أَنَّ مِيَاهَهَا
نُجُومٌ لِرَجْمِ الْمَحْلِ ذَاتُ ذَوَائِبِ(٢)

وَأَعْجَبَهَا رَقْصُ الْغُصُونِ ذَوَابِلًا
فَدَارَتْ بِأَمْثَالِ السُّيُوفِ الْقَوَاضِبِ(٣)

التعريف بابن الأبار القضاعي، وسيأتي حديث عنه « أحمد يوسف نجاتي »
(١) في نسخة: ومحنية الأصلاب . . در السحائب « أحمد يوسف نجاتي »
(٢) المحل: الجدب والقحط وخلو الأرض من النبات (٣) أي المواضي القواطع

وَتَحْسَبُهَا وَالرَّوْضَ سَاقٍ وَقَيْنَةً
فَمَا بَرِحَا مَا بَيْنَ شَادٍ وَشَارِبِ
وَمَا خِلْتُهَا تَشْكُو بِتَحْنَانِهَا الصَّدَا
وَمِنْ فَوْقِ مَتْنَيْهَا أُطِّرَادُ الْمَذَانِبِ(١)
فَخُذْ مِنْ مَجَارِيهَا وَدُهْمَةِ لَوْنِهَا
بَيَاضَ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ(٢)

ثُمَّ كُلِّفْتُ فِي أَنْ أَقُولَ فِي ذَلِكَ - وَأَنَا أَعْتَذِرُ بِأَنَّ هَذَيْنِ لَمْ يَتْرُكَا لِي مَا أَقُولُ :

وَذَاتِ حَنِينٍ لَا تَزَالُ مُطِيفَةً(٣)
تَئِنُّ وَتَبْكِي بِالدُّمُوعِ السَّوَاكِبِ
كَأَنَّ أَلِيفًا بَانَ عَنْهَا، فَأَصْبَحَتْ بِمَرْبَعِهِ كَالصَّبِّ بَعْدَ الْحَبَائِبِ

---

(١) الصدى: العطش، والمذانب جمع مذنب « كمنبر » مسيل ما بين التلعتين أو مسيل الماء الى الأرض، ومسيل الى الحضيض ليس بخد واسع ، والمذنب: الجدول يسيل عن الروضة بمائها الى غيرها فيفرق ماءها ، والتي يسيل عليها الماء مذنب أيضا ، قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب

(٢) أخذه من قول أبي تمام :

وأحسن من نور تفتحه الصبا بياض العطايا فى سواد المطالب

وفى بيت ابن سعيد لف ونشر مرتب واضح « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) فى الأصل « مطيقة » وهو تصحيف « أحمد يوسف نجاتى » .

إِذَا ٱبْتَسَمَتْ فِيهَا ٱلرِّيَاضُ شَمَاتَةً
تَرُعْهَا بِأَمْثَالِ ٱلسُّيُوفِ ٱلْقَوَاضِبِ(١)
فَكَمْ رَقَصَتْ أَغْصَانُهَا، فَرَمَتْ لَهَا
نِثَارًا كَمَا بَدَّدْتَ(٢) حَلْيَ ٱلْكَوَاعِبِ
لَقَدْ سَخِطَتْ مِنْهَا ٱلثُّغُورُ، وَأَرْضَتِ ٱلْـ
قُدُودَ، وَلَمْ تَحْفِلْ بِتَثْرِيبِ عَائِبِ(٣)
شَرِبْتُ عَلَى تَحْنَانِهَا ذَهَبِيَّةً
ذَخِيرَةَ كِسْرَى فِي ٱلْعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ
فَهَاجَتْ لِيَ ٱلْكَاسُ ٱدِّكَارَ مُغَاضِبِ
فَحَاكَيْتُهَا(٤) وَجْدًا بِذَاكَ ٱلْمُغَاضِبِ
فَلَا تَدَعِ ٱلتَّبْرِيزَ فِي كَثْرَةِ ٱلْهَوَى
فَلَوْلَايَ كَانَتْ فِيهِ إِحْدَى ٱلْعَجَائِبِ(٥)

قَالَ: وَقُلْتُ بِغَرْنَاطَةَ:

بَاكِرِ ٱللَّهْوَ، وَمَنْ شَاءَ عَتَبْ
لَا يَلَذُّ ٱلْعَيْشُ إِلَّا بِالطَّرَبْ

---

(١) أراد بأمثال السيف الجداول، وجزم الفعل «ترعها» فى وجواب اذا ضرورة «أحمد يوسف نجاتى» (٢) فى الأصل «بدرت» مصحفة (٣) فى نسخة «عاتب» (٤) فى الأصل «فهاجيتها» (٥) فى نسخة «فى كثرة الهوى * فلولاه» «أحمد يوسف نجاتى»

مَا تَوَانَى مَنْ رَأَى ٱلزَّهْرَ زَهَا
وَٱلصَّبَا تَمْرَحُ فِي ٱلرَّوْضِ خَبَبْ[1]
وَشَذَاهُ صَانَهُ حَتَّى ٱغْتَدَى
بَيْنَ أَيْدِي ٱلرِّيحِ غَصْبًا[2] يُنْتَهَبْ
يَا نَسِيمًا عَطَّرَ ٱلْأَرْجَاءَ: هَلْ
بَعَثُوا ضِمْنَكَ مَا يَشْفِي ٱلْكُرَبْ؟
هُمْ أَعَلُّوهُ، وَهُمْ يَشْفُونَهُ
لَا شَفَاهُ ٱللهُ مِنْ ذَاكَ ٱلْوَصَبْ
خَلَعَ ٱلرَّوْضُ عَلَيْهِ زَهْرَهُ
حِينَ وَافَى مَنْ ذَرَاكُمْ فِعْلَ صَبْ
فَأَبَى إِلَّا شَذَاهُ، فَانْثَنَى
حَامِلًا مِنْ عَرْفِهِ مَا قَدْ غَصَبْ
لَسْتُ ذَا نُكْرٍ لِأَنْ يُشْبِهَكُمْ
مَنْ بَعَثْتُمْ، غَيْرُ ذَا مِنْهُ ٱلْعَجَبْ
غَالَبَ ٱلْأَغْصَانَ فِي بَدْأَتِهِ   ثُمَّ لَمَّا زَادَ أَعْطَتْهُ ٱلْغَلَبْ

---

(١) الخبب: سرعة السير والعدو (٢) فى الأصل « غصنا » «أحمد يوسف نجاتى»

فَبَكَى الطَّلُّ عَلَيْهَا رَحْمَةً
أَوْ بَكَى مِنْ وَعْظِ طَيْرٍ قَدْ خَطَبْ
كُلُّ هَذَا قَدْ دَعَانِي لِلَّتِي
مَلَكَتْ رِقِّي عَلَى مَرِّ الْحِقَبْ
قَهْوَةٌ أَبْسِمُ مِنْ عُجْبٍ لَهَا عِنْدَ مَا تَبْسِمُ عُجْبًا عَنْ حَبَبْ
حَاكَتِ الْخَمْرَ ، فَلَمَّا شُعْشِعَتْ
قُلْتُ : مَا لِلْخَمْرِ بِالْمَاءِ الْتَهَبْ[1]؟
وَبَدَتْ مِنْ كَاسِهَا لِي فِضَّةً
مُلِئَتْ إِذْ جَمَدَتْ[2] ذَوْبَ الذَّهَبْ
فَاسْقِنِيهَا مِنْ يَدَيْ مُشْبِهِهَا
بِالَّذِي يَحْوِيهِ طَرْفٌ وَشَنَبْ[3]
لَا جَعَلْتُ الدَّهْرَ نُقْلِي غَيْرَ مَا
لَذَّ لِي مِنْ رِيقِ ثَغْرٍ كَالضَّرَبْ[4]

(١) شعشع الشراب : مزجه بالماء (٢) فى الأصل « خمدت» وهو تصحيف « أحمد يوسف نجاتى» (٣) الشنب : رقة وصفاء فى الثغر» مع برد وعذوبة (٤) الضرب : الشهد أو العسل الأبيض الغليظ، يذكر ويؤنث ؛ قال أبو ذؤيب الهذلى :

وما ضرب بيضاء يأوى مليكها الى طنف أعيا براق ونازل
بأطيب من فيها اذا جئت طارقا وأشهى اذا نامت كلاب الأسافل

لَا جَعَلْتُ ٱلدَّهْرَ رَيْحَانِي سِوَى
مَا بِخَدَّيْهِ مِنَ ٱلْوَرْدِ أَنْتَخِبْ

لَمْ أَزَلْ أَقْطَعُ دَهْرِي هَكَذَا ... وَكَذَا أَقْطَعُ مِنْهُ ٱلْمُرْتَقَبْ
حَبَّذَا عَيْشٌ قَطَعْنَاهُ لَدَى ... مَعْطِفِ ٱلْخَابُورِ مَا فِيهِ نَصَبْ(٢)
مَعَ مَنْ لَمْ يَدْرِ يَوْمًا مَا ٱلْجَفَا ... مَنْ أَرَاحَ ٱلصَّبَّ فِيهِ مِنْ تَعَبْ

كُلُّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ حَسَنٌ
لَمْ يُذِقْنِي فِي ٱلْهَوَى مُرَّ ٱلْغَضَبْ

أَيُّ عَيْشٍ سَمَحَ ٱلدَّهْرُ بِهِ! ... كُلُّ نُعْمَى ذَهَبَتْ لَمَّا ذَهَبْ

قَالَ: وَدَخَلْتُ بِتُونُسَ مَعَ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْغَسَّانِيِّ حَمَّامًا فَنَظَرْنَا إِلَى غِلْمَانٍ فِي نِهَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَنُعُومَةِ ٱلْأَبْدَانِ، فَقُلْتُ مُخَاطِبًا لَهُ:

دَخَلْتُ حَمَّامًا، وَقَصْدِي بِهِ ... تَنْعِيمُ جِسْمٍ، فَغَدَا لِي عَذَابْ
قُلْتُ: لَظًى، فَاعْتَرَضَتْ حُورُهُ ... وَقُلْتُ: عَدْنٌ، فَنَهَانِي ٱلْتِهَابْ

وَأَنْتَ فِي ٱلْفَضْلِ إِمَامٌ، فَكُنْ
فِي ٱلْحُكْمِ مِمَّنْ حَازَ فَصْلَ ٱلْخِطَابْ

مليكها يعسوبها، والطنف: حيد يندر من الجبل قد أعيا بمن يرقى وبمن ينزل «أحمد يوسف نجاتى» (١) معطف الخابور موضع «أحمد يوسف نجاتى»

فَقَالَ :

لَا تَأْمَنِ ٱلْحَمَّامَ فِي فِعْلِهِ   فَلَيْسَ مَا يَأْتِيهِ عِنْدِي صَوَابْ

فَمَا أَرَى أَخْدَعَ مِنْهُ وَلَا

أَكْذَبَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ٱلسَّرَابْ

يُبْدِي لَكَ ٱلْغِيدَ(١) كَحُورِ ٱلدُّمَى(٢)

وَيُلْبِسُ ٱلشَّيْخَ بُرُودَ ٱلشَّبَابْ

ظُنَّ بِهِ ٱلنَّارَ ، فَلَا جَنَّةٌ   لِلْحُسْنِ إِلَّا مَا حَوَتْهُ ٱلثِّيَابْ

وَمِنْ فَوَائِدِهِ ـ أَعْنِي ٱبْنَ سَعِيدٍ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُحَلَّى بِالْأَشْعَارِ نَقْلًا عَنِ ٱلْقُرْطُبِيِّ قَضِيَّةُ بِنَاءِ ٱلْهَوْدَجِ بِرَوْضَةِ مِصْرَ، وَهُوَ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْفَاطِمِيِّينَ ٱلْعَظِيمَةِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلْبِنَاءِ ٱلْبَدِيعَةِ ،وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقَالُ إِنَّ ٱلْبَانِيَ لَهُ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْآمِرُ بِأَحْكَامِ ٱللهِ(٣) لِلْبَدَوِيَّةِ ٱلَّتِي غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّهَا بِجِوَارِ ٱلْبُسْتَانِ ٱلْمُخْتَارِ ، وَكَانَ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ كَثِيرًا ، وَقُتِلَ وَهُوَ

---

(١) الغيد : جمع أغيد وغيداء: وهو الذى مالت عنقه ولانت أعطافه والدمى: الصور من العاج، جمع دمية (٢) هو أبو على منصور المستعلى بالله أبى القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر بالله على بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور اسماعيل ابن القائم بأمر الله محمد بن المهدى عبيد الله الفاطمى ، ولى الأمر بمصر سنة ٩٤٦ وتوفى سنة ٥٢٤ « أحمد يوسف نجاتى »

مُتَوَجِّهٌ إِلَيْهِ، وَمَا زَالَ مُتَنَزَّهًا لِلْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ. وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي حَدِيثِ الْبَدَوِيَّةِ وَابْنِ مَيَّاحٍ مِنْ بَنِي عَمِّهَا، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنْ ذِكْرِ الْآمِرِ حَتَّى صَارَتْ رِوَايَاتُهُمْ فِي هَذَا الشَّأْنِ كَحَدِيثِ الْبَطَّالِ وَأَلْفِ لَيْلَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَالِاخْتِصَارُ مِنْهُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْآمِرَ قَدْ كَانَ بُلِيَ بِعِشْقِ الْجَوَارِي الْعَرَبِيَّاتِ، وَصَارَتْ لَهُ عُيُونٌ فِي الْبَوَادِي، فَبَلَغَهُ أَنَّ بِالصَّعِيدِ جَارِيَةً مِنْ أَكْمَلِ الْعَرَبِ وَأَظْرَفِهِمْ شَاعِرَةً جَمِيلَةً، فَيُقَالُ إِنَّهُ تَزَيَّا بِزِيِّ بُدَاةِ[1] الْأَعْرَابِ، وَكَانَ يَجُولُ فِي الْأَحْيَاءِ إِلَى أَنِ انْتَهَى إِلَى حَيِّهَا، وَبَاتَ هُنَالِكَ، وَتَحَيَّلَ حَتَّى عَايَنَهَا هُنَاكَ، فَمَا مَلَكَ صَبْرَهُ، وَرَجَعَ إِلَى مَقَرِّ مُلْكِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أَهْلِهَا يَخْطُبُهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ صَعُبَ عَلَيْهَا مُفَارَقَةُ مَا اعْتَادَتْ وَأَحَبَّتْ أَنْ تُسَرِّحَ طَرْفَهَا فِي الْفَضَاءِ، وَلَا تَنْقَبِضَ نَفْسُهَا تَحْتَ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فَبَنَى لَهَا الْبِنَاءَ الْمَشْهُورَ فِي جَزِيرَةِ الْفُسْطَاطِ الْمَعْرُوفَ بِالْهَوْدَجِ، وَكَانَ غَرِيبَ الشَّكْلِ عَلَى شَطِّ النِّيلِ، وَبَقِيَتْ مُتَعَلِّقَةَ الْخَاطِرِ بِابْنِ عَمٍّ لَهَا رُبِّيَتْ مَعَهُ يُعْرَفُ بِابْنِ مَيَّاحٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ مِنْ قَصْرِ الْآمِرِ:

(١) بداة جمع باد: وهو ساكن البادية، وفى الأصل «بذاة» مصحفة «أحمد يوسف نجاتى».

يَابْنَ مَيَّاحٍ، إِلَيْكَ ٱلْمُشْتَكَى ... مَالِكٌ مِنْ بَعْدِكُمْ قَدْ مَلَكَا
كُنْتُ فِي حَيِّ طَلِيقًا آمِرًا ... نَائِلًا مَاشِئْتُ مِنْكُمْ مُدْرِكَا
فَأَنَا ٱلْآنَ بِقَصْرٍ مُوصَدٍ ... لَا أَرَى إِلَّا خَبِيثًا (١) مُمْسِكَا
كَمْ تَثَنَّيْنَا كَأَغْصَانِ ٱلنَّقَا ... حَيْثُ لَا نَخْشَى عَلَيْنَا دَرَكَا

فَأَجَابَهَا فَقَالَ:

بِنْتَ عَمِّي وَٱلَّتِي غَذَّيْتُهَا ... بِالْهَوَى حَتَّى عَلَا وَٱحْتَبَكَا (٢)
بُحْتِ بِالشَّكْوَى، وَعِنْدِي ضِعْفُهَا
لَوْ غَدَا يَنْفَعُ مِنَّا ٱلْمُشْتَكَى
مَالِكُ ٱلْأَمْرِ إِلَيْهِ يَشْتَكِي ... هَالِكٌ، وَهُوَ ٱلَّذِي قَدْ أَهْلَكَا (٣)

قَالَ: وَلِلنَّاسِ فِي طَلَبِ ٱبْنِ مَيَّاحٍ وَٱخْتِفَائِهِ أَخْبَارٌ تَطُولُ.

وَكَانَ مِنْ عَرَبِ طَيِّئٍ فِي عَصْرِ ٱلْآمِرِ طِرَادُ بْنُ مُهَلْهَلٍ. فَقَالَ — وَقَدْ بَلَغَتْهُ هَذِهِ ٱلْأَبْيَاتُ:

أَلَا بَلِّغُوا ٱلْآمِرَ ٱلْمُصْطَفَى ... مَقَالَ طِرَادٍ — وَنِعْمَ ٱلْمَقَالْ:
قَطَعْتَ ٱلْأَلِيفَيْنِ عَنْ أُلْفَةٍ ... بِهَا سَمَرُ ٱلْحَيِّ حَوْلَ ٱلرِّحَالْ
كَذَا كَانَ آبَاؤُكَ ٱلْأَكْرَمُونَ
سَأَلْتُ، فَقُلْ لِي جَوَابَ ٱلسُّؤَالْ

---

(١) فى نسخه « حبيسا » ولعلها أحسن . « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) أو « واحتنكا » (٣) فى الأصل « هلكا » « أحمد يوسف نجاتى »

فَقَالَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْآمِرُ لَمَّا بَلَغَتْهُ ٱلْأَبْيَاتُ : جَوَابُ سُؤَالِهِ قَطْعُ لِسَانِهِ عَلَى فُضُولِهِ ، فَطُلِبَ فِي أَحْيَاءِ ٱلْعَرَبِ فَلَمْ يُوجَدْ فَقِيلَ: مَا أَخْسَرَ صَفْقَةَ طِرَادٍ! بَاعَ عِدَّةَ أَبْيَاتٍ[1] بِثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ.

وَكَانَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مَكِينُ ٱلدَّوْلَةِ أَبُو طَالِبٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَجِيدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ ٱلْحَسَنِ بْنِ حَدِيدٍ لَهُ مُرُوءَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَيَحْتَذِي أَفْعَالَ ٱلْبَرَامِكَةِ ، وَلِلشُّعَرَاءِ فِيهِ أَمْدَاحٌ كَثِيرَةٌ ، وَمَدَحَهُ ظَافِرٌ ٱلْحَدَّادُ[2] وَأُمَيَّةُ أَبُو ٱلصَّلْتِ وَغَيْرُهُمَا ، وَكَانَ لَهُ بُسْتَانٌ يَتَفَرَّجُ فِيهِ بِهِ جُرْنٌ كَبِيرٌ مِنْ رُخَامٍ ، وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ يَنْحَدِرُ فِيهِ ٱلْمَاءُ ، فَيَبْقَى كَالْبِرْكَةِ مِنْ كِبَرِهِ ، وَكَانَ يَرَى فِي نَفْسِهِ بِرُؤْيَتِهِ زِيَادَةً عَلَى أَهْلِ ٱلتَّنَعُّمِ وَٱلْمُبَاهَاةِ فِي عَصْرِهِ فَوُشِيَ بِهِ لِلْبَدَوِيَّةِ مَحْبُوبَةِ ٱلْآمِرِ ، فَسَأَلَتِ ٱلْآمِرَ فِي حَمْلِ ٱلْجُرْنِ إِلَيْهَا ، فَأَرْسَلَ إِلَى ٱبْنِ حَدِيدٍ فِي إِحْضَارِ ٱلْجُرْنِ ، فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ حَمْلِهِ مِنَ ٱلْبُسْتَانِ ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى ٱلْآمِرِ أَمَرَ

---

(١) فى نسخة « باع أبيات الحى » (٢) هو أبو منصور ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف بن عبد الغنى الجذامى الأديب الاسكندرى الشاعر المشهور، كان من الشعراء المجيدين فصيحا فاضلا بليغا، وله ديوان أكثره جيد، وشعره فى غاية الحسن، ومدح جماعة من المصريين، وروى عنه أبو طاهر السلفى وغيره من الأعيان، وتوفى بمصر سنة ٥٢٩ « أحمد يوسف نجاتى »

بِعَمَلِهِ فِي الْهَوْدَجِ ، فَقَلِقَ ابْنُ حَدِيدٍ ، وَصَارَتْ فِي قَلْبِهِ حَزَازَةٌ مِنْ أَخْذِ الْحُرْنِ ، فَأَخَذَ يَخْدُمُ الْبَدَوِيَّةَ وَجَمِيعَ مَنْ يَلُوذُ بِهَا بِأَنْوَاعِ الْخِدَمِ الْعَظِيمَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْحَدِّ فِي الْكَثْرَةِ حَتَّى قَالَتِ الْبَدَوِيَّةُ : هَذَا الرَّجُلُ أَخْجَلَنَا بِكَثْرَةِ تُحَفِهِ ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا قَطُّ أَمْرًا نَقْدِرُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ مَوْلَانَا ، فَلَمَّا قِيلَ لَهُ عَنْهَا هَذَا الْقَوْلُ قَالَ : مَالِي حَاجَةٌ - بَعْدَ الدُّعَاءِ لِلَّهِ بِحِفْظِ مَكَانِهَا وَطُولِ حَيَاتِهَا فِي عِزٍّ - غَيْرُ رَدِّ السَّقِيَّةِ[1] الَّتِي قُلِعَتْ مِنْ دَارِي الَّتِي بَنَيْتُهَا فِي أَيَّامِهِمْ مِنْ نِعْمَتِهِمْ ، تُرَدُّ إِلَى مَكَانِهَا فَتَعَجَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ ، وَرَدَّتْهَا عَلَيْهِ ، فَقِيلَ لَهُ : قَدْ حَصَلْتَ فِي حَدِّ أَنْ خَيَّرَتْكَ الْبَدَوِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْمَطَالِبِ ، فَنَزَلَتْ هِمَّتُكَ إِلَى قِطْعَةِ حَجَرٍ ! فَقَالَ : أَنَا أَعْرَفُ بِنَفْسِي ، مَا كَانَ لَهَا أَمَلٌ سِوَى أَلَّا تُغْلَبَ فِي أَخْذِ ذَلِكَ الْحَجَرِ مِنْ مَكَانِهِ ، وَقَدْ بَلَّغَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَمَلَهَا . وَكَانَ هَذَا الْمِسْكِينُ مُتَوَلِّيَ قَضَاءِ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَنَظَرَهَا فِي أَيَّامِ الْآمِرِ ، وَبَلَغَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ وَعَظِيمِ مُرُوءَتِهِ

---

(١) فى نسخة « الفسقية » وهى مجمع الماء ، وهو لفظ اشتهر فى الاستعمال وعبارات الفقهاء ، قال الشهاب الحجازى

هجوت فسقيتكم عامدا   لأنها فى اللهو أصليه
أليس فى فسق جمعتم بها؟!   فحق أن تدعى بفسقيه

وهى كلمة ليست بعربية صميمة « أحمد يوسف نجاتى »

أَنَّ سُلْطَانَ ٱلْمُلُوكِ حَيْدَرَةَ أَخَا ٱلْوَزِيرِ ٱلْمَأْمُونِ بْنِ ٱلْبَطَائِحِيِّ (١) لَمَّا قَلَّدَهُ ٱلْآمِرُ وِلَايَةَ ثَغْرِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَضَافَ إِلَيْهَا ٱلْأَعْمَالَ ٱلْبَحْرِيَّةَ، وَوَصَلَ إِلَى ٱلثَّغْرِ وَصَفَ لَهُ ٱلطَّبِيبُ دُهْنَ ٱلشَّمْعِ بِحَضْرَةِ ٱلْقَاضِي ٱلْمَذْكُورِ فَأَمَرَ فِي ٱلْحَالِ بَعْضَ غِلْمَانِهِ بِٱلْمُضِيِّ إِلَى دَارِهِ لِإِحْضَارِ دُهْنِ ٱلشَّمْعِ، فَمَا كَانَ أَكْثَرُ مِنْ مَسَافَةِ ٱلطَّرِيقِ إِلَّا وَقَدْ أَحْضَرَ حُقًّا مَخْتُومًا، فَفُكَّ عَنْهُ، فَوُجِدَ فِيهِ مِنْدِيلٌ لَطِيفٌ مُذَهَّبٌ عَلَى مُدَافٍ بِلَّوْرٍ، فِيهِ ثَلَاثَةُ بُيُوتٍ، كُلُّ بَيْتٍ عَلَيْهِ قُبَّةٌ ذَهَبٍ مُشَبَّكَةٌ مُرَصَّعَةٌ بِيَاقُوتٍ وَجَوْهَرٍ؛ بَيْتٌ دُهْنَ بِمِسْكٍ، وَبَيْتٌ دُهْنَ بِكَافُورٍ، وَبَيْتٌ دُهْنَ بِعَنْبَرٍ طَيِّبٍ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مَصْنُوعٌ لِوَقْتِهِ، فَعِنْدَمَا أَحْضَرَهُ ٱلرَّسُولُ تَعَجَّبَ ٱلْمُؤْتَمَنُ وَٱلْحَاضِرُونَ مِنْ عُلُوِّ هِمَّتِهِ، فَعِنْدَمَا شَاهَدَ ٱلْقَاضِي ذَلِكَ بَالَغَ فِي شُكْرِ إِنْعَامِهِ، وَحَلَفَ بِٱلْحَرَامِ إِنْ عَادَ إِلَى مِلْكِهِ، وَكَانَ مِنْ جَوَابِ ٱلْمُؤْتَمَنِ: قَدْ قَبِلْتُهُ مِنْكَ

(١) هو أبو عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحي «نسبة الى البطائح موضع بين واسط والبصرة» استوزره الآمر بأحكام الله بعد قتل الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، فلم تحمد سيرته كثيراً، حتى قبض عليه الآمر سنة ٥١٩ وعلى أخيه أحمد المؤتمن وسائر اخوته — وكانوا خمسة — مع ثلاثين رجلا من أهله وخواصه، وصادر أموالهم، ثم قتله في سنة ٥٢٢ وصلبه وقتل اخوته، وكان قداتهم هو وأخوه بالتدبير في القبض على الآمر «أحمد يوسف نجاتي»

لَا لِحَاجَةٍ إِلَيْهِ وَلَا نَظَرٍ فِي قِيمَتِهِ ، بَلْ لِإِظْهَارِ هَذِهِ الْهِمَّةِ وَإِذَاعَتِهَا . وَذُكِرَ أَنَّ قِيمَةَ هَذَا الْمُدَافِ وَمَا عَلَيْهِ خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ. فَانْظُرْ - رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى مَنْ يَكُونُ دُهْنُ الشَّمْعِ عِنْدَهُ فِي إِنَاءٍ قِيمَتُهُ خَمْسُمِائَةِ دِينَارٍ - وَدُهْنُ الشَّمْعِ لَا يَكَادُ أَكْثَرُ النَّاسِ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ - فَمَاذَا تَكُونُ ثِيَابُهُ وَحُلِيُّ نِسَائِهِ وَفُرُشُ دَارِهِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ التَّجَمُّلَاتِ ؟! وَهَذَا إِنَّمَا هُوَ حَالُ قَاضِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، وَمَنْ قَاضِي الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ بِالْحَضْرَةِ ؟ وَمَا نِسْبَةُ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ - وَإِنْ عَظُمَتْ أَحْوَالُهُمْ - إِلَى أَمْرِ الْخِلَافَةِ وَأُبَّهَتِهَا إِلَّا يَسِيرٌ حَقِيرٌ .

وَمَا زَالَ الْخَلِيفَةُ الْآمِرُ يَتَرَدَّدُ إِلَى الْهَوْدَجِ الْمَذْكُورِ إِلَى أَنْ رَكِبَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ رَابِعَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ يُرِيدُ الْهَوْدَجَ - وَقَدْ كَمَنَ لَهُ عِدَّةٌ مِنَ النِّزَارِيَّةِ[1] عَلَى رَأْسِ الْجِسْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الرَّوْضَةِ - فَوَثَبُوا عَلَيْهِ ، وَأَثْخَنُوهُ بِالْجِرَاحَةِ ، وَحُمِلَ فِي الْعُشَارِيِّ[2] إِلَى اللُّؤْلُؤَةِ[3] فَمَاتَ بِهَا

(١) يريد الاسماعيلية أو الباطنية كما فى أبى الفداء وغيره « أحمد يوسف نجاتى » (٢) ضرب من السفن (٣) منظرة اللؤلؤة بناها الخليفة العزيز بالله ، وجددها الظاهر لأعزاز دين الله بعد أن هدمها أبوه الحاكم، ومكانها الآن حيث مدرسة الفرير بشارع الشعرانى البرانى على رأس شارع الخرنفش

وَقِيلَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا - وَقَدْ خَرِبَ هَذَا الْهَوْدَجُ، وَجُهِلَ مَكَانُهُ مِنَ الرَّوْضَةِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. نَقَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْحَافِظُ الْمَقْرِيزِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ النُّورُ بْنُ سَعِيدٍ - وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْتُ: لَمَّا نَزَلْنَا بِتَلَّعْفَرَ(١) حِينَ خَرَجْنَا مِنْ سِنْجَارَ(٢) إِلَى الْمَوْصِلِ سَأَلْتُ أَحَدَ شُيُوخِنَا عَنْ وَالِدِ شِهَابِ الدِّينِ التَّلَّعْفَرِيِّ، فَقَالَ: أَنَا أَدْرَكْتُهُ، وَكَانَ كَثِيرَ التَّجَوُّلِ، وَأَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ فِي عِيدٍ أَدْرَكَهُ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ:

يَبْتَهِجُ النَّاسُ إِذَا عَيَّدُوا ... وَعِنْدَ سَرَّائِهِمُ أَكْمَدُ
لِأَنَّنِي أُبْصِرُ أَحْبَابَهُمْ ... وَمُقْلَتِي مَحْبُوبَهَا تَفْقِدُ

قَالَ: وَخَرَجَ ابْنُهُ الشِّهَابُ أَجْوَلَ مِنْهُ شَخْصًا وَشِعْرًا - وَصَدَقَ فِيمَا قَالَهُ - وَأَنْشَدَ ابْنُ سَعِيدٍ لِلشِّهَابِ التَّلَّعْفَرِيِّ قَوْلَهُ:

لَكَ ثَغْرٌ كَلُؤْلُؤٍ فِي عَقِيقِ
وَرُضَابٌ كَالشَّهْدِ أَوْ كَالرَّحِيقِ

من قسم الجمالية، وكانت نزهة الخلفاء الفاطميين، وبها كانت قصورهم «أحمد يوسف نجاتى» (١) يريد تل أعفر أو تل يعفر بلد الشهاب التلعفرى — وقيل أن أصله التل الأعفر للونه، فغير بكثرة الاستعمال وطلب الخفة «أحمد يوسف نجاتى» (٢) مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة فى لحف جبل عال

وَجُفُونٌ لَمْ تُمْتَشَقْ سَيْفُهَا إِلْ
لَا لِمُغْرًى بِقَدِّكَ الْمَمْشُوقِ[1]
تُهْتَ عُجْبًا بِكُلِّ فَنٍّ مِنَ الْحُسْ
نِ جَلِيلٍ وَكُلِّ مَعْنًى دَقِيقِ
وَتَفَرَّدْتَ بِالْجَمَالِ الَّذِي خَلْ لَاكَ مُسْتَوْحِشًا بِغَيْرِ رَفِيقِ
بِاللِّحَاظِ الَّتِي بِهَا لَمْ تَزَلْ تَرْ
شُقُ قَلْبِي ، وَبِالْقَوَامِ الرَّشِيقِ
لَا تُغِرْ بِالْغُوَيْرِ - إِذْ تَتَثَنَّى
فِيهِ - أَعْطَافَ كُلِّ غُصْنٍ وَرِيقِ[2]
وَأْثْنِ مُحْمَرَّ وَرْدِ خَدَّيْكَ ، وَأُسْتُرْ
هُ ، وَإِلَّا يَنْشَقُّ قَلْبُ الشَّقِيقِ[3]

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ : وَحَظِيَ الشِّهَابُ التَّلَّعْفَرِيُّ بِمُنَادَمَتِهِ الْمُلُوكَ ، وَكَوْنِهِمْ يُقَدِّمُونَهُ ، وَيُقْبِلُونَ عَلَى شِعْرِهِ ، وَعَهْدِي بِهِ لَا يُنْشِدُ أَحَدٌ قَبْلَهُ فِي مَجْلِسِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ - عَلَى كَثْرَةِ الشُّعَرَاءِ وَكَثْرَةِ مَنْ يَعْتَنِي بِهِمْ - وَلَمَّا جَمَعْتُ لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ

---

(١) أي الأهيف اللطيف المعتدل ، وامتشق الحسام استله (٢) الغوير : موضع على الفرات ، وماء بأرض السماوة بين العراق والشام ، والوريق المورق الناضر يقول : لا تجعلها تغار اذا رأت قدك أحسن تثنيا منها «أحمد يوسف نجاتي»
(٣) الشقيق ورد أحمر مشهور معروف « وكأن في لفظ الشقيق تورية »

كِتَاب « مُلُوكِ ٱلشِّعْرِ » جَعَلْتُ مَلِكَ شِعْرِ ٱلشِّهَابِ ٱلبَيْتَ ٱلرَّابِعَ مِنَ ٱلْمَقْطُوعَةِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُهُ وَيُنَوِّهُ بِهِ . وَٱلتَّشَفِّي مِنْ ذِكْرِ ٱلشِّهَابِ وَمَحَاسِنِ شِعْرِهِ لَهُ مَكَانٌ بِكِتَابِ « ٱلْغُرَّةِ ٱلطَّالِعَةِ فِي فُضَلَاءِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ »(١) وَهُوَ ٱلْآنَ عِنْدَ ٱلْمَلِكِ ٱلْمَنْصُورِ صَاحِبِ حَمَاةَ(٢) قَدْ عَلَتْ سِنُّهُ ، وَمَا فَارَقَهُ غَرَامُهُ وَدَنُّهُ(٣) ٱنْتَهَى . وَلَمَّا أَجْرَى ٱبْنُ سَعِيدٍ فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِ ذِكْرَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ بْنِ أَيُّوبَ قَالَ مَا نَصُّهُ : وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ ٱلسَّلَاطِينِ دَهَاءً وَحَزْمًا ، وَكَانَ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي إِفْسَادِ ٱلْقُلُوبِ عَلَى أَعْدَائِهِ وَإِصْلَاحِهَا لَهُ ، وَيُحْكَى أَنَّهُ بَشَّرَهُ شَخْصٌ بِأَنَّ أَمِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ ٱلْأَفْضَلِ(٤) ٱبْنِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ فَسَدَ عَلَيْهِ ، فَأَعْطَاهُ مَالًا جَزِيلًا ، وَأُرْسِلَ مُسْتَخْفِيًا إِلَى ٱلْمَذْكُورِ يَزِيدُهُ بَصِيرَةً فِي ٱلِٱنْحِرَافِ عَنِ

---

(١) هو كتاب لابن سعيد المترجم ، وهناك كتاب بهذا الاسم أيضا جمعه الأديب محمد بن على بن هانئ السبتى المتوفى سنة ٧٢٣ أخذ اسم كتابه من ابن سعيد، أو توارد خاطراهما على الاسم « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هو ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن تقى الدين بن عمر شاهنشاه بن أيوب، تملك بعد أبيه سنة ٦٤٢ وله عشر سنين رعاية لأمه الصاحبة ابنة الكامل، وتوفى سنة ٦٨٣ « أحمد يوسف نجاتى » (٣) توفى الشهاب التلعفرى سنة ٦٧٥ وسيأتى زيادة تعريف به « أحمد يوسف نجاتى » (٤) الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو أكبر

ٱلْأَفضَلِ ، وَيَعِدُهُ بِمَا يُفْسِدُ ٱلصَّالِحَ ، فَكَيْفَ ٱلْفَاسِدُ ؟! قَالَ وَكَانَ يَمْنَعُ حَتَّى يُوصَفَ بِالْبُخْلِ ، وَيَجُودُ فِي مَوَاضِعِ ٱلْجُودِ حَتَّى يُوصَفَ بِالسَّمَاحِ . وَكَانَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ وَهُوَ ٱلسُّلْطَانُ يَأْخُذُ بِرَأْيِهِ ، وَقَدَّمَ لَهُ أَحَدُ ٱلْمُصَنِّفِينَ كِتَابًا مُصَوَّرًا فِي مَكَايِدِ ٱلْحُرُوبِ وَمُنَازَلَةِ ٱلْمُدُنِ وَهُوَ حِينَئِذٍ عَلَى عَكَّا مُحَاصِرًا لِلْفِرَنْجِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا نَحْتَاجُ إِلَى هَذَا ٱلْكِتَابِ وَمَعَنَا أَخُونَا أَبُو بَكْرٍ . وَكَانَ كَثِيرَ ٱلْمُدَارَاةِ وَٱلْحَزْمِ ، وَمِنْ حِكَايَاتِهِ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَحَدَ ٱلْأَشْيَاخِ مِنْ خَوَاصِّهِ قَالَ لَهُ يَوْمًا ـ وَهُوَ عَلَى سِمَاطِهِ يَأْكُلُ : يَا خُوَنْدُ ، مَا وَفَيْتَ مَعِي ، وَلَا رَعَيْتَ سَابِقَ خِدْمَتِي ، وَكَلَّمَهُ بِدَالَّةِ ٱلسِّنِّ وَقِدَمِ ٱلصُّحْبَةِ قَبْلَ ٱلْمُلْكِ فَقَالَ لِمَمَالِيكِهِ : اُنْظُرُوا وَسَطَهُ ، فَحَلُّوا[1] ٱلْكَمَرَانَ ، وَقَالَ : خُذُوا ٱلصُّرَّةَ ٱلَّتِي فِيهِ ، فَوَجَدُوا صُرَّةً ، فَقَالَ : اُفْتَحُوهَا ، فَفَتَحُوهَا فَإِذَا فِيهَا

أولاد صلاح الدين ، ولد بمصر سنة ٥٦٥ وأعطاه والده الشام سنة ٥٨٢ وتوفى سنة ٦٢٢ وكان فاضلا أديبا شاعرا حسن الخط قليل الحظ غير مسعود فى حركاته، ومن شعره ما كتبه الى الخليفة لما خرج من دمشق واتفق عليه الملك العادل عمه والعزيز أخوه :

مولاى ان أبا بكر وصاحبه   عثمان قد غصبا بالسيف حق على

فانظر الى حظ هذا الاسم كيف لقى   من الأواخر ما لاقى من الأول!

أبو بكر عمه العادل ، وعثمان أخوه العزيز « أحمد يوسف نجاتى »

(١) فى نسخة « فجسوا » « أحمد يوسف نجاتى »

ذَرُورٌ، فَقَالَ الْعَادِلُ: كُلْ مِنْ هَذَا الذَّرُورِ، فَتَوَقَّفَ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَنَّهُ سُمٌّ ، فَقَالَ: كَيْفَ نَسَبْتَنِي إِلَى قِلَّةِ الْوَفَاءِ وَأَنَا مُنْذُ سِنِينَ أَعْلَمُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَسُمَّنِي بِهَذَا السُّمِّ؟! وَقَدْ جَعَلَ لَكَ الْمَلِكُ الْفُلَانِيُّ عَلَى ذَلِكَ عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ، فَلَا أَنَا أَمْكَنْتُكَ مِنْ نَفْسِي، وَلَا أَشْعَرْتُكَ لِئَلَّا يَكُونَ فِي ذَلِكَ مَالَا خَفَاءَ بِهِ، وَتَرَكْتُكَ عَلَى حَالِكَ، وَأَنَا مَعَ هَذَا لَا أُغَيِّرُ عَلَيْكَ نِعْمَةً! ثُمَّ قَالَ: رُدُّوا سُمَّهُ إِلَى كَمَرَانِهِ، لَا أَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ إِنْ قَدَرَ وَأَبْقَى عَلَيَّ، فَجَعَلَ يُقَبِّلُ الْأَرْضَ وَيَقُولُ: هَكَذَا وَاللَّهِ كَانَ، وَأَنَا تَائِبٌ لِلَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ جَدَّدَ تَوْبَةً، وَاسْتَأْنَفَ أَدَبًا آخَرَ وَخِدْمَةً أُخْرَى، وَكَانَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةُ مِنْ إِحْدَى عَجَائِبِ الْعَادِلِ. قَالَ: وَكَانَ كَثِيرَ الْمُصَانَعَاتِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَصُوغُ الْحُلِيَّ الَّذِي يَصْلُحُ لِنِسَاءِ الْفِرَنْجِ، وَيُوَجِّهُهُ فِي الْخُفْيَةِ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يُمْسِكْنَ أَزْوَاجَهُنَّ عَنِ الْحَرَكَةِ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ مَعَ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ. وَلَمَّا خَرَجَ ابْنُ أَخِيهِ الْمُعِزُّ إِسْمَعِيلُ بْنُ طُغْتِكِينَ[1] بِالْيَمَنِ، وَخَطَبَ لِنَفْسِهِ بِالْخِلَافَةِ

---

(١) الملك المعز اسماعيل بن سيف الاسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب صاحب اليمن وابن صاحبها ، ولى الملك باليمن بعد وفاة أبيه سنة ٥٩٣ وكان

وَكَتَبَ لَهُ أَنْ يُبَايِعَهُ وَيَخْطُبُ لَهُ فِي بِلَادِهِ ـ كَانَ فِي ٱلْجَمَاعَةِ مَنْ أَشَارَ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي تَوْجِيهِ عَسْكَرٍ لَهُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَإِنْفَاقِ ٱلْأَمْوَالِ قَبْلَ أَنْ يَتَفَاقَمَ أَمْرُهُ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: مَنْ يَكُونُ عَقْلُهُ هَذَا ٱلْعَقْلَ لَا يُحْوِجُ خَصْمَهُ إِلَى كَبِيرِ مَؤُونَةٍ أَنَا أَعْرِفُ كَيْفَ أُفْسِدُ عَلَيْهِ حَالَهُ فِي بِلَادِهِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَتَطَرَّقَ فَسَادُهُ لِبِلَادِي، ثُمَّ إِنَّهُ وَجَّهَ فِي ٱلسِّرِّ لِأَصْحَابِ دَوْلَتِهِ بِٱلْوَعْدِ وَٱلْوَعِيدِ، وَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ بِعُقُولِكُمْ أَنَّ هَذَا لَا يَسُوغُ لِي، فَكَيْفَ يَسُوغُ لَهُ؟ وَقَدْ أَدْخَلَ نَفْسَهُ فِي أَمْرٍ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا بِهَلَاكِهِ! فَاحْذَرُوا أَنْ تَهْلِكُوا مَعَهُ وَٱتَّعِظُوا بِٱلْآيَةِ «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ» وَمَا لِهَذَا عَقْلٌ يُدَبِّرُ بِهِ نَفْسَهُ، فَكَيْفَ يَفْضُلُ عَنْ تَدْبِيرِ خَاصَّتِهِ إِلَيْكُمْ؟! «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» فَعِنْدَمَا وَعَتْ أَسْمَاعُهُمْ هَذَا وَتَدَبَّرُوهُ بِعُقُولِهِمْ قَبَضُوا عَلَيْهِ وَقَتَلُوهُ وَعَادَتِ ٱلْبِلَادُ لِلْعَادِلِ، وَقَالَ لِلْمُشِيرِينَ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ بِتَجْهِيزِ ٱلْعَسْكَرِ: قَدْ كُفِينَا ٱلْمَؤُونَةَ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمَالِ

سيء الأعمال مدمناظالما، وادعى أنه أموى، وخرج وعزم على الخلافة. فوثب عليه اخوان من أمرائه فقتلاه سنة ٥٩٨ وولى بعده أخ له صبى اسمه الناصر أيوب «أحمد يوسف نجاتى»

وَلَوْ حَاوَلْنَاهُ بِمَا أَشَرْتُمْ بِهِ لَمْ تَقُمْ خَزَائِنُ مُلْكِنَا بِالْبُلُوغِ إِلَى غَايَتِهِ . وَكَانَ عَلَى مَا بَلَغَهُ مِنْ عَظَمَةِ السُّلْطَانِ وَاتِّسَاعِ الْمَمَالِكِ يَحْكِي مَا جَرَى لَهُ فِي زَمَانِ خُلُوِّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُحِبُّ الِاسْتِمَاعَ لِنَوَادِرِ أَنْذَالِ الْعَالَمِ ، وَاشْتَهَرَ فِي خِدْمَتِهِ مَسَاخِرُ أَشْهَرُهُمْ خُضَيْرٌ صَاحِبُ الْبُسْتَانِ الْمَشْهُورِ عِنْدَ الرَّبْوَةِ بِغُوطَةِ دِمَشْقَ ، وَمِنْ نَوَادِرِهِ الْحَاضِرَةِ[1] مِنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَوْمًا وَهُوَ يَقُولُ فِي وُضُوئِهِ « اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا ، وَلَا تُحَاسِبْنِي حِسَابًا عَسِيرًا » فَقَالَ لَهُ : يَاخُونْدُ : عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحَاسِبُكَ حِسَابًا عَسِيرًا ؟! إِذَا قَالَ لَكَ : أَيْنَ أَمْوَالُ الْخَلْقِ الَّتِي أَخَذْتَهَا ؟ فَقُلْ لَهُ : تَرَاهَا بِأَمَانَتِهَا فِي الْكَرَكِ - وَكَانَ قَدْ صَنَعَ بِهَذَا الْمَعْقِلِ « الْحَسَرَاتِ » سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ رَآهَا يَتَحَسَّرُ إِذَا نَظَرَهَا ، وَلَا يَسْتَطِيعُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بِحِيلَةٍ ، وَهِيَ جَوَابٍ[2] مَفْرُوغَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، تُرِكَتْ بِمَرْأًى مِنَ النَّاظِرِينَ لِيَشْتَهِرَ ذَلِكَ فِي الْآفَاقِ . وَقَالَ الْعَادِلُ مَرَّةً - وَقَدْ جَرَى ذِكْرُ

---

(١) فى نسخة « الحارة معه » (٢) جمع جابية : وهى حوض ضخم يجبى فيه الماء ، ومنه قوله تعالى : وجفان كالجوابى - أو خواب ، جمع خابية : وهى الحب « أى الزير المعد للماء » وفى الأصل « خراب » وهو تصحيف فاسد ما أكثر أمثاله فى الأصل « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْبَرَامِكَةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ ذُكِرَ فِي كِتَابِ « ٱلْمُسْتَجَادِ فِي حِكَايَاتِ ٱلْأَجْوَادِ[1] » ــ : إِنَّمَا هَذَا كَذِبٌ مُخْتَلَقٌ مِنَ ٱلْوَرَّاقِينَ وَمِنَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ ، يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يُحَرِّكُوا هِمَمَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَكَابِرِ لِلسَّخَاءِ وَتَبْذِيرِ ٱلْأَمْوَالِ ، فَقَالَ خُضَيْرٌ : يَا خُوَنْدُ وَلِأَيِّ شَيْءٍ مَا يَكْذِبُونَ عَلَيْكَ ! قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : مَنْ وَقَفَ عَلَى حِكَايَاتِ أَبِي ٱلْعَيْنَاءِ[2] مَعَ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ يَجِدُ مِثْلَ هَذِهِ ٱلْحِكَايَةِ . قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: وَوَجَدْتُ ٱلشِّهَابَ ٱلْقُوصِيَّ[3]

(١) كتاب « المستجاد من فعلات الأجواد » لأبي على المحسن بن على التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤ « أحمد يوسف نجاتي » (٢) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان الهاشمي بالولاء الضرير مولى أبي جعفر المنصور، صاحب النوادر والشعر والأدب، وكان من ظرفاء العالم ، ومن أحفظ الناس وأفصحهم لسانا وأحضرهم بديهة ، وفيه من اللسن وسرعة الجواب والذكاء مالم يكن في أحد من نظرائه، وله أخبار حسان وأشعار ملاح مع أبي على الضرير ، وحضر يوما مجلس الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب، فتفاوضوا في حديث البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود وسعة العطاء والبذل، فقال الوزير لأبي العيناء ــ وكان قد بالغ في وصفهم وما كانوا عليه من الأفضال ومنح الصلات ــ : قد أكثرت من ذكرهم ووصفك اياهم، وانما هذا تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين، فقال له أبو العيناء: فلم لا يكذب الوراقون على الوزير؟! فسكت الوزير، وعجب الحاضرون من اقدامه عليه ــ ولد أبو العيناء بالأهواز سنة ١٩١ ونشأ بالبصرة، وسكن بغداد مدة ، وعاد الى البصرة ، وبها توفي سنة ٢٨٣ « أحمد يوسف نجاتي » (٣) هو أبو المحامد وأبو العرب وأبو الفداء وأبو الطاهر اسمعيل بن حامد

قَدْذَكَرَ ٱلسُّلْطَانَ ٱلْعَادِلَ «فِي كِتَابِ ٱلْمَعَاجِمِ» وَٱبْتَدَأَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمَذْكُورَ بِمَحَاسِنِهِ وَٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَخَرَّجَ عَنْهُ ٱلْحَدِيثَ ٱلنَّبَوِيَّ عَنِ ٱلْحَافِظِ ٱلسِّلَفِيِّ. وَتَمَثَّلَ فِيهِ عِنْدَ وَفَاتِهِ:

أَلَامَ عَلَى بُكَائِي خَيْرَ مَلْكٍ ... وَقَلَّ لَهُ بُكَائِي بِالنَّجِيعِ[1]

بِهِ كَانَ ٱلشَّبَابُ جَمِيعَ عُمْرِي ... وَدَهْرِي كُلُّهُ زَمَنَ ٱلرَّبِيعِ

فَفَرَّقَ بَيْنَنَا زَمَنٌ خَئُونٌ ... لَهُ شَغَفٌ بِتَفْرِيقِ ٱلْجَمِيعِ

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: وَدُفِنَ ٱلْعَادِلُ بِمَدْرَسَتِهِ ٱلْعَادِلِيَّةِ بِدِمَشْقَ وَكَانَ أَنْشَأَهَا لِلشَّافِعِيَّةِ، وَهِيَ فِي نِهَايَةِ ٱلْحُسْنِ، وَبِهَا خِزَانَةُ كُتُبٍ فِيهَا «تَارِيخُ ٱبْنِ عَسَاكِرَ» وَذَيَّلَ هَذَا ٱلتَّارِيخَ وَٱخْتَصَرَهُ أَبُو شَامَةَ[2] سَمِعْتُ عَلَيْهِ مِنْهُ هُنَالِكَ مَا تَيَسَّرَ أَيَّامَ إِقَامَتِي

ابن عبد الرحمن بن المرجى بن المؤمل بن محمد بن على بن ابراهيم بن نفيس ابن سعد بن سعد بن عبادة بن الصامت « الصحابى رضى الله عنه » الفقيه الشافعى الأنصارى الخزرجى القوصى، كان وكيل بيت المال بالشام، ولد بمدينة قوص سنة ٥٧٤ ورحل الى القاهرة سنة ٥٩٠ ثم قدم الى دمشق سنة ٥٩١ واستوطنها ، وسمع الكثير ببلاد متعددة ، واتصل بالصاحب صفى الدين بن شكر، وخرج لنفسه معجما فى أربع مجلدات كبار، وكان أديبا أخباريا فصيحا مفوها ، وتقدم عند الملوك ، ودرس بجامع دمشق. وتوفى بها سنة ٦٥٣ ودفن بداره التى وقفها دار حديث « أحمد يوسف نجاتى » (١) النجيع : الدم الأحمر (٢) «تاريخ دمشق» للامام الحافظ أبى الحسن على بن حسن المعروف

بِدِمَشْقَ . وَأَوْلَادُ ٱلْعَادِلِ مُلُوكُ ٱلْبِلَادِ فِى صَدْرِ هَذِهِ ٱلْمِائَةِ ٱلسَّابِعَةِ ؛ مِنْهُمُ ٱلْكَامِلُ ، وَٱلْمُعَظَّمُ ، وَٱلْأَشْرَفُ(١) ، وَهُؤُلَاءِ

بابن عساكر الدمشقى المتوفى سنة ٥٧١ وهو موسوعة أدبية ومعجم حافل مشهور ، واختصره الامام أبو شامة عبد الرحمن بن اسمعيل الدمشقى المتوفى سنة ٦٦٥ « أحمد يوسف نجاتى » (١) السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن الأمير أبى الشكر نجم الدين أيوب أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى ، ولى الأمر بعد خلع الملك المنصور محمد بن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتسلطن مكانه فى شوال سنة ٥٩٦ « وكان السلطان صلاح الدين يعول عليه كثيرا ، وحضر معه فتوحاته ، واستنابه بمصر مدة ، ثم أعطاه حلب ، ثم أخذها منه ، وأعطاها ولده الظاهر ، ومنحه قلعة الكرك عوضها ثم حران ، وتنقل فى الممالك فى حياة صلاح الدين وبعد وفاته ، ثم استقل بالديار المصرية ، وكان دخوله الى القاهرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٩٦ وملك مع ذلك البلاد الشامية والمشرقية ، وصفت له الدنيا ، ثم ملك اليمن سنة ٦١٢ وسير اليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن الملك الكامل محمد ، وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه فى ميافارقين وتلك النواحى ، ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده ؛ فأعطى الملك الكامل محمد الديار المصرية ، وأعطى الملك المعظم عيسى البلاد الشامية ، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية ، وبلغ من سعادته أن أنجب أولادا كانوا أعظم نعم الله عليه ، لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ، ودانت لهم العباد ، وملكوا البلاد . ومدحه الشاعر المشهور أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصارى المتوفى سنة ٦٣٠ بقصائد طنانة ، منها فى مديح أولاده :

وله البنون بكل أرض منهم ملك يقود الى الأعادى عسكرا

من كل وضاح الجبين ، تخاله بدرا ، وان شهد الوغى فغضنفرا

ٱلثَّلَاثَةُ شُهِرُوا بِالْفَضْلِ وَحُبِّ ٱلْفُضَلَاءِ وَقَوْلِ ٱلشُّعَرَاءِ . ٱنْتَهَى . وَقَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ فِي تَرْجَمَةِ ٱلرَّئِيسِ صَفِيِّ ٱلدِّينِ أَحْمَدَ

متقدم ، حتى اذا النقع انجـلى   بالبيض عن سبي الحريم تأخرا
قوم زكوا أصلا ، وطابوا محتدا   وتدفقوا جودا ، وراقوا منظرا

وهى طويلة جيدة، وتوفى الملك العادل سنة ٦١٥ وكان أصغر الاخوة، وأطولهم عمرا، وأعمقهم فكرا، وأبصرهم فى العواقب، وأعرفهم بقيمة المال، وأحزمهم فى تدبيره . وكان له عدة أولاد؛ منهم شمس الدين مودود ، وتوفى فى حياة أبيه، وهو والد الملك الجواد يونس ، ومنهم السلطان الكامل ناصر الدين محمد صاحب الديار المصرية ، توفى سنة ٦٣٥ والأشرف مظفر الدين موسى صاحب الشرق وبلاد خلاط بعد أخيه الأوحد أيوب المتوفى فى حياة أبيه ، ومنهم الفائز ابراهيم الملقب سابق الدين ، وشهاب الدين غازى صاحب ميافارقين ، والملك العزيز عماد الدين عثمان ، والملك الأمجد مجد الدين حسن توفى فى حياة والده ، والملك الحافظ نور الدين على أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر ، والملك الصالح عماد الدين اسمعيل صاحب بصرى ودمشق ، والملك المغيث عمرو — توفى فى حياة والده ، وخلف ولدا صغيرا — وهو الملك المغيث شهاب الدين محمود — ومجير الدين يعقوب ، والملك الأمجد تقى الدين عباس، وتوفى بدمشق سنة ٦٦٩ فى سلطنة الملك الظاهر، وهو آخرهم موتا، والملك المفضل قطب الدين أحمد، توفى بمصر فى أيام الملك الكامل، والقاهر اسحق ، والملك الناصر صلاح الدين خليل — وكان له عدة بنات ؛ أفضلهن صفية خاتون صاحبة حلب أم الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الظاهر غازى والد الملك الناصر يوسف الذى أسر فى حوادث التتار سنة ٦١٥ ، وتوفى المعظم عيسى صاحب دمشق سنة ٦٢٤ وتوفى الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى سنة ٦٣٥ « أحمد يوسف نجاتى »

أَبْنِ سَعِيدٍ الْمَرْذَغَانِيَّ ـ وَهُوَ مِنْ بَيْتِ وِزَارَةٍ وَرِيَاسَةٍ بِدِمَشْقَ ـ:
إِنَّ مِنْ شِعْرِهِ قَوْلَهُ :

كَيْفَ طَابَتْ نُفُوسُكُمْ بِفِرَاقِي ؟!
وَفِرَاقُ الْأَحْبَابِ مُرُّ الْمَذَاقِ !
لَوْ عَلِمْتُمْ بِلَوْعَتِي وَصَبَابَا
تِي وَوَجْدِي وَزَفْرَتِي وَاحْتِرَاقِي
لَرَثَيْتُمْ لِلْمُسْتَهَامِ الْمُعَنَّى وَوَفَيْتُمْ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ

قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: وَقَفْتُ عَلَى ذِكْرِ هَذَا الرَّئِيسِ فِي كِتَابِ «تَاجِ الْمَعَاجِمِ» وَوَجَدْتُ صَاحِبَهُ الشِّهَابَ الْقُوصِيَّ قَدْ قَالَ: أَخْبَرَنِي بِدِمَشْقَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ عَزَمَ عَلَى السَّفَرِ مِنْهَا إِلَى مِصْرَ لِأَمْرٍ ضَاقَ بِهِ صَدْرُهُ ، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ فِي النَّوْمِ ، وَأَنْشَدَهُ :

يَا أَحْمَدُ ، اقْنَعْ بِالَّذِي أُعْطِيتَهُ
إِنْ كُنْتَ لَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ ذُلَّهَا
وَدَعِ التَّكَاثُرَ فِي الْغِنَى لِمَعَاشِرٍ
أَضْحَوْا عَلَى جَمْعِ الدَّرَاهِمِ وُلَّهَا[1]

(١) جمع واله ، من وله بالشيء يوله ولها : وهو الشغف وشدة الوجد الى حد ذهاب العقل « أحمد يوسف نجاتي »

وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱللّٰهَ جَلَّ جَلَالُهُ
لَمْ يَخْلُقِ ٱلدُّنْيَا لِأَجْلِكَ كُلَّهَا

فَٱنْثَنَى عَزْمُهُ عَنِ ٱلْحَرَكَةِ، ثُمَّ بَلَغَ مَا أَمَّلَهُ دُونَ سَفَرٍ.

وَقَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ فِي تَرْجَمَةِ ٱلْمُنْتَخَبِ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ ٱلْكَرِيمِ ٱلدِّمَشْقِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ بِدِفْتِرْخُوَانَ - وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْرَأُ ٱلدَّفَاتِرَ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَكَابِرِ -: إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ ٱلدَّفَاتِرَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْعَادِلِ بْنِ أَيُّوبَ، وَكَانَ يَكْتُبُ لَهُ بِٱلْأَشْعَارِ فِي ٱلْمَوَاسِمِ وَٱلْفُصُولِ، فَيَنَالُ مِنْ خَيْرِهِ، وَكَتَبَ لَهُ مَرَّةً وَقَدْ أَطَلَّ ٱلشِّتَاءُ فِي دِمَشْقَ فَقَالَ:

مَوْلَايَ، جَاءَ ٱلشِّتَاءُ وَٱلْكِيسُ مِنْهُ خَلَاءُ
لَا زَالَ يَجْرِي بِمَا تَرْ تَضِي عُلَاكَ ٱلْقَضَاءُ
وَكُلُّ كَافٍ إِلَيْهِ يُحْتَاجُ فِيهِ ٱلتَّوَاءُ[1]

---

(١) يشير الى كافات الشتاء السبعة المعروفة لدى الأدباء التى جمعها الشاعر ابن سكرة الهاشمى فى قوله :

جاء الشتاء وعندى من حوائجه سبع اذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكاس طلا ثم الكباب و . . . . ناعم وكسا

وزاد ابن مسعود عليه كافا ثامنة، فقال :

وكم ليلة فى شهر كانون بتها أعانق من حبي بها الدعص والغصنا
سمعت من الكافات فيها ثمانيا فماشئت من مرأى أنيق حوى الحسنا

فَقَالَ لَهُ ٱلْعَادِلُ: هَذَا ٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ عَلَى مَا ذَا يَعُودُ؟ قَالَ: بِحَسَبِ مَكَارِمِ ٱلسُّلْطَانِ، إِنْ شِئْتَ عَلَى ٱلدَّرَاهِمِ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ، فَضَحِكَ، وَقَالَ: هَاتِ كِيسَكَ فَأَخْرَجَ لَهُ كِيسًا يَسَعُ قَدْرَ مِائَةِ دِينَارٍ، فَمَلَأَهُ لَهُ، وَقَالَ: أَظُنُّهُ كَانَ مُعَدًّا عِنْدَكَ، فَقَالَ: مِثْلُ ٱلسُّلْطَانِ مَنْ يَكُونُ جُودُهُ مَظْنُونًا. وَكَتَبَ إِلَيْهِ مَرَّةً وَقَدْ أَمْلَقَ:

أُنْظُرْ إِلَيَّ بِعَيْنِ جُودِكَ مَرَّةً
فَلَعَلَّ مَحْرُومَ ٱلْمَطَالِبِ يُرْزَقُ
طَيْرُ ٱلرَّجَاءِ عَلَى عُلَاكَ مُحَلِّقٌ
وَأَظُنُّهُ سَيَعُودُ وَهُوَ مُخَلَّقٌ(١)

فَأَعْطَاهُ جُمْلَةَ دَنَانِيرَ، وَقَالَ لَهُ: اُشْتَرِ بِهَذِهِ مَا تُخَلِّقُ بِهِ طَيْرَ رَجَائِكَ. اُنْتَهَى. وَأَنْشَدَ ٱبْنُ سَعِيدٍ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى لِبَعْضِ ٱلْمَغَارِبَةِ ــ وَهُوَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مَرْوَانَ ٱلرِّبَاطِيُّ(٢) ٱلْكَاتِبُ:

كبابا وكيزانا وكيسا وكاعبا   كساء وكوبا والكوانين والكنا

الدعص: الكثيب، يريد الردف: والكن: البيت، والتواء الأمر تعسره. «أحمد يوسف نجاتي» (١) مخلق: أي مطيب بالخلوق: وهو العطر والطيب.

(٢) لعله منسوب الى رباط الفتح: مدينة بالمغرب قرب سلا على نهر بالقرب من البحر المحيط، بناها الأمير المنصور يعقوب بن تاشفين على هيئة الاسكندرية وفي نسخة «الزناطي» ولعله يريد «الزناتي» «أحمد يوسف نجاتي»

أُنْسُ أَخِي ٱلْفَضْلِ كِتَابٌ أَنِيقْ
أَوْ صَاحِبٌ يُعْنَى بِوُدٍّ وَثِيقْ

فَإِنْ تُعِرْهُ دُونَ رَهْنٍ بِهِ
تَخْسَرْهُ أَوْ تَخْسَرْ وِدَادَ ٱلصَّدِيقْ

وَرُبَّمَا تَخْسَرُ هَـــذَا وَذَا
فَاسْمَعْ ـ رَعَاكَ ٱللهُ ـ نُصْحَ ٱلشَّفِيقْ

قَالَ وَأَجَابَهُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ ـ وَهُوَ ٱبْنُ ٱلرَّبِيبِ[1] بِنَثْرٍ نَصُّهُ: مِثْلُكَ يُفِيدُ تَجْرِبَةً قَدْ نَفَقَ[2] عَلَيْهَا عُمْرٌ، وَضَلَّ عَنْ فَوَائِدِهَا غِرٌّ غُمْرٌ[3] وَقَدْ أَنْفَذْتُ رَهْنًا لَا يُسْمَحُ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ ٱلْيَدِ إِلَّا لِيَدِكَ[4] فَتَفَضَّلْ بِتَوْجِيهِ ٱلْجُزْءِ ٱلْأَوَّلِ فَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ عِنْدَكَ مِثْلُ وَلَدِكَ. قَالَ فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ بِطَاقَةٌ صَغِيرَةٌ فِيهَا: يَا أَخِي، إِنْ عَرَّضْتَ بِوَلَدِي فَكَذَلِكَ كُنْتُ مَعَ وَالِدِي، وَقَدْ تَوَارَثْنَا ٱلْعُقُوقَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَكُنْ شَاكِرًا

(١) هو أبو على الحسين بن محمد التميمى القيروانى، كان فى أواسط القرن الخامس، وكان بينه وبين أبى المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن ابن سعيد بن حزم القرطبي مكاتبات أدبية «وتوفى أبو المغيرة بن حزم سنة ٤٣٨» «أحمد يوسف نجاتى» (٢) نفد وضاع وفنى (٣) الغر: ذو الغفلة من لم يجرب الأمور وكذلك الغمر (٤) فى الأصل «الا لديك» وهو تصحيف يضيع معه السجع المقصود «أحمد يوسف نجاتى»

فَإِنِّى صَابِرٌ . ثُمَّ قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَتَفَاقَمَ[١] أَمْرُ وَلَدِهِ، فَقَيَّدَهُ بِقَيْدٍ حَدِيدٍ، وَقَالَ فِيهِ :

لِى وَلَدٌ يَالَيْتَهُ لَمْ يَكُ عِنْدِى يُخْلَقُ
يَجْهَدُ فِى كُلِّ ٱلَّذِى يُرْغِمُ وَهُوَ يَعْشَقُ
وَإِنْ أَكُنْ قَيَّدْتُهُ دَمْعِى عَلَيْهِ مُطْلَقُ

وَذَكَرَ ٱبْنُ سَعِيدٍ أَنَّ ٱلْكَاتِبَ أَبَا ٱلْحَسَنِ ٱلْمَذْكُورَ كَانَ كَثِيرًا مَا يَسْتَعِيرُ ٱلْكُتُبَ ، فَإِذَا طُلِبَتْ مِنْهُ فَكَأَنَّهَا مَا كَانَتْ، فَذُكِرَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ ـ وَهُوَ ٱبْنُ ٱلرَّبِيبِ ٱلْمُؤَرِّخُ ـ أَنَّ عِنْدَهُ نُسْخَةً جَلِيلَةً مِنْ تَارِيخِ عَرِيبٍ[٢] ٱلَّذِى لَخَّصَ فِيهِ تَارِيخَ ٱلطَّبَرِىِّ ، وَٱسْتَدْرَكَ عَلَيْهِ مَا هُوَ مِنْ شَرْطِهِ، وَذَيَّلَ مَا حَدَثَ بَعْدَهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فِى ٱسْتِعَارَتِهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : يَا أَخِى ، سَدَّدَ ٱللهُ آرَاءَكَ ، وَجَعَلَ عَقْلَكَ أَمَامَكَ لَا وَرَاءَكَ ، مَا يَلْزَمُنِى مِنْ كَوْنِكَ مُضَيِّعًا أَنْ أَكُونَ كَذَلِكَ ، وَٱلنُّسْخَةُ ٱلَّتِى رُمْتَ إِعَارَتَهَا هِىَ مُؤْنِسِى إِذَا أَوْحَشَنِى ٱلنَّاسُ ، وَكَاتِمُ سِرِّى إِذَا خَانُونِى ، فَمَا أُعِيرُهَا إِلَّا بِشَىْءٍ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَتَأَذَّى بِفَقْدِهِ إِذَا فُقِدَ جُزْءٌ مِنَ ٱلنُّسْخَةِ ،وَأَنَا ٱلَّذِى أَقُولُ :

(١) عظم واشتد (٢) عريب بن محمد القرطبى توفى سنة ٥٠٩ وتقدم التعريف به « أحمد يوسف نجاتى »

أُنْسُ أَخِي ٱلْفَضْلِ كِتَابٌ أَنِيقْ   إِلَى آخِرِهِ

وَأَنْشَدَ لِلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلْمَذْكُورِ :

إِنَّ ذَاكَ ٱلْعِذَارَ قَامَ بِعُذْرِى   وَفَشَا فِيهِ لِلْعَوَاذِلِ سِرِّى

مَارَأَيْنَامِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِسْكًا   صَاغَ مِنْهُ ٱلْإِلٰهُ هَالَةَ[1] بَدْرِ

أَىُّ آسٍ مِنْ حَوْلِ جَنَّةِ وَرْدٍ

لَيْسَ مِنْهُ آسٍ مَدَى ٱلدَّهْرِ يُبْرِى[2]

وَلَمَّا ٱشْتَدَّ مَرَضُهُ بَيْنَ تِلِمْسَانَ وَفَاسَ قَالَ هَذِهِ ٱلْأَبْيَاتَ وَأَوْصَى أَنْ تُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ :

أَلَا رَحِمَ ٱللهُ حَيًّا دَعَا   لِمَيْتٍ قَضَى بِالْفَلَا نَحْبَهُ

تَمُرُّ ٱلسَّوَافِى عَلَى قَبْرِهِ   فَتُهْدِى لِأَحْبَابِهِ تُرْبَهُ[3]

وَلَيْسَ لَهُ عَمَلٌ يُرْتَجَى   وَلَكِنَّهُ يَرْتَجِى رَبَّهُ

ٱنْتَهَى .

«رَجْعٌ» إِلَى نَظْمِ ٱبْنِ سَعِيدٍ ٱلْمُتَرْجَمِ بِهِ ، فَنَقُولُ: وَقَالَ لَمَّا

(١) الهالة : دائرة القمر (٢) الآس الأول: الريحان المعروف ، والثانى الآسى وهو الطبيب ؛ من أسا الجرح يأسوه: اذا عالجه (٣) السوافى جمع سافية : وهى الرياح تسفى التراب وتذروه « أحمد يوسف نجاتى »

سَارَ الْمُعَظَّمُ(١) مِنْ حِصْنِ كَيْفَا(٢) وَآلَ أَمْرُهُ إِلَى الْمُلْكِ، ثُمَّ الْقَتْلِ وَالْهُلْكِ:

لَيْتَ الْمُعَظَّمَ لَمْ يَسِرْ مِنْ حِصْنِهِ
يَوْمًا! وَلَا وَافَى إِلَى أَمْلَاكِهِ!

---

(١) هو السلطان الملك المعظم توران شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين محمد أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى الأيوبى الكردى سلطان الديار المصرية وآخر ملوك بنى أيوب بمصر، تسلطن بعد موت أبيه الملك الصالح فى سنة ٦٤٨ وكان حين وفاة والده فى شعبان سنة ٦٤٧ بحصن كيفا، فبويع له فى غيبته حتى حضر الى المنصورة فى أول المحرم من سنة ٦٤٨ وكان الملك المعظم هذا نائبا لأبيه الملك الصالح على حصن كيفا وغيرها من ديار بكر. . . وبعد حوادث بدت من الملك المعظم أشياء انفض الناس بها من حوله، ونفرت قلوبهم عنه فاتفقوا على قتله، واتفقت معهم على ذلك الملكة شجرة الدر زوج والده فضربه بعض مماليك أبيه البحرية بالسيف، ورموه بالنشاب، ثم قطعوه اربا وذلك فى المحرم سنة ٦٤٨ شهر توليته، وتسلطن بعده زوج أبيه أم خليل شجرة الدر باتفاق الأمراء، وخطب لها على المنابر بمصر، فكانت ولاية الملك المعظم على مصر دون الشهر «أحمد يوسف نجاتى» (٢) اسم بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر، يشقها نهر دجلة فيقسمها قسمين، وكانت فى زمن ابن سعيد لصاحب آمد من ولد داود ابن سقمان بن أرتق، وكان صاحبها فى أواخر القرن السادس نور الدين محمد بن قرا أرسلان توفى سنة ٥٨٠ وترك ابنه ظهير الدين سكمان صغيرا عمره عشر سنين، واستولى عليها سنة ٦٢٩ الملك الكامل من صاحبها الملك المسعود بن الملك الصالح أبى الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا

إِنَّ ٱلْعَنَاصِرَ إِذْ رَأَتْهُ مُكَمَّلَا

حَسَدَتْهُ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَى إِهْلَاكِهِ(١)

وَمِمَّا نَقَلْتُهُ مِنْ دِيوَانِهِ ٱلَّذِى رَتَّبَهُ عَلَى حُرُوفِ ٱلْمُعْجَمِ قَوْلُهُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ وَقُلْتُ بِالْقَاهِرَةِ عَلَى لِسَانِ مَنْ كَلَّفَنِى ذَلِكَ:

شَرَفَ ٱلدِّينِ، أَبِنْ لِى مَا ٱلسَّبَبْ

فِى ٱنْقِلَابِ ٱلدَّهْرِ لِى عِنْدَ ٱلْغَضَبْ؟!

فَلْتَدُمْ غَضْبَانَ أَظْفَرْ بِالْمُنَى

لَيْسَ لِى فِى غَيْرِ هَذَا مِنْ أَرَبْ

إِنَّمَا ظَهْرُكَ عِنْـدِى قِبْلَةٌ

وَوُضُوئِى ٱلدَّهْرَ مِنْ ذَاكَ ٱلشَّنَبْ(٢)

وَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ مِنْ قَوْلِ ٱلْكَذِبِ. قَالَ وَقُلْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ:

أرسلان بن ركن الدولة داود بن قطب الدين سقمان بن أرتق ثم عصي حصن كيفا، فأرسل الملك الكامل اليه أخاه الأشرف سنة ٦٣٠ فتسلمه بعد خطوب (١) يشير الى ما كان من قاتليه، وكانوا قد جمعوا فى قتله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء، لأنه بعد ماضرب بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعض أصابعه دخل البرج الخشب الذى كان قد عمل هناك بفارسكور فأوقدوا النيران حوله، ورموه بالنشاب، ثم قطعوه قطعا، وبقى على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا لايجسر أحد أن يدفنه، حتى شفع فيه رسول الخليفة فحمل الى ذلك الجانب فدفن به ـ رحمه الله تعالى «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) الشنب: ماء ورقة تجرى على الثغر مع برد وعذوبة فى الفم «أحمد يوسف نجاتى»

قَدْ جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ وَٱلصُّبْحُ لَمَّا رَضِيَتْ صُبْحُ

فَهَنِّئُونِي بِارْتِجَاعِ ٱلْمُـنَى

لَوْلَا ٱلرِّضَا مَا بَرِحَ ٱلْبَرْحُ (١)

يَا أَوْرَقًا يَا غُصُنًا يَا نَقًا يَا ظَبْيَةً بِاللَّيْلِ يَا صُبْحُ (٢)

يَصْحُو جَمِيعُ ٱلنَّاسِ مِنْ سُكْرِهِمْ

وَلَسْتُ مِنْ سُكْرِكُمُو أَصْحُو

بَلَغْتُ فِيهِ غَايَةً لَمْ يُبِنْ غَايَتَهَا ٱلتَّفْسِيرُ وَٱلشَّرْحُ

وَيَنْصَحُ ٱلْعُذَّالُ! مَنْ لِي بِأَنْ يَعْذِلَنِي عَنْ غَيِّكَ ٱلنُّصْحُ؟!

وَقُلْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ :

وَضَحَ ٱلصُّبْحُ ، فَأَيْنَ ٱلْقَدَحُ ؟

يَعْرِفُ ٱللَّذَّاتِ مَنْ يَصْطَبِحُ (٣)

مَا تَرَى ٱللَّيْلَ كَطِرْفٍ أَدْهَمٍ وَضِيَاءُ ٱلْفَجْرِ فِيهِ وَضَحُ (٤)؟!

---

(١) البرح: الشدة والأذى والشر، وبرح: فارق وزال (٢) لعله يريد بأورق جمع ورق «وان لم يسمع» وورق القوم: حسنهم وجمالهم ، والورق جمال الدنيا وبهجتها ، وحسنها ونضرتها ، ونعيمها وزينتها ، والورقة: الشجرة الخضراء الحسنة الأوراق كثيرتها – والنقا : الكثيب المتراكم من الرمل (٣) الاصطباح: شرب الصبوح صباحا (٤) الطرف: الجواد الكريم، والوضح: البياض والضوء. والدهمة : السواد « أحمد يوسف نجاتى »

وَالثَّرَى دَبَّجَهُ دُرُّ النَّدَى . وَعَلَى الأَغْصَانِ مِنْهُ وُشُحُ(١)
وَمُدِيرُ الرَّاحِ لَمْ يَعْدُ الْمُنَى . كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ مُقْتَرَحُ(٢)
فِي بِطَاحِ الْمَرْجِ قَدْ نَادَمَنِي . رَشَأٌ مِنْ سُكْرِهِ يَنْبَطِحُ
جَعَلَ الْمِسْوَاكَ سِتْرًا لِلْمُنَى . فَكَأَنْ قَبَّلَ فَاهُ قُزَحُ
كُلُّ مَا شِئْتُ الَّذِي قَدْ شَاءَهُ . فَحَثَا لِي كَاسَهُ أَفْتَتِحُ(٣)
مَا أُبَالِي أَنْ رَآنِي كَاشِحٌ(٤) . أَمْ رَآنِي مَنْ لَدَيْهِ نُصَحُ
هَـكَذَا الْعَيْشُ ، وَدَعْ عَيْشَ الَّذِي
خَافَ مِنْ نَقْدٍ إِذَا يَفْتَضِحُ

وَقُلْتُ بِشَرِيشَ :

طَابَ الشَّرَابُ لِمَعْشَرٍ . سُلِبُوا الْمُرُوءَةَ فَاسْتَرَاحُوا
لَا يَعْرِفُونَ تَسَتُّرًا . السُّكْرُ عِنْدَهُمُ مُبَاحُ
مُتَهَتِّكُونَ لَدَى الْمُنَى . وَفَسَادُهُمْ فِيهَا صَلَاحُ

(١) دبجه: نقشه ووشاه وزينه وحسنه. والوشح: جمع وشاح: وهو كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر ، وشبه قلادة ينسج من أديم عريض يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها (٢) عداه: أي فاته وتجاوزه ، والمقترح: المطلوب (٣) حثا له يحثو: إذا أعطاه شيئا يسيرا ، وفي نسخة « فحشاني » (٤) الكاشح : العدو الذي يبطن العداوة ويضمرها في كشحه « أحمد يوسف نجاتي »

سَاقِيهِمُ مُتَبَذِّلٌ هَلْ يُمْنَعُ الْمَاءُ الْقَرَاحُ(١)؟!
غُصْنٌ يَمِيلُ بِهِ الصِّبَا رَدَّتْهُ طَوْعَ الرَّاحِ رَاحُ(٢)
طَوْعُ الْأَمَانِي ، كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ فَهُوَ اقْتِرَاحُ
مَا إِنْ نُبَالِي إِنْ بَدَا أَلَّا يَلُوحَ لَنَا الصَّبَاحُ
مَازِلْتُ أَرْشُفُ ثَغْرَهُ وَعَلَيْهِ مِنْ عَضُدِي وِشَاحُ
وَالْقَلْبُ يَهْفُو طَائِرًا وَلَعًا ، وَلَا يُخْشَى افْتِضَاحُ
وَلَوَ انَّنَا نَخْشَاهُ كَا نَ لَنَا مِنَ الظَّلْمَا جَنَاحُ(٣)
لَكِنَّنَا فِي عُصْبَةٍ مَا فِي تَهَتُّكِهِمْ جُنَاحُ(٤)
لَا يُنْكِرُونَ سِوَى ثَقِيـ لٍ لَا يَمِيلُ بِهِ مُزَاحُ
أَفْنَى الَّذِي قَدْ جَمَّعُو هُ الْكَاسُ وَالْحَدَقُ الْمِلَاحُ(٥)

وَقُلْتُ بِمُرَّاكِشَ(٦) :

(١) متبذل: أي يسمح بما يطلب منه، والقراح: الصرف الخالص (٢) الراح الأول جمع راحة: وهي الكف، والراح الثانية: الخمر (٣) ستر وغطاء وكنف (٤) اثم وذنب (٥) فى نسخة « والقدح الملاح » وألاح الشيء: التمع وظهر واضحا مشرقا (٦) فى نسخة أخرى: وقلت « بأركش » وحصن أركش بالقرب من قرطبة، وبه توفى أبو بكر عبد العزيز بن خلف بن عبد الله بن مدير الأزدى سنة ٥٤٤ ، ومن أهل أركش أبو بكر محمد بن أحمد بن خلف بن عبيد بن فحلون السكسكي، وسكن شريش ، وتوفى سنة ٥٩١ « أحمد يوسف نجاتى ».

قُمْ هَاتِهَا ، لَاحَ ٱلصَّبَاحُ ... مَا ٱلعَيْشُ إِلَّا ٱلِاصْطِبَاحُ
مَعَ فِتْيَةٍ مَا دَأْبُهُمْ ... إِلَّا ٱلْمُرُوءَةُ وَٱلسَّمَاحُ
جَرَّبْتُهُمْ ، فَوَجَدْتُهُمْ ... مَا لِلْمُنَى عَنْهُمْ بَرَاحُ
يَثْنِيهِمُ نَحْوَ ٱلصِّبَا ... نَقْرُ ٱلْمَثَانِي وَٱلْمِرَاحُ(١)
مَا نَادَمُوا شَخْصًا فَكَا ... نَ لَهُمْ بِخِدْمَتِهِ ٱسْتِرَاحُ
بَلْ يَعْرِفُونَ مَكَانَهُ ... فَلَهُ إِذَا شَاءَ ٱقْتِرَاحُ
هُمْ يَتْعَبُونَ ، وَضَيْفُهُمْ ... مَادَامَ عِنْدَهُمُ يُرَاحُ
مَا إِنْ يَمَلُّونَ ٱلنَّزِيـ ... لَ وَبِالرِّضَا مِنْهُ ٱلسَّرَاحُ
يَدْعُونَهُ بِأَجَلِّ مَا ... يُدْعَى بِهِ ٱلْحُرُّ ٱلصُّرَاحُ(٢)
حَتَّى إِذَا مَا بَانَ كَدْ ... دَرَ عَيْشَهُمْ مِنْهُ ٱنْتِزَاحُ(٣)
فَعَلَى مِثَالِهِمُ يُبَا ... حُ لِيَ ٱلْمَدَامِعُ وَٱلنُّوَاحُ
كُرْهًا فَقَدْتُهُمُ ، فَحَا ... لِي بَعْدَ بُعْدِهِمُ ٱرْتِيَاحُ
لِلّٰهِ شَوْقِي إِنْ هَفَتْ ... مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِمُ ٱلرِّيَاحُ
فَهُنَاكَ قَلْبِي طَائِرٌ ... لَهُمُ وَمِنْ شَوْقِي جَنَاحُ

قَالَ وَقُلْتُ بِمَدِينَةِ ٱبْنِ ٱلسَّلِيمِ فِي وَصْفِ كَلْبِ صَيْدٍ أَسْوَدَ فِي عُنُقِهِ بَيَاضٌ :

---

(١) المراح : الخفة والنشاط وشدة الفرح والتوسع فيه حتى يجاوز حده
(٢) الخالص الكريم النسب (٣) بعد وفراق « أحمد يوسف نجاتى »

وَأَدْهَمَ دُونَ حَلْيٍ ظَلَّ حَالِي ... كَأَنَّ لَيْلاً يُقَلِّدُهُ صَبَاحُ
يَطِيرُ وَمَالَهُ رِيشٌ، وَلَكِنْ ... مَتَى يَهْفُو فَأَرْبَعُهُ جَنَاحُ
تَكِلُّ الطَّيْرُ مَهْمَا نَازَعَتْهُ ... وَتَحْسُدُهُ إِذَا مَرَقَ الرِّيَاحُ
لَهُ الْأَلْحَاظُ مَهْمَا جَاءَ سِلْكٌ ... وَمَهْمَا سَارَ فَهِيَ لَهُ وِشَاحُ

وَقُلْتُ فِي نِيلِ مِصْرَ:

يَا نِيلَ مِصْرٍ، أَيْنَ حِمْصُ وَنَهْرُهَا
حَيْثُ الْمَنَاظِرُ أَنْجُمٌ تَلْتَاحُ ؟!
فِي كُلِّ شَطٍّ لِلنَّوَاظِرِ مَسْرَحٌ
تَدْعُو إِلَيْهِ مَنَازِحٌ وَبِطَاحُ[1]
وَإِذَا سَبَحْتُ فَلَسْتُ أَسْبَحُ خَائِفاً
مَا فِيهِ تَيَّارٌ وَلَا تِمْسَاحُ[2]

قَالَ وَقُلْتُ وَقَدْ حَضَرْتُ مَعَ إِخْوَانٍ لِي بِمَوْضِعٍ يُعْرَفُ بِالسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى نَهْرِ إِشْبِيلِيَةَ وَقَدْ مَالَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ:

رَقَّ الْأَصِيلُ، فَوَاصِلِ الْأَقْدَاحَا
وَاشْرَبْ إِلَى وَقْتِ الصَّبَاحِ صَبَاحَا

(١) البطاح جمع بطحاء وأبطح : مسيل واسع فيه رمل ودقاق الحصى . والمنازح جمع منزحة : الدلو وشبهها مما تنزح به البئر (٢) فى الأصل « مافيه تياح » بدل « تيار » وهو تصحيف « أحمد يوسف نجاتى » .

وَٱنْظُرْ لِشَمْسِ ٱلْأُفْقِ طَائِرَةً وَقَدْ
أَلْقَتْ عَلَى صَفْحِ ٱلْخَلِيجِ جَنَاحَا
فَاظْفَرْ بِصَفْوِ ٱلْأُفْقِ قَبْلَ غُرُوبِهَا
وَٱسْتَنْطِقِ ٱلْمَثْنَى، وَحُثَّ ٱلرَّاحَا(١)
مَتِّعْ جُفُونَكَ فِي ٱلْحَدِيقَةِ قَبْلَ أَنْ
يَكْسُو ٱلظَّلَامُ جَمَالَهَا أَمْسَاحَا(٢)

وَقُلْتُ بِعُرْسِيَةَ :

أَقْلَقَهُ وَجْـــدُهُ، فَبَاحَا وَزَادَ تَبْرِيحُهُ فَنَاحَا(٣)
وَرَامَ يَثْنِي ٱلدُّمُوعَ لَمَّا جَرَتْ، فَزَادَتْ لَهُ جِمَاحَا
يَامَنْ جَفَا فَارْفِقَنْ عَلَيْهِ مُسْتَعْبَدًا لَا يَرَى ٱلسَّرَاحَا
يُكَابِدُ ٱلْمَوْتَ كُلَّ حِينٍ لَوْ أَنَّهُ مَاتَ لَاسْتَرَاحَا
يَنْزُو إِذَا مَا ٱلرِّيَاحُ هَبَّتْ كَأَنَّهُ يَعْشَقُ ٱلرِّيَاحَا(٤)
يَسْأَلُهَا عَنْ رُبُوعِ حِمْصٍ لَمَّا نَمَا عَرْفُهَا وَفَاحَا
كَمْ قَدْ بَكَى لِلْحَمَامِ كَيْمَا يُعِـــيرَهُ نَحْوَهَا جَنَاحَا

(١) المثنى: من أوتار عود الغناء، والراح: الخمر - يحث على السماع والشراب
(٢) جمع مسح: الكساء من شعر أسود (٣) التبريح: شدة الوجد وبلوغ الجهد من الانسان (٤) ينزو: يثب ويضطرب من شدة القلق

قَالَ وَخَرَجْتُ مَرَّةً مَعَ أَبِي إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَهْلٍ الْإِسْرَائِيلِيِّ(١) إِلَى مَرْجِ الْفِضَّةِ بِنَهْرِ إِشْبِيلِيَةَ ، فَتَشَارَكْنَا فِي هَذَا الشِّعْرِ :

غَيْرِي يَمِيلُ إِلَى كَلَامِ اللَّاحِي
وَيَمُدُّ رَاحَتَهُ لِغَيْرِ الرَّاحِ(٢)

لَا سِيَّمَا وَالْغُصْنُ يَزْهُو زَهْرُهُ
وَيُمِيلُ عِطْفَ الشَّارِبِ الْمُرْتَاحِ

وَقَدِ اسْتَطَارَ الْقَلْبَ سَاجِعُ أَيْكِهِ
مِنْ كُلِّ مَا أَشْكُوهُ لَيْسَ بِصَاحِي

قَدْ بَانَ عَنْهُ جَنَاحُهُ ، عَجَباً لَهُ
مِنْ جَانِحٍ لِلْعَجْزِ خَلْفَ جَنَاحِ(٣) !

بَيْنَ الرِّيَاضِ وَقَدْ غَدَا فِي مَأْتَمٍ
وَتَخَالُهُ قَدْ ظَلَّ فِي أَفْرَاحِ

الْغُصْنُ يَمْرَحُ تَحْتَهُ ، وَالنَّهْرُ فِي
قَصْفٍ تُزَجِّيهِ يَدُ الْأَرْوَاحِ(٤)

---

(١) ابراهيم بن سهل الاسرائيلى الشاعر الرقيق الغزل الظريف ، توفى سنة ٦٤٩ وقيل سنة ٦٥٩ وسيأتى ذكره بعد (٢) لحاه يلحاه : اذا لامه وعابه (٣) جنح اليه: مال واستسلم ، وفى نسخة «حلف جناح» أى صاحب جناح ، أو ملازم له لا ينهض الا به (٤) القصف بمعنى اللهو استعمله المولدون ،

وَكَأَنَّمَا الْأَنْشَامُ فَوْقَ جِنَانِهِ
أَعْلَامُ خَزٍّ فَوْقَ سُمْرِ رِمَاحِ (١)
لَا غَرْوَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ أَسْطُرٌ
لَمَّا رَأَتْهُ مُدَرَّعًا لِكِفَاحِ (٢)
فَإِذَا تَتَابَعَ مَوْجُهُ لِدِفَاعِهِ
مَالَتْ عَلَيْهِ ، فَظَلَّ حِلْفَ صِيَاحِ

قَالَ وَقُلْتُ بِمَالَقَةَ مُتَشَوِّقًا إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ :

فى أشعارهم ، وأصل معناه كسر غصن صغير ، ورعد قاصف : فى صوته تكسر ومنه قيل لصوت المعازف قصف ، وتجوز به فى كل لهو ، ولعفيف الدين التلمسانى يصف البان :

تبسم زهر البان عن طيب نشره وأقبل فى حسن يجل عن الوصف
هلموا اليه بين قصف ولذة فان غصون البان تصلح للقصف

وتزجيه : تدفعه وتسوقه وتستحثه . والأرواح : جمع ريح «أحمد يوسف نجاتى» .
(١) فى الأصل « وكأنما الأنسام » وفى بعض النسخ «الأنشام» ولعله جمع نشم ، وهو شجر تتخذ منه القسى ، ونشم الثور : اذا كان فيه نقط بيض ونقط سود ، ولعل « جنانه » فى صدر البيت مصحفة عن « حفافه » والحفاف : الجانب ، والاحداق بالشىء والاطافة به (٢) يريد أن النهر مدرع بما على سطحه من الدروع والزرد التى سردت الريح نسجها ، وأظنه يريد بالأسطر ما على شاطئيه « حفافيه » من أشجار كأنها صفوف «أسطر» جيش — وتقدم مثل هذا المعنى فى تخيل الحرب القائمة بين مناظر هذه الطبيعة « أحمد يوسف نجاتى »

يَانَسِيمًا مِنْ نَحْوِ تِلْكَ ٱلنَّوَاحِي
كَيْفَ بِاللهِ نَوْرُ تِلْكَ ٱلْبِطَاحِ ؟!
أَسَقَتْهَا ٱلْغَمَامُ رِيًّا ، فَلَاحَتْ
فِي رِدَاءٍ وَمِئْزَرٍ وَوِشَاحِ ؟!
أَمْ جَفَتْهُ فَصَيَّرَتْهُ هَشِيمًا
تَرَكَتْهُ تَذْرُوهُ هُوجُ ٱلرِّيَاحِ [(١)] ؟!
يَا زَمَانِي بِالْحَاجِبِيَّةِ ، إِنِّي
لَسْتُ مِنْ سُكْرِ مَاسُقِيتُ بِصَاحِي
آهِ مِمَّا لَقِيتُ بَعْدَكَ مِنْ هَمْ
مٍ وَشَوْقٍ وَغُرْبَةٍ وَٱنْتِزَاحِ !!
أَيْنَ قَوْمٌ أَلِفْتُهُمْ فِيكَ لَمَّا قَرَّبَ ٱلدَّهْرُ آذَنُوا بِالرَّوَاحِ ؟!
تَرَكُونِي أَسِيرَ وَجْدٍ وَشَوْقٍ
مَا لِقَلْبِي مِنَ ٱلْجَوَى مِنْ سَرَاحِ
أَسْلَمُونِي لِلْوَيْلِ حَتَّى [(٢)] تَوَلَّوْا
وَأَصَاخُوا ظُلْمًا لِقَوْلِ ٱللَّاحِي

---

(١) هوج الرياح جمع أهوج وهوجاء : أى العاصفة الشديدة الهبوب ، والبيت من قوله تعالى « . . . . هشيما تذروه الرياح » أى تطيره وتذهب به

(٢) ويجوز « حين » وأصاخ : أصغى واستمع ، واللاحى : اللائم « أحمد يوسف نجاتى »

أَعْرَضُوا ، ثُمَّ عَرَّضُونِي لِشَوْقٍ
تَرَكَ ٱلْقَلْبَ مُثْخَنًا بِجِرَاحِ (١)
أَسْهَرُ ٱللَّيْلَ لَسْتُ أُغْفِي لِصُبْحٍ
أَتُرَى ٱلنَّوْمَ ذَاهِبًا بِالصَّبَاحِ (٢)

قَدْ بَدَا يُظْهِرُ ٱلنُّجُومَ حُلِيًّا وَهُوَ مِنْ لِبْسَةِ ٱلصِّبَا فِي بَرَاحِ
مُسْبِلًا سِتْرَهُ ، مُنَعَّمَ بَالٍ وَجُفُونِي مِنْ سُهْدِهِ فِي كِفَاحِ

أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ، لَا تُؤَمِّلْ خُلُودًا
عَنْ قَرِيبٍ يَمْحُو ظَلَامَكَ مَاحِي

وَيَلُوحُ ٱلصَّبَاحُ مُشْرِقَ نُورٍ فِيهِ لِلْمُسْتَهَامِ بَدْءُ نَجَاحِ
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفِرَاقِ بَدَّدَ شَمْلِي طَائِرًا لَيْتَهُ بِغَيْرِ جَنَاحِ

حَالِكُ ٱللَّوْنِ شِبْهَ لَوْنِكَ - فَاعْرِفْ
عَنْ عِيَانِي - يَا شِبْهَ طَيْرِ ٱلنِّزَاحِ (٣)

وَإِذَا مَا بَدَا ٱلصَّبَاحُ فَمَا يُشْــ ــبِهُ إِلَّا لَوْنَ ٱلْخُدُودِ ٱلْمِلَاحِ

وَقُلْتُ بِالْجَزِيرَةِ ٱلْخَضْرَاءِ :

قَدْ رُفِعَتْ رَايَةُ ٱلصَّبَاحِ تَدْعُو ٱلنَّدَامَى لِلِاصْطِبَاحِ

---

(١) أثخنه بالجراح : أي أوهنه بكثرتها (٢) غفى الرجل يغفى « كرضى » وأغفى : اذا نعس أو نام (٣) النزاح : البعد والفراق « أحمد يوسف نجاتى »

فَبَادِرُوا لِلصَّبُوحِ ، إِنِّي   قَدْ بِعْتُ فِي غَيِّهِ صَلَاحِي
وَلَا تَمِيلُوا عَنْ رَشْفِ ثَغْرٍ   وَسَمْعِ شَدْوٍ ، وَشُرْبِ رَاحِ
وَأَنْتَ يَامَنْ يَرُومُ نُصْحِي   قَدْ يَئِسَ الْقَوْمُ مِنْ فَلَاحِي
فَلَسْتُ أُصْغِي إِلَى نَصِيحٍ   مَانَهَضَتْ بِالْكُؤُوسِ رَاحِي

قَالَ وَقُلْتُ أَمْدَحُ مَلِكَ إِفْرِيقِيَّةَ ، وَأُهَنِّيهِ بِقَتْلِ ثَائِرٍ مِنْ زَنَاتَةَ يَدَّعِي أَنَّهُ مِنْ نَسْلِ يَعْقُوبَ الْمَنْصُورِ :

بَرَّحَ بِي مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بَرَاحْ   وَمَنْ رَأَى قَتْلِي حَلَالًا مُبَاحْ [1]
مَنْ ضَرَّجَ الدَّمْعَ بِحُبِّي لَهُ   وَمَا لِقَلْبِي عَنْ هَوَاهُ سَرَاحْ [2]
ظَبْيٌ عَدِمْتُ الصُّبْحَ مُذْ صَدَّنِي   وَكَيْفَ لَا يُعْدَمُ وَهُوَ الصَّبَاحْ
مُوَرَّدُ الْخَدِّ ، شَهِيُّ اللَّمَى
مُنَعَّمُ الرِّدْفِ ، جَدِيبُ الْوِشَاحْ [3]
تَظُنُّهُ مِنْ قَلْبِهِ جَلْمَدًا   وَمِنْهُ لِلْمَاءِ بِجَفْنِي انْسِيَاحْ
لِرِدْفِهِ أَضْعَفُ مِنْ صَبِّهِ   وَلَمْ أَزَلْ مِنْ لَحْظِهِ فِي كِفَاحْ
نَشْوَانُ مِنْ رِيقَتِهِ ، عَرْبَدَتْ   أَجْفَانُهُ بِالْمُرْهَفَاتِ الصِّفَاحْ

---

(١) برح به الأمر : اذا أتعبه وأجهده ونال منه مشقة وشدة ، والبراح الزوال والانطلاق (٢) ضرجه : أى صبغه بحمرة الدم ، وفى نسخة «من صرح القلب» (٣) اللمى : سمرة فى الشفة تستحسن ، ومنعم الردف كناية عن ثقله وعظمه . وجديب الوشاح : كناية عن نحافة خصره وضموره « أحمد يوسف نجاتى »

فَهَا أَنِينِي خَافِتٌ مِثْلَ مَا أَنَا أَسِيرٌ مُثْخَنٌ بِالْجِرَاحْ

يَا قَاتِلِي صَـدًّا ، أَمَا تَسْتَحِي
أَنْ تَلْزَمَ الْبُخْلَ بِأَرْضِ السَّمَاحْ ؟!

مَنْ ذَا الَّذِي يَبْخَلُ فِي تُونُسٍ
وَالْمِلْحُ فِيهَا صَارَ عَذْبًا قَرَاحْ[1] ؟!

وَأَصْبَحَتْ أَرْجَاؤُهَا جَـــنَّةً
مُبْيَضَّةَ الْأَبْرَاجِ خُضْرَ الْبِطَاحْ

لَوْلَا نَدَى يَحْـيَى وَتَدْبِيرُهُ مَا بَرِحَتْ تَغْبَرُّ مِنْهَا النَّوَاحْ[2]

لَـكِنْ يَدَاهُ سُحُبٌ ، كُلَّمَا حَلَّتْ بِأَرْضٍ حَلَّ فِيهَا النَّجَاحْ

هَذَا ، وَقَدْ آمَنَ مَنْ حَلَّهَا وَحَفَّهَا مِنْ غُرْبَةٍ وَانْتِزَاحْ

كَمْ شُتِّتُوا مِنْ قَبْـلِ تَأْمِيرِهِ
وَحُكِّمَتْ فِيهِمْ عَوَالِي الرِّمَاحْ

يَا سَائِرًا يَرْجُو بُلُوغَ الْمُـنَى
بَاكِرْ ذَرَى يَحْـيَى ، وَقُلْ : لَا رَوَاحْ

وَحَيِّهِ بِالْمَدْحِ ، فَهْوَ الَّذِي يَهْتَزُّ كَالْهِنْدِيِّ حِينَ امْتِدَاحْ

---

(١) القراح : الخالص النقي (٢) اغبرار النواحي كناية عن الجدب وعدم النبات وسوء الحال ، وفي الأصل « تعبر » وهو تصحيف « أحمد يوسف نجاتي »

بِالشَّرْقِ وَالْغَرْبِ غَدَاةَ كَرُّهُ | يَحُثُّ مِنْ حَمْدٍ وَشُكْرٍ جَنَاحْ
سَاعَدَهُ السَّعْدُ، وَأَضْحَتْ لَهُ الْ | آمَالُ لَا تَجْرِى بِغَيْرِ اقْتِرَاحْ
وَيَسَّرَ اللهُ لَهُ مُلْكَهُ | مِنْ غَيْرِ أَنْ يُشْهَرَ فِيهِ السِّلَاحْ
وَكُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى غَيْرِهِ | ذَا مَنْعَةٍ أَمْسَى بِهِ مُسْتَبَاحْ
وَكَمْ جَمُوحٍ عِنْدَمَا قَامَ بِالْ | أَمْرِ رَأَى الْقَهْرَ فَخَلَّى الْجِمَاحْ
كَفُّ بِكَفٍّ لِلنَّدَى وَالرَّدَى | بِهَا مَعَانٍ وَهْىَ خُرْسٌ فِصَاحْ
حَتَّى لَقَدْ أَحْسَنَ(١) مِنْ سَعْدِهِ | تَجْرِى عَلَى مَا يَرْتَضِيهِ الرِّيَاحْ
قُولُوا لِيَعْقُوبَ: فَمَاذَا جَنَى؟! | وَابْنِ أَبِى حَمْزَةَ مَاذَا اسْتَبَاحْ؟!

قَدْ أَصْبَحَا مِنْ فَوْقِ جِذْعَيْنِ، لَا
يُؤْنِسُهُمْ غَيْرُ هُبُوبِ الرِّيَاحْ
وَاسْأَلْ عَنِ الدَّاعِى الدَّعِىِّ الَّذِى
حَاوَلَ أَمْرًا كَانَ عَنْهُ انْضِرَاحْ(٢)

أَكَانَ مَنْ صَيَّرَهُ وَالِدًا | بِزَعْمِهِ أَمَّلَ فِيهِ فَلَاحْ؟!

شُكْرًا لِسَعْدٍ لَمْ يَدَعْ فُرْقَةً
قَدْ صَيَّرَ الْمُلْكَ كَضَرْبِ الْقِدَاحْ

---

(١) قد تكون «أحسب» (٢) ضرحه عن الأمر «كمنعه»: دفعه ونحاه وأبعده، ومطاوعه انضرح، وفى الأصل «الصراح» «أحمد يوسف نجاتى»

رَامُوا بِلَا جَاهٍ وَلَا مَحْتِـدٍ
مَاحُزْتَ بِالْحَقِّ ، فَكَانَ اُفْتِضَاحْ[1]

زَنَاتَةٌ ! يَهْنِيكُمُ فِعْلُكُمْ عَاجَلَكُمْ ثَائِرُكُمْ بِاجْتِيَاحْ[2]

كَفَّرَ مَا قَدَّمْتُمُ آخِرٌ وَالْخَيْرُ لَنْ يَبْرَحَ لِلشَّرِّ مَاحْ[3]

عَهْدِى بِهِ فِى مَوْكِبِ الْمُلْكِ مَا
يَيْنَكُمُ نَشْوَانُ مِنْ غَيْرِ رَاحْ
يَحْسَبُ أَنَّ الْأَرْضَ مِلْكٌ لَهُ
وَرُوحُهُ مِلْكٌ لِسُمْرِ الرِّمَاحْ
غَـدَا بِعِزِّ الْمُلْكِ ، لَكِنَّهُ
أَهْوَنُ مَمْلُوكٍ عَلَى الْأَرْضِ رَاحْ

جَاءُوا بِهِ يَمْرَحُ فِى عِزِّهِ وَهُمْ أَزَالُوا عَنْهُ ذَاكَ الْمَرَاحْ

تَوَقَّعُوا فِى الْقُرْبِ مِنْهُ الرَّدَى
مِنْ صُحْبَةِ الْأَجْرَبِ يَخْشَى الصِّحَاحْ

فَأَسْرَعُوا نَحْوَكَ يَبْغُونَ مَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَطْفَةٍ وَالْتِمَاحْ

فَغَادَرُوهُ جَانِياً غَـدْرَهُ لِطَائِرِ الْبَيْنِ عَلَيْهِ نِيَاحْ

(١) المحتد: الأصل ، وفى نسخة « بلاناه » بدل « بلاجاه » « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هلاك واستئصال (٣) فى الأصل « كفى » بدل « كفر »

فَالْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَى كُلِّ مَا سَنَّى لَكَ ٱلسَّعْدُ بِرَغْمِ ٱللَّوَاحْ
مِثْلُكَ لَا يَنْفَـــدُ مَاشَادَهُ
فَلَسْتَ تَأْتِي ٱلدَّهْرَ إِلَّا صَلَاحْ
لَا زِلْتَ فِي عِزٍّ وَفِي مُكْنَةٍ وَفِي سُرُورٍ دَائِمٍ وَٱنْفِسَاحْ

قَالَ وَقُلْتُ بِبَنْيُونِشَ مَوْضِعِ ٱلْفُرْجَةِ بِسَبْتَةَ :

إِشْرَبْ عَلَى بَنْيُونِشٍ بَيْنَ ٱلسَّوَانِي وَٱلْبِطَاحْ(١)
مَعَ فِتْيَةٍ مِثْلِ ٱلنُّجُو مِ لَهُمْ إِذَا مَرُّوا جِمَاحْ
سَـــاقِيهِمُ مُتَبَـــذِّلٌ لَا يُمْنَعُ ٱلْمَاءُ ٱلْقَرَاحْ
كُلٌّ يَمُدُّ يَمِينَهُ مَا فِي ٱلَّذِي يَأْتِي جُنَاحْ
هَبُّوا عَلَيْهِ كُلَّمَا هَبَّتْ عَلَى ٱلرَّوْضِ ٱلرِّيَاحْ
طَوْعَ ٱلْأَمَانِي ؛ كُلُّ مَا يَأْتِي بِهِ. فَهْوَ ٱقْتِرَاحْ
عَانَقْتُهُ حَتَّى تَرَكْـ ـتُ بِخَصْرِهِ أَثَرَ ٱلْوِشَاحْ

وَقُلْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ :

أَوَجْهُ صُبْحٍ أَمِ ٱلصَّبَاحْ؟! وَلَحْظُهَا أَمْ ظُبَا ٱلصِّفَاحْ؟!
وَثَغْرُهَا أَمْ نَظِيمُ دُرٍّ؟! وَرِيقُهَا أَمْ سُلَافُ رَاحْ؟!
وَقَدُّهَا أَمْ قَوَامُ غُصْنٍ؟! وَعَرْفُهَا أَمْ شَذَا ٱلْبِطَاحْ؟!

(١) السوانى : جمع سانية: آلة تسقى بها الأراضى «وهى الساقية أو الناعورة»

يَاحَبَّذَا زَوْرَةٌ تَأَتَّتْ مِنْهَا عَلَى غَفْلَةِ ٱللَّوَاحْ

فَلَمْ أُصَدِّقْ بِهَا سُرُورًا وَظِلْتُ نَشْوَانَ دُونَ رَاحْ

أَمَا مُنِعْتُ ٱلسَّلَامَ دَهْرًا وَلَا رَسُولٌ سِوَى ٱلرِّيَاحْ ؟!

قَالَتْ : أَلَا فَانْسَ مَا تَقَضَّى فَمَنْ يَدَعْ مَامَضَى ٱسْتَرَاحْ

يَا حَبَّذَاهَا وَقَدْ تَأَتَّتْ مِنْ دُونِ وَعْدٍ وَلَا ٱقْتِرَاحْ

زَارَتْ وَمِنْ نُورِهَا دَلِيلٌ وَٱللَّيْلُ قَدْ أَسْبَلَ ٱلْجَنَاحْ

أَخْفَتْ سُرَاهَا ، فَبَاحَ نَشْرٌ لَهَا بِعَرْفٍ فَشَا وَفَاحْ

وَافَتْ ، فَأَمْسَى فَمِي مُدَامًا وَسَاعِدَايَ لَهَا وِشَاحْ

كَأَنَّمَا بِتُّ بَيْنَ رَوْضٍ وَٱلْغُصْنِ وَٱلْوَرْدِ وَٱلْأَقَاحْ

فَبَيْنَمَا ٱلشَّمْلُ فِي ٱنْتِظَامٍ إِذْ سَمِعَتْ دَاعِيَ ٱلْفَلَاحْ

فَغَادَرَتْنِي ، فَقُلْتُ : غَدْرًا ! قَالَتْ : أَمَا تَحْذَرُ ٱفْتِضَاحْ ؟!

وَلَّتْ! وَمَا خِلْتُ مِنْ صَبَاحٍ يَبْدُو عَلَى إِثْرِهِ صَبَاحْ

قَالَ وَقُلْتُ بِتُونِسَ :

لَا مَرْحَبًا بِالتِّينِ لَمَّا بَدَا

يُسْحَبُ مِنْ لَيْلٍ عَلَيْهِ ٱلْوُشَاحْ

مُمَزَّقَ ٱلْجِلْبَابِ ، يَحْكِي ضُحًى هَامَةَ زَنْجِيٍّ عَلَيْهَا جِرَاحْ

وَإِنْ تُصَحِّفْهُ فَلَا حَبَّذَا
مَا قَدْ أَتَى تَصْحِيفُهُ بِانْتِزَاحِ(١)

وَقُلْتُ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ـ وَقَدْ كُلِّفْتُ ذَلِكَ :

غَرَامِي بِأَقْوَالِ الْعِدَا كَيْفَ يُنْسَخُ؟!
وَعَهْدِي وَقَدْ أَحْكَمْتُهُ كَيْفَ يُفْسَخُ؟!
كَلَامُكُمُ لَا يَدْخُلُ السَّمْعَ نُصْحُهُ
وَلَكِنْ إِذَا حَرَّضْتُمُ فَهُوَ يَرْسَخُ
وَبِي بَدْرُ تِمٍّ قَدْ ذَلَلْتُ لِحُسْنِهِ
فَمَنْ ذَا الَّذِي فِيمَا أَتَيْتُ يُوَبِّخُ؟!
إِذَا خَاصَمُونِي فِي هَوَاهُ خَصَمْتُهُمْ
وَيَبْغُونَ تَنْقِيصِي بِذَاكَ فَأَشْمَخُ
أَرَى أَنَّ لِي فَضْلًا عَلَى كُلِّ عَاشِقٍ
فَقِصَّتُنَا فِي الدَّهْرِ مِمَّا يُؤَرَّخُ
فَمَا بَشَرٌ مِثْلٌ لَهُ فِي جَمَالِهِ
وَوَجْدِي بِهِ فِي الْعِشْقِ لَيْسَ لَهُ أَخُ

وَقُلْتُ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَقَدْ تَعَذَّرَ عَلَيَّ الْحَجُّ عِنْدَ وُصُولِي

---

(١) تصحيف لفظ «تين» هو «بين» وهو البعد والفراق «أحمد يوسف نجاتي»

إِلَيْهَا سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ :

قَرُبَ الْمَزَارُ، وَلَا زَمَانٌ يُسْعِدُ
كَمْ ذَا أُقَرِّبُ مَا أَرَاهُ يَبْعُدُ[1]؟!

وَارَحْمَةً لِمُتَيَّمٍ ذِي غُرْبَةٍ! وَمَعَ التَّغَرُّبِ فَاتَهُ مَا يَقْصِدُ

قَدْ سَارَ مِنْ أَقْصَى الْمَغَارِبِ قَاصِدًا
مَنْ لَذَّ فِيهِ مَسِيرُهُ إِذْ يَجْهَدُ

فَلَكَمْ بِحَارٍ مَعْ قِفَارٍ جُبْتُهَا
تَلْقَى بِهَا الصَّمْصَامَ ذُعْرًا يُرْعَدُ[2]

كَابَدْتُهَا عُرْبًا وَرُومًا، لَيْتَنِي
إِذْ جُزْتُ صَعْبَ صِرَاطِهَا لَا أُطْرَدُ!

يَاسَائِرِينَ لِيَثْرِبٍ - بُلِّغْتُمُو -
قَدْ عَاقَنِي عَنْهَا الزَّمَانُ الْأَنْكَدُ

أَعَلِمْتُمُو أَنْ طِرْتُ دُونَ مَحَلِّهَا
سَبْقًا؟! وَهَا أَنَا إِذْ تَدَانَى مُقْعَدُ!

يَاعَاذِلِي فِيمَا أُكَابِدُ؛ قَلَّ فِي مَا أَبْتَغِيهِ صَبَابَةٌ وَتَسَهُّدُ

لَمْ تَلْقَ مَالَاقَيْتُهُ، فَعَذَلْتَنِي لَا يَعْذِرُ الْمُشْتَاقَ إِلَّا مُكْمَدُ

(١) فى نسخة « فيبعد » (٢) يضطرب ويفزع « أحمد يوسف نجاتى »

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَنْ أَرُومُ دُنُوَّهُ
مَا كُنْتَ فِي هَذَا ٱلْغَرَامِ تُفَنِّدُ(١)

لَا طَابَ عَيْشِي أَوْ أَحُلَّ بِطَيْبَةٍ
أُفُقٌ بِهِ خَيْرُ ٱلْأَنَامِ مُحَمَّدُ

صَلَّى عَلَيْهِ مَنْ بَرَاهُ خِيرَةً   مِنْ خَلْقِهِ، فَهُوَ ٱلْجَمِيعُ ٱلْمُفْرَدُ

يَا لَيْتَنِي بُلِّغْتُ لَثْمَ تُرَابِهِ!
فَيُزَادَ سَعْدًا مَنْ بِنُعْمَى يَسْعَدُ

فَهُنَاكَ ـ لَوْ أُعْطَى مُنَايَ ـ مَحِلَّةٌ
مِنْ دُونِهَا حَلَّ ٱلسُّهَا وَٱلْفَرْقَدُ(٢)

عَيْنِي شَكَتْ رَمَدًا وَأَنْتَ شِفَاؤُهَا
مِنْ دَائِهَا ذَاكَ ٱلثَّرَى لَا ٱلْإِثْمِدُ(٣)

يَا خَيْرَ خَلْقِ ٱللهِ، مَهْمَا غِبْتُ عَنْ
عُلْيَا مَشَاهِدِهَا فَقَلْبِي يَشْهَدُ

مَا بِاخْتِيَارِ ٱلْقَلْبِ يَتْرُكُ جِسْمَهُ
غِيَرٌ(٤) ٱلزَّمَانِ لَهُ بِذَلِكَ تَشْهَدُ

يَاجَنَّةَ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي قَدْ جِئْتُهَا   مِنْ دُونِ بَابِكِ لِلْجَحِيمِ تَوَقُّدُ

(١) فنده: عابه ولامه ووبخه (٢) نجمان مشهوران (٣) الكحل (٤) غير الزمان: حوادثه وصروفه المتغيرة « أحمد يوسف نجاتى »

صَرَمَ التَّوَاصُلَ ذُبَّلٌ وَصَوَارِمٌ   مَا لِلْجَلِيدِ عَلَى تَقَحُّمِهَا يَدُ[١]

فَلَئِنْ حُرِمْتُ بُلُوغَ مَا أَمَّلْتُهُ
فَلَدَىَّ ذِكْرَى لَا تَزَالُ تُرَدَّدُ
فَلْتُنْعِشُوا مِنِّى الذَّمَاءَ[٢] بِذِكْرِهِ
مَا دُمْتُ عَنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ أُبْعَدُ
لَوْلَاهُ مَا بَقِيَتْ حَيَاتِى سَاعَةً
هُوَ لِى إِذَا مُتُّ اشْتِيَاقًا مَوْلِدُ
ذِكْرٌ يَلِيهِ مِنَ الثَّنَاءِ سَحَائِبٌ
أَبَدًا عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ يُجَدَّدُ
مَنْ ذَا الَّذِى نَرْجُوهُ لِلْيَوْمِ الَّذِى
يَقْصَى الظِّمَاءُ بِهِ وَيُحْمَى الْمَوْرِدُ؟!

يَا لَهْفَ مَنْ وَافَى هُنَاكَ وَمَالَهُ   مِنْ حُبِّهِ ذُخْرٌ بِهِ يَتَزَوَّدُ
مَا أَرْتَجِى عَمَلًا، وَلَكِنْ أَرْتَجِى   ثِقَتِى بِهِ، وَلَحَسْبُ مَنْ يَتَزَوَّدُ
مَا صَحَّ إِيمَانٌ خَلَا مِنْ حُبِّهِ   أَبِلَا رِيَاشٍ يَسْتَعِدُّ مُهَنَّدُ؟!

---

(١) صرمه: قطعه، والذبل: الرماح، والصوارم: السيوف «يريد الحرب» والجليد: القوى الشديد، وتقحم الأمر واقتحمه: اذا كابد مصاعبه وقاسى شدائده. وفى الأصل «تحقمها» وهو تصحيف فاسد «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) الذماء: بقية الروح فى الجسم «أحمد يوسف نجاتى»

عَنْ ذِكْرِهِ لَا حُلْتُ عَنْهُ لَحْظَةً
وَمَدِيحَهُ فِي كُلِّ حَفْلٍ أَسْرُدُ
يَا مَادِحًا يَبْغِي ثَوَابًا زَائِلًا
فَثَوَابُ مَدْحِي فِي الْجِنَانِ أُخَلَّدُ
لَوْلَا رَسُولُ اللهِ لَمْ نَدْرِ الْهُدَى
وَبِهِ غَدًا نَرْجُو النَّجَاةَ وَنَسْعَدُ
يَارَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ! بُعِثْتَ وَالدْ
دُنْيَا بِجُنْحِ الْكُفْرِ لَيْلٌ أَرْبَدُ(١)
أَطْلَعْتَ صُبْحًا سَاطِعاً ، فَهَدَيْتَ لِلْ
إِيمَانِ إِلَّا مَنْ يَحِيدُ وَيَجْحَدُ
لَمْ تَخْشَ فِي مَوْلَاكَ لَوْمَةَ لَائِمٍ
حَتَّى أَقَرَّ بِهِ الْكَفُورُ الْمُلْحِدُ
وَنَصَرْتَ دِينَ اللهِ غَيْرَ مُحَاذِرٍ
وَدَعَوْتَ فِي الْأُخْرَى الْأُلَى قَدْ أَصْعَدُوا
وَلَقِيتَ مِنْ حَرْبِ الْأَعَادِي شِدَّةً
لَوْ كَابَدُوهَا سَاعَةً لَتَبَدَّدُوا

---

(١) الأربد : الأسود المظلم المغبر « أحمد يوسف نجاتى »

أَيَّانَ لَا أَحَدٌ عَلَيْهِمْ عَاضِدٌ
إِلَّا ٱلْإِلٰهُ، وَلَمْ يَخُنْ مَنْ يَعْضُدُ[(١)]
فَحَمَاكَ بِالْغَارِ ٱلَّذِى هُوَ مِنْ أَدَلْ
لِ ٱلْمُعْجِزَاتِ، وَخَابَ مَنْ يَتَرَصَّدُ
وَوَقَاكَ مِنْ سُمِّ ٱلذِّرَاعِ بِلُطْفِهِ
كَيْمَا يُغَاظُ بِكَ ٱلْعِدَا وَٱلْحُسَّدُ[(٢)]
وَٱلْجِذْعُ حَنَّ إِلَيْكَ، وَٱلْمَاءُ ٱنْهَمَى
مَا بَيْنَ خَمْسِكَ، وَٱلصَّحَابَةُ شُهَّدُ
وَٱلذِّئْبُ أُنْطِقَ لِلَّذِى أَضْحَى بِهِ
يَهْدِى إِلَى سُبُلِ ٱلنَّجَاحِ وَيُرْشِدُ
وَبِلَيْلَةِ ٱلْإِسْرَا حَبَاكَ، وَسُمِّيَ ٱلصْ
صِدِّيقَ مَنْ أَضْحَى لِقَوْلِكَ يَسْعَدُ
وَحَبَاكَ بِٱلْخُلُقِ ٱلْعَظِيمِ وَمُعْجِزِ ٱلْ
كَلِمِ ٱلَّذِى يَهْدِى بِهِ إِذْ يُورَدُ

(١) عضده يعضده: نصره وقواه وأعانه وساعده، وقد تكون «لم يخن» مصحفة عن «لم يخب» أو «لم يخم» خام عن الحرب مثلا اذا نكص وجبن، يعنى ان من نصره مولاه لا يهن ولا يضعف «أحمد يوسف نجاتى» (٢) يشير الى ما اشتهر من أنه صلى الله عليه وسلم أهديت اليه ذراع مسمومة فلم ينل أعداؤه منه مأربا «أحمد يوسف نجاتى»

وَبُعِثْتَ بِالْقُرْآنِ غَيْرَ مُعَارَضٍ

فِيهِ ، وَأَمْسَى مَنْ نَحَاهُ يُعَرِّدُ(١)

فَتَوَالَتِ الْأَحْقَابُ وَهُوَ مُبَرَّأٌ

مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثَالٌ يُوجَدُ

وَلَكَمْ بَلِيغٍ جَالَ فَصْلُ خِطَابِهِ

وَالسُّرْجُ فِي ضَوْءِ الْغَزَالَةِ تَهْمَدُ(٢)

زُوِيَتْ لَكَ الْأَرْضُ الَّتِي لَا زَالَ يَوْ

مَ الْحَشْرِ رَبُّكَ فِي ذَرَاهَا يُعْبَدُ(٣)

وَنُصِرْتَ بِالرُّعْبِ الَّذِي لَمَّا نَزَلْ

يَتْرَى ، كَأَنَّ مَاعَيْنُ شَخْصِكَ تَفْقِدُ

فَمَتَى تَعَرَّضَ طَاعِنٌ ، أَوْ حَادَ عَنْ

حَرَمِ الْهِدَايَةِ فَالْحُسَامُ مُجَرَّدُ

---

(١) عردالرجل: فر وهرب، وعردعن قرنه: اذا أحجم ونكل ، والتعريد أيضا: سرعة الذهاب فى الهزيمة ، وعرد الرجل: اذا ترك القصد من الطريق وانحرف عنها وانهزم، وفى الأصل «يعدد» وهو تصحيف «أحمد يوسف نجاتى»
(٢) خمدت النار « كنصر وسمع » سكن لهبها ولم يطفأ جمرها ، وهمدت همودا اذا طفىء جمرها البتة ـ والهمود: طفوء النار وذهابها حتى لا يبقى لها أثر (٣) يشير الى الحديث: «زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها ». زوى الشىء يزويه زيا اذا جمعه وقبضه، وفى الأصل «رؤيت». وهو تصحيف «أحمد يوسف نجاتى»

يَامَنْ تَخَيَّرَ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ
نِعْمَ ٱلْفَخَارُ لَهَا! وَنِعْمَ ٱلْمَحْتِدُ(١)!

لِسَنَاكَ حِينَ بَدَا بِآدَمَ أَقْبَلَتْ رَعْيًا لِأُخْرَاهُ ٱلْمَلَائِكُ تَسْجُدُ

لَمْ أَسْتَطِعْ حَصْرًا لِمَا أُعْطِيتَهُ
فَذَكَرْتُ بَعْضًا، وَٱعْتِذَارِي مُنْشِدُ(٢):

مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَصَفْتُ مُحَمَّدًا نَفِدَ ٱلْكَلَامُ وَوَصْفُهُ لَا يَنْفَدُ

فَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ ٱلْخَلَائِقِ كُلِّهَا
مِنِّي ٱلتَّحِيَّةُ وَٱلسَّلَامُ ٱلسَّرْمَدُ

قَالَ وَقُلْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ:

هَلْ تَمْنَعُ ٱلنُّهُودُ مَا أَبْدَتِ ٱلْخُدُودُ؟!
نَعَمْ، وَكَمْ طَعِينٍ بِطَعْنِهَا شَهِيدُ
يَارَبَّةَ ٱلْمُحَيَّا حُفَّتْ بِهِ ٱلسُّعُودُ
لَمْ تُسْكِرِ ٱلْحُمَيَّا بَلْ رِيقُكِ ٱلْبَرُودُ
لِلّٰهِ يَاعَذُولِي مَا تَكْتُمُ ٱلْبُرُودُ(٣)!
مَا زِلْتُ فِيهِ أَفْنَى وَٱلْوَجْدُ مُسْتَزِيدُ

(١) ذؤابة كل شيء أعلاه، والمحتد: الأصل (٢) السرمد: الدائم والباقي الخالد
(٣) المحيا: الوجه، والحميا: الخمر أو سورتها. والبرود: البرد العذب، والبرود

يَا هَلْ تُرَى زَمَانَا مَضَى لَنَا يَعُودُ ؟
لَدَى الْغُرُوسِ سَقَتْ جَنَابَهَا الْعُهُودُ(١)
حَيْثُ الْغُصُونُ مَالَتْ كَأَنَّهَا قُدُودُ
وَزَهْرُهَا نَظِيمٌ كَأَنَّهُ عُقُودُ
حَمَامُهَا تُغَنِّي أَعْطَافُهَا تَمِيدُ(٢)
وَبِالنَّسِيمِ شُقَّتْ لِنَهْرِهَا بُرُودُ
فُرُوعُهُ سُيُوفٌ وَسُورُهُ بُنُودُ(٣)
هُنَاكَ كَمْ دَعَتْنِي إِلَى الْوُرُودِ رُودُ(٤)
فَنِلْتُ كُلَّ سُؤْلٍ يَفْنَى بِهِ الْحَسُودُ
قَضَيْتُ فِيهِ عَيْشًا مَا بَعْدَهُ مَزِيدُ
أُضْحِي بِهِ وَأُمْسِي مُرَنَّحًا أَمِيدُ
كَأَنَّنِي يَزِيدُ كَأَنَّنِي الْوَلِيدُ(٥)

جمع برد ، يريد بما تكتم البرود « جسمها » « أحمد يوسف نجاتى »

(١) الغروس جمع غرس ، وفى نسخة « العروس » وهو اسم موضع « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تمايل وتتثنى (٣) جمع بند : وهى الأعلام

(٤) الرود: الشابة الفتية الحدثة السن الحيية الخفرة ذات الدل والجمال

(٥) يزيد بن معاوية ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وقد يكون فى لفظ « الوليد » تورية ظاهرة « أحمد يوسف نجاتى » .

يَجْرِي ٱلزَّمَانُ طَوْعِي بِكُلِّ مَا أُرِيدُ
أَلْخَمْرُ مَلَّكَتْنِي فَٱلْخَلْقُ لِي عَبِيدُ
يَحِقُّ لِي إِذَا مَا أَبْصَرْتُهَا تَجُودُ (١)
فَهَا أَنَا إِذَا مَا فَقَدْتُهَا فَقِيدُ
يَامَنْ يَلُومُ بَغْيًا أَلْعَذْلُ لَا يُفِيدُ
إِذَا عَدِمْتُ كَاسِي فَلَيْسَ لِي وُجُودُ

قَالَ وَقُلْتُ بِإِشْبِيلِيَةَ :

أَوَ مَا نَظَرْتَ إِلَى ٱلْحَمَامَةِ تُنْشِدُ !
وَٱلْغُصْنُ مِنْ طَرَبٍ بِهَا يَتَأَوَّدُ (٢) !
وَنِثَارُهُ تَلْقَاهُ جَائِزَةً لَهَا لَمَّا يَزَلْ بِيَدِ ٱلنَّسِيمِ يُبَدَّدُ (٣)
أَلْقَى عَلَيْهَا ٱلطَّلُّ بُرْدًا سَابِغًا
فَثَنَاؤُهُ طُولَ ٱلزَّمَانِ يُرَدَّدُ (٤)
أَتَرَى ٱلْحَمَامَةَ مِنْ مُحِبٍّ مُخْلِصٍ أَوْلَى بِشُكْرٍ حِينَ تَغْمُرُهُ يَدُ
فَلأُثْنِيَنَّ عَلَيْكَ مَا أَثْنَى بِأَءْ
لِي ٱلْغُصْنِ حَنَّانُ ٱلْهَدِيلِ مُغَرِّدُ (٥)

---

(١) فى نسخة «سجود» فاعل « يحق » وهو معنى سخيف، ومبالغة ممقوتة « أحمد يوسف نجاتى » (٢) يتثنى ويتمايل (٣) نثار الغصن: الزهر الذى يبدده النسيم (٤) السابغ: الطويل الضافى (٢) الهديل: تغريد الحمامة وصوتها ، وفى

كَمْ نِعْمَةٍ لِي فِي جَنَابِكَ ! كَمْ أُكَا
بِدُ جُهْدَهَا أَيَّانَ بِرُّكَ يُجْهِدُ

وَقَالَ :

أَرَى الْعَيْنَ مِنِّي تَحْسُدُ الْأُذْنَ كُلَّمَا
جَرَتْ مِدْحَةٌ لِلْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَالْمَجْدِ
أُحَقِّقُ أَنْبَاءً وَلَمْ أَرَ صُورَةً
كَتَحْقِيقِ الْأَخْبَارِ عَنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ
فَمُنَّ عَلَى عَيْنِي بِلُقْيَاكَ ، إِنَّنِي
أَخَذْتُ لَهَا أَمْنًا بِذَاكَ مِنَ السُّهْدِ

قَالَ وَقُلْتُ أَمْدَحُ ابْنَ عَمِّي وَأَشْكُرُهُ[1] عَلَى مَا أَذْكُرُهُ :

آهِ مِمَّا تُكِنُّ فِيكَ الْجَوَانِحْ! وَدُمُوعِي عَلَى نَوَاكَ سَوَافِحْ
وَاشْتِفَاءِ مِنَ الْعَدُوِّ بِبَيْنٍ
كَدَّرَ الْعَيْشَ ، أَيُّ عَيْشٍ لِنَازِحْ[2] !

الأصل «جنان الهذيل» وهو تصحيف مفسد، وتحريف مشوه «أحمد يوسف نجاتى» (١) فى نسخة «وأشكوه» (٢) أكن الشيء: أخفاه وأضمره، وطواه وستره، والجوانح: الضلوع . وسوافح: منسكبات مصبوبات. والنازح: البعيد، وفى الأصل «مبين» بدل «ببين» وهو تصحيف «أحمد يوسف نجاتى»

يَاأَتَمَّ ٱلْأَنَامِ حُسْنًا ، أَمَا تُحْـ سِنُ حَتَّى يَتِمَّ إِطْرَاءُ مَادِحْ؟!

يَا زَمَانَ ٱلْوِصَالِ ، عَوْدًا ، فَإِنِّي
طَوَّحَتْ بِي لَمَّا غَدَرْتَ ٱلطَّوَائِحْ[1]

أَيْنَ عَيْشُ ٱلْعَرُوسِ إِذْ يَبْطَحُ ٱلسُّكْـ
رُ حَبِيبِي مَا بَيْنَ تِلْكَ ٱلْأَبَاطِحْ[2]!

وَٱلْأَمَانِي تَتْرَى ، وَلَا أَحَدٌ يَنْـ
صَحُ إِذْ لَا يُصْغَى إِلَى قَوْلِ نَاصِحْ

وَزَمَانَ ٱلسُّرُورِ سَمْحٌ مُطِيعٌ وَرَسُولُ ٱلْحَبِيبِ غَادٍ وَرَائِحْ

وَلَكَمْ لَيْلَةٍ أَتَانِي بِلَا طِيـ
بٍ وَلَكِنْ يُزْرِي بِأَذْكَى ٱلرَّوَائِحْ

هُوَ ظَبْيٌ ، فَلَيْسَ يَحْتَاجُ طِيبًا
قَدْ كَفَاهُ عَرْفٌ مِنَ ٱلْمِسْكِ فَائِحْ

---

(١) طوحت به: رمت به وأبعدته. والطوائح: الدواهي والمصائب (٢) في الأصل « اذ يبطح البكر » وفي نسخة « ينطح البكر » وأرى كلتيهما مصحفة عما ذهبت اليه « يبطح السكر » وقد تقدم له مثل هذا المعنى :

في بطاح المروج قد نادمني رشأ من سكره ينبطح

ولا تكاد صفحة من الأصل تخلو من عدة كلمات مصحفة أو محرفة « أحمد يوسف نجاتي »

مِثْلُ عُلْيَا مُحَمَّدٍ؛ لَمْ تَكُنْ كَسْ
بًا، وَمَالَا يَكُونُ فِي الطَّبْعِ فَاضِحْ

يَا كَرِيمًا أَتَى مِنَ الْجُودِ مَالَا
كَانَ يُدْرَى، فَوَحَّدَتْهُ الْمَدَائِحْ (١)

وَعَلَا كُلَّ ذِي عَلَاءٍ، وَأَضْحَى
نَحْوَ مَالَا يَرُومُهُ النَّاسُ طَامِحْ

قَدْ أَتَانِي إِحْسَانُكَ الْغَمْرُ فِي إِثْ
رِ سِوَاهُ، فَكُنْتُ أَكْمَلَ مَادِحْ (٢)

فَاضَ بَحْرُ النَّوَالِ مِنْكَ، وَلَا سَا
حِلَ يَبْدُو، وَلَمْ أَزَلْ فِيهِ سَابِحْ

حُلَلٌ مِثْلُ مَا كَسَوْتُكَ فِي الْمَدْ
حِ تُمِيتُ الْعِدَا وَمَالٌ وَسَائِحْ (٣)

---

(١) أظنه يريد معنى قول أبي تمام :

ولولا خلال سنها الشعر مادرى   بناة المعالى كيف تبنى المكارم

ولعل « فوجدته » مصحفة عن « فأوجدته » « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) الغمر: الكثير الفائض (٣) الظاهر أنه يريد « بالسائح » أو « السابح » فرسا مما أهداه اليه ابن عمه الممدوح ، من ساح فى الأرض يسيح اذا جرى فيها ذاهبا متنقلا. وفرس « سابح » وسبوح اذا كان حسن مد اليدين فى جريه، فهو يسبح بيديه فى سيره ، وهى صفة غالبا للخيل. وسبح الفرس: جريه وعدوه

أَوْرَدَ الْوَرْدُ مَنْطِقٍ كُلَّ شُكْرٍ
حِينَ أَضْحَى طَوْعَ الْبَنَانِ مُسَامِحْ (١)

لَوْنُ خَدِّ الْحَبِيبِ حِينَ كَسَوْهُ
حُلَّةَ الْحُسْنِ بِالْعُيُونِ اللَّوَامِحْ

شَفَقٌ سَالَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ صُبْحٌ
حُسْنُهُ قَيَّدَ اللِّحَاظَ السَّوَارِحْ (٢)

لَمْ أَجِدْ فِيهِ مِنْ جِمَاحٍ، وَلَكِنْ
نَ ثَنَائِي عَلَيْكَ مَا زَالَ جَامِحْ (٣)

لَكَ يَابْنَ الْحُسَيْنِ ذِكْرٌ جَمِيلٌ
صَيَّرَ الْكُلَّ نَحْوَ بَابِكَ جَانِحْ

قَدْ هَدَى نَحْوَكَ الثَّنَاءَ كَمَا يَهْ
دِي إِلَى الرَّوْضِ نَاسِمَاتُ النَّوَافِحْ (٤)

---

(١) الورد من الخيل: بين الكميت والأشقر، والورودة: حمرة تضرب الى صفرة (٢) يقول ان لون هذا الفرس أحمر وبين عينيه بياض، يعني أنه أغر تسرح الألحاظ في حسنه، فيقيدها، حتى لا تنصرف عنه، ولا تطرف دونه «أحمد يوسف نجاتي» (٣) جمح الفرس بصاحبه «كمنع» جمحا وجموحا وجماحا: اذا ذهب يجري جريا غالبا، واعتز فارسه وغلبه، وفرس جموح: لا يثني رأسه ولا يطيع راكبه (٤) نفح الطيب «كمنع» اذا أرج. ونفحت الريح: هبت: أي نسمت وتحركت أوائلها. والناسمات جمع ناسمة، من

فَاعْذِرِ ٱلنَّاسَ إِنْ أَتَوْا لَكَ أَفْوَا
جًا، فَكُلٌّ بِقَصْدِ فَضْلِكَ رَابِحْ
مَا هَدَتْهُمْ إِلَيْكَ إِلَّا ٱلْأَمَانِي
لَمْ تُحِلْهُمْ إِلَّا عَلَيْكَ ٱلْقَرَائِحْ
قُلْ لِذِي ٱلْمَفْخَرِ ٱلْحَدِيثِ: تَأَخَّرْ
لَيْسَ مُهْرٌ فِي شَأْوِهِ مِثْلَ قَارِحْ(١)
أَيُّ أَصْلٍ وَأَيُّ فَرْعٍ أَقَامَا   شَرَفًا ظَلَّ لِلنُّجُومِ يُنَاطِحْ!
قَدْ حَوَتْ مَذْحِجٌ مِنَ ٱلْفَخْرِ لَمَّا
كُنْتَ مِنْهَا مَا لَيْسَ يَحْوِيهِ شَارِحْ(٢)
أُفْقُ مَجْدٍ قَدْ زَانَهُ مِنْكَ بَدْرٌ
فِي ظَلَامِ ٱلْخُطُوبِ مَا زَالَ لَائِحْ
بَدْرُ تِمٍّ حَفَّتْ بِهِ هَالَةٌ مِنْ
بَيْتِ مَجْدٍ عَلَاؤُهَا ٱلدَّهْرَ وَاضِحْ

نسمت الريح اذا هبت خفيفا ، ومعنى البيت من قول مسلم بن الوليد :

تناء كعرف الطيب يهدى لأهله   وليس له الا بنى برمك أهل

والروض يهدى اليه طيب النسمات الأرجة الصادرة عنه. وفى الأصل «باسمات» تصحيف «أحمد يوسف نجاتى» . (١) القارح: ما كملت سنه، وهو من ذى الحافر بمنزله البازل من الابل (٢) مذحج: شعب عظيم فيه قبائل وأفخاذ وبطون. واسمه مالك بن أدد ، أو مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، وتقدم القول فى قبائل مذحج «أحمد يوسف نجاتى»

يَا سِمَاكًا بِمَسْكِهِ الْقَلَمَ الْأَعْـ
لَى بَدَا بَيْنَ أَنْجُمِ الْمُلْكِ رَامِـحْ (١)
رَفَـعَ اللهُ لِلْـكِتَابَةِ قَـدْرًا
بَعْدَ مَا كَابَدَتْ تَوَالِى الْفَضَائِـحْ
يَا أَعَزَّ الْأَنَامِ نَفْسًا ، وَأَعْلَا هُمْ مَحَلًّا ، لَا زَالَ أَمْرُكَ رَاجِـحْ
أَيْنَ أَعْدَاؤُكَ الَّذِينَ رَعَى سَيْـ
فُكَ فِيهِمْ ، فَأَشْبَهُوا قَـوْمَ صَالِـحْ ؟!
أَفْسَـدَ الدَّهْرُ حَالَهُمْ ، لِيُرَى حَا
لُكَ رَغْمًا بِمَنْ يُنَاوِيكَ صَالِـحْ (٢)
دُمْتَ فِي عِزَّةٍ وَسَعْدٍ مَدَى الدَّ
هْرِ ، وَلَا زَالَ طَائِرٌ مِنْكَ سَانِـحْ (٣)

وَابْنُ عَمِّهِ الْمَذْكُورُ قَالَ فِي حَقِّهِ فِي الْمُغْرِبِ مَا مُلَخَّصُهُ :
انَّهُ الرَّئِيسُ الْأَعْلَى ، ذُو الْفَضَائِلِ الْجَمَّةِ ، أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ

(١) يشير الى السماكين الأعزل والرامح ، وتقدم القول فيهما ، يريد انه بامساكه القلم كاتبا للملك شرف قدر الكتابة ، ورفع من قيمة الأقلام ، فصير أعزلها رامحا ، وقويها ضعيفا « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) فى الأصل « طائح » وهو تصحيف مفسد « أحمد يوسف نجاتى »
(٣) السنح : اليمن والبركة ، قال :

اُلْحُسَيْنِ بْنِ أَبِى اُلْحُسَيْنِ سَعِيدِ بْنِ اُلْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدِبْنِ خَلَفِ
اُبْنِ سَعِيدٍ، قَالَ : وَاُجْتِمَاعُ نَسَبِنَا مَعَ هَذَا اُلرَّئِيسِ فِى سَعِيدِبْنِ
خَلَفٍ، وَهُوَ اُلآنَ قَدِ اُشْتَمَلَ عَلَيْهِ مَلِكُ إِفْرِيقِيَّةَ اُشْتِمَالَ
اُلْمُقْلَةِ عَلَى إِنْسَانِهَا ، وَقَدَّمَهُ فِى مُهِمَّاتِهِ تَقْدِيمَ اُلصَّعْدَةِ[1]
لِسِنَانِهَا ، وَأَقَامَ لِنَفْسِهِ مَدِينَةً حِذَاءِ حَضْرَةِ تُونُسَ ، وَاُعْتَزَلَ
فِيهَا بِعَسْكَرِ اُلأَنْدَلُسِ اُلَّذِينَ صَيَّرَهُمُ اُلْمَلِكُ اُلْمَنْصُورُ إِلَى
نَظَرِهِ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ اُلْفَتْحُ صَاحِبُ اُلْقَلاَئِدِ : فَقَدْ جَاءَ آخِرَهُمْ
فَجَدَّدَ مَفَاخِرَهُمْ ، وَمِنْ نَظْمِهِ ـ وَقَدْ نَزَلَ عَلَى مَنْ قَدَّمَ لَهُ
مَشْرُوبًا أَسْوَدَ اُللَّوْنِ غَلِيظًا وَخَرُّوبًا وَزَبِيبًا أَسْوَدَ وَزَبِيبًا
كَثِيرَ اُلْغُضُونِ جَاءَتْ بِهِ عَجُوزٌ فِى طَبَقٍ ، فَقَالَ :

وَيَوْمَ نَزَلْنَا بِعَبْدِ اُلْعَزِيزْ ... فَلاَ قَدَّسَ اُللهُ عَبْدَ اُلْعَزِيزِ
سَقَانَا شَرَابًا كَلَوْنِ اُلْهِنَاءِ ... وَنَقَّلَنَا بِقُرُونِ اُلْعُنُوزِ
وَجَاءَتْ عَجُوزٌ، فَأَهْدَتْ لَنَا ... زَبِيبًا كَخِيلاَنِ خَدِّ اُلْعَجُوزِ[2]

أقول والطير لنا سانح ... يجرى لنا أيمنه بالسعود

والسانح : مامرمن الطير من مياسرك الى ميامنك فولاك ميامنه. وفى الأمثال «من لى بالسانح بعد البارح» أى بالمبارك بعد المشؤوم. وكان السانح أحسن حالا من البارح عندهم « أحمد يوسف نجاتى » (١) الصعدة: القناة المستوية التى تنبت كذلك لاتحتاج الى تثقيف (٢) الهناء : القطران ، والعنوز جمع

وَنَزَلَ ٱلسُّلْطَانُ أَبُو يَحْيَى فِي بَعْضِ حَرَكَاتِهِ بِمَوْضِعٍ فِيهِ نَهْرٌ وَعَلَى شَطِّهِ نَوْرٌ، فَقَالَ ٱلرَّئِيسُ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ يَصِفُهُ ـ أَوْ أُمِرَ بِذَلِكَ :

وَنَهْرٍ يَرِفُّ ٱلزَّهْرُ فِي جَنَبَاتِهِ
وَيَثْنِي ٱلنَّسِيمُ قُضْبَهُ ، فَتَأَطَّرُ (١)

يَسِيلُ كَمَا عَنَّ ٱلصَّبَاحُ بِأُفْقِهِ
وَإِلَّا كَمَاشِيمَ ٱلْحُسَامُ ٱلْمُجَوْهَرُ (٢)

عَلَيْهِ لِيَحْيَى قُبَّةٌ ، هَــــلْ سَمِعْتُمُ
بِقُرْصَةِ شَمْسٍ حَلَّ فِيهَا غَضَنْفَرُ ؟!

فَإِنْ قُلْتَ هَــذِى قُبَّةٌ (٣) لِعُفَاتِهَا
فَقُلْ ذَلِكَ ٱلْوَادِي ٱلَّذِي سَالَ كَوْثَرُ (٤)

وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَحْمَدُ بْنُ مَالِكِ بْنِ سَعِيدٍ ٱلْمِيرُ ٱللَّخْمِيُّ ٱلنشابِي (٥) فِي ذَلِكَ :

عنز، يريد بقرون العنوز الخروب، والخيلان جمع خال: وهى الشامة والنقطة السوداء فى الخد (١) كذا فى نسخة، وفى الأصل «ويقنطر» والأطر عطف الشىء تقبض على أحد طرفيه فتعوجه، أطره وأطره فتأطر: أى عطفه فانعطف وانثنى كالعود تراه مستديرا اذا جمعت بين طرفيه (٢) عن: ظهر ولاح، وشام الحسام: استله وأخرجه من غمده. (٣) لعل «قبة» مصحفة عن «جنة» بدليل المعنى ولفظ «كوثر» آخر البيت «أحمد يوسف نجاتى» (٤) العفاة جمع عاف: من عفاه اذا قصده سائلا معروفه وطالبا نواله (٥) كذا بالأصل. وفى نسخة «أحمد بن مالك بن سيد اللخمى

وَأَرْضٍ مِنَ الْحَصْبَاءِ بَيْضَاءَ قَدْ جَرَتْ
جَـــدَاوِلُ مَاءٍ دُونَهَا تَتَفَجَّرُ
كَمَا سَبَحَتْ تَبْغِي الْحَيَاةَ أَرَاقِمٌ
عَلَى رَوْضَةٍ فِيهَا الْأَقَاحُ الْمُنَوِّرُ
وَإِلَّا كَمَا شَقَّتْ سَبَائِكُ فِضَّةٍ
بِسَاطًا عَلَى حَافَاتِهِ الدُّرُّ يُنْـثَرُ

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ يُونُسُ :

انْظُرْ إِلَى مَنْظَرٍ يَسْبِيكَ مَنْظَرُهُ
وَيَزْدَهِيكَ بِإِذْنِ اللهِ مَخْـبَرُهْ
وَمُعْجَبٍ مُعْجِبٍ لَا شَيْءَ يُشْبِهُهُ
خَرِيرُ مَاءٍ نَمِيرٍ ثَمَّ مَنْهَرُهْ
كَأَنَّمَا فُرِشَتْ بِالدُّرِّ صَفْحَتُهُ فَالْمَاءُ يَنْظِمُهُ طَوْرًا، وَيَنْثُرُهْ
كَأَنَّ خُلْجَانَهُ قُدَّتْ عَلَى قَدَرٍ بِمَائِهَا قَسَمٌ يَجْرِي مُفَجِّرُهُ
أَحَلَّ سَيِّدُنَا الْمَأْمُونُ قُبَّتَهُ بِجَوْزِهِ،فَغَدَا يَزْدَانُ جَعْفَرُهُ(١)

« رَجْعٌ » إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ الرَّئِيسِ ابْنِ

الشابى » فلعله نسبة إلى «شابة» اسم جبل أو موضع بنجد ،واسم قرية بالفيوم

(١) الجعفر : الجدول والنهر الصغير « أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْحُسَيْنِ فَنَقُولُ : رَأَيْتُ بِالْمَغْرِبِ آخِرَ كِتَابِ رُوحِ ٱلسِّحْرِ مِنْ نُسْخَةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُتِبَتْ لَهُ أَبْيَاتًا عَلِقَ بِحِفْظِي مِنْهَا ٱلْآنَ مَا نَصُّهُ :

تَمَّ رُوحُ ٱلسِّحْرِ نَسْخًا ، فَأَتَى
مُصْحَبًا بِالْيُمْنِ وَٱلْفَخْرِ ٱلْبَعِيدِ
لِأَبِي عَبْدِ ٱلْإِلَهِ ٱلْمُرْتَقِي
فِي ذُرَا ٱلْمَجْدِ ٱلرَّئِيسِ ٱبْنِ سَعِيدٍ

وَلَمْ أَحْفَظْ تَمَامَ ٱلْأَبْيَاتِ. وَقَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ: كَتَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ أَبْيَاتٍ بِحَضْرَةِ تُونُسَ — وَقَدْ نَقَلَ إِلَيْهِ بَعْضُ ٱلْحُسَّادِ مَا أَوْجَبَ تَغَيُّرَهُ —:

وَمِنْ بَعْدِ هَذَا قَدْ أَتَيْتُ بِزَلَّةٍ
أَمَا حَسَنٌ أَلَّا تَضِيقَ بِهَا صَدْرًا ؟!
وَعِلْمُكَ حَسْبِي بِالْأُمُورِ ، فَإِنَّنِي
عَهِدْتُكَ تَدْرِي سِرَّ أَمْرِي وَٱلْجَهْرَا
وَقَدْ أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْأُمُورَ بِسَعْيِكُمْ
وَبَيْتِكُمْ صُلْحًا عَلَى ٱلْبِشْرِ وَٱلْبُشْرَى

وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا رِضَاكَ ، فَإِنْ بِهِ
كَتَبْتَ وَلَوْ حَرْفاً أَطَبْتَ لِيَ الْعُمْرَا
فَبُقِّيتَ كَهْفاً لِلْجَمِيعِ وَمَوْئِلاً
وَلَا زِلْتَ مَا دَامَ الزَّمَانُ لَنَا سِتْرَا

فَكَتَبَ إِلَيَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ ـ وَكَانَ مُتَمَرِّضاً ـ وَبَعَثَ إِلَيَّ بِمَا يُذْكَرُ :

أَكَفُّ الصَّبَا حَفَّتْ جَنَى زَهَرِ الرُّبَا
سُؤَالُكَ عَنْ مُضْنًى يُسَامِي بِكَ الزُّهْرَا(١)
بَعَثْتَ بِمِثْلِ الزَّهْرِ فِي مِثْلِ صَفْحَةٍ
لِذَلِكَ مَا قَلَّدْتَهَا الشَذْرَ وَالدُّرَّا(١)
مَعَانٍ لَهَا أَعْنُو ، وَأُغْنَى بِهَا ، فَكَمْ
وَقَفْتُ عَلَيْهَا الْعَيْنَ وَالسَّمْعَ وَالْفِكْرَا(٣)
فَلَوْ عُرِضَتْ لِلْبَحْرِ لَمْ يَلْفِظِ الدُّرَّا
وَلَوْ عَارَضَتْ هَارُوتَ لَمْ يَنْفُثِ السِّحْرَا

---

(١) يريد بالزهر النجوم ، جمع أزهر وزهراء (٢) الشذر : قطع من الذهب تلفظ من معدنه بلا اذابة ، ومما يصاغ من الذهب فرائد يفصل بها اللؤلؤ والجوهر ، أو خرز يفصل به النظم ، و هو اللؤلؤ الصغار ، واحده شذرة
(٣) عنا يعنو اذا خضع وانقاد « أحمد يوسف نجاتي »

أَبَا حَسَنٍ ، هُنِّئْتَ مَا قَدْ مُنِحْتَهُ
ضُرُوبًا مِنَ الْآدَابِ تُحْلِي بِهَا الدَّهْرَا
وَدُونَكَ بَحْرًا مِنْ وِدَادِي تَلاطَمَتْ
بِهِ زَاخِرَاتُ الْمَدِّ لَا يَعْرِفُ الْجَزْرَا
فَإِنْ خَطَرَتْ فِي جَانِبٍ مِنْكَ هَفْوَةٌ
فَلا تَحْسَبَنْ أَنِّي أَضِيقُ بِهَا صَدْرَا
يَزِلُّ جَوَادٌ عِنْدَ مَا يَبْلُغُ الْمَدَى
وَيَعْثُرُ بِالرِّمْثِ النَّسِيمُ إِذَا أَسْرَى (١)
فَدَعْ ذَا ، وَخُذْهَا شَائِبَاتٍ قُرُونُهَا
عَرُوبًا الْعُرُوبَا جَائِرًا حُكْمُهَا بِكْرَا (٢)
وَلَوْ غَادَرَتْ أَوْصَافُهَا مُتَرَدَّمًا
لَشَنَّفْتُ مِنْ أَشْعَارِهَا أُذُنَ الشِّعْرَى (٣)

---

(١) الرمث: مرعى للابل، وهو من الحمض شجر يشبه الغضا لا يطول، ولكنه ينبسط ورقه ، وهو شبيه بالأشنان، وله هدب طوال دقاق، وهو مع ذلك كله كلأ تعيش فيه الابل والغنم وان لم يكن معها غيره، وربما خرج فيه عسل أبيض كأنه الجمان، وهو شديد الحلاوة، ويكون الرمث مع قعدة الرجل ينبت نبات الشيح ، وقد يرتفع دون القامة (٢) لعله يصف خمرا أهداها لأبي الحسين بن سعيد، وكنى «بشائبات قرونها» عن قدمها وطول عهدها ، والقرون في الأصل: المرأة المتحببة الى زوجها المطيعة له ، والحكم الجائز النافذ. ولا بأس أن تكون «جائرا حكمها» (٣) يشير الى قول عنترة أول معلقته :

أَلا فَاحْجُبَنْهَا عَنْ صَدِيقٍ مُعَمَّمٍ
فَإِنَّ قُصَارَى ٱلْغَمْرِ أَنْ يَبْكِيَ ٱلْعُمْرَا (١)

وَمَنْ كَانَ ذَا حِجْرٍ وَنُبْلٍ وَرِقَّةٍ
فَلا يَخْلُوَنْ إِلَّا عَلَى ٱلْخَمْرَةِ ٱلْحَمْرَا (٢)

قَرَنْتُ بِهَا صَفْرَاءَ لَمْ تَعْرِفِ ٱلْهَوَى
وَلَا أَلِفَتْ وَصْلًا وَلَا عَرَفَتْ هَجْرَا

وَلَا ضُمِّخَتْ نَضْحَ ٱلْعَبِيرِ، وَإِنْ غَدَتْ
تُؤَخِّرُهُ لَوْنًا ، وَتَفْضَحُهُ نَشْرَا (٣)

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم
والمتردم: الموضع الذى يرقع منه. وتردم ثوبه: رقعه . وثوب متردم اذا خلق. وتردم الثوب اذا أخلق واسترقع : يقول عنترة: ماترك الشعراء لغيرهم من مستصلح: أى من كلام يلصق بعضه ببعض ويليق، أى قد سبقونا الى القول فلم يدعوا مقالا لقائل ، فابن سعيد يقول لابن عمه: لو كان الشعراء السابقون قد تركوا موضعا لغيرهم فى نعت الخمر ووصف مزاياها لأتيت فى ذلك بأشعار تصلح أن تكون قرطا فى أذن الكواكب، وحلية تزدان بها نجوم السماء ، وراعى جناس الاشتقاق بين الأشعار والشعرى فآثر ذكرها

(١) قصاراه: غايته وجهده ومداه ونهاية أمره، والغمر: الغبى الجاهل غير المجرب. يقول له: صنها ولا تسمح بها لمثل هذا الأحمق الذى يقضى حياته غافلا عن السرور باكيا عمره. وقد يريد « الغمر » أى الكريم السخى الواسع الخلق، فهو يقول ان نهايته حلول الأجل والموت، فعليه أن ينتهز فرص السرور وخلس العيش وغفلات الدهر، قبل أن يفقد عمره ويبكى تصرمه (٢) الحجر: العقل واللب (٣) تضمخ بالطيب اذا لطخ جسمه به حتى كأنما

فَإِنْ خِلْتَهَا بِنْتَ ٱلظَّلِيمِ أَظَلَّهَا
فَقَدْ فَرَشَ ٱلْإِذْخِرَ مِنْ تَحْتِهَا تِبْرًا(١)

لَهَا نَسَبٌ بَيْنَ ٱلثُّرَيَّا أَوِ ٱلثَّرَى
وَسَلْ بِرُبَاهَا(٢) ٱلْمُزْنَ وَٱلْغُصُنَ ٱلنَّضْرا

فَشُرْبًا دِهَاقًا ، وَٱنْتِشَاقًا ، وَلَا تَرِمْ
عَنِ ٱلْبَيْتِ فِتْرًا أَوْ تُقِيمَ بِهِ شَهْرًا(٣)

وَلَهُ فِي ٱلْخَشْكَلَانِ :

هُوَ ٱلْأَهِلَّةُ لَكِنْ يَدْعُونَهُ خَشْكَلَانَا
فَإِنْ تَفَاءَلْتَ صَحِّفْ تَجِدْ « حَبِيبَكَ لَانَا(٤) »

أَنْتَهَى بِاخْتِصَارٍ

يقطر. ونضحه ينضحه نضحا: رشه ، وكذا نضخه « كمنعه » والنضخ أيضا: الأثر يبقى فى الثوب وغيره من الطيب ونحوه كالزعفران وغيره ، والعبير: الزعفران، أو أخلاط من الطيب، ونوع منه ذو لون يجمع من أخلاط. والنشر: الريح الطيبة (١) الاذخر: الحشيش الأخضر، واحداته إذخرة، وهو نبت طيب الريح تسقف به البيوت فوق الخشب، واذا جف الأذخر ابيض (٢) فى نسخة « وسل بأبيها » (٣) دهق الكأس « كجعل » ملأها ، كأدهقها ، وكأس دهاق : ممتلئة مترعة ، أو متتابعة على شاربيها، من الدهق الذى هو متابعة السير ، وماء دهاق كثير ـ ونشقه « كفرح » وانتشقه اذا شمه. ورام المكان يريمه: اذا بارحه وفارقه (٤) يعنى أنه بتصحيف حروف « خشكلان » تأتى العبارة « حبيبك لان » بازالة النقطة من

وَحَظِيَ ٱلْمَذْكُورُ جِدًّا عِنْدَ ٱلسُّلْطَانِ مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَي بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ بْنِ أَبِي حَفْصٍ، وَلَمَّا مَاتَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْمَذْكُورُ(١) وَحَدَثَتْ فِتْنَةٌ بِمَوْتِهِ وَٱخْتِلَافٌ، ثُمَّ ٱسْتَقَرَّتِ ٱلدَّوْلَةُ لِابْنِهِ ٱلشَّهِيرِ ٱلْكَبِيرِ ٱلْقَدْرِ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُسْتَنْصِرِ(٢)

الخاء ، ووضع ثلاث نقط الشين من تحتها لتنتج ياء وباء . والخشكنان : تكلمت به العرب قديما (١) كانت وفاته سنة ٦٤٧ « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) أبو عبد الله المستنصر بالله محمد بن يحي بن عبد الواحد بن أبى حفص عمر الهنتاني الحفصى ، تملك تونس سنة ٦٤٧ بعد أبيه، ثم قتل عميه ، وقتل جماعة من الخوارج ، وتوطد له الملك ، وكان بينه وبين السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المرينى ملك المغرب مراسلة سنة ٦٥٦ — ولماعزم السلطان يعقوب على منازلة مراكش كتب الى أبى عبد الله المستنصر يخبره بذلك ويستمده ، وتوفى المستنصر سنة ٦٧٥ ، وبويع ابنه أبو زكريا يحي المدعو بالواثق،فاقتفى سنن أبيه فى اتصال المودة والمهاداة بينه وبين السلطان يعقوب ،وبعث اليه بهدية حافلة مع قاضى بجاية أبى العباس الغمارى سنة٦٧٧ فعظم موقعها من السلطان يعقوب. وكان لأبى العباس الغمارى هذا بالمغرب ذكر تحدث الناس به دهرا ، وقطع السلطان يعقوب لأول أمره الدعوة الى الحفصيين بعد أن كان يدعو اليها هو واخوته من قبله تأليفا لأهل المغرب، واستجلابا لرضاهم ، ومجيئا لهم من ناحية أهوائهم ، اذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم، فلودعوا الى غيرها من أول الأمر لحاصوا عنها حيصة حمر الوحش ، وانما كان بنو مرين يسرون من ذلك حسوا فى ارتغاء، ولهذالما استقل السلطان يعقوب بالأمر وتمكن له السلطان لم يلبث أن قطع الدعوة للحفصيين كما تقدم « أحمد يوسف نجاتى »

مَمْدُوحِ حَازِمٍ (١) بِالْمَقْصُورَةِ وَقَاتِلِ ابْنِ الْأَبَّارِ (٢) الْقُضَاعِيِّ سَخِطَ عَلَى الرَّئِيسِ ابْنِ الْحُسَيْنِ الْمَذْكُورِ، وَقَبَضَ عَلَى دِيَارِهِ وَأَمْوَالِهِ، وَصَيَّرَهُ كَالْمَحْبُوسِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ رُقْعَةً يَطْلُبُ الِاجْتِمَاعَ بِهِ فِي مَصْلَحَةٍ لِلدَّوْلَةِ، فَأَحْضَرَهُ، وَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ أَبَاهُ صَنَعَ دَارًا عَظِيمَةً تَحْتَ الْأَرْضِ، وَأَوْدَعَ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَالِ وَالسِّلَاحِ مَا جَعَلَهُ عُدَّةً وَذَخِيرَةً لِسُلْطَانِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَنْ لَهُ عِلْمٌ بِهَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْدَعَهُ نَفَائِسَ أَمْوَالِهِ غَيْرِي، وَأَوْصَانِي أَنَّهُ إِذَا انْتَقَلَ إِلَى جِوَارِ رَبِّهِ - إِذْ تَوَقَّعَ أَنْ تَقَعَ فِتْنَةٌ بَيْنَ أَقَارِبِهِ - أَنَّهُ إِذَا انْقَضَتْ سَنَةٌ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِأَحَدٍ مِنْ وَلَدِي، أَوْ مَنْ يُتَيَقَّنُ أَنَّهُ يَصْلُحُ لِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَأَطْلِعْهُ عَلَى هَذِهِ الذَّخَائِرِ، فَرُبَّمَا فَنِيَتِ الْأَمْوَالُ بِالْفِتْنَةِ، فَلَا يَجِدُ الْقَائِمُ بِالْأَمْرِ مَا يُصْلِحُ بِهِ الدَّوْلَةَ إِذَا تَفَرَّغَ لِلتَّدْبِيرِ وَالسِّيَاسَةِ، فَفَرِحَ السُّلْطَانُ، وَبَادَرَ إِلَى

---

(١) تقدم التعريف بأبي الحسن حازم بن محمد بن حسين بن حازم المتوفى سنة ٦٨٤ «أحمد يوسف نجاتي» (٢) هو الحافظ العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي الأندلسي البلنسي الكاتب الأديب، أحد أئمة الحديث والتاريخ والأثر، وبرع في البلاغة والنظم والنثر، وكان ذا جلالة ورياسة، قتله صاحب تونس المستنصر ظلما في المحرم من سنة ٦٥٨ عن ثلاث وستين سنة - رحمه الله تعالى «أحمد يوسف نجاتي».

تِلْكَ ٱلدَّارِ، فَرَأَى مَا مَلَأَ عَيْنَهُ وَسَرَّ قَلْبَهُ، وَخَرَجَ ٱلرَّئِيسُ ٱبْنُ ٱلْحُسَيْنِ وَٱلْخَيْلُ تُجْنَبُ أَمَامَهُ، وَبَدَرُ ٱلْأَمْوَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَعَادَهُ إِلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِهِ، وَجَعَلَهُ وَزِيرًا لَدَيْهِ كَمَا كَانَ أَبُوهُ مُفَوِّضًا أُمُورَهُ إِلَيْهِ، وَقَالَ ٱلسُّلْطَانُ: إِنَّ مِنْ أَوْجَبِ شُكْرِ ٱللّٰهِ عَلَيَّ أَنْ أَفْتَتِحَ ٱلْمَالَ بِأَنْ أُؤَدِّيَ مِنْهُ لِلرَّعِيَّةِ ٱلَّذِينَ نُهِبَتْ دُورُهُمْ وَٱحْتَرَقَتْ فِي ٱلْفِتْنَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقَارِبِي مَا خَسِرُوهُ، وَأَمَرَ بِالنِّدَاءِ فِيهِمْ، وَأَحْضَرَهُمْ، وَكُلُّ مَنْ حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ قَبَضَهُ وَٱنْصَرَفَ. وَكَانَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلْمُسْتَنْصِرُ ٱلْمَذْكُورُ فِي بَعْضِ مُتَصَيَّدَاتِهِ، فَكَتَبَ لِأَبِي عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْمَذْكُورِ يَأْمُرُهُ بِإِحْضَارِ ٱلْأَجْنَادِ لِأَخْذِ أَرْزَاقِهِمْ بِقَوْلِهِ:

لِيَحْضُرْ كُلُّ بَيْتٍ ذِي مَنَالِ
زَكًا فَرْعًا[1] لِإِسْدَاءِ ٱلنَّوَالِ

(١) رأيت فى بعض النسخ هكذا « زكافردا » ففهمت أن الغرض منه معنى « جميعا » فان العرب تطلق لفظ « الزكا » على الشفع من العدد والزوج منه، ولفظ « الخسا » على الفرد منه، وقيل للشفع « زكا » لأن الزوجين أزكى من واحد وأنمى من فرد، وقال الكميت :

مكارم لاتحصى اذا نحن لم نقل   خسا وزكا فيما نعد خلالها

وقال رؤبة :

حيران لايشعر من حيث أتى   عن قبض من لاقى أخاس أم زكا

غَـدًا يَوْمُ ٱلْخَمِيسِ ، فَمَا شُغِلْنَا
بِأُسْدِ ٱلْوَحْشِ عَنْ أُسْدِ ٱلرِّجَالِ

وَحُـكِيَ أَنَّ ٱلسُّلْطَانَ ٱلْمَذْكُورَ عَرَضَ مَرَّةً أَجْنَادَهُ ، وَقِيلَ بَلْ سَلَّمَ عَلَيْهِ ٱلْمُوَحِّدُونَ يَوْمَ عِيدٍ بِتُونُسَ - وَفِيهِمْ شَابٌّ وَسِيمٌ ٱسْمُ جَدِّهِ ٱلنُّعْمَانُ، فَسَأَلَهُ ٱلسُّلْطَانُ عَنِ ٱسْمِهِ وَأَعْجَبَهُ حُسْنُهُ ، فَخَجِلَ، وَٱحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَٱزْدَادَ حُسْنًا ، فَقَالَ ٱلسُّلْطَانُ هَذَا ٱلْمِصْرَاعَ * كَلَّمْتُهُ فَـكَلَمَتْ (١) صَفْحَةَ خَدِّهِ * وَسَأَلَ مِنَ ٱلْحَاضِرِينَ ٱلْإِجَازَةَ، فَلَمْ يَأْتُوا بِشَيْءٍ ،فَقَالَ ٱلسُّلْطَانُ مُجِيزًا شَطْرَهُ * فَتَفَتَّحَتْ فِيهَا شَقَائِقُ (٢) جَدِّهِ * وَهَذَا مِنَ ٱلْبَدِيعِ ،مَعَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّوْرِيَةِ وَٱلتَّجْنِيسِ . وَمِمَّا نَسَبَهُ لَهُ أَبُو حَيَّانَ بِسَنَدِهِ إِلَيْهِ :

« أى لايشعر أفرد هو أو زوج » و «حسا زكا» حكاية مركبا مثل خمسة عشر لاينونان ،وقد ينونان عند بعض، ولا يدخلهما الألف واللام ـ فلما لم يطعه الوزن لو قال فى الشعر « زكا خسا » أو « خسا زكا » عـدل الى المعنى المرادف فقال « زكا فردا » أى واحـدا ، واحدا ، واثنين اثنين ، أو بمعنى جميعا ، هذا احتمال لاح لى مما رأيته فى هذه النسخة،وان كان المعنى على ماهنا مفهوما واضحا « أحمد يوسف نجاتى » (١) كلمه«كضربه» :جرحه
(٢) يريد « شقائق النعمان » ويعنى حمرة وجنتيه « أحمد يوسف نجاتى»

مَالِى عَلَيْكَ سِوَى ٱلدُّمُوعِ مُعِينُ
إِنْ كُنْتَ تَغْدِرُ فِى ٱلْهَوَى وَتَخُونُ
مَنْ مُنْجِدِى غَيْرُ ٱلدُّمُوعِ ؟! وَإِنَّهَا
لَمُغِيثَةٌ مَهْمَا ٱسْتَغَاثَ حَزِينُ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ مَا حَمَّلْتَنِى
صَعْبٌ، وَلَكِنْ فِى رِضَاكَ يَهُونُ

وَكَانَ لِلسُّلْطَانِ ٱلْمَذْكُورِ سَعْدٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ ، حَتَّى أَنَّهُ كَتَبَ لَهُ ٱلسُّلْطَانُ صَاحِبُ مَكَّةَ ٱلْبَيْعَةَ مِنْ إِنْشَاءِ ٱبْنِ سَبْعِينَ ٱلْمُتَصَوِّفِ[1] كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ٱبْنُ خَلْدُونَ فِى تَارِيخِهِ ٱلْكَبِيرِ، وَسَرَدَ نَصَّهَا، وَهِىَ مِنَ ٱلْغَرَائِبِ ، وَمِنْ سَعْدِهِ أَنَّ ٱلْفَرَنْسِيسَ ٱلَّذِى كَانَ أُسِرَ بِمِصْرَ[2] وَجُعِلَ فِى دَارِ ٱبْنِ لُقْمَانَ

(١) تقدم القول فى ذلك فى ترجمة ابن سبعين (٢) هجمت الفرنج مدينة دمياط فى شهر ربيع الأول من سنة ٦٤٧ واستهلت سنة ٦٤٨ والفرنج على المنصورة والجيوش الاسلامية بازائهم وقد طال القتال بين الفريقين أشهرا، فضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم « وذلك فى أول سلطنة الملك المعظم توران شاه على مصر كما تقدم » ووقع فى خيلهم وباء وموت، وعزم ملكهم على أن يركب فى أول الليل ويسير الى دمياط ، فعلم المصريون بذلك، وكان الفرنج قد عملوا جسرا على النيل، وسهوا عن قطعه، فعبر جيش مصر منه فى الليل الى برهم، وخيامهم وثقلهم على حالها، وأحدق المصريون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلا وأسراء، فالتجأوا الى قرية تسمى منية أبى عبد الله «على الشاطىء الشرقى لفرع النيل

وَالطَّوَاشِي صَبِيحٌ يَحْرُسُهُ لَمَّا سُرِّحَ جَاءَ مِنْ أُمَمِ النَّصْرَانِيَّةِ لِبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا لَمْ يَجْتَمِعْ قَطُّ مِثْلُهُ، حَتَّى قِيلَ إِنَّهُمْ كَانُوا أَلْفَ أَلْفٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ مِصْرَ مِنْ نَظْمِ ابْنِ مَطْرُوحٍ الْقَصِيدَةَ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي مِنْهَا :

الشرق فرع دمياط، وتعرف اليوم باسم ميت الخولى عبد الله احدى قرى مركز فارسكور » وتحصنوا بها، ودار المصريون بها، وظفروا بأسطول الفرنج،فطلب الفرنسيس الطواشى رشيدالدين والأميرسيف الدين القيمرى، لحضرا،فطلب منهما الأمان،فأجاباه،وعزذلك على الفرنج،فكانت بينهم وبين المصريين موقعة انتهت بهزيمتهم،ولم يبق منهم سوى اثنين ماتا غرقا ـ وحبس الفرنسيس بالمنصورة بدار ابن لقمان « وهى دار الحكومة التى كان ينزل بها القاضى فخر الدين ابراهيم بن لقمان كاتب الانشاء « كاتب الكتاب » اذا جاء الى المنصورة ، ولا تزال هذه الدار معروفة بالمنصورة، وقد أبقى الزمان جزءا منها هو الذى فيه الباب قائما بجوار جامع الشيخ الموافى ، ووضعت لجنة حفظ الآثار العربية على بابها لوحا من الرخام تفيد أن هذه الدار هى التى سجن فيها القديس لويز التاسع ملك فرنسا « وهو المسمى هنا الفرنسيس » فى سنة ٦٤٨ هـ الموافقة سنة ١٢٥٠ م. وكان القائم بحفظه الطواشى جمال الدين صبيح المعظمى،فبقى مكرما غاية الكرامة ، وبقى فى الاعتقال حتى قتل الملك المعظم، فأطلق طمعا فى المال الذى بذله، فركب البحر « وكان من حسن السياسة ألا يطلق » وأخذ فى الاستعداد والعودة الى دمياط،فقال الصاحب جمال الدين بن مطروح هذه القصيدة ، وندم الأمراء على اطلاقه ولات حين مندم، ولكن الحين لم يمهله، وكان بعد ذلك ماهو مذكورهنا، وماهومعروف فى تواريخ الحروب الصليبية «أحمد يوسف نجاتى»

قُلْ لِلْفَرَنْسِيس إِذَا جِئْتَهُ   مَقَالَةً مِنْ ذِى لِسَانٍ فَصِيحْ[1]

إِلَى أَنْ قَالَ :

دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا   وَمِصْرُ مِصْرٌ، وَالطَّوَاشِى صَبِيحْ

وَالْقَصِيدَةُ مَشْهُورَةٌ، فَلِذَلِكَ لَمْ أَسْرُدْهَا ، فَصَرَفَ الْفَرَنْسِيسُ جُيُوشَهُ إِلَى تُونِسَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أُدَبَاءِ دَوْلَةِ الْمُسْتَنْصِرِ[2] :

أَفَرَنْسِيسُ، تُونُسٌ أُخْتُ مِصْرٍ   فَتَأَهَّبْ لِمَا إِلَيْهِ تَصِيرُ

---

(١) ويروى : مقال صدق من قؤول فصيح ، ويروى : مقال صدق عن قؤول نصيح — وبعده :

آجرك الله على ماجرى   من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها   تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدهم   ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم   بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لاترى منهم   الا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقك الله لأمثالها   لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا   فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم ان أضمروا عودة   لأخذ ثار أو لعقد صحيح

ويروى «أو لقصد صحيح — دار ابن لقمان الخ. وأراد بالأدهم القيد، والضريح: القبر. ولله در جمال الدين بن مطروح، فقد أحسن الاجابة عن مصر، وما قصر فى السفارة بينها وبين من أرادها بسوء فقصمه الله ، مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب والصياغة « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هو شاب من أهل تونس يسمى أحمد بن اسمعيل الزيات « أحمد يوسف نجاتى » .

لَكَ فِيهَا دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ قَبْرٌ
وَطَوَاشِيكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ

فَقَضَى اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ مَاتَ فِي حَرَكَتِهِ لِتُونُس، وَغَنِمَ الْمُسْتَنْصِرُ غَنِيمَةً مَا سُمِعَ بِمِثْلِهَا قَطُّ، وَيُقَالُ إِنَّهُ دَسَّ إِلَيْهِ سَيْفاً مَسْمُومًا مَنْ سَلَّهُ أَثَّرَ فِيهِ سُمُّهُ، وَقَلَّدَهُ رَسُولًا إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ جَعَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ مَا لَمْ يُرَ مِثْلُهُ عِنْدَ غَيْرِهِ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ إِنَّ الْفَرَنْسِيسَ رَجُلٌ كَثِيرُ الطَّمَعِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا عَاوَدَ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَسْرِهِ، وَإِنَّهُ سَيَرَى السَّيْفَ وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا رَأَيْتَهُ فَعَلَ ذَلِكَ فَانْزِعْهُ مِنْ عُنُقِكَ وَقَبِّلْهُ، وَقُلْ لَهُ: هَذَا هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكَ، لِأَنَّ مِنْ آدَابِنَا مَعَ مُلُوكِنَا أَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ نَظَرُ الْمَلِكِ عَلَيْهِ وَعَاوَدَ النَّظَرَ إِلَيْهِ بِالْقَصْدِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَيَحْرُمُ عَلَيْنَا أَنْ نُمْسِكَهُ، لِأَنَّ مَا أَحَبَّهُ الْمَوْلَى عَلَى الْعَبِيدِ حَرَامٌ(١) وَتَكْرَارُهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ دَلِيلٌ عَلَى حُبِّهِ لَهُ، فَفَرِحَ النَّصْرَانِيُّ بِذَلِكَ، وَأَسْرَعَ الرَّسُولُ الْعَوْدَ إِلَى سُلْطَانِهِ، فَسَلَّ النَّصْرَانِيُّ السَّيْفَ، فَتَمَكَّنَ فِيهِ السُّمُّ

(١) من قول أحمد بن يوسف ـ أو غيره ـ للمأمون:

كل مايصلح للمو لى على العبد حرام

بِالنَّظَرِ ، فَمَاتَ فِي الْحِينِ ،وَفَرَّجَ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ .

« رَجْعٌ » إِلَى أَخْبَارِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ سَعِيدٍ. قَالَ ابْنُ الْعَدِيمِ فِي تَارِيخِ حَلَبَ : أَنْشَدَنِي شَرَفُ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ التِّيفَاشِيُّ (١) بِالْقَاهِرَةِ فِي أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ

---

(١) نسبة الى تيفاش مدينة قديمه بافريقية ، كانت شامخة البناء ذات عيون ومزارع كثيرة، وهى فى سفح جبل . وكان أبو العباس التيفاشى اماما جليلا أديبا، ولهشعر رائق، ومن قوله فىأهرام مصر :

ألست ترى الأهرام دام بناؤها ... ويفنى لدينا العالم الأنسوالجن؟!
كأن رحىالأفلاك أكوارهاعلى ... قواعدها الأهرام والعالم الطحن

وقال :

خليلى ، لاباق على الحدثان ... من الأول الباقى فيحدث ثانى
الىهرمىمصر تناهتقوىالورى ... وقد هرمت فى دهرها الهرمان
فلا تعجبا أن قد هرمت، فانما ... رمانى بفقدان الشباب زمانى
وعوجا بقرطاجنة فانظرا بها ... جنايتى العادين تنتحبان
وايوان كسرى فانظراه ، فانه ... يخبركما بالصدق كل أوان
فلا تحسبا أن الفناء يخصنى ... ألا كل مافوق البسيطة فانى

وقال :

قدكان للماضين من ... سكان مصر همم
فالفضل عنهم فضلة ... والعلم فيهم علم
ثم انقضت أعلامهم ... وعلمهم واحتطموا
وانظر تراها ظاهرا ... باد عليها الهرم

وكان التيفاشى بمصر زمان ابن سعيد، وله فيها شعر وأخبار تؤثر « أحمد يوسف نجاتى »

مُوسَى بْنِ سَعِيدٍ الْغَرْنَاطِيِّ يُشِيرُ إِلَى كِتَابِ أَبِي الْحَسَنِ الَّذِي جَمَعَهُ فِي مَحَاسِنِ الْمَغْرِبِ وَسَمَّاهُ الْمُغْرِبَ:

سَعِدَ الْغَرْبُ، وَازْدَهَى الشَّرْقُ عُجْبًا
وَابْتِهَاجًا بِمُغْرِبِ ابْنِ سَعِيدِ

طَلَعَتْ شَمْسُهُ مِنَ الْغَرْبِ تُجْلَى
فَأَقَامَتْ قِيَامَةَ التَّقْيِيدِ

لَمْ يَدَعْ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَقَالًا
لَا وَلَا لِلرُّوَاةِ بَيْتَ نَشِيدِ

إِنْ تَلَاهُ عَلَى الْحَمَامِ تَغَنَّتْ
مَا عَلَى ذَا فِي حُسْنِهِ مِنْ مَزِيدِ

وَأَنْشَدَ أَبُو الْعَبَّاسِ التِّيفَاشِيُّ لِنَفْسِهِ فِيهِ:

يَا طَيِّبَ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ الزَّكِيِّ كَمَا
يَبْدُو جَنَى ثَمَرٍ مِنْ أَطْيَبِ الشَّجَرِ

وَمَنْ خَلَائِقُهُ مِثْلُ النَّسِيمِ إِذَا
يَهْفُو عَلَى الزَّهْرِ حَوْلَ النَّهْرِ فِي السَّحَرِ

وَمَنْ مُحَيَّاهُ - وَاللهُ الشَّهِيدُ - إِذَا
يَبْدُو إِلَى بَصَرِي أَبْهَى مِنَ الْقَمَرِ

أَثْقَلْتَ ظَهْرِي بِبِرٍّ لَا أَقُومُ بِهِ
لَوْ كُنْتُ أَتْلُوهُ قُرْآنًا مَعَ السُّوَرِ

أَهْدَيْتَ لِي ٱلْغَرْبَ مَجْمُوعًا بِعَالَمِهِ
فِي قَابِ قَوْسَيْنِ بَيْنَ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ
كَأَنَّنِي ٱلْآنَ قَدْ شَاهَدْتُ أَجْمَعَهُ
بِكُلِّ مَنْ فِيهِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرِ
نَعَمْ وَلَاقَيْتُ أَهْلَ ٱلْفَضْلِ كُلَّهُمُ
فِي مُدَّتِي هَذِهِ وَٱلْأَعْصُرِ ٱلْأُخَرِ
إِنْ كُنْتُ لَمْ أَرَهُمْ فِي ٱلصَّدْرِ مِنْ عُمُرِي
فَقَدْ رَدَدْتَ عَلَى ٱلصَّدْرِ مِنْ عُمُرِي (١)
وَكُنْتَ لِي وَاحِدًا فِيهِمْ جَمِيعِهِمُ
مَا يُعْجِزُ ٱللهَ جَمْعُ ٱلْخَلْقِ فِي بَشَرِ (٢)
جُزِيتَ أَفْضَلَ مَا يُجْزَى بِهِ بَشَرٌ
مُفِيدَ عُمْرٍ جَدِيدِ ٱلْفَضْلِ مُبْتَكَرِ

انْتَهَى

وَمِنْ نَظْمِ أَبِي ٱلْحَسَنِ بْنِ سَعِيدٍ قَوْلُهُ :

وَعَشِيَّةٍ بَلَغَتْ بِنَا أَيْدِي ٱلنَّوَى
مِنْهَا مَحَاسِنَ جَامِعَاتٍ لِلنُّخَبْ

---

(١) فى هـذا البيت من المحسنات البديعية اللفظية رد العجز على الصدر

(٢) يشير الى معنى قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فَحَـدَائِقٌ مَا بَيْنَهُنَّ جَـدَاوِلٌ
وَبَلَابِلٌ فَوْقَ ٱلْغُصُونِ لَهَا طَرَبْ[١]

وَٱلنَّخْلُ أَمْثَالُ ٱلْعَرَائِسِ لِبْسُهَا
خَزٌّ، وَحِلْيَتُهَا قَلَائِدُ مِنْ ذَهَبْ

وَمِنْ نَظْمِهِ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فِي حَلَبَ قَوْلُهُ :

حَادِيَ ٱلْعِيسِ ! كَمْ تُنِيخُ ٱلْمَطَايَا !
سُقْ، فَرُوحِي مِنْ بَعْدِهِمْ فِي سِيَاقِ

حَلَبٌ إِنَّهَا مَقَرُّ غَرَامِي وَمَرَامِي وَقِبْلَةُ ٱلْأَشْوَاقِ

لَا خَلَا جَوْسَقٌ وَبِطْيَاسُ وَٱلسَّعْـ
دَاءُ مِنْ كُلِّ وَابِلٍ غَيْدَاقِ[٢]

كَمْ بِهَا مَرْتَعٍ لِطَرْفٍ وَقَلْبٍ
فِيهِ يُسْقَى ٱلْمُنَى بِكَاسٍ دِهَاقِ

وَتَغَنَّى طُيُورِهِ لِارْتِيَاحٍ وَتَثَنَّى غُصُونِهِ لِلْعِنَاقِ

(١) يروى صدر البيت : فحدائق ما بينها وجداول « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) جوسق اسم لعـدة أماكن ، منها جوسق الذى يعنيه قرب حلب ، وبطياس: قرية من قرى حلب الشهباء ، كان بها قصر لعلى بن عبد الملك بن صالح الذى كان أمير حلب، وقد خربت القرية والقصر فيما بعد ، وفيها يقول أبو بكر الصنوبرى الحلبي :

وَعُلُوُّ ٱلشَّهْبَاءِ حَيْثُ ٱسْتَدَارَتْ
أَنْجُمُ ٱلْأُفْقِ حَـوْلَهَا كَالنِّطَاقِ

وَقَوْلُهُ أَيْضًا فِي حَمَاةَ :

حَمَى ٱللهُ مِنْ شَطَّيْ حَمَاةَ مَنَاظِرًا
وَقَفْتُ عَلَيْهَا ٱلسَّمْعَ وَٱلْفِكْرَ وَٱلطَّرْفَا
تُغَنِّي حَمَامٌ ، أَوْ تَمِيلُ خَمَائِلٌ
وَتُزْهَى مَبَانٍ تَمْنَحُ ٱلْوَاصِفَ ٱلْوَصْفَا
يَلُومُونَ أَنْ أَعْصِي ٱلتَّصَوُّنَ وَٱلنُّهَى
بِهَا، وَأُطِيعَ ٱلْكَأْسَ وَٱللَّهْوَ وَٱلْقَصْفَا

انى طربت الى زيتون بطياس ... بالصالحية ذات الورد والآس
من ينس عهدها يوما فلست له ... وان تطاولت الأيام بالناسى
ياموطنا كان من خير المواطن لى ... لما خلوت به مابين جلاسى
وقائل لى: أفق يوما، فقلت له: ... من سكرة الحب أو من سكرة الكاس؟!
لاأشرب الكاس الامن يدى رشأ ... مهفهف كقضيب البان مياس
مورد الخد فى قمص موردة ... له من الآس اكليل على الراس
قل للذى لام فيه: هل ترى خلفا؟! ... ياأملح الروض، بل ياأملح الناس

وقال البحترى :

يابرق أسفر عن قويق فطرتى ... حلب فأعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صبغه ... فى كل ضاحية ومجنى الآس
أرض اذا استوحشت ثم أتيتها ... حشدت على فأكثرت ايناسى

« قويق: نهر مدينة حلب، وماؤه أعذب ماء وأصحه، الا أنه فى الصيف ينشف فلايبقى الا نزوز قليلة ، وأمافى الشتاء فهو حسن المنظر طيب المخبر .وقد وصفه

إِذَا كَانَ فِيهَا ٱلنَّهْرُ عَاصٍ فَكَيْفَ لَا
أُحَاكِيهِ عِصْيَانًا وَأَشْرَبُهَا صِرْفًا[١] ؟!

وَأَشْدُو لَدَى تِلْكَ ٱلنَّوَاعِيرِ شَدْوَهَا
وَأُغْلِبُهَا رَقْصًا ، وَأُشْبِهُهَا عَزْفًا ؟!

تَئِنُّ وَتُذْرِي دَمْعَهَا ، فَكَأَنَّهَا ... تَهِيمُ بِمَرْآهَا وَتَسْأَلُهَا ٱلْعَطْفَا

وَقَوْلُهُ فِي وَدَاعِ ٱبْنِ عَمِّهِ ـ وَكَتَبَ بِهِمَا إِلَيْهِ :

شعراء حلب بما ألحقه بنهر الكوثر ، وبالغوا فى ذلك» وقال البحترى أيضا:

نظـرت وضمت جانبي التفاتة ... وما التفت المشتاق الا لينظـرا
الى أرجوانى من الـبرق كلما ... تنمر عـلوى السحاب تعصفرا
يضىء غماما فوق بطياس واضحا ... يبض وروضا تحت بطياس أخضرا
وقد كان محبوبا الى لو انه ... أضاء غزالا عند بطياس أحورا

تنمر : أشبه لون النمر . وتعصفر : أشبه لون العصفر ـ والسعدى قرية بحلب أيضا ، وهناك قريتان كلتاهما بحلب سفلى وعليا تسمى السعدية ـ والغيداق الغدق الكثير الماء ، والغيداق: الرجل الكريم الجواد الواسع الخلق الكثير العطية، وبه سمى أحد عمومته صلى الله عليه وسلم لكثرة عطائه « غيداقا » وغيدق المطر: اذا كثر، وماء غيداق: كثير عام، وعام غيداق: مخصب ، وغيث غيداق: كثير الماء، وعيش غيدق وغيداق: واسع مخصب ، وهم فى غدق من العيش وغيداق « أحمد يوسف نجاتى » (١) العاصى: اسم نهر حماة وحمص ويعرف بالمياس، منبعه من بحيرة قدس، ومصبه فى البحر قرب أنطاكية « أحمد يوسف نجاتى » .

وَدَاعٌ كَمَا وَدَّعْتُ فَصْلَ رَبِيعٍ
يَفُضُّ ضُلُوعِي أَوْ يُفِيضُ دُمُوعِي (١)

لَئِنْ قِيلَ فِي بَعْضٍ يُفَارِقُ بَعْضَهُ
فَإِنِّيَ قَدْ فَارَقْتُ مِنْكَ جَمِيعِي

قَالَ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَاعْتَذَرَ، وَلِسَانُ حَالِهِ يُنْشِدُ عَنْهُ :

أُحِبُّكَ فِي الْبَتُولِ وَفِي أَبِيهَا وَلَكِنِّي أُحِبُّكَ مِنْ بَعِيدِ

وَقَوْلُهُ — وَقَدْ أَفْلَتَ الْمَرْكَبُ الَّذِي كَانَ فِيهِ مِنَ الْعَدُوِّ — :

انْظُرْ إِلَى مَرْكَبِنَا مُنْقَذًا مِنَ الْعِدَا مِنْ بَعْدِ إِحْرَازِ
أَفْلَتَ مِنْهُمْ، فَغَدَا طَائِرًا كَطَائِرٍ أَفْلَتَ مِنْ بَازِي

وَقَالَ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — لَمَّا خَرَجَ مِنْ حُدُودِ إِفْرِيقِيَّةَ :

رَفِيقِيَ، جَاوَزْنَا حُدُودَ مَوَاطِنٍ
صَحِبْنَا بِهَا الْأَيَّامَ طَلْقًا مُحَيَّاهَا

وَمَا إِنْ تَرَكْنَاهَا لِجَهْلٍ بِقَدْرِهَا
وَلَكِنْ ثَنَتْ عَنَّا أَعِنَّةَ سُقْيَاهَا

فَسِرْنَا نَحُثُّ السَّيْرَ عَنْهَا لِغَيْرِهَا
إِلَى أَنْ يَمُنَّ اللهُ يَوْمًا بِلُقْيَاهَا

---

(١) فض الشيء : اذا فرقه بعد اجتماعه ، وفض ختم الكتاب: كسره ، وفى نسخة «تقض» . وقض الشيء: دقه وكسره «أحمد يوسف نجاتى»

وَكَانَ وُصُولُهُ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ فِي ٱلسَّابِعِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ. وَقَالَ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ : أَخَذْتُ مَعَ وَالِدِي يَوْمًا فِي ٱخْتِلَافِ مَذَاهِبِ ٱلنَّاسِ وَأَنَّهُمْ لَا يُسَلِّمُونَ لِأَحَدٍ فِي ٱخْتِيَارِهِ، فَقَالَ: مَتَى أَرَدْتَ أَنْ يُسَلِّمَ لَكَ أَحَدٌ فِي هَذَا ٱلتَّأْلِيفِ ـ أَعْنِي ٱلْمُغْرِبَ ـ وَلَا يَعْتَرِضَ أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ بَاطِلًا، وَطَلَبْتَ غَايَةً لَا تُدْرَكُ، وَأَنَا أَضْرِبُ لَكَ مَثَلًا : يُحْكَى أَنَّ رَجُلًا مِنْ عُقَلَاءِ ٱلنَّاسِ كَانَ لَهُ وَلَدٌ، فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: يَا أَبِي! مَا لِلنَّاسِ يَنْتَقِدُونَ عَلَيْكَ أَشْيَاءَ؟! وَأَنْتَ عَاقِلٌ، وَلَوْ سَعَيْتَ فِي مُجَانَبَتِهَا لَسَلِمْتَ مِنْ نَقْدِهِمْ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ غِرٌّ لَمْ تُجَرِّبِ ٱلْأُمُورَ، وَإِنَّ رِضَا ٱلنَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، وَأَنَا أُوقِفُكَ عَلَى حَقِيقَةِ ذَلِكَ، وَكَانَ عِنْدَهُ حِمَارٌ، فَقَالَ لَهُ: ٱرْكَبْ هَذَا ٱلْحِمَارَ وَأَنَا أَتْبَعُكَ مَاشِيًا، فَبَيْنَمَا هُمَا كَذَلِكَ إِذْ قَالَ رَجُلٌ: ٱنْظُرْ مَا أَقَلَّ أَدَبَ هَذَا ٱلْغُلَامِ! يَرْكَبُ وَيَمْشِي أَبُوهُ! وَٱنْظُرْ مَا أَشَدَّ تَخَلُّفَ وَالِدِهِ لِكَوْنِهِ يَتْرُكُهُ لِهَذَا! فَقَالَ لَهُ: ٱنْزِلْ أَرْكَبْ أَنَا وَٱمْشِ أَنْتَ خَلْفِي، فَقَالَ شَخْصٌ آخَرُ: ٱنْظُرْ هَذَا ٱلشَّخْصَ، مَا أَقَلَّ شَفَقَتَهُ! رَكِبَ وَتَرَكَ ٱبْنَهُ يَمْشِي! فَقَالَ لَهُ: ٱرْكَبْ مَعِي،

فَقَالَ شَخْصٌ: أَشْقَاهُمَا اللهُ تَعَالَى! اُنْظُرْ كَيْفَ رَكِبَا عَلَى الْحِمَارِ وَكَانَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا كِفَايَةٌ! فَقَالَ لَهُ: اُنْزِلْ بِنَا، وَقَدَّمَاهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ رَاكِبٌ، فَقَالَ شَخْصٌ: لَا خَفَّفَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا! اُنْظُرْ كَيْفَ تَرَكَا الْحِمَارَ فَارِغًا! وَجَعَلَا يَمْشِيَانِ خَلْفَهُ! فَقَالَ: يَا بُنَيَّ سَمِعْتَ كَلَامَهُمْ؟! وَعَلِمْتَ أَنَّ أَحَدًا لَا يَسْلَمُ مِنَ اعْتِرَاضِ النَّاسِ عَلَى أَيِّ حَالَةٍ كَانَ اعْتِرَاضُهُمْ؟! انْتَهَى. وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ خُطْبَةِ الْمُغْرِب مَا نَصُّهُ: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْأَدَبَ أَفْضَلَ مَا اكْتُسِبَ، وَأَفْضَلَ مَا انْتُخِبَ، إِذْ هُوَ ذُخْرٌ لَا يُخَافُ كَسَادُهُ، وَكَنْزٌ لَا يُخْشَى انْتِقَاصُهُ وَنَفَادُهُ، وَإِنْ كَثُرَ طَالِبُهُ وَمُرْتَادُهُ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ:

رَأَيْتُ جَمِيعَ الْكَسْبِ يَفْقِدُهُ الْفَتَى
وَتَبْقَى لَهُ أَخْلَاقُهُ وَالتَّأَدُّبُ

إِذَا حَلَّ فِي أَرْضٍ أَقَامَ لِنَفْسِهِ ... بِآدَابِهِ قَدْرًا بِهِ يَتَكَسَّبُ
وَأَوْمَأَ كُلٌّ نَحْوَهُ، وَلَعَلَّهُ ... إِلَى غَيْرِ أَهْلٍ لِلنَّبَاهَةِ يُنْسَبُ

وَقَالَ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ لِبَعْضِ الْمَغَارِبَةِ:

فَأَثْبَتَّ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ هِمَّةً
إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ مُطَّرَحْ

وَصَيَّرْتَ مَنْ قَدْ كَانَ بِالنَّظْمِ جَاهِلًا
يُحَاوِلُهُ كَيْمَا تَجُودَ لَكَ الْمِدَحْ

وَقَالَ أَيْضًا فِي الْخُطْبَةِ : وَبَعْدُ فَهَذَا كِتَابُ رَاحَةٍ قَدْ تَعِبَتْ فِي جَمْعِهِ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْأَفْكَارُ، وَكُلُّ عَنَاءٍ سَهْلٌ إِذَا أَنْجَحَ الْقَصْدُ، وَقَدْ بُدِئَ فِيهِ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَمُنْتَهَاهُ إِلَى غُرَّةِ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ .

***

عبد الملك ابن سعيد

قَالَ وَأَوَّلُ مَنْ كَانَ السَّبَبَ فِي ابْتِدَاءِ هَذَا الْكِتَابِ جَدُّ وَالِدِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ سَعِيدٍ، وَهُوَ إِذْ ذَاكَ صَاحِبُ قَلْعَةِ بَنِي سَعِيدٍ تَحْتَ طَاعَةِ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ تَاشِفِينَ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ مَلِكِ الْبَرْبَرِ، إِلَى أَنِ اسْتَبَدَّ بِهَا سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَقَصَدَهُ فِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ حَافِظُ الْأَنْدَلُسِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحِجَارِيِّ وَصَنَّفَ لَهُ كِتَابَ «الْمُسْهِبِ فِي غَرَائِبِ الْمَغْرِبِ» فِي نَحْوِ سِتَّةِ أَسْفَارٍ، وَابْتَدَأَ فِيهِ مِنْ فَتْحِ الْأَنْدَلُسِ إِلَى التَّارِيخِ الَّذِي ابْتَدَأَهُ فِيهِ؛ وَهُوَ سَنَةُ ثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ؛ ثُمَّ ثَارَ فِي خَاطِرِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ يُضِيفَ إِلَيْهِ مَا أَغْفَلَهُ الْحِجَارِيُّ، وَتَوَلَّعَ بِمُطَالَعَتِهِ ابْنَاهُ أَبُو جَعْفَرٍ وَمُحَمَّدٌ :

وَأَضَافَا لَهُمَا اُسْتَفَادَاهُ، وَلَمْ يَزَلْ يَزِيدُ إِلَى أَنِ اُسْتَبَدَّ بِهِ مُحَمَّدٌ فَاعْتَنَى بِهِ أَشَدَّ اُعْتِنَاءٍ، ثُمَّ اُسْتَبَدَّ بِهِ وَالِدِي، وَكَانَ أَعْلَمَهُمْ بِهَذَا اُلشَّأْنِ. وَبَلَغَ مِنَ اُجْتِهَادِهِ فِي هَذَا اُلْكِتَابِ أَنَّنِي أَذْكُرُهُ يَوْمًا وَقَدْ نَوَّهَ بِهِ اُبْنُ هُودٍ وَهُوَ مَلِكُ اُلْأَنْدَلُسِ، وَوَلَّاهُ اُلْجَزِيرَةَ اُلْخَضْرَاءَ ـ فَأَعْلَمَهُ شَخْصٌ أَنَّ عِنْدَ أَحَدِ اُلْمَنْسُوبِينَ إِلَى بَيْتِ نَبَاهَةَ[1] كَرَارِيسَ مِنْ شِعْرِ شُعَرَائِهَا، وَأَخْبَارِ رُؤَسَائِهَا، اُلَّذِينَ تَحْتَوِي عَلَيْهِمْ دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ اُلْمُؤْمِنِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَاغِبًا فِي اُسْتِعَارَتِهَا، فَأَبَى وَقَالَ: عَلَيَّ يَمِينٌ أَلَّا تَخْرُجَ عَنْ مَنْزِلِي، وَقَالَ إِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ يَأْتِي عَلَى رَأْسِهِ ـ وَكَانَ جَاهِلًا ـ فَلَمَّا سَمِعَ وَالِدِي ضَحِكَ، وَقَالَ لِي: سِرْ مَعِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُ وَمَنْ يَكُونُ هَذَا حَتَّى نَمْشِيَ لَهُ عَلَى هَذِهِ اُلصُّورَةِ؟! فَقَالَ: إِنِّي لَا أَمْشِي لَهُ، وَلَكِنْ أَمْشِي لِلْفُضَلَاءِ اُلَّذِينَ تَضَمَّنَتِ اُلْكَرَارِيسُ أَشْعَارَهُمْ وَأَخْبَارَهُمْ، أَتُرَاهُمْ لَوْ كَانُوا أَحْيَاءً مُجْتَمِعِينَ فِي

موسى بن سعيد والد ابن سعيد صاحب الترجمة

---

(١) من بيت نباهة أبو على الحسن بن محمد بن الحسن النباهي الجذامي، من أهل مالقة وأعيانها وقضاتها، وهو جد بنى الحسن المالقيين، وبيته بيت قضاء وعلم ورياسة، لم يزالوا يرثون ذلك كابرا عن كابر، واستقضى جده المنصور بن أبى عامر وتوفى سنة ٤٧٢ وتقدم حديث عنه « أحمد يوسف نجاتى »

مَوْضِعٍ أَنِفْتُ أَنْ أَمْشِيَ إِلَيْهِمْ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّ ٱلْأَثَرَ يَنُوبُ عَنِ ٱلْعَيْنِ، فَمَشَيْنَا إِلَى مَنْزِلِ ٱلرَّجُلِ، فَوَاللهِ مَا أَنْصَفَنَا فِي ٱللِّقَاءِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْهَا ٱلْغَرَضَ صَرَفَهَا إِلَيْهِ وَالِدِي، وَشَكَرَهُ، وَقَالَ: هَذِهِ فَائِدَةٌ لَمْ أَجِدْهَا عِنْدَ غَيْرِكَ، فَجَزَاكَ ٱللهُ تَعَالَى خَيْرًا، ثُمَّ ٱنْفَصَلَ وَقَالَ: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنِّي سُرِرْتُ بِهَذِهِ ٱلْفَائِدَةِ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْوِلَايَةِ، وَإِنَّ هَذَا وَٱللهِ أَوَّلُ ٱلسَّعَادَةِ وَعُنْوَانُ نَجَاحِهَا.

***

وَٱلْقَلْعَةَ ٱلَّتِي كَانَ بِهَا بَنُو سَعِيدٍ تُعْرَفُ بِهِمْ، فَيُقَالُ لَهَا قَلْعَةُ بَنِي سَعِيدٍ، وَكَانَتْ تُعْرَفُ قَبْلُ بِقَلْعَةِ أَسْطَلِيرَ، وَهُوَ عَيْنٌ لَهَا. وَقَالَ ٱلْمَلَّاحِيُّ[1] فِي تَارِيخِهِ: إِنَّهَا تُعْرَفُ بِقَلْعَةِ يَحْصُبَ قَبِيلٍ مِنَ ٱلْيَمَنِ نَزَلَ بِهَا عِنْدَ فَتْحِ ٱلْأَنْدَلُسِ، وَبِهَا كَمَا مَرَّ صَنَّفَ ٱلْحِجَارِيُّ كِتَابَ «ٱلْمُسْهِبِ» لِصَاحِبِهَا عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ، وَفِي بَنِي سَعِيدٍ يَقُولُ ٱلْحِجَارِيُّ:

قلعة بنى سعيد

قَوْمٌ لَهُمْ فِي فَخْرِهِمْ ... شَرَفُ ٱلْحَدِيثِ مَعَ ٱلْقَدِيمْ
وَرِثُوا ٱلنَّدَى وَٱلْبَأْسَ وَٱلْـ ... ـعُلْيَا كَرِيمًا عَنْ كَرِيمْ

(١) أبو القاسم الملاحى سيأتى ذكره بعد « أحمد يوسف نجاتى »

مِنْ كُلِّ وَضَّاحٍ بِهِ   يُجْلَى دُجَى اللَّيْلِ الْبَهِيمْ

***

عبد الله بن سعد أول جد لابن سعيد دخل الاندلس

وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دَخَلَ الْأَنْدَلُسَ مِنْ وَلَدِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَمَّارٍ، وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنَ حَيَّانَ فِي مُقْتَبَسِهِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ يُوسُفَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْفِهْرِيَّ صَاحِبَ الْأَنْدَلُسِ آخِرَ دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْمَشْرِقِ كَتَبَ إِلَيْهِ[1] أَنْ يُدَافِعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مُعَاوِيَةَ الْمَرْوَانِيَّ الدَّاخِلَ لِلْأَنْدَلُسِ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ أَمِيرًا عَلَى الْيَمَانِيَّةِ مِنْ جُنْدِ دِمَشْقَ، وَإِنَّمَا رَكَنَ إِلَيْهِ فِي مُحَارَبَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لِمَا بَيْنَ بَنِي عَمَّارٍ وَبَنِي أُمَيَّةَ مِنَ الثَّارِ، بِسَبَبِ قَتْلِ عَمَّارٍ بِصِفِّينَ عَلَى يَدِ عَسْكَرِ مُعَاوِيَةَ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ وَكَانَ عَمَّارٌ مِنْ شِيعَةِ عَلِيٍّ ـ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمَا ـ .

***

أبو بكر محمد ابن سعيد

وقَالَ الْحِجَارِيُّ أَنْشَدَنِي أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ[2] صَاحِبُ أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ فِي مُدَّةِ الْمُلَثَّمِينَ لِنَفْسِهِ، فِيمَا يَلِيقُ بِجِنْسِهِ:

(١) فى الأصل كتب الله بدل كتب اليه وهو تصحيف فاسد «أحمد يوسف نجاتى» (٢) فى الأصل بكر بن محمد بن سعيد «أحمد يوسف نجاتى»

إنْ لَمْ أَكُنْ لِلْعَلَاءِ أَهْلًا ... بِمَا تَرَاهُ فَمَنْ يَكُونُ ؟!
وَكُلُّ مَا أَبْتَغِيهِ دُونِى ... وَلِى عَلَى هِمَّتِى دُيُونُ
وَمَنْ يَرُمْ مَا يَقِلُّ عَنْهُ ... فَذَاكَ مِنْ فِعْلِهِ جُنُونُ
فَرْعٌ بِأُفْقِ ٱلسَّمَاءِ سَامٍ ... وَأَصْلُهُ رَاسِخٌ مَكِينُ

وَمِنْ نَظْمِهِ قَوْلُهُ أَيْضًا :

اللهُ يَعْلَمُ أَنِّى ... أُحِبُّ كَسْبَ ٱلْمَعَالِى
وَإِنَّمَا أَتَوَانَى ... عَنْهَا لِسُوءِ ٱلْمَآلِ
تَحْتَاجُ لِلْكَدِّ وَٱلْبَذْ ... لِ وَاُصْطِنَاعِ ٱلرِّجَالِ(١)
دَعْ كُلَّ مَنْ شَاءَ يَسْمُو ... لَهَا بِكُلِّ ٱخْتِيَالِ
فَحَالُهُمْ بِانْعِكَاسٍ ... فِيهَا وَحَالِىَ حَالِى(٢)

***

أبو العباس أحمد الغسانى

وَلَمَّا ذَكَرَ ٱبْنُ سَعِيدٍ فِى ٱلْمُغْرِبِ تَرْجَمَةَ ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْمُجِيدِ أَبِى ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ٱلْغَسَّانِىِّ كَاتِبِ مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ قَالَ : بِمَاذَا أَصِفُهُ ؟ وَلَوْ أَنَّ ٱلنُّجُومَ تَصِيرُ لِى نَثْرًا لَمَا كُنْتُ أُنْصِفُهُ ، وَكَفَاكَ أَنِّى ٱخْتَبَرْتُ ٱلْفُضَلَاءَ مِنَ ٱلْبَحْرِ

---

(١) فى الأصل « واصطفاف الرجال » وهو تصحيف سخيف « أحمد يوسف نجاتى » (٢) من الحلى وهو الزينة « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْمُحِيطِ إِلَى حَضْرَةِ ٱلْقَاهِرَةِ ، فَمَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ وَلَا أَفْضَلَ عِشْرَةً مِنْهُ ، وَلَمَّا فَارَقْتُهُ لَمْ أَشْعُرْ إِلَّا بِرِسَالَتِهِ قَدْ وَافَتْنِي بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ تُونُسَ ، وَفِيهَا قَصِيدَةٌ فَرِيدَةٌ ؛ مِنْهَا :

إِيهٍ أَبَا ٱلْحَسَنِ،ٱسْتَمِعْ شَدْوِي، فَقَدْ
يُصْغِي ٱلْحَمَامُ إِذَا ٱلْحَمَامُ تَرَنَّمَا

ثُمَّ سَرَدَ بَعْضًا مِنَ ٱلْقَصِيدَةِ ، وَسَتَأْتِي قَرِيباً ـ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ بِزِيَادَةٍ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْهَا فِي ٱلْمُغْرِبِ .

***

عود الى سيرة ابن سعيد

« رَجْعٌ » وُجِدَ بِخَطِّهِ ـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى ـ آخِرَ ٱلْجُزْءِ مِنْ كِتَابِ ٱلْمُغْرِبِ مَا نَصُّهُ: أَجَزْتُ ٱلشَّيْخَ ٱلْقَاضِيَ ٱلْأَجَلَّ أَبَا ٱلفَضْلِ أَحْمَدَ بْنَ ٱلشَّيْخِ ٱلْقَاضِي أَبِي يَعْقُوبَ ٱلتِّيفَاشِيِّ أَنْ يَرْوِيَ عَنِّي مُصَنَّفِي هَذَا وَهُوَ «ٱلْمُغْرِبُ فِي مَحَاسِنِ ٱلْمَغْرِبِ» وَيُرْوِيهِ مَنْ شَاءَ ، ثِقَةً بِفَهْمِهِ ، وَٱسْتِنَامَةً إِلَى عِلْمِهِ ، وَكَذَلِكَ أَجَزْتُ لِفَتَاهُ ٱلنَّبِيهِ جَمَالِ ٱلدِّينِ أَبِي عَبْدِ ٱللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرِ ٱبْنِ خَطْلَخَ ٱلْفَارِسِيِّ ٱلْأُرْمَوِيِّ (١) أَنْ يَرْوِيَهُ عَنِّي وَيُرْوِيهِ

(١) نسبة الى أرمية : اسم مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان ، وكانت مدينة حسنة كثيرة الخيرات واسعة الفواكه والبساتين صحيحة الهواء كثيرة الماء،

مَنْ شَاءَ، وَكَتَبَهُ مُصَنِّفُهُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ أَبْنِ سَعِيدٍ فِي تَارِيخِ الْفَرَاغِ مِنْ نَسْخِ هَذَا السِّفْرِ - انْتَهَى .

وَقَالَ فِي وَسِيمٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْعَجَمِ صَحِبَهُ فِي الطَّرِيقِ مِنْ حَلَبَ إِلَى بَغْدَادَ، فَمَاتَ - وَكَانَ ظَرِيفاً أَدِيباً :

لَهْفِي عَلَى غُصْنٍ ذَوَى ... أَفْقَدْتُهُ لَمَّا اسْتَوَى

رَيَّانُ مِنْ مَاءِ الصِّبَا ... وَمِنَ الْمَدَامِعِ مَا ارْتَوَى

لَا تَعْذِلُونِي إِنْ نَطَقْـ ... ـتُ الدَّهْرَ فِيهِ عَنِ الْهَوَى

كَمْ ضَلَّ صَاحِبُهُ بِسِحْـ ... ـرِ اللَّحْظِ مِنْهُ، وَكَمْ غَوَى (١)

أَنَا لَا أُفِيقُ الدَّهْرَ فِيـ ... ـهِ مِنَ الصَّبَابَةِ وَالْجَوَى

إِنَّ الْهَوَى حَيًّا وَمَيْـ ... ـتًا لَا يَزَالُ بِهِ سَوَى

كَمْ قَدْ نَوَيْتُ بِهِ النَّعِـ ... ـيمَ فَقَدَّرَ اللَّهُ النَّوَى

دَارَ السَّلَامِ حَوَيْتِ مَنْ ... كُلَّ الْمَحَاسِنِ قَدْ حَوَى

وينسب اليها جماعة من الفضلاء منهم أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن محمد بن الشويخ الأرموى، نزل مصر وتوفى بها سنة ٤٦٠ - ومنهم أبو الفضل محمد بن عمر بن يوسف الأرموى البغدادى، ولى القضاء بمدينة القاقول وتوفى سنة ٥٤٧ - ومنهم مظفر بن يوسف الأرموى المؤدب ، وابنه يونس ابن مظفر كان كاتبا فاضلا من حذاق كتاب الديوان ، وولى اشراف الديوان ببغداد للناصر لدين الله « أحمد يوسف نجاتى » (١) من قوله تعالى : «ماضل صاحبكم وما غوى وماينطق عن الهوى» « أحمد يوسف نجاتى »

مَجْمُوعُ حُسْنٍ قَدْ تَوَى　　فِي جَنَّةٍ وَبِهَا ثَوَى[1]

***

أبو الحسن علي بن موسى بن ياسر

وَوُلِدَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدٍ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَامَ عَشْرٍ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ خَلَفِ ابْنِ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْحَسَنِ ابْنِ عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ - .

***

موسى بن محمد والد ابن سعيد

وَقَالَ فِي الْمُغْرِبِ لَمَّا عَرَّفَ بِوَالِدِهِ الْكَاتِبِ الشَّهِيرِ أَبِي عِمْرَانَ مُوسَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ مَا مُلَخَّصُهُ : لَوْلَا أَنَّهُ وَالِدِي لَأَطْنَبْتُ فِي ذِكْرِهِ ، وَوَفَّيْتُهُ مِنَ الْوَصْفِ حَقَّ قَدْرِهِ ، لَكِنْ كَفَاهُ وَصْفاً مَا أُثْبِتُ لَهُ فِي هَذِهِ التَّرْجَمَةِ ، وَمَا مَرَّ لَهُ وَيَمُرُّ فِي أَثْنَاءِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَكَوْنُ كُلِّ مَنِ اشْتَغَلَ بِهَذَا التَّأْلِيفِ نَهْرًا وَهُوَ بَحْرٌ ، وَاشْتِهَارُهُ فِي حِفْظِهِ التَّارِيخَ وَالِاعْتِنَاءِ بِالْآدَابِ فِي بِلَادِهِ بِحَيْثُ لَا يَحْتَاجُ

(١) توى : مات ، وثوى: أقام «أحمد يوسف نجاتي»

إِلَى تَنْبِيهٍ وَلَا إِطْنَابٍ، وَلَهُ مِنَ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ مَا تَضِجُّ الْأَقْلَامُ مِنْ كَثْرَتِهِ، وَيَسْتَمِدُّ الْقَطْرُ مِنْ دِرَّتِهِ[1]، وَمِمَّا شَاهَدْتُ مِنْ عَجَائِبِهِ أَنَّهُ عَاشَ سَبْعاً وَسِتِّينَ سَنَةً وَلَمْ أَرَهُ يَوْمًا تَخَلَّى عَنْ مُطَالَعَةِ كِتَابٍ، أَوْ كَتْبِ مَا يُخَلِّدُهُ، حَتَّى إِنَّ أَيَّامَ الْأَعْيَادِ لَا يُخْلِيهَا مِنْ ذَلِكَ، وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ عِيدٍ وَهُوَ فِي جَهْدٍ عَظِيمٍ مِنَ الْكُتُبِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَاسَيِّدِي! أَفِي هَذَا الْيَوْمِ لَا تَسْتَرِيحُ؟ فَنَظَرَ إِلَيَّ كَالْمُغْضَبِ وَقَالَ: أَظُنُّكَ لَا تُفْلِحُ أَبَدًا! أَتَرَى الرَّاحَةَ فِي غَيْرِ هَذَا؟ وَاللهِ لَا أَحْسَبُ رَاحَةً تَبْلُغُ مَبْلَغَهَا، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يُضَاعِفُ عُمُرِي حَتَّى أُتِمَّ كِتَابَ الْمُغْرِبِ عَلَى غَرَضِي، قَالَ فَأَثَارَ ذَلِكَ فِي خَاطِرِي أَنْ صِرْتُ مِثْلَهُ؛ لَا أَلْتَذُّ بِنَعِيمٍ غَيْرِ مَا أَلْتَذُّ بِهِ مِنْ هَذَا الشَّأْنِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا بَلَغَ هَذَا التَّأْلِيفُ إِلَى مَا تَرَاهُ، وَكَانَ أَوْلَعَ النَّاسِ بِالتَّجَوُّلِ فِي الْبُلْدَانِ، وَمُشَاهَدَةِ الْفُضَلَاءِ، وَاسْتِفَادَةِ مَا يَرَى وَمَا يَسْمَعُ، وَفِي تَوَلُّعِهِ بِالتَّقْيِيدِ وَالْمُطَالَعَةِ لِلْكُتُبِ يَقُولُ:

---

(١) فى نسخة : وتستمد « القطن » ودرة الماء واللبن ونحوهما : كثرته وسيلانه، ودر اللبن والدمع يدر « بضم الدال وكسرها » ودرت الناقة: اذا حلبت فأقبل على الحالب منها شيء كثير ، والاسم الدرة، ودرت السماء بالمطر وكذا السحاب، ودر الخراج: اذا كثر أتاؤه وفيئه « أحمد يوسف نجاتى »

يَا مُفْنِيًا عُمْرَهُ فِي الْكَاسِ وَالْوَتَرِ
وَرَاعِيًا فِي الدُّجَى لِلأَنْجُمِ الزُّهُرِ
يَبْكِي حَبِيبًا جَفَاهُ، أَوْ يُنَادِمُ مَنْ
يَهْفُو لَدَيْهِ كَغُصْنٍ بَاسِمِ الزَّهَرِ
مُنَعَّمًا بَيْنَ لَذَّاتٍ يُمَحِّقُهَا(١) وَلَا يُخَلِّدُ مِنْ فَخْرٍ وَلَا سِيَرِ
وَعَاذِلًا لِيَ فِيمَا ظِلْتُ أَكْتُبُهُ
يُبْدِي التَّعَجُّبَ مِنْ صَبْرِي وَمِنْ فِكَرِي
يَقُولُ: مَالَكَ قَدْ أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ فِي
حِبْرٍ وَطِرْسٍ عَنِ الْأَغْصَانِ وَالْحِبَرِ(٢)؟!
وَظِلْتَ تَسْهَرُ طُولَ اللَّيْلِ فِي تَعَبٍ
وَلَا تَنِي أَبَدَ الْأَيَّامِ فِي ضَجَرِ(٣)
أَقْصِرْ، فَإِنِّيَ أَدْرَى بِالَّذِي طَمَحَتْ
لِأُفْقِهِ هِمَّتِي، وَاسْأَلْ عَنِ الْأَثَرِ

---

(١) محقه — بالتخفيف والتشديد — : أبطله ومحاه حتى لم يبق منه شيء، ومحق الله الشيء: ذهب ببركته وخيره وريعه (٢) الطرس: الصحيفة يكتب فيها، والحبر جمع حبرة «كعنبة» ضرب من برود اليمن ذو نقط وخطوط ووشي: والحبرة «بفتح الحاء والباء» — السرور والحبور، وبين «حبر» و«حبر» جناس ظاهر (٣) يقال لا يني فلان يفعل كذا: أي لا يزال، قال:

وَٱسْمَعْ لِقَوْلِ ٱلَّذِي تُتْلَى مَحَاسِنُهُ
مِنْ بَعْدِ مَا صَارَ مِثْلَ ٱلتُّرْبِ كَٱلسُّوَرِ (١):
«جَمَالُ ذِي ٱلْأَرْضِ كَانُوا فِي ٱلْحَيَاةِ، وَهُمْ
بَعْدَ ٱلْمَمَاتِ جَمَالُ ٱلْكُتْبِ وَٱلسِّيَرِ»

ٱنْتَهَى .

***

أبو عمران موسى بن محمد

وَوُلِدَ أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ فِي ٱلْخَامِسِ مِنْ رَجَبٍ عَامَ ثَلَاثَةٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَتُوُفِّيَ بِثَغْرِ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَوْمَ ٱلِاثْنَيْنِ ٱلثَّامِنَ مِنْ شَوَّالٍ عَامَ أَرْبَعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ،

***

محمد بن عبد الملك

وَوُلِدَ أَبُو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ صَاحِبُ أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ وَأَعْمَالِ إِشْبِيلِيَةَ عَامَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَتُوُفِّيَ بِشَعْبَانَ

فما ينون اذا طافوا بحجهم   يهتكون لبيت الله أستارا
وفى نسخة: ولاتنى أمد الأيام « أحمد يوسف نجاتى »

(١) يريد أبا العلاء المعرى صاحب البيت الأخير الذى ضمنه ابن سعيد قصيدته ، وقصيدة أبى العلاء التى منها هذا البيت أولها :

ياساهر البرق أيقظ راقد السمر   لعل بالجزع أعوانا على السهر

عَامَ تِسْعَةٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِغَرْنَاطَةَ . وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَزِيرًا جَلِيلًا بَعِيدَ الصِّيتِ عَالِيَ الذِّكْرِ رَفِيعَ

وان بخلت عن الأحياء كلهم ... فاسق المواطر حيا من بنى مطر
ويا أسيرة حجليها أرى سفها ... حمل الحلى لمن أعيا عن النظر
ماسرت الاوطيف منك يصحبنى ... سرى أمامى وتأويبا على أثرى
لو حط رحلى فوق النجم رافعه ... وجدت ثم خيالا منك منتظرى
يود أن ظلام الليل دام له ... وزيد فيه سواد القلب والبصر
لواختصرتم من الاحسان زرتكم ... والعذب يهجر للافراط فى الخصر
والحسن يظهر فى شيئين رونقه ... بيت من الشعر أو بيت من الشعر
لاتطويا السر عنى يوم نائبة ... فان ذلك ذنب غير مغتفر
والخل كالماء يبدى لى ضمائره ... مع الصفاء ويخفيها مع الكدر
يابن الألى غير زجر الخيل ماعرفوا ... اذ تعرف العرب زجر الشاء والعكر

« العكر جمع عكرة وهى قطعة من الابل من نحو ٦٠ — ٨٠ »

والقائديها مع الأضياف تتبعها ... ألافها وألوف اللائم والبدر

جمال ذى الأرض كانوا الخ وألاف الخيل : أمهارها وأولادها ، واللائم: الشخص، يريد العبيد، أو جمع لأمة وهى عدة السلاح كاملة، يعنى انهم يهبون الخيل تتبعها مهارها مع الألوف من العبيد وعدد السلاح وبدر الأموال

الموقدون بنجد نار بادية ... لايحضرون، وفقد العز فى الحضر
ماجت نمير، فهاجت منك ذا لبد ... والليث أفتك أفعالا من النمر
دع اليراع لقوم يفخرون به ... وبالطوال الردينيات فافتخر
فهن أقلامك اللاتى اذا كتبت ... مجدا أتت بمداد من دم هدر
والنجم تستصغر الأبصار رؤيته ... والذنب للطرف لا للنجم فى الصغر
والمرء مالم تفد نفعا اقامته ... غيم حمى الشمس لم تمطر ولم يسر

وسقنا كثيرا من القصيدة لأنها من أبيات الشواهد فى البلاغة «أحمد يوسف نجاتى»

الْهِمَّةِ كَثِيرَ الْأَمْوَالِ، وَذَكَرَهُ ابْنُ صَاحِبِ الصَّلَاةِ فِي كِتَابِهِ «تَارِيخ الْمُوَحِّدِينَ» وَنَبَّهَ عَلَى مَكَانَتِهِ مِنْهُمْ فِي الْحَظْوَةِ وَالْأَخْذِ فِي أُمُورِ النَّاسِ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ[1] فِي شَرْحِ السِّيرَةِ الشَّرِيفَةِ حَيْثُ ذَكَرَ الْكِتَابَ الْمُوَجَّهَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ، وَأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَايَنَهُ عِنْدَ أَذْفُونْشَ مُكَرَّمًا مُفْتَخَرًا بِهِ. وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ وَمَدَحَهُ الرُّصَافِيُّ[2] بِقَصِيدَةٍ أَوَّلُهَا:

مَاذَا عَسَى يُثْنِي عَلَى عَلَمِ النَّدَى ... ذِهْنًا يَفِيضُ وَخَاطِرًا مُتَوَقِّدَا

---

(١) تقدم التعريف بالامام السهيلى صاحب «الروض الأنف» فى شرح السيرة النبوية للامام أبى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى الحميرى البصرى الأصل المتوفى بمصر سنة ٢١٣ — وتوفى الامام الفقيه المحدث عبدالرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى السهيلى بمدينة مراكش سنة ٥٨٣ ويأتى حديث عنه «أحمد يوسف نجاتى» (٢) أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى الرفاء من رصافة بلنسية، وسكن مالقة، شاعر أندلسى مشهور سيأتى كثير من بديع شعره فى الوصف والغزل، وكان معاصرا للامام السهيلى، وكان يلقب ابن رومى الأندلس، وهو شاعر وقته بها المعترف له بالاجادة، وسكن غرناطة زمنا، وامتدح واليها، وكان مع هذا ذا عفاف وعلو همة وعزة نفس، وكان من الرقة وسلاسة الطبع وتنقيح القريض وتجويده على طريقة متحدة، وخرج صغيرا من وطنه، فكان يكثر الحنين اليه، ويقصر أكثر منظومه عليه، وتوفى سنة ٥٧٢ وقبره بمدينة مالقة رحمه الله «أحمد يوسف نجاتى»

وَلَمَّا أَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ فِيهِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

لِمَحَلِّكَ التَّرْفِيعُ وَالتَّعْظِيمُ
وَلِوَجْهِكَ التَّقْدِيسُ وَالتَّكْرِيمُ

حَلَفَ لَا يَسْمَعُهَا ، وَقَالَ : عَلَيَّ إِجَازَتُكَ ، وَلَكِنَّ طِبَاعِي لَا تَحْمِلُ مِثْلَ هٰذَا ، فَقَالَ لَهُ الرُّصَافِيُّ : وَمَنْ مِثْلُكَ يَسْتَحِقُّ هٰذَا فِي الْوَقْتِ غَيْرُكَ؟! فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي مِنْ خِدَاعِكَ ، أَنَا وَمَا أَعْلَمُهُ مِنْ قَلْبِي . وَأَنْشَدَ لَهُ فِي الطَّالِعِ السَّعِيدِ[١] :

فَلَا تُظْهِرَنْ مَا كَانَ فِي الصَّدْرِ كَامِنًا
وَلَا تَرْكَبَنْ بِالْغَيْظِ فِي مَرْكَبٍ وَعْرِ
وَلَا تَبْحَثَنْ فِي عُذْرِ مَنْ جَاءَ تَائِبًا
فَلَيْسَ كَرِيمًا مَنْ يُبَاحِثُ فِي الْعُذْرِ[٢]

وَوَلِيَ لِلْمُوَحِّدِينَ أَعْمَالًا كَثِيرَةً بِمَرَّاكُشَ وَسَلَا وَإِشْبِيلِيَةَ وَغَرْنَاطَةَ ، وَاتَّصَلَتْ وِلَايَتُهُ عَلَى أَعْمَالِ غَرْنَاطَةَ ، وَكَانَ مِنْ شُيُوخِهَا وَأَعْيَانِهَا . وَكُتِبَ عَلَيْهِ عَقْدٌ أَنَّ فِي

---

(١) كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » لصاحب الترجمة أبى الحسن ابن سعيد، ذكر فيه تاريخ بلده وأهل بيته ، وفى نفح الطيب نقل كثير منه « أحمد يوسف نجاتى » (٢) فى معناه :

اذا ماامرؤ من ذنبه جاء تائبا اليك ولم تغفر له فلك الذنب

دَارِهِ مِنَ الْحُلِيِّ وَأَصْنَافِهِ مَالَا يَكُونُ إِلَّا فِي دَارِ الْمُلْكِ، وَأَنَّهُ إِذَا رَكِبَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ شَوَّشَ عَلَيْهِ[١] وَنُبَاحُ الْكِلَابِ فَأَمَرَ الْمَنْصُورُ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ صَاحِبِ أَعْمَالِ إِفْرِيقِيَّةَ أَبِي الْحُسَيْنِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، ثُمَّ رَضِيَ عَنْهُمَا، وَأَمَرَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ يَكْتُبَ بِخَطِّهِ كُلَّ مَا أُخِذَ مِنْهُ، فَصَرَفَهُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا، وَغَرِمَ لَهُ مَا فَاتَ مِنْهُ، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ سَعْدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَذْكُورِ وَنَبَاهَةِ قَدْرِهِ. وَحَسْبُهُ مِنَ الْفَخْرِ مَدْحُ أَدِيبِ الْأَنْدَلُسِ وَشَاعِرِهَا أَبِي عَبْدِ اللهِ الرُّصَافِيِّ، لَهُ وَهُوَ مِمَّنْ يَمْدَحُ الْخُلَفَاءَ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -.

***

عبد الملك ابن سعيد

وَوُلِدَ أَبُوهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ سَعِيدٍ عَامَ سِتَّةٍ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَتُوُفِّيَ بِحَضْرَةِ مَرَّاكُشَ عَامَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. قَالَ الْحِجَارِيُّ: لَمَّا مَاتَ يَحْيَى بْنُ غَانِيَةَ[٢] الْمُلَثَّمُ مَلِكُ الْأَنْدَلُسِ بِحَضْرَةِ غَرْنَاطَةَ - وَكَانَ وَزِيرَهُ

---

(١) هنا بياض مقدار سطر سقط من نسخة بخط المؤلف لم يتمكن الطابعون من قراءته فترك (٢) فى سنة ٥٤٣ ملك الموحدون مدينة قرطبة وكان بها يحيى بن على

وَمُدَبِّرَ دَوْلَتِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ سَعِيدٍ - بَادَرَ الْفِرَارَ لِغَرْنَاطَة عِنْدَمَا سَمِعَ بِمَوْتِهِ إِلَى قَلْعَتِهِ، وَثَارَ بِهَا، وَطَلَبَهُ خَلِيفَةُ يَحْيَى ابْنِ غَانِيَةَ طَلْحَةُ بْنُ الْعَنْبَرِ، فَوَجَدَهُ قَدْ فَاتَهُ(١). وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي تَأْلِيفِ كِتَابِ «الْمُغْرِب فِي أَخْبَارِ الْمَغْرِب» ثُمَّ تَمَّمَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ، ثُمَّ تَمَّمَ مَا بَقِيَ مِنْهُ ابْنُهُ مُوسَى بْنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ أَرْبَى عَلَى الْكُلِّ فِي إِتْمَامِهِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الَّذِي قَصَدْنَاهُ بِالتَّرْجَمَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ، وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ أَحْوَالِهِ جُمْلَةً كَافِيَةً.

***

الكلام على فسطاط مصر

وَمِنْ فَوَائِدِ ابْنِ سَعِيدٍ أَبِي الْحَسَنِ مَا حَكَاهُ عَنْ صَاحِبِ

السوفى المعروف بابن غانية مقيما لدعوة المرابطين، فلما دخل الموحدون الأندلس واشتعلت نار الفتنة بحرب المرابطين انتهز الفرنجة الفرصة فى البلاد وضايقوا ابن غانية بقرطبة، وألح طاغيتهم على جهاته حتى نزل له عن بعض المدن، وتغلب على كثير منها ومن حصونها، فأرسل ابن غانية الى بدران بن محمد المسوفى أمير الموحدين، واجتمعا بمدينة أستجة، وضمن له بدران أمام الخليفة عبد المؤمن بن على المعونة على أن يتخلى له عن قرطبة وقرمونة ففعل، ثم لحق بغرناطة وبها ميمون بن بدر اللمتونى فى جماعة من المرابطين، وأراد أن يكلمه فى الدخول فى طاعة الموحدين وأن يمكنهم من غرناطة كما فعل هو بقرطبة، فتوفى بغرناطة فى شعبان من سنة ٥٤٣ ودفن فى القصبة بإزاء قبر باديس بن حبوس الصنهاجى. وقد سبق أن عرفنا ببنى غانية وحوادثهم ونهاية أمرهم « أحمد يوسف نجاتى » (١) فى نسخة : قدمات

كِتَابِ ٱلْكَمَائِمِ ؛ وَهُوَ : فَأَمَّا فُسْطَاطُ مِصْرَ فَإِنَّ مَبَانِيهَا كَانَتْ فِي ٱلْقَدِيمِ مُتَّصِلَةً بِمَبَانِي مَدِينَةِ عَيْنِ شَمْسٍ ، وَجَاءَ ٱلْإِسْلَامُ وَبِهَا بِنَاءٌ يُعْرَفُ بِالْقَصْرِ حَوْلَهُ مَسَاكِنُ ، وَهُوَ ٱلَّذِي عَلَيْهِ نَزَلَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ وَضَرَبَ فُسْطَاطَهُ حَيْثُ ٱلْمَسْجِدُ ٱلْجَامِعُ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ لَمَّا فَتَحَهَا قَسَّمَ ٱلْمَنَازِلَ عَلَى ٱلْقَبَائِلِ ، وَنُسِبَتِ ٱلْمَدِينَةُ إِلَيْهِ ، فَقِيلَ فُسْطَاطُ عَمْرٍو ، وَتَدَاوَلَتْ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ وُلَاةُ مِصْرَ فَاتَّخَذُوهَا سَرِيرَ ٱلسَّلْطَنَةِ ، وَتَضَاعَفَتْ عِمَارَتُهَا ، فَأَقْبَلَ ٱلنَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ إِلَيْهَا ، وَقَصَرُوا أَمَانِيَّهُمْ عَلَيْهَا ، إِلَى أَنْ رَسَخَتْ بِهَا دَوْلَةُ بَنِي طُولُونَ ، فَبَنَوْا إِلَى جَانِبِهَا ٱلْمَنَازِلَ ٱلْمَعْرُوفَةَ بِالْقَطَائِعِ ، وَبِهَا كَانَ مَسْجِدُ ٱبْنِ طُولُونَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْآنَ إِلَى جَانِبِ ٱلْقَاهِرَةِ ، وَهِيَ مَدِينَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ يَمُرُّ ٱلنِّيلُ مَعَ طُولِهَا ، وَتَحُطُّ فِي سَاحِلِهَا ٱلْمَرَاكِبُ ٱلْآتِيَةُ مِنْ شَمَالِ ٱلنِّيلِ وَجَنُوبِهِ بِأَنْوَاعِ ٱلْفَوَائِدِ ، وَبِهَا مُتَنَزَّهَاتٌ ، وَهِيَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ ، وَلَا يَنْزِلُ فِيهَا مَطَرٌ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ ، وَتُرَابُهَا تُثِيرُهُ[1] ٱلْأَرْجُلُ ، وَهُوَ قَبِيحُ ٱللَّوْنِ ، تَتَكَدَّرُ مِنْهُ أَرْجَاؤُهَا

(١) في الأصل «ينتن» بدل «تثيره» وهو تصحيف سخيف «أحمد يوسف نجاتي»

وَيَسُوءُ بِسَبَبِهِ هَوَاؤُهَا ، وَلَهَا أَسْوَاقٌ ضَخْمَةٌ إِلَّا أَنَّهَا ضَيِّقَةٌ وَمَبَانِيهَا بِالْقَصَبِ وَالطُّوبِ طَبقَةً عَلَى طَبقَةٍ ، وَمُذْ بُنِيَتِ الْقَاهِرَةُ ضَعُفَتْ مَدِينَةُ الْفُسْطَاطِ ، وَفُرِّطَ فِي الِاعْتِنَاءِ بِهَا بَعْدَ الْإِفْرَاطِ ، وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ مِيلَيْنِ ، وَأُنْشِدْتُ فِيهَا لِلشَّرِيفِ الْعُقَيْلِيِّ[1] :

---

(١) هو الشريف أبو الحسن على بن الحسين بن حيدرة العقيلى من أعيان بنى مصر وأدبائها فى الدولة الفاطمية فى عصر المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لأعزاز دين الله على بن الحاكم بأمر الله « الذى قام بالأمر من سنة ٤٢٨ ـ سنة ٤٨٧ » وكان الشريف العقيلى شاعرا مجيدا ، ومن شعره قوله :

لنا أخ يحسن أن يحسنا ··· رضاه للجانين عذب الجنى
قد عرفت روضة معروفه ··· بأنها تنبت زهر الغنى
اذا تبدى وجه احسانه ··· تنزهت فيه عيون المنى

وقال يصف بركة :

وبركة قد أفادنا عجبا ··· ماماج من مائها وماانسكبا
من حول فوارة مركبة ··· قد انحنى ظهر مائها تعبا

وله :

وأدهم من خيول الجو وافى ··· فثار من الضباب له غبار
اذا أبدى صهيل الرعد منه ··· لوحش المحل داخله نفار
أشبهه ولمع البرق فيه ··· بمخراق تمشت فيه نار

وله :

وروضة الجام فيها ··· من زهرة الراح ورد
فاشرب على وجه روض ··· له من الماء خد

أَحِنُّ إِلَى ٱلْفُسْطَاطِ شَوْقاً ، وَإِنَّنِي
لَأَدْعُو لَهَا أَلَّا يَحُلَّ بِهَا ٱلْقَطْرُ

وَهَلْ فِي ٱلْحَيَا مِنْ حَاجَةٍ لِجَنَابِهَا
وَفِي كُلِّ قُطْرٍ مِنْ جَوَانِبِهَا نَهْرُ ؟!

تَبَدَّتْ عَرُوساً ، وَٱلْمُقَطَّمُ تَاجُهَا
وَمِنْ نِيلِهَا عِقْدٌ كَمَا ٱنْتَظَمَ ٱلدُّرُّ

وَقَالَ عَنْ كِتَابِ إِجَارَ[1] : وَٱلْفُسْطَاطُ هُوَ قَصَبَةُ مِصْرَ

وكان من عادة الخليفة المستنصر فى كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم الى بعض المتنزهات يقضى به يوم لهو ، وأنشده مرة الشريف العقيلى فى يوم عرفة :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضح ضحى الا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نفرهم الى منى قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والناء

فأراد الخليفة أن يجعل خيال الشاعر حقيقة، قال ابن دحية: فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حداة الملاهى وتساق، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق، فأقام بها سوق الفسوق على ساق، وفى ذلك العام « سنة ٤٥٧ » أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين، حتى بيع فى أيامه الرغيف بالثمن الثمين، وعاد ماء النيل بعد عذوبته كالغسلين ، ولم يبق بشاطئيه أحد بعد أن كانا محفوفين بحور عين اهـ « أحمد يوسف نجاتى » (١) أظنه يريد كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى ألفه الشريف محمد بن محمد الأدريسى الصقلى للملك «رجار » أو « اجار » صاحب صقلية المتوفى أواخر سنة ٥٤٨ « أحمد يوسف نجاتى »

وَالْجَبَلُ الْمُقَطَّمُ شَرْقِيَّهَا ، وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِجَبَلِ الزُّمُرُّدِ . وَقَالَ عَنْ كِتَابِ ابْنِ حَوْقَلٍ[1] : الْفُسْطَاطُ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ يَنْقَسِمُ النِّيلُ لَدَيْهَا، وَهِيَ كَبِيرَةٌ ، وَمِقْدَارُهَا نَحْوُ فَرْسَخٍ عَلَى غَايَةِ الْعِمَارَةِ وَالطِّيبِ وَاللَّذَّةِ، ذَاتُ رِحَابٍ فِي مَحَالِّهَا وَأَسْوَاقٍ عِظَامٍ فِيهَا ضِيقٌ ، وَمَتَاجِرَ فِخَامٍ ، وَلَهَا ظَاهِرٌ أَنِيقٌ وَبَسَاتِينُ نَضِرَةٌ ، وَمُتَنَزَّهَاتٌ عَلَى مَمَرِّ الْأَيَّامِ خَضِرَةٌ ، وَفِي الْفُسْطَاطِ قَبَائِلُ وَخِطَطٌ لِلْعَرَبِ تُنْسَبُ إِلَيْهَا كَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ إِلَّا أَنَّهَا أَقَلُّ مِنْ ذٰلِكَ،وَهِيَ سَبِخَةُ الْأَرْضِ غَيْرُ نَقِيَّةِ التُّرْبَةِ وَتَكُونُ الدَّارُ بِهَا سَبْعَ طَبَقَاتٍ وَخَمْسًا وَسِتًّا ، وَرُبَّمَا يَسْكُنُ فِي الدَّارِ الْمِئَتَانِ مِنَ النَّاسِ ، وَمُعْظَمُ بُنْيَانِهِمْ بِالطُّوبِ ، وَأَسْفَلُ دُورِهِمْ غَيْرُ مَسْكُونٍ ، وَبِهَا مَسْجِدَانِ لِلْجُمُعَةِ ؛ بَنَى أَحَدَهُمَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي وَسَطِ الْفُسْطَاطِ، وَالْآخَرُ عَلَى الْمَوْقِفِ[2] ، بَنَاهُ ابْنُ طُولُونَ ، وَكَانَ خَارِجَ الْفُسْطَاطِ أَبْنِيَةٌ

(١) ابن حوقل النصيبى العالم الرحالة فى القرن الرابع « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) محلة كانت بمصر وبقعة مشهورة فى خطط الفسطاط، ولما ولى على مصر ابراهيم بن صالح بن على عبد الله بن العباس من قبل ابن عمه المهدى سنة ١٦٥ ونزل المعسكر على عادة أمراء مصر فى الدولة العباسية ابتنى دارا عظيمة بالموقف من المعسكر ، وفى سنة ٢٩٢ ولى مصر عيسى بن محمد الأمير أبو موسى النوشرى ولاه الخليفة المكتفى، فنزل فى الدار التى كانت سكنى بدر الحمامى

بَنَاهَا أَحْمَدُ بْنُ طُولُونَ مِيلًا فِي مِيلٍ يَسْكُنُهَا جُنْدُهُ، وَتُعْرَفُ بِالْقَطَائِعِ - كَمَا بَنَى بَنُو الْأَغْلَبِ خَارِجَ الْقَيْرَوَانِ رَقَّادَةَ[١] - وَقَدْ خَرِبَتَا فِي وَقْتِنَا هَذَا، وَأَخْلَفَ اللهُ بَدَلَ الْقَطَائِعِ بِظَاهِرِ مَدِينَةِ الْفُسْطَاطِ الْقَاهِرَةَ. قَالَ ابْنُ سَعِيدٍ: وَلَمَّا اسْتَقْرَرْتُ بِالْقَاهِرَةِ تَشَوَّقْتُ إِلَى مُعَايَنَةِ الْفُسْطَاطِ، فَسَارَ مَعِي إِلَيْهَا أَحَدُ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ، فَرَأَيْتُ عِنْدَ بَابِ زُوَيْلَةَ[٢] مِنَ الْحَمِيرِ الْمُعَدَّةِ لِرُكُوبِ مَنْ يَسِيرُ إِلَى الْفُسْطَاطِ جُمْلَةً عَظِيمَةً لَا عَهْدَ لِي بِمِثْلِهَا فِي بَلَدٍ، فَرَكِبَ مِنْهَا حِمَارًا، وَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ أَرْكَبَ حِمَارًا آخَرَ، فَأَنِفْتُ مِنْ ذَلِكَ جَرْيًا عَلَى عَادَةِ مَا خَلَّفْتُهُ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ غَيْرُ مَعِيبٍ عَلَى أَعْيَانِ مِصْرَ، وَعَايَنْتُ الْفُقَهَاءَ وَأَصْحَابَ الْبِزَّةِ وَالشَّارَةِ الظَّاهِرَةِ يَرْكَبُونَهَا فَرَكِبْتُ، وَعِنْدَمَا اسْتَوَيْتُ رَاكِبًا أَشَارَ الْمُكَارِي إِلَى الْحِمَارِ

بالموقف، والى الموقف ينسب أبو جرير الموقفى، يروى عن محمد بن كعب القرظى؛ وروى عنه عبد الله بن وهب وسعيد بن كثير وعفير وغيرهم «أحمد يوسف نجاتى»

(١) تقدم التعريف ببنى الأغلب وبمدية رقادة «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) زويلة اسم قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر القائد من المغرب. وكان جوهر لما نزل اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها، فبنت زويلة البابين المعروفين ببابى زويلة، وكانا بابى القاهرة، ولما قدم المعز الى القاهرة دخل من أحدهما، وقد زال هذان البابان، وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى

فَطَارَ بِى، وَأَثَارَ مِنَ ٱلْغُبَارِ ٱلْأَسْوَدِ مَا أَعْمَى عَيْنِى، وَدَنَّسَ ثِيَابِى وَعَايَنْتُ مَا كَرِهْتُهُ ، وَلِقِلَّةِ مَعْرِفَتِى بِرُكُوبِ ٱلْحِمَارِ وَشِدَّةِ عَدْوِهِ عَلَى قَانُونٍ لَمْ أَعْهَدْهُ وَقِلَّةِ رِفْقِ ٱلْمُكَارِى وَقَعْتُ فِى تِلْكَ ٱلظُّلْمَةِ ٱلْمُثَارَةِ مِنْ ذَلِكَ ٱلْعَجَاجِ ،فَقُلْتُ :

لَقِيتُ بِمِصْرَ أَشَدَّ ٱلْبَوَارْ
رُكُوبَ ٱلْحِمَارِ وَكُحْلَ ٱلْغُبَارْ
وَخَلْفِى مُكَارٍ يَفُوقُ ٱلرِّيَا
حَ لَايَعْرِفُ ٱلرِّفْقَ مَهْمَا ٱسْتَطَارْ
أُنَادِيهِ مَهْلًا ، فَلَا يَرْعَوِى
إِلَى أَنْ سَجَدْتُ سُجُودَ ٱلْعِثَارْ
وَقَدْ مُدَّ فَوْقِى رُوَاقُ ٱلثَّرَى وَأُلْحِدَ فِيهَا ضِيَاءُ ٱلنَّهَارْ[١]

وزير المستنصر بالله بدلها سنة ٤٨٥ باب زويلة الكبير القائم الى اليوم — وتسميه العامة « بوابة المتولى » حيث كان يجلس متولى حسبة القاهرة . وقال ابن عبد الظاهر فى كتاب خطط القاهرة : ان باب زويلة هذا بناه العزيز بالله نزار ابن المعز، وتممه أمير الجيوش . وأنشد لعلى بن محمد النيلى :

ياصاح لو أبصرت باب زويلة لعلمت قـدر محـله بنيانا
باب تأزر بالمجرة، وارتدى الشـ شعرى، ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعونا بناه لم يرد صرحا ولا أوصى به هامانا

لاث: أى لف وأدار، وكيوان: اسم لكوكب زحل المعروف «أحمد يوسف نجاتى»

(١) البوار : الهلاك ، واستطار الأمر: عظم واشتد ، والبيت الثالث كناية

قدفعتُ إلى المكارى أجرتهُ، وقلتُ لهُ : إحسانكَ أنْ تتركني أمشي على رجليّ،ومشيتُ إلى أنْ بلغتُها، وقدّرتُ في الطريقِ بينَ الفسطاطِ والقاهرةِ وحقّقتُهُ بعدَ ذلكَ نحوَ ميلينِ ، ولمّا أقبلتُ على الفسطاطِ أدبرتْ عنّي المسرّةُ ، وتأمّلتُ أسوارًا مُثلّمةً سوداءَ وآفاقًا مُغبرّةً ، ودخلتُ منْ بابِها، وهوَ دونَ غلقٍ، يُفضي إلى خرابٍ معمورٍ بمبانٍ مُتشتّةِ الوضعِ غيرِ مُستقيمةِ الشوارعِ ، قدْ بُنيتْ منَ الطوبِ الأدكنِ والقصبِ والنخيلِ طبقةً فوقَ طبقةٍ ، وحولَ أبوابِها منَ الترابِ الأسودِ والأزبالِ ما يقبضُ نفسَ النظيفِ، ويَغُضُّ طرفَ الظريفِ ، فسرتُ وأنا مُعانٍ لاستصحابِ تلكَ الحالِ، إلى أنْ صرتُ في أسواقِها الضيّقةِ فقاسيتُ منَ ازدحامِ الناسِ فيها لحوائجِ السوقِ والروايا التي على الجمالِ ما لا تفي بهِ إلّا مُشاهدتُهُ ومُقاساتُهُ ، إلى أن انتهيتُ إلى المسجدِ الجامعِ ، فعاينتُ منْ ضيقِ الأسواقِ التي حولَهُ ما ذكرتُ بهِ ضدّهُ في جامعِ إشبيليةَ وجامعِ

عن سقوطه ، والثرى: التراب ، ويصف فى البيت الرابع الغبار الثائر الذى حجب ضوء الشمس « أحمد يوسف نجاتى »

مُرَّا كِشَ ، ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ ، فعَايَنْتُ جَامِعًا كَبِيرًا قَدِيمَ الْبِنَاءِ غَيْرَ مُزَخْرَفٍ وَلَا مُحْتَفَلٍ فِي حُصْرِهِ الَّتِي تَدُورُ مَعَ بَعْضِ حِيطَانِهِ وَتَنْبَسِطُ فِيهِ ، وَأَبْصَرْتُ الْعَامَّةَ رِجَالًا وَنِسَاءً قَدْ جَعَلُوهُ مَعْبَرًا بِأَوْطِئَةِ أَقْدَامِهِمْ ، يَجُوزُونَ فِيهِ مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ لِيَقْرُبَ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقُ ، وَالْبَيَّاعُونَ يَبِيعُونَ فِيهِ أَصْنَافَ الْمُكَسَّرَاتِ وَالْكَعْكِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ ، وَالنَّاسُ يَأْكُلُونَ فِي عِدَّةِ أَمْكِنَةٍ مِنْهُ غَيْرَ مُحْتَشِمِينَ ؛ لِجَرْيِ الْعَادَةِ عِنْدَهُمْ بِذَلِكَ ، وَعِدَّةُ صِبْيَانٍ بِأَوَانِي مَاءٍ يَطُوفُونَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَأْكُلُ ، قَدْ جَعَلُوا مَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْهُ رِزْقًا ، وَفَضَلَاتُ مَآكِلِهِمْ مَطْرُوحَةٌ فِي صَحْنِ الْجَامِعِ وَفِي زَوَايَاهُ ، وَالْعَنْكَبُوتُ قَدْ عَظُمَ نَسْجُهُ فِي السُّقُفِ وَالْأَرْكَانِ وَالْحِيطَانِ وَالصِّبْيَانُ يَلْعَبُونَ فِي صَحْنِهِ ، وَحِيطَانُهُ مَكْتُوبَةٌ بِالْفَحْمِ وَالْحُمْرَةِ بِخُطُوطٍ قَبِيحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ كَتْبِ فُقَرَاءِ الْعَامَّةِ ، إِلَّا أَنَّ مَعَ ذَلِكَ عَلَى الْجَامِعِ الْمَذْكُورِ مِنَ الرَّوْنَقِ وَحُسْنِ الْقَبُولِ وَانْبِسَاطِ النَّفْسِ مَا لَا تَجِدُهُ فِي جَامِعِ إِشْبِيلِيَةَ مَعَ زَخْرَفَتِهِ وَالْبُسْتَانِ الَّذِي فِي صَحْنِهِ . وَلَقَدْ تَأَمَّلْتُ مَا وَجَدْتُ

فِيهِ مِنَ ٱلِارْتِيَاحِ وَٱلْأُنْسِ دُونَ مَنْظَرٍ يُوجِبُ ذَلِكَ، فَعَلِمْتُ أَنَّ ذَلِكَ سِرٌّ مُودَعٌ مِنْ وُقُوفِ ٱلصَّحَابَةِ ـ رَضِيَ ٱللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ـ فِي سَاحَتِهِ عِنْدَ بِنَائِهِ⁽¹⁾ ، وَٱسْتَحْسَنْتُ مَا أَبْصَرْتُهُ مِنْ حَلَقِ ٱلْمُتَصَدِّرِينَ لِإِقْرَاءِ ٱلْقُرْآنِ وَٱلْفِقْهِ وَٱلنَّحْوِ فِي عِدَّةِ أَمَاكِنَ ، وَسَأَلْتُ عَنْ مَوَادِّ أَرْزَاقِهِمْ، فَأُخْبِرْتُ أَنَّهَا مِنْ فُرُوضِ ٱلزَّكَاةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أُخْبِرْتُ أَنَّ ٱقْتِضَاءَ ذَلِكَ يَصْعُبُ إِلَّا بِالْجَاهِ وَٱلتَّعَبِ . ثُمَّ ٱنْفَصَلْنَا مِنْ هُنَاكَ إِلَى سَاحِلِ ٱلنِّيلِ، فَرَأَيْتُ سَاحِلًا كَدِرَ ٱلتُّرْبَةِ غَيْرَ نَظِيفٍ وَلَا مُتَّسِعَ ٱلسَّاحَةِ وَلَا مُسْتَقِيمَ ٱلِاسْتِطَالَةِ وَلَا عَلَيْهِ سُورٌ أَبْيَضُ إِلَّا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَثِيرُ ٱلْعِمَارَةِ بِالْمَرَاكِبِ وَأَصْنَافِ ٱلْأَرْزَاقِ ٱلَّتِي تَصِلُ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ ٱلنِّيلِ ، وَلَئِنْ قُلْتُ إِنِّي لَمْ أُبْصِرْ عَلَى نَهْرٍ مَا أَبْصَرْتُهُ عَلَى ذَلِكَ ٱلسَّاحِلِ فَإِنِّي أَقُولُ حَقًّا ؛ وَٱلنِّيلُ هُنَالِكَ ضَيِّقٌ، لِكَوْنِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي بَنَى بِهَا سُلْطَانُ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ ٱلْآنَ قَلْعَتَهُ قَدْ تَوَسَّطَتِ ٱلْمَاءَ ، وَمَالَتْ إِلَى جِهَةِ ٱلْفُسْطَاطِ ، وَبِحُسْنِ سُورِهَا ٱلْمُبَيَّضِ ٱلشَّامِخِ حَسُنَ مَنْظَرُ ٱلْفُرْجَةِ فِي ذَلِكَ ٱلسَّاحِلِ . وَقَدْ ذَكَرَ ٱبْنُ حَوْقَلٍ

---

(١) فى الأصل « عند بابه » وهو تصحيف « أحمد يوسف نجاتى »

ٱلْجِسْرَ ٱلَّذِى يَكُونُ مُمْتَدًّا مِنَ ٱلْفُسْطَاطِ إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ ، وَهُوَ غَيْرُ طَوِيلٍ ، وَمِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلآخَرِ إِلَى ٱلْبَرِّ ٱلْغَرْبِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ بِبَرِّ ٱلْجِيزَةِ جِسْرٌ آخَرُ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ إِلَيْهِ ، وَأَكْثَرُ جَوَازِ ٱلنَّاسِ بِأَنْفُسِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ فِى ٱلْمَرَاكِبِ ؛ لِأَنَّ هٰذَيْنِ ٱلْجِسْرَيْنِ قَدِ ٱحْتُرِمَا لِحُصُولِهِمَا فِى حَيِّزِ قَلْعَةِ ٱلسُّلْطَانِ ، وَلَا يَجُوزُ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجِسْرِ ٱلَّذِى بَيْنَ ٱلْفُسْطَاطِ وَٱلْجَزِيرَةِ رَاكِبًا ٱحْتِرَامًا لِمَوْضِعِ ٱلسُّلْطَانِ . وَبِتْنَا فِى لَيْلَةِ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ بِطَيَّارَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى جَانِبِ ٱلنِّيلِ ، فَقُلْتُ :

نَزَلْنَا مِنَ ٱلْفُسْطَاطِ أَحْسَنَ مَنْزِلٍ
بِحَيْثُ ٱمْتِدَادُ ٱلنِّيلِ قَدْ دَارَ كَٱلْعِقْدِ

وَقَدْ جُمِعَتْ فِيهِ ٱلْمَرَاكِبُ سُحْرَةً
كَسِرْبِ قَطًا أَضْحَى يَرِفُّ عَلَى وِرْدِ[1]

وَأَصْبَحَ يَطْغَى ٱلْمَوْجُ فِيهِ وَيَرْتَمِى
وَيَطْرَبُ أَحْيَانًا وَيَلْعَبُ بِٱلنَّرْدِ[2]

(١) السرب: الجماعة. والقطا: هذا الطائر المعروف، جمع قطاة . ورف الطائر: بسط جناحيه وهو فى الهواء فلا يبرح مكانه ، ورف ورفرف : اذا حرك جناحيه حول الشىء يريد أن يقع عليه، وزف الطائر فى طيرانه زفيفا وزفا: اذا ترامى بنفسه ، أو بسط جناحيه وحركهما طائرا ـ والورد: مورد الماء للشرب والسقيا (٢) اللعب بالنرد كناية عن الفقاعات والزبد الذى يعلو

حَلَا مَاؤُهُ كَالرِّيقِ مِمَّنْ أُحِبُّـــهُ
فَمُدَّتْ عَلَيْهِ حُلَّةٌ مِنْ حُلَى الْخَدِّ[١]

وَقَدْ كَانَ مِثْلَ النَّهْرِ مِنْ قَبْـلِ مَدِّهِ
فَأَصْبَحَ لَمَّا زَادَهُ الْمَدُّ كَالْوَرْدِ

وَقُلْتُ هٰذَا لِأَنِّى لَمْ أَذُقْ فِى الْمِيَاهِ أَحْلَى مِنْ مَائِهِ، وَ إِنَّهُ يَـكُونُ قَبْـلَ الْمَدِّ الَّذِى يَزِيدُ بِهِ وَيَفِيضُ عَلَى أَقْطَارِهِ أَبْيَضَ فَإِذَا كَانَ عُبَابُ النِّيلِ صَارَ أَحْمَرَ . وَأَنْشَدَنِى عَلَمُ الدِّينِ فَخْرُ التُّرْكِ أَيْدَمُرُ[٢] عَتِيقُ وَزِيرِ الْجَزِيرَةِ فِى مَدْحِ الْفُسْطَاطِ وَأَهْلِهَا :

سطح الماء متتابعا (١) يصف حمرة المـاء أيام الفيضان مع حسن تعليل ولطف تخييل « أحمد يوسف نجاتى»

(٢) هو الأمير العالم المنشىء الناظم الناثر البليغ علم الدين «أيدمر المحيوى» نشأ فى عصر الدولة الأيوبية، وامتدح بعض سلاطينها،وعاصر فيها الصاحب بهاء الدين زهيراً وجمال الدين بن مطروح وغيرهما ، وهو عتيق محي الدين محمد بن محمد بن سعيد بن ندى ، وقد ذكره ابن سعيد المغربى فى كتابه « المشرق فى أخبار المشرق » وأثنى عليه، وذكر شيئا من شعره يرد بعضه فى نفح الطيب . ولما عمر الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الحصينة التى فى جزيرة الروضة سنة ٦٤٦ مدحه الأمير أيدمر بقصيدة بليغة غراء مطلعها :

الروض مقتبل الشبيبة مونق   خضل، يكاد غضارة يتدفق

ذكر فيها القلعة والروضة والأبنية التى أنشئت بجزيرة مصر ، والبرج المجدد على المقياس ، ويذكر يوم التخليق: أى يوم فتح الخليج ، وكان عادتهم أن

حَبَّذَا ٱلْفُسْطَاطُ مِنْ وَالِدَةٍ ... جَنَّبَتْ أَوْلَادَهَا دَرَّ[(١)] ٱلْجَفَا

يَرِدُ ٱلنِّيلُ إِلَيْهَا كَدِرًا ... فَإِذَا مَازَجَ أَهْلِيهَا صَفَا

لَطُفُوا، فَٱلْمُزْنُ لَا تَأْلَفُهُمْ ... خَجَلًا لَمَّا رَأَتْهُمْ أَلْطَفَا

وَلَمْ أَرَ فِي أَهْلِ ٱلْبِلَادِ أَلْطَفَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفُسْطَاطِ، حَتَّى إِنَّهُمْ أَلْطَفُ مِنْ أَهْلِ ٱلْقَاهِرَةِ، وَبَيْنَهُمَا نَحْوُ مِيلَيْنِ، وَجُمْلَةُ[(٢)] ٱلْحَالِ أَنَّ أَهْلَ ٱلْفُسْطَاطِ فِي نِهَايَةٍ مِنَ ٱللَّطَافَةِ وَٱللِّينِ فِي ٱلْكَلَامِ، وَتَحْتَ ذَلِكَ مِنَ ٱلْمَلَقِ[(٣)] وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ بِرِعَايَةِ قِدَمِ[(٤)] ٱلصُّحْبَةِ وَكَثْرَةِ ٱلْمُمَازَجَةِ وَٱلْأُلْفَةِ مَا يَطُولُ ذِكْرُهُ. وَأَمَّا مَا يَرِدُ عَلَى ٱلْفُسْطَاطِ مِنْ مَتَاجِرِ ٱلْبَحْرِ ٱلْإِسْكَنْدَرَانِيِّ وَٱلْبَحْرِ ٱلْحِجَازِيِّ فَإِنَّهُ فَوْقَ مَا يُوصَفُ، وَبِهَا مَجْمَعُ ذَلِكَ لَا بِٱلْقَاهِرَةِ، وَمِنْهَا يُجَهَّزُ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ وَسَائِرِ ٱلْبِلَادِ.

يذهبوا الى المقياس ويخلقوا عموده أى يعطروه بالخلوق وأنواع الطيب وقد طبعت دار الكتب المصرية ديوان شعر لأيدمر فيه كثير من القصائد التى مدح بها ملوك بنى أيوب وأمراء الدولة، وفيه شىء من الموشحات البديعة الرقيقة «أحمد يوسف نجاتى» (١) فى الأصل «دار» وماهنا أنسب بذكر الوالدة «أحمد يوسف نجاتى» (٢) لفظ و «جملة» ساقط من الأصل (٣) الملق: الود واللطف الشديد، وأن تعطى باللسان ماليس فى القلب، ومنه الحديث «ليس من خلق المؤمن الملق» والملق: الذى يعدك ويخلفك فلا يفى، ويتزين بما ليس عنده (٤) فى الأصل «ورعاية قدر الصحبة» والتصحيح من خطط المقريزى وغيره «أحمد يوسف نجاتى»

وَبِالْفُسْطَاطِ مَطَابِخُ السُّكَّرِ وَالصَّابُونِ وَمُعْظَمُ مَا يَجْرِي هٰذَا الْمَجْرَى؛ لِأَنَّ الْقَاهِرَةَ بُنِيَتْ لِلِاخْتِصَاصِ بِالْجُنْدِ، كَمَا أَنَّ جَمِيعَ زِيِّ الْجُنْدِ بِالْقَاهِرَةِ أَعْظَمُ مِنْهُ بِالْفُسْطَاطِ، وَكَذَلِكَ مَا يُنْسَجُ وَيُصَاغُ وَسَائِرُ مَا يُعْمَلُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الرَّفِيعَةِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَالْخَرَابُ فِي الْفُسْطَاطِ كَثِيرٌ، وَالْقَاهِرَةُ أَجَدُّ وَأَعْمَرُ وَأَكْثَرُ زَحْمَةً؛ بِاعْتِبَارِ انْتِقَالِ السُّلْطَانِ إِلَيْهَا وَسُكْنَى الْأَجْنَادِ فِيهَا، وَقَدْ نُفِخَ رُوحُ الِاعْتِنَاءِ وَالنُّمُوِّ فِي مَدِينَةِ الْفُسْطَاطِ الْآنَ؛ لِمُجَاوَرَتِهَا لِلْجَزِيرَةِ الصَّالِحِيَّةِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْجُنْدِ قَدِ انْتَقَلَ إِلَيْهَا لِلْقُرْبِ مِنَ الْخِدْمَةِ، وَبَنَى عَلَى سُورِهَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ مَنَاظِرَ تُبْهِجُ النَّاظِرَ. انْتَهَى.

قَالَ الْمَقْرِيزِيُّ: يَعْنِي ابْنُ سَعِيدٍ مَا بُنِيَ عَلَى شُقَّةِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ النِّيلِ. انْتَهَى. وَقَالَ ابْنُ سَعِيدٍ الْمَذْكُورُ فِي «الْمُغْرِبِ فِي حُلَى الْمَغْرِبِ» مَا مُلَخَّصُهُ: الرَّوْضَةُ أَمَامَ الْفُسْطَاطِ فِيمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنَاظِرِ الْجِيزَةِ، وَبِهَا مِقْيَاسُ النِّيلِ، وَكَانَتْ مُتَنَزَّهًا لِأَهْلِ مِصْرَ. فَاخْتَارَهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ بْنُ الْمَلِكِ الْكَامِلِ سَرِيرًا لِسَلْطَنَتِهِ، وَبَنَى فِيهَا قَلْعَةً مُسَوَّرَةً بِسُورٍ سَاطِعِ اللَّوْنِ مُحْكَمِ الْبِنَاءِ عَالِي السَّمْكِ، لَمْ تَرَ عَيْنِي أَحْسَنَ مِنْهُ.

وَفِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ كَانَ ٱلْهَوْدَجُ ٱلَّذِي بَنَاهُ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْآمِرُ لِزَوْجَتِهِ ٱلْبَدَوِيَّةِ ٱلَّتِي هَامَ فِي حُبِّهَا ، وَٱلْمُخْتَارُ بُسْتَانُ ٱلْإِخْشِيدِ وَقَصْرُهُ ، وَلَهُ ذِكْرٌ فِي شِعْرِ تَمِيمِ بْنِ ٱلْمُعِزِّ وَغَيْرِهِ . وَلِشُعَرَاءِ مِصْرَ فِي هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ أَشْعَارٌ ؛ مِنْهَا قَوْلُ أَبِي ٱلْفَتْحِ بْنِ قَادُوسَ ٱلدِّمْيَاطِيِّ[1] :

---

(١) الأديب أبو الفتح القاضى محمود بن قادوس من أعيان الدولة المصرية وأدبائها فى القرن السادس، كان كاتبا شاعرا ظريفا، ومن كلامه يمدح الوزير المأمون البطائحى « أبا عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبى شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى وزير الخليفة الآمر بأحكام الله » عند مثوله بين يديه وقد زيد فى نعوته :

قالوا: أتاه النعت! وهو السيد الـ ... ـمأمون حقا والأجل الأشرف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها ... مازادنا شيئا على مانعرف

وتوفى الوزير المأمون البطائحى سنة ٥٢٢ . وقال محمود بن قادوس يهجو القاضى الرشيد « أبا الحسين أحمد بن القاضى الرشيد أبى الحسن على بن القاضى الرشيد أبى اسحق ابراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغسانى الأسوانى » المتوفى سنة ٥٦٣ـ وكان أسود الجلدة، وان كان سيد البلدةـ :

ياشبه لقمان بلا حكمة ... وخاسرا فى العلم لاراسخا
سلخت أشعار الورى كلها ... فصرت تدعى الأسود السالخا

وله :

وليلة كاغتماض الجفن قصرها ... وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل
وكلما رام نطقا فى معاتبتى ... سددت فاه بنظم اللثم والقبل
وبات بدر تمام الحسن معتنقى ... والشمس فى فلك الكاسات لم تحل
فبت منها أرى النار التى سجدت ... لها المجوس من الأبريق تسجدلى

وقد ترجمنا لابن قادوس فى كتابنا ترجمة أدبية كافية « أحمد يوسف نجاتى »

أَرَى سُرُجَ ٱلْجَزِيرَةِ مِنْ بَعِيدٍ ... كَأَحْدَاقٍ تُغَازِلُ فِي ٱلْمَغَازِلْ
كَأَنَّ مَجَرَّةَ ٱلْجَوْزَاءِ خَطَّتْ ... وَأَثْبَتَتِ ٱلْمَنَازِلَ فِي ٱلْمَنَازِلْ

قَالَ: وَكُنْتُ أَبِيتُ بَعْضَ ٱللَّيَالِي بِالْفُسْطَاطِ، فَيَزْدَهِينِي ضَحِكُ ٱلْبَدْرِ فِي وَجْهِ ٱلنِّيلِ مَعَ سُورِ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلدُّرِّيِّ ٱللَّوْنِ، وَلَمْ أَنْفَصِلْ عَنْ مِصْرَ حَتَّى كَمَلَ سُورُ هَذِهِ ٱلْقَلْعَةِ، وَفِي دَاخِلِهِ مِنَ ٱلدُّورِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ مَا ٱرْتَفَعَتْ إِلَيْهِ هِمَّةُ بَانِيهَا وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ ٱلسَّلَاطِينِ فِي ٱلْبِنَاءِ، وَأَبْصَرْتُ بِهَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ إِيوَانًا لِجُلُوسِهِ لَمْ تَرَ عَيْنِي مِثَالَهُ، وَلَا يُقَدَّرُ مَا أُنْفِقَ عَلَيْهِ، وَفِيهِ مِنْ صَحَائِفِ ٱلذَّهَبِ وَٱلرُّخَامِ ٱلْآبَنُوسِيِّ وَٱلْكَافُورِيِّ وَٱلْمُجَزَّعِ مَا يُذْهِلُ ٱلْأَفْكَارَ، وَيَسْتَوْقِفُ ٱلْأَبْصَارَ. وَيَفْضُلُ عَمَّا أَحَاطَ بِهِ ٱلسُّورُ أَرْضٌ طَوِيلَةٌ فِي بَعْضِهَا حِظَارٌ حُصِرَ فِيهِ أَصْنَافُ ٱلْوُحُوشِ ٱلَّتِي يَتَفَرَّجُ عَلَيْهَا ٱلسُّلْطَانُ، وَبَعْدَهَا مُرُوجٌ تَتَقَطَّعُ فِيهَا مِيَاهُ ٱلنِّيلِ فَتَنْظُرُ فِيهَا أَحْسَنَ مَنْظَرٍ.

قَالَ: وَقَدْ تَفَرَّجْتُ كَثِيرًا فِي طَرَفِ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ مِمَّا يَلِي أَثَرَ ٱلْفُسْطَاطِ، فَقَطَعْتُ بِهِ عَشِيَّاتٍ مُذْهَبَاتٍ[1]، لَمْ تَزَلْ

---

(١) أذهب الشيء وذهبه: طلاه بالذهب، استعاره للعشية: يريد وصفها بالصفاء والحسن والرونق « أحمد يوسف نجاتى»

لِأَحْزَانِ ٱلْغُرْبَةِ مُذْهِبَاتٍ . وَإِذَا زَادَ ٱلنِّيلُ فَصَلَ بَرَّهَا عَنْ بَرِّ ٱلْفُسْطَاطِ مِنْ جِهَةِ خَلِيجِ ٱلْقَاهِرَةِ، وَيَبْقَى مَوْضِعُ ٱلْجِسْرِ تَكُونُ فِيهِ ٱلْمَرَاكِبُ. ٱنْتَهَى . وَأَوْرَدَ ٱلصَّفَدِيُّ فِي تَذْكِرَتِهِ لِابْنِ سَعِيدٍ ٱلْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ :

أُنْظُرْ إِلَى سُورِ ٱلْجَزِيرَةِ فِي ٱلدُّجَى
وَٱلْبَدْرُ يَلْثَمُ مِنْهُ ثَغْرًا أَشْنَبَا (١)
تَتَضَاحَكُ ٱلْأَنْوَارُ فِي جَنَبَاتِهِ
فَتُرِيكَ فَوْقَ ٱلنِّيلِ أَمْرًا مُعْجِبَا
بَيْنَا تَرَاهُ مُفَضَّضًا فِي جَانِبٍ
أَبْصَرْتَ مِنْهُ فِي سِوَاهُ مُذَهَّبَا
لِلّٰهِ مَرْأًى مَا رَآهُ نَاظِرٍ إِلَّا خَلَعْتُ لَهُ ٱلْمَقَامَ تَطَرُّبَا

وَقَالَ فِي ٱلْمُغْرِبِ نَقْلًا عَنْ بَعْضِهِمْ مَا صُورَتُهُ : وَأَمَّا مَدِينَةُ ٱلْقَاهِرَةِ، فَهِيَ ٱلْحَالِيَةُ ٱلْبَاهِرَةُ، ٱلَّتِي تَفَنَّنَ فِيهَا ٱلْفَاطِمِيُّونَ وَأَبْدَعُوا فِي بِنَائِهَا ، وَٱتَّخَذُوهَا قُطْبًا لِخِلَافَتِهِمْ وَمَرْكَزًا لِأَرْجَائِهَا ، فَنَسِيَ ٱلْفُسْطَاطُ ، وَزُهِدَ فِيهِ بَعْدَ ٱلِاغْتِبَاطِ . وَسُمِّيَتْ ٱلْقَاهِرَةُ لِأَنَّهَا تَقْهَرُ مَنْ شَذَّ عَنْهَا وَرَامَ مُخَالَفَةَ أَمِيرِهَا. قَالَ ٱبْنُ

---

(١) لثم فاها يلثمه «كسمع» وربما جاء مثل «ضرب»: اذا قبله ، والأشنب:

سَعِيدٍ:هَذِهِ ٱلْمَدِينَةُ أُسْمُهَا أَعْظَمُ مِنْهَا ، وَكَانَ يَنْبَغِى أَنْ تَكُونَ فِى تَرْتِيبِهَا وَمَبَانِيهَا عَلَى خِلَافِ مَاعَايَنْتُهُ؛ لِأَنَّهَا مَدِينَةٌ بَنَاهَا ٱلْمُعِزُّ أَعْظَمُ خُلَفَاءِ ٱلْعُبَيْدِيِّينَ ، وَكَانَ سُلْطَانُهُ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ طُولِ ٱلْمَغْرِبِ مِنْ أَوَّلِ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ إِلَى ٱلْبَحْرِ ٱلْمُحِيطِ:

وَسَارَتْ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ فِى كُلِّ بَلْدَةٍ

وَهَبَّتْ هُبُوبَ ٱلرِّيحِ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ

وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ عَايَنَ مَبَانِىَ أَبِيهِ ٱلْمَنْصُورِ فِى مَدِينَةِ ٱلْمَنْصُورِيَّةِ[1] إِلَى جَانِبِ ٱلْقَيْرَوَانِ، وَعَايَنَ ٱلْمَهْدِيَّةَ[2] مَدِينَةَ

ذو الشنب: وهو ماء ورقة تجرى عـلى الثغر ، وبرد وعذوبة فى الفم

(١) المنصورية: مدينة بقرب القيروان من نواحى افريقية، استحدثها المنصور بن القائم بن المهدى سنة ٣٣٧ وعمر أسواقها واستوطنها، ثم صارت منزلا لملوك العبيديين بعده، ولم تزل مقرا لملوك افريقية من بنى باديس حتى خربها العرب لما دخلت افريقية وخربت بلادها بعد سنة ٤٤٢ فكانت هى فيما خربت فى ذلك الوقت « أحمد يوسف نجاتى » (٢) مدينة بافريقية منسوبة الى المهدى، بينها وبين القيروان مرحلتان، والقيروان فى جنوبها ، بناها المهدى وجعلها دار مملكته، وحصنها بالسور المحكم والأبواب الحديد المصمت، شرع فى اختطاطها سنة ٣٠٣ وانتقل اليها سنة ٣٠٨ ولم تزل دار مملكة لهم الى أن ولى الأمر اسمعيل بن أبى القاسم، فاتخذ مدينة صبرة واستوطنها بعد أبيه معد ـ ولما تناقصت أحوال ملوكها بعد أنفذ الملك روجار صاحب صقلية اليها فى سنة ٥٤٣ فأخلاها الحسن بن عـلى بن يحى بن تميم بن المعز بن باديس، وخرج هاربا حتى لحق بعبد المؤمن بن على الذى قدم سنة ٥٥٥ الى افريقية، فاسترد المهدية « أحمد يوسف نجاتى »

جَدِّهِ عُبَيْدِ ٱللهِ ٱلْمَهْدِيِّ ، لَـكِنِ ٱلْهِمَّةُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ ظَاهِرَةٌ عَلَى قُصُورِ ٱلْخُلَفَاءِ بِالْقَاهِرَةِ، وَهِيَ نَاطِقَةٌ إِلَى ٱلْآنَ بِأَلْسُنِ ٱلْآثَارِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

هِمَمُ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا
مِنْ بَعْـدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ ٱلْبُنْيَانِ

إِنَّ ٱلْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ ٱلشَّانِ

وَتَهَمَّمَ مِنْ بَعْدِهِ ٱلْخُلَفَاءُ ٱلْمِصْرِيُّونَ فِي ٱلزِّيَادَةِ فِي تِلْكَ ٱلْقُصُورِ. وَقَدْ عَايَنْتُ فِيهَا إِيوَانًا يَقُولُونَ إِنَّهُ بُنِيَ قَدْرَ إِيوَانِ كِسْرَى ٱلَّذِي بِالْمَدَائِنِ ، وَكَانَ يَجْلِسُ فِيهَا خُلَفَاؤُهُمْ ، وَلَهُمْ عَلَى ٱلْخَلِيجِ — ٱلَّذِي بَيْنَ ٱلْفُسْطَاطِ وَٱلْقَاهِرَةِ — مَبَانٍ عَظِيمَةٌ جَلِيلَةُ ٱلْآثَارِ، وَأَبْصَرْتُ فِي قُصُورِهِمْ حِيطَانًا عَلَيْهَا طَاقَاتٌ عَدِيدَةٌ مِنَ ٱلْكِلْسِ وَٱلْجِبْسِ، ذُكِرَ لِي أَنَّهُمْ كَانُوا يُجَدِّدُونَ تَبْيِيضَهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَٱلْمَكَانُ ٱلْمَعْرُوفُ بِالْقَاهِرَةِ بِبَيْنَ ٱلْقَصْرَيْنِ هُوَ مِنَ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلسُّلْطَانِيِّ ؛ لِأَنَّ هُنَالِكَ سَاحَةً مُتَّسِعَةً لِلْعَسْكَرِ وَٱلْمُتَفَرِّجِينَ مَا بَيْنَ ٱلْقَصْرَيْنِ ، وَلَوْ كَانَتِ ٱلْقَاهِرَةُ كُلُّهَا كَذَلِكَ كَانَتْ عَظِيمَةَ ٱلْقَدْرِ ، كَامِلَةَ ٱلْهِمَّةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ

وَلَـكِنَّ ذَلِكَ أَمَدٌ قَلِيلٌ، ثُمَّ تَسِيرُ مِنْهُ إِلَى أَمَدٍ ضَيِّقٍ وَتَمُرُّ فِي مَمَرٍّ كَدِرٍ حَرِجٍ بَيْنَ الدَّكَاكِينِ إِذَا ازْدَحَمَتْ فِيهِ الْخَيْلُ مَعَ الرَّجَّالَةِ كَانَ مِمَّا تَضِيقُ بِهِ الصُّدُورُ وَتَسْخَنُ مِنْهُ الْعُيُونُ، وَلَقَدْ عَايَنْتُ يَوْمًا وَزِيرَ الدَّوْلَةِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَهُوَ فِي مَوْكِبٍ جَلِيلٍ، وَقَدْ لَقِيَ فِي طَرِيقِهِ عَجَلَةَ بَقَرٍ تَحْمِلُ حِجَارَةً وَقَدْ سَدَّتْ جَمِيعَ الطُّرُقِ بَيْنَ يَدَيِ الدَّكَاكِينِ، وَوَقَفَ الْوَزِيرُ، وَعَظُمَ الِازْدِحَامُ، وَكَانَ فِي مَوْضِعِ طَبَّاخِينَ وَالدُّخَانُ فِي وَجْهِ الْوَزِيرِ وَعَلَى ثِيَابِهِ، وَقَدْ كَادَ يَهْلِكُ الْمُشَاةُ، وَكِدْتُ أَهْلِكُ فِي جُمْلَتِهِمْ. وَأَكْثَرُ دُرُوبِ الْقَاهِرَةِ ضَيِّقَةٌ مُظْلِمَةٌ كَثِيرَةُ التُّرَابِ وَالْأَزْبَالِ، وَالْمَبَانِي عَلَيْهَا مِنْ قَصَبٍ وَطِينٍ مُرْتَفِعَةٌ قَدْ ضَيَّقَتْ مَسْلَكَ الْهَوَاءِ وَالضَّوْءِ بَيْنَهَا، وَلَمْ أَرَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْمَغْرِبِ أَسْوَأَ مِنْهَا حَالًا فِي ذَلِكَ، وَلَقَدْ كُنْتُ إِذَا مَشَيْتُ فِيهَا يَضِيقُ صَدْرِي وَتُدْرِكُنِي وَحْشَةٌ عَظِيمَةٌ حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ. وَمِنْ عُيُوبِ الْقَاهِرَةِ أَنَّهَا فِي أَرْضِ النِّيلِ الْأَعْظَمِ وَيَمُوتُ الْإِنْسَانُ فِيهَا عَطَشًا لِبُعْدِهَا عَنْ مَجْرَى النِّيلِ لِئَلَّا يُصَادِرَهَا وَيَأْكُلَ دِيَارَهَا، وَإِذَا احْتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى فُرْجَةٍ فِي نِيلِهَا مَشَى فِي مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ بِظَاهِرِهَا

بَيْنَ ٱلْمَبَانِي ٱلَّتِي خَارِجَ ٱلسُّورِ إِلَى مَوْضِعٍ بِالْمَقْسِ[١]، وَجَوُّهَا لَا يَبْرَحُ كَدِرًا مِمَّا تُثِيرُهُ ٱلْأَرْضُ مِنَ ٱلتُّرَابِ ٱلْأَسْوَدِ، وَقَدْ قُلْتُ فِيهَا حِينَ أَكْثَرَ عَلَيَّ رِفَاقِي مِنَ ٱلْحَضِّ عَلَى ٱلْعَوْدِ فِيهَا:

يَقُولُونَ: سَافِرْ إِلَى ٱلْقَاهِرَهْ! وَمَالِي بِهَا رَاحَةٌ ظَاهِرَهْ

زِحَامٌ وَضِيقٌ وَكَرْبٌ وَمَا تُثِيرُ بِهَا أَرْجُلٌ سَائِرَهْ

وَعِنْدَمَا يُقْبِلُ ٱلْمُسَافِرُ عَلَيْهَا يَرَى سُورًا أَسْوَدَ كَدِرًا، وَجَوًّا مُغْبَرًّا، فَتَنْقَبِضُ نَفْسُهُ، وَيَفِرُّ أُنْسُهُ، وَأَحْسَنُ مَوْضِعٍ فِي ظَوَاهِرِهَا لِلْفُرْجَةِ أَرْضُ ٱلطَّبَّالَةِ[٢] وَلَاسِيَّمَا أَرْضُ ٱلْقُرْطِ وَٱلْكَتَّانِ. وَقُلْتُ:

---

(١) كان المكان المعروف بالمقس أو المكس اسما لقرية واقعة على شاطىء النيل حين كان النيل يجرى فى عهد الدولة الفاطمية فى المكان الذى يشغله الآن شارع عماد الدين وميدان محطة مصر وما بعده الى الشمال بشارع الملكةنازلى، وكان قبل فتح العرب مصر يسمى أم دنين، ويقع فى موضعه الآن جامع أولادعنان وشارع كامل وحديقة الأزبكية «أحمديوسف نجاتى»

(٢) كانت هذه الأرض على جانب الخليج الغربى بجوار المقس، وكانت من أحسن متنزهات القاهرة، يمر النيل الأعظم من غربيها عند مايندفع من ساحل المقس، وهبها الخليفة المستنصر بالله أبو تميم معد الفاطمى لمغنية له مسماة بالطبالة فعرفت بها؛ وذلك أن الأمير أبا الحرث أرسلان البساسيرى لما غاضب الخليفة القائم بأمرالله العباس، وخرج من بغداد يريد الانتماء الى الدولة الفاطمية بمصر أمده الخليفة المستنصر بالله ووزيره الناصر لدين الله عبد الرحمن اليازورى حتى استولى على بغداد، وأزال دولة بنى العباس منها

سَقَى ٱللّٰهُ أَرْضًا كُلَّمَا زُرْتُ رَوْضَهَا
كَسَاهَا وَحَلَّاهَا بِمَنْظَرِهِ ٱلْقُرْطُ

وأخذ قصر الخلافة ، وأقام الدولة الفاطمية هناك، وسير عمامة القائم وثيابه وشباكه الذى كان اذا جلس يستند اليه وغير ذلك من الأموال والتحف الى القاهرة فى سنة ٤٥٠ فسر الخليفة المستنصر سرورا عظيما ، وزينت القاهرة وقصورها ومدينة مصر والجزيرة ، فوقفت «نسب» طبالة المستنصر وكانت امرأة مرجلة تقف تحت القصر فى المواسم والأعياد ، وتسير أيام المواكب وحولها طائفتها وهى تضرب بالطبل وتنشد، فأنشدت وهى واقفة تحت القصر ذلك اليوم :

يابنى العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم كان معارا والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر بذلك منها اعجابا شديدا، واقترح عليها أن تتمنى، فطلبت أن تمنح الأرض المجاورة للمقس، فوهبها لها ، فبنيت فيها المبانى حتى كانت من ملح القاهرة وبهجتها . وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى كانت تعرف بتربة نسب «أو طرب» — ولشمس الدين بن الصائغ فى أرض الطبالة وبركة الرطل :

فى أرض طبالتنا بركة مدهشة للعين والعقل
ترجح فى ميزان عقلى على كل بحار الأرض بالرطل

وموضعها الآن المنطقة مابين شارع الظاهر وشارع الفجالة وبركة الرطلى وشارع الخليج، وكانت رؤية هذه الأرض فى تلك الأيام منظرا بديعا ومرأى عجيبا، ولاسيما أيام الربيع اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت، وفيها يقول سيف الدين على بن قزل المشد :

الى طبالة يعزون أرضا لها من سندس الريحان بسط
وقد كتب الشقيق بها سطورا وأحسن شكلها للطل نقط
رياض كالعرائس حين تجلى يزين وجهها تاج وقرط

تَجَلَّتْ عَرُوسًا ، وَالْمِيَاهُ عُقُودُهَا

وَفِي كُلِّ قُطْرٍ مِنْ جَوَانِبِهَا قُرْطُ(١)

وَفِيهَا خَلِيجٌ لَا يَزَالُ يَضْعُفُ بَيْنَ خُضْرَتِهَا حَتَّى يَصِيرَ كَمَا قَالَ الرُّصَافِيُّ :

مَا زَالَتِ الْأَمْحَالُ تَأْخُذُهُ

حَتَّى غَدَا كَذُؤَابَةِ النَّجْمِ(٢)

وَقُلْتُ فِي نُوَّارِ الْكَتَّانِ عَلَى جَانِبِي الْخَلِيجِ :

اُنْظُرْ إِلَى النَّهْرِ وَالْكَتَّانُ يَرْمُقُهُ

مِنْ جَانِبَيْهِ بِأَجْفَانٍ لَهَا حَدَقُ

وقد كان النصف الغربى وما جاوره من هذه المنطقه الى عهد قريب أرضا زراعية تزرع فيها الخضروات وأخصها الفجل، فاشتهرت تلك الأرض باسم غيط الفجالة نسبة لزراعته، ولما عمرت تلك الجهة بالمساكن سميت الجهة القبلية من هذا الحقل الزراعى باسم «شارع الفجالة» والقرط « بكسر القاف» نوع من الكراث يعرف بكراث المائدة، والقرط «بضم القاف» نبات كالرطبة الا أنه أجل منها وأعظم ورقا تعتلفه الدواب « أحمد يوسف نجاتى » (١) القرط الشنف « الحلق » وقيل الشنف فى أعلى الأذن، والقرط فى أسفلها، أو هو المعلق فى شحمة الأذن (٢) الأمحال جمع محل وهو الجدب ، والتشبيه بذؤابة النجم فى الدقة والاستطالة مع الأشراق والصفاء بين زرقة السماء الصافية أو خضرة الرياض الناضرة « أحمد يوسف نجاتى »

رَأَتْهُ سَيْفاً عَلَيْهِ لِلصَّبَا شُطَبٌ[١]

فَقَابَلَتْهُ بِأَحْدَاقٍ بِهَا أَرَقُ

وَأَصْبَحَتْ فِي يَدِ الْأَرْوَاحِ تَنْسِجُهَا

حَتَّى غَدَتْ حَلَقاً مِنْ فَوْقِهَا حَلَقُ

فَلَمْ تَزُرْهَا وَوَجْهُ الْأَرْضِ مُصْطَبِحٌ

أَوْعِنْدَ صَفْوَتِهِ إِنْ كُنْتَ تَغْتَبِقُ[٢]

وَأَعْجَبَنِي فِي ظَاهِرِهَا بِرْكَةُ الْفِيلِ؛ لِأَنَّهَا دَائِرَةٌ كَالْبَدْرِ، وَالْمَنَاظِرُ فَوْقَهَا كَالنُّجُومِ، وَعَادَةُ السُّلْطَانِ أَنْ يَرْكَبَ فِيهَا بِاللَّيْلِ، وَتُسْرِجُ أَصْحَابُ الْمَنَاظِرِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ، فَيَكُونُ لَهَا بِذَلِكَ مَنْظَرٌ عَجِيبٌ، وَفِي ذَلِكَ قِيلَ:

انْظُرْ إِلَى بِرْكَةِ الْفِيلِ الَّتِي اكْتَنَفَتْ

بِهَا الْمَنَاظِرُ كَالْأَهْدَابِ لِلْبَصَرِ

كَأَنَّمَا هِيَ وَالْأَبْصَارُ تَرْمُقُهَا

كَوَاكِبٌ قَدْ أَدَارُوهَا عَلَى الْقَمَرِ

---

(١) الشطب جمع شطبة « بتثليث الشين ، أو شطبة، بضم ففتح » وهى طرائق السيف فى متنه (٢) الاغتباق : شرب الغبوق وهو كل مايشرب بالعشى . وهو خلاف الصبوح« أحمد يوسف نجاتى »

وَنَظَرْتُ إِلَيْهَا وَقَدْ قَابَلَتْهَا الشَّمْسُ بِالْغُدْوَةِ فَقُلْتُ :

أُنْظُرْ إِلَى بِرْكَةِ الْفِيلِ الَّتِي فَجَرَتْ
لَهَا الْغَزَالَةُ فَجْرًا مِنْ مَطَالِعِهَا[1]

وَخَلِّ طَرْفَكَ مَجْنُونًا بِبَهْجَتِهَا
يَهِيمُ وَجْدًا وَحُبًّا فِي بَدَائِعِهَا

وَالْفُسْطَاطُ أَكْثَرُ أَرْزَاقًا وَأَرْخَصُ أَسْعَارًا مِنَ الْقَاهِرَةِ لِقُرْبِ النِّيلِ مِنَ الْفُسْطَاطِ. وَالْمَرَاكِبُ الَّتِي تَصِلُ بِالْخَيْرَاتِ تَحُطُّ هُنَاكَ، وَيُبَاعُ مَا يَصِلُ فِيهَا بِالْقُرْبِ مِنْهَا، وَلَيْسَ يَتَّفِقُ ذَلِكَ فِي سَاحِلِ الْقَاهِرَةِ لِأَنَّهُ يَبْعُدُ عَنِ الْمَدِينَةِ. وَالْقَاهِرَةُ هِيَ أَكْثَرُ عِمَارَةً وَاحْتِرَامًا وَحِشْمَةً مِنَ الْفُسْطَاطِ، لِأَنَّهَا أَجَلُّ مَدَارِسَ وَأَضْخَمُ خَانَاتٍ وَأَعْظَمُ دِيَارًا لِسُكْنَى الْأُمَرَاءِ فِيهَا لِأَنَّهَا الْمَخْصُوصَةُ بِالسَّلْطَنَةِ لِقُرْبِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ مِنْهَا، فَأُمُورُ السَّلْطَنَةِ كُلُّهَا فِيهَا أَيْسَرُ وَأَكْثَرُ، وَبِهَا الطِّرَازُ[2] وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَتَزَيَّنُ بِهَا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ فِي هَذَا

(١) فجرت : شقت وأثارت . والغزالة : الشمس عند طلوعها أو عند ارتفاعها

(٢) دار الطراز التي كانت تنسج فيها ملابس الملوك والأمراء، وترسم بها أسماؤهم أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم من الحرير أو الديباج بخيوط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة البديعة على

اُلْوَقْتِ لَمَّا اُعْتَنَى اُلسُّلْطَانُ بِبِنَاءِ قَلْعَةِ اُلْجَزِيرَةِ اُلَّتِى أَمَامَ اُلْفُسْطَاطِ وَصَيَّرَهَا سَرِيرَ اُلسَّلْطَنَةِ عَظُمَتْ عِمَارَةُ اُلْفُسْطَاطِ وَاُنْتَقَلَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنَ اُلْأُمَرَاءِ، وَضَخُمَتْ أَسْوَاقُهَا، وَبَنَى فِيهَا اُلسُّلْطَانُ أَمَامَ اُلْجِسْرِ اُلَّذِى لِلْجَزِيرَةِ قَيْسَارِيَّةً عَظِيمَةً، فَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنَ اُلْقَاهِرَةِ سُوقَ اُلْأَجْنَادِ اُلَّتِى يُبَاعُ فِيهَا اُلْفِرَاءُ وَاُلْجُوخُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ- إِلَى أَنْ قَالَ: وَهِيَ اُلْآنَ عَظِيمَةٌ آهِلَةٌ يُجْبَى إِلَيْهَا مِنَ اُلشَّرْقِ وَاُلْغَرْبِ وَاُلْجَنُوبِ وَاُلشَّمَالِ مَا لَا يُحِيطُ بِجُمْلَتِهِ وَتَفْصِيلِهِ[1] إِلَّا خَالِقُ اُلْكُلِّ جَلَّ وَعَلَا، وَهِيَ مُسْتَحْسَنَةٌ لِلْفَقِيرِ اُلَّذِى لَا يَخَافُ طَلَبَ زَكَاةٍ وَلَا تَرْسِيمًا وَلَا عَذَابًا، وَلَا يُطَالَبُ بِرَفِيقٍ لَهُ إِذَا مَاتَ فَيُقَالُ لَهُ تَرَكَ عِنْدَكَ مَالًا، فَرُبَّمَا سُجِنَ فِى شَأْنِهِ أَوْ ضُرِبَ وَعُصِرَ، وَاُلْفَقِيرُ اُلْمُجَرَّدُ فِيهَا يَسْتَرِيحُ بِجِهَةِ رُخْصِ اُلْخُبْزِ وَكَثْرَتِهِ، وَوُجُودِ اُلسَّمَاعِ وَاُلْفُرَجِ فِى ظَوَاهِرِهَا وَدَوَاخِلِهَا، وَقِلَّةِ اُلِاعْتِرَاضِ

مايحكمه الصناع، فتصير الثياب الملكية معلمة بذلك الطراز قصدا للتنويه بلابسها من السلطان فمن دونه، وكان القائم على النظر فى دور الطراز يسمى صاحب الطراز، ينظر فى أمور الصياغ والآلة والحاكة فيها، واجراء أرزاقهم، وتسهيل آلاتهم وأدواتهم، ومواد أشغالهم ومشارفة أعمالهم «أحمد يوسف نجاتى»

(١) فى الأصل «وتفسيره» وآثرنا مافى خطط المقريزى وغيرها «وتفصيله» «أحمد يوسف نجاتى»

عَلَيْهِ فِيمَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ؛ يَحْكُمُ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ مِنْ رَقْصٍ فِي وَسَطِ السُّوقِ أَوْ تَجْرِيدٍ أَوْ سُكْرٍ مِنْ حَشِيشَةٍ أَوْ صُحْبَةِ مُرْدَانٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بِخِلَافِ غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ، وَسَائِرُ الْفُقَرَاءِ لَا يَتَعَرَّضُونَ إِلَيْهِمْ بِالْقَبْضِ لِلْأُسْطُولِ، إِلَّا الْمَغَارِبَةَ فَذَلِكَ وَقْفٌ عَلَيْهِمْ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِمُعَانَاةِ الْحَرْبِ وَالْبَحْرِ، وَقَدْ عَمَّ ذَلِكَ مَنْ يَعْرِفُ مُعَانَاةَ الْبَحْرِ مِنْهُمْ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ، وَهُمْ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهَا بَيْنَ حَالَيْنِ: إِنْ كَانَ الْمَغْرِبِيُّ غَنِيًّا طُولِبَ بِالزَّكَاةِ وَضَيَّقَتْ عَلَيْهِ السُّعَاةُ، وَإِنْ كَانَ مُجَرَّدًا فَقِيرًا حُمِلَ إِلَى السِّجْنِ حَتَّى يَحِينَ وَقْتُ الْأُسْطُولِ.

وَفِي الْقَاهِرَةِ أَزَاهِرُ كَثِيرَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةِ الِاتِّصَالِ، وَهَذَا الشَّأْنُ فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ يَفْضُلُ كَثِيرًا مِنَ الْبِلَادِ، وَفِي اجْتِمَاعِ النَّرْجِسِ وَالْوَرْدِ فِيهَا أَقُولُ :

مَنْ فَضَّلَ النَّرْجِسَ وَهُوَ الَّذِي
يَرْضَى بِحُكْمِ الْوَرْدِ إِذْ يَرْأَسُ
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ غَدَا قَاعِدًا ... وَقَامَ فِي خِدْمَتِهِ النَّرْجِسُ؟!

وَأَكْثَرُ مَا فِيهَا مِنَ الثَّمَرَاتِ وَالْفَوَاكِهِ الرُّمَّانُ وَالْمَوْزُ. أَمَّا التُّفَّاحُ وَالْإِجَّاصُ فَقَلِيلٌ غَالٍ، وَكَذَلِكَ الْخَوْخُ، وَمِنْهَا

ٱلْوَرْدُ وَٱلنَّرْجِسُ وَٱلنِّسْرِينُ وَٱلنِّيلُوفَرُ وَٱلْبَنَفْسِجُ وَٱلْيَاسَمِينُ وَاللَّيْمُونُ ٱلْأَخْضَرُ وَٱلْأَصْفَرُ ، وَأَمَّا ٱلْعِنَبُ وَٱلتِّينُ فَقَلِيلٌ غَالٍ. وَلِكَثْرَةِ مَا يَعْصِرُونَ ٱلْعِنَبَ فِي أَرْيَافِ ٱلنِّيلِ لَا يَصِلُ مِنْهُ إِلَّا ٱلْقَلِيلُ، وَمَعَ هَذَا فَشَرَابُهُ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ ٱلْغَلَاءِ ، وَعَامَّتُهَا يَشْرَبُونَ ٱلْمِزْرَ ٱلْأَبْيَضَ ٱلْمُتَّخَذَ مِنَ ٱلْحِنْطَةِ ، حَتَّى إِنَّ ٱلْحِنْطَةَ يَطْلُعُ سِعْرُهَا بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَيُنَادِي ٱلْمُنَادِي مِنْ قِبَلِ ٱلْوَالِي بِقَطْعِهِ وَكَسْرِ أَوَانِيهِ ، وَلَا يُنْكَرُ فِيهَا إِظْهَارُ أَوَانِي ٱلْخَمْرِ وَلَا آلَاتِ ٱلطَّرَبِ ذَوَاتِ ٱلْأَوْتَارِ ، وَلَا تَبَرُّجُ ٱلنِّسَاءِ ٱلْعَوَاهِرِ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يُنْكَرُ فِي غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ ٱلْمَغْرِبِ، وَقَدْ دَخَلْتُ فِي ٱلْخَلِيجِ ٱلَّذِي بَيْنَ ٱلْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ ـ وَتَعْظُمُ عِمَارَتُهُ فِيمَا يَلِي ٱلْقَاهِرَةَ ـ فَرَأَيْتُ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ ٱلْعَجَائِبَ، وَرُبَّمَا وَقَعَ فِيهِ قَتْلٌ بِسَبَبِ ٱلسُّكْرِ فَيُمْنَعُ فِيهِ ٱلشُّرْبُ، وَذَلِكَ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْيَانِ، وَهُوَ ضَيِّقٌ ، عَلَيْهِ مِنَ ٱلْجِهَتَيْنِ مَنَاظِرُ كَثِيرَةُ ٱلْعِمَارَةِ بِعَالَمِ ٱلتَّهَتُّكِ وَٱلطَّرَبِ وَٱلْمُخَالَفَةِ ، حَتَّى إِنَّ ٱلْمُحْتَشِمِينَ وَٱلرُّؤَسَاءَ لَا يُجِيزُونَ ٱلْعُبُورَ بِهِ فِي مَرْكَبٍ ، وَلِلسُّرُجِ فِي جَانِبَيْهِ بِٱللَّيْلِ مَنْظَرٌ ، وَكَثِيرًا مَا يَتَفَرَّجُ فِيهِ أَهْلُ ٱلسِّتْرِ فِي ٱللَّيْلِ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

لَا تَرْكَبَنْ فِى خَلِيجِ مِصْرٍ　　إِلَّا إِذَا أُسْدِلَ ٱلظَّلَامُ
فَقَدْ عَلِمْتَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ　　مِنْ عَالَمٍ كُلُّهُمْ طَغَامُ(١)
صَفَّانِ لِلْحَرْبِ قَدْ أَطَلَّا　　سِلَاحُ مَا بَيْنَهُمْ كَلَامُ
يَا سَيِّدِى لَا تَسِرْ إِلَيْهِ　　إِلَّا إِذَا هَوَّمَ(٢) ٱلنِّيَامُ
وَٱللَّيْلُ سِتْرٌ عَلَى ٱلتَّصَابِى　　عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ لِثَامُ
وَٱلسُّرْجُ قَدْ بُدِّدَتْ عَلَيْهِ　　مِنْهَا دَنَانِيرُ لَا تُرَامُ
وَهْوَ قَدِ ٱمْتَدَّ ، وَٱلْمَبَانِى　　عَلَيْهِ فِى خِدْمَةٍ قِيَامُ
لِلّٰهِ كَمْ دَوْحَةٍ جَنَيْنَا　　هُنَاكَ أَثْمَارُهَا ٱلْأَثَامُ(٣)

قَالَ ٱلْمَقْرِيزِىُّ : وَفِيهِ تَحَامُلٌ كَثِيرٌ ـ ٱنْتَهَى . وَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ ٱلْإِنْصَافِ عَلِمَ أَنَّ ٱلتَّحَامُلَ فِى نِسْبَةِ ٱلتَّحَامُلِ إِلَيْهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى ٱلْمُوَفِّقُ .

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ : وَمُعَامَلَةُ ٱلْفُسْطَاطِ وَٱلْقَاهِرَةِ بِالدَّرَاهِمِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِالسَّوْدَاءِ ، كُلُّ دِرْهَمٍ مِنْهَا ثَلَاثَةٌ مِنَ ٱلدَّرَاهِمِ ٱلنَّاصِرِيَّةِ ، وَفِى ٱلْمُعَامَلَةِ بِهَا شِدَّةٌ وَخَسَارَةٌ فِى ٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ

(١) الطغام : أوغاد الناس وأسافلهم ، واحده طغامة (٢) هوم : هز رأسه للنعاس ، أو التهويم أول النوم ، وهو دون النوم الشديد (٣) الدوحة فى الأصل: الشجرة العظيمة. والأثام الأثم والذنب، وخير من بيته قول أبى نواس

تجـرأنا عـلى الآثام لما　　رأينا العفو من ثمر الذنوب

وَمُخَاصَمَةٌ بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ ، وَكَانَ بِهَا قَدِيمًا ٱلْفُلُوسُ ، فَقَطَعَهَا ٱلْمَلِكُ ٱلْكَامِلُ ، فَبَقِيَتِ ٱلْآنَ مَقْطُوعَةً مِنْهَا . وَهِيَ فِي ٱلْإِقْلِيمِ ٱلثَّالِثِ، وَهَوَاؤُهَا رَدِيءٌ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا هَبَّ ٱلْمَرِيسِيُّ مِنْ جِهَةِ ٱلْقِبْلَةِ ، وَأَيْضًا فَرَمَدُ ٱلْعَيْنِ فِيهَا كَثِيرٌ ، وَٱلْمَعَايِشُ فِيهَا مُتَعَذِّرَةٌ نَزْرَةٌ ، وَلَا سِيَّمَا أَصْنَافُ ٱلْفُضَلَاءِ، وَجَوَامِكُ[1] ٱلْمَدَارِسِ قَلِيلَةٌ كَدِرَةٌ ، وَأَكْثَرُ مَا يَتَعَيَّشُ بِهَا ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى فِي ٱلطِّبِّ وَكِتَابَةِ ٱلْخَرَاجِ ، وَٱلنَّصَارَى بِهَا يَمْتَازُونَ بِالزُّنَّارِ فِي أَوْسَاطِهِمْ، وَٱلْيَهُودُ بِعَمَائِمَ صُفْرٍ، وَيَرْكَبُونَ ٱلْبِغَالَ، وَيَلْبَسُونَ ٱلْمَلَابِسَ ٱلْجَلِيلَةَ ، وَيَأْكُلُ أَهْلُ ٱلْقَاهِرَةِ ٱلْبَطَارِخَ، وَلَا تُصْنَعُ حَلَاوَةُ ٱلْقَمْحِ إِلَّا بِهَا وَبِغَيْرِهَا مِنَ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ، وَفِيهَا جَوَارٍ طَبَّاخَاتٌ أَصْلُ تَعْلِيمِهِنَّ مِنْ قُصُورِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْفَاطِمِيِّينَ ، وَلَهُنَّ فِي ٱلطَّبْخِ صَنَائِعُ عَجِيبَةٌ وَرِيَاسَةٌ مُتَقَدِّمَةٌ ، وَمَطَابِخُ ٱلسُّكَّرِ وَٱلْمَوَاضِعُ ٱلَّتِي يُصْنَعُ بِهَا ٱلْوَرَقُ ٱلْمَنْصُورِيُّ مَخْصُوصَةٌ بِالْفُسْطَاطِ دُونَ ٱلْقَاهِرَةِ. ٱنْتَهَى ٱلْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا ٱلْمَوْضِعِ مِنْ كَلَامِ أَبِي ٱلْحَسَنِ

---

(١) الجوامك جمع جومك : وهو رواتب خدام الدولة من الملكيين والعسكريين . وهي فارسية

ٱلنُّورِ بْنِ سَعِيدٍ - رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى - وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ :

كَمْ ذَا تُقِيمُ بِعِصْرٍ مُعَذَّبًا بِذَوِيهَا !
وَكَيْفَ تَرْجُو نَدَاهُمْ وَٱلسُّحْبُ تَبْخَلُ[1] فِيهَا !

وَقَالَ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى :

لِابْنِ ٱلزُّبَيْرِ مَكَارِمٌ أَضْحَتْ بِهَا
طَيْرُ ٱلْمَدَائِحِ فِي ٱلْبِلَادِ تُغَرِّدُ
إِنْ قَيَّدُوهُ وَبَالَغُوا فِي عَصْرِهِ
فَٱلْكَرْمُ يُعْصَرُ، وَٱلْجَوَادُ يُقَيَّدُ

***

والد ابن سعيد

وَلْنَذْكُرْ بَعْضَ أَخْبَارِ وَالِدِهِ ، فَإِنَّهُ مِمَّنْ رَحَلَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ وَتُوُفِّيَ بِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، وَقَدْ ذَكَرَ ٱبْنُهُ أَبُو ٱلْحَسَنِ فِي «ٱلْمُغْرِبِ» وَغَيْرِهِ مِنْ أَخْبَارِهِ ٱلْعَجَائِبَ ، وَلَا بَأْسَ بِأَنْ نُلِمَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ سِوَى مَا تَقَدَّمَ، فَنَقُولُ : مِنْ أَخْبَارِهِ أَنَّهُ لَمَّا ٱجْتَازَ بِمَالَقَةَ - وَمُشْرِفُهَا إِذْ ذَاكَ أَبُو عَلِيِّ بْنُ تَقِيٍّ[2] - وَجَّهَ إِلَيْهِ

(١) فى الأصل « تنحل » وهو تصحيف . « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) فى الأصل « بقى » وفى نسخة « مبقى » وهو تصحيف : وهو أبو على حسن بن ابراهيم بن محمد بن تقى الجذامى من أهل مالقة، سمع من أبى على بن سكرة بمرسية سنة ٥٠٥ ، وكان من أهل الرواية والتقييد، وله رحلة سمع فيها من أبى طاهر السلفى، وحدث عنه أبو طالب أحمد بن مسلم المعروف بالتنوخى من أهل الاسكندرية بكتاب الاستيعاب لابن عبد البر ، وأجاز له

مَنْ نقَلَ أَسْبَابَهُ إِلَى دَارِهِ ، وَأَقْبَـلَ عَلَيْهِ مُنْشِدًا :

أَ كَذَا يَجُوزُ الْقَطْرُ لَا يَثْنِي عَلَى
أَرْضٍ تَوَالَى جَدْبُهَا مِنْ بَعْـدِهِ ؟!

أَللّٰهُ يَعْـلَمُ أَنَّهَا مَا أَنْبَتَتْ زَهْرًا وَلَا ثَمَرًا بِمُدَّةِ فَقْدِهِ

عَرِّجْ عَلَيْهَا سَاعَةً يَامَنْ لَهُ
حَسَبٌ يَفُوقُ الْعَالَمِينَ بِمَجْدِهِ

وَانْثُرْ عَلَيْهَا مِنْ أَزَاهِرِكَ الَّتِي
تَشْفِي الْمُتَيَّمَ مِنْ لَوَاعِجِ وَجْدِهِ(١)

وَاللّٰهِ مَا ذَا كَرْتُ فِكْرَكَ سَاعَةً
إِلَّا وَأَقْبَسَ خَاطِرِي مِنْ زَنْدِهِ(٢)

قَالَ مُوسَى فَارْتَجَلْتُ لِلْحِينِ :

أَنْتَ الَّذِي تَعْرِفُ كَيْفَ الْعُلَا وَتَبْتَدِي فِي سُبُلِ الْمَجْدِ
بَدَأْتَ بِالْفَضْلِ الْمُنِيرِ الَّذِي أَكْمَلَ بَدْرَ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَاللّٰهِ مَا أَبْصَرْتُكُمْ سَاعَةً إِلَّا بَدَا لِي طَالِعُ السَّعْدِ

اجازة عامة سنة ٥١٥ . « أحمد يوسف نجاتى » (١) اللواعج جمع لاعج : وهو اللوعة والهوى المحرق ، ويقال هوى لاعج : لحرقته الفؤاد من الحب. ولعج الحب أو الحزن فؤاده : اذا استحر فى قلبه (٢) أقبسه : أعطاه قبسا وهو فى الأصل الشعلة أو القطعة من النار ، والزند : ماتقتدح به النار، جعل فكر الممدوح وحديثه بمنزلة الزند يمد قرائح الناس بالأفكار، ويجعل أذهانهم وارية متقدة « أحمد يوسف نجاتى »

وَانْصَرَفْتُ مَعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ ـ قَالَ :

فَلَمْ أَزَلْ فِي كَرَامَهْ لَيْسَتْ كَظِلِّ غَمَامَهْ

وَلَمَّا كَانَ أَبُو عِمْرَانَ مُوسَى بْنُ سَعِيدٍ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ مُقَدَّمًا عَلَى أَعْمَالِهَا مِنْ قِبَلِ ابْنِ هُودٍ وَصَلَهُ كِتَابٌ مِنَ الْفَقِيهِ الْقَاضِي أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَسْكَرٍ قَاضِي مَالَقَةَ مَعَ أَحَدِ الْأُدَبَاءِ ؛ مِنْهُ :

أُفَاتِحُ مَنْ قَلْبِي بِعَلْيَاهُ وَاثِقٌ
وَإِنْ كَانَتِ الْأَبْصَارُ لَمْ تَنْسَخِ الْوُدَّا[1]

وَثِقْتُ بِمَالِي مِنْ ذِمَامِ تَشَيُّعِي
بِآلِ سَعِيدٍ وَابْتَغَيْتُ بِهِ السَّعْدَا[2]

وَبِالْحُبِّ يَدْنُو كُلُّ مَنْ أَقْصَتِ النَّوَى
بِرَغْمِ حِجَابٍ لِلنَّوَى بَيْنَنَا مُدَّا

يَا سَيِّدِي الَّذِي حَمَلَنِي مَا أَمَالَ أَسْمَاعِي مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ أَنْ أَهْجُمَ عَلَى مُفَاتَحَتِهِ شَافِعاً فِي مُوَصِّلِهَا إِلَيْهِ ، وَاثِقاً بِالْفَرْعِ

وفي مذا كرة البلغاء وقراءة كلامهم تلقيح للعقول . « أحمد يوسف نجاتى »

(١) كذا بالأصل ، وقد يكون « تنسج » يعنى أنه يبدأ التعارف به قبل لقائه ويفاتحه بالمكاتبة ، وان كانت العيون لم تنسج أى توجد الود بالرؤية والاجتماع

(٢) الذمام : العهد والحرمة ، وتشيع بفلان اذا نصره ومال اليه « أحمد يوسف نجاتى »

لِعِلْمِ ٱلْأَصْلِ ، مُؤَمِّلًا لِلْإِفْضَالِ بِتَحَقُّقِ ٱلْفَضْلِ ، إِنْ لَمْ تَقْضِ بِاجْتِمَاعٍ بَيْنَنَا ٱلْأَيَّامُ ، فَلَا تَجْرِي بِالْمُشَافَهَةِ بَيْنَنَا إِلَّا أَلْسُنُ ٱلْأَقْلَامِ ، وَيُوحِي بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِسُوَرِ ٱلْوِدَادِ[1] وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَطْلَعَكَ فِي ذَلِكَ ٱلْأُفُقِ بَدْرًا ، وَأَدْنَاكَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلدِّيَارِ فَصِرْنَا لِقُرْبِ مَنْ يَرِدُ عَنْكَ لَا نَعْدَمُ لَكَ ذِكْرًا ، فَكُلٌّ يُثْنِي بِالَّذِي عَلِمَتْ سَعْدُ[2] ، وَيَصِفُ مِنْ خِلَالِكَ مَا يَقْضِي ذَلِكَ ٱلْمَجْدُ ، وَلَمَّا كَانَ إِحْسَانُكَ يُبَشِّرُ بِهِ ٱلصَّادِرُ وَٱلْوَارِدُ ، وَيَحْرِصُ[3] عَلَيْهِ ٱلْغَائِبُ وَٱلشَّاهِدُ ، مَدَّ أَمَلَهُ نَحْوَكَ مُوَصِّلُ هَـٰذِهِ ٱلْمُفَاتَحَةِ ، وَلَيْسَ لَهُ وَسِيلَةٌ وَلَا بِضَاعَةٌ إِلَّا

(١) يحيل الى أن هناك فقرة ساقطة قبل هذه الفقرة التى ليس لها عديل ولا قسيم ؛ مثل: نلجأ فى السفارة بيننا الى الطرس والمداد ، ويوحى بعضنا الخ.

(٢) من قول الحطيئة يمدح بغيض بن عامر من سعد بن زيد مناة بن تميم، ويثنى على بنى سعد من قصيدة أولها :

ألا طرقتنا بعد ماهجعت هند وقد سرن خمسا واتلأب بنا نجد

« اتلأب بهم الطريق: أى اطرد واستقام وامتد ــ الى أن قال :

فمن مبلغ أبناء سعـد فقد سعى الى السورة العليا لهم حازم جلد

رأى مجد أقوام أضيع، فحثهم على مجدهم لما رأى أنه الجد

وتعـذلنى أبناء سعـد عليهم وماقلت الا بالذى علمت سعد

وقد صار عجز البيت « وماقلت الا بالذى علمت سعد » جاريا مجرى المثل. « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) وفى نسخة «ويحرض» « أحمد يوسف نجاتى.»

ٱلْأَدَبُ وَهِيَ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْكَرِيمِ رَابِحَةٌ، وَهُوَ مَنْ شَتَّتَتْ خُطُوبُ هَذَا ٱلزَّمَانِ شَمْلَهُ، وَأَبَانَتْ(١) نَوَائِبُهُ صَبْرَهُ وَفَضْلَهُ وَمَا طَمَحَ بِبَصَرِهِ إِلَّا إِلَى أُفُقِكَ، وَلَا وَجَّهَ رَجَاءَهُ إِلَّا نَحْوَ طُرُقِكَ، وَٱلرَّجَاءُ مِنْ فَضْلِكَ أَنْ يَعُودَ وَقَدْ أَثْنَتْ حَقَائِبُهُ(٢) وَأَعْنَقَتْ(٣) مِنَ ٱلْحَمْدِ رَكَائِبُهُ، دُمْتَ غُرَّةً فِي ٱلزَّمَنِ ٱلْبَهِيمِ(٤)، مَخْصُوصًا بِأَفْضَلِ ٱلتَّحِيَّةِ وَٱلتَّسْلِيمِ. ٱنْتَهَى.

وَٱبْنُ عَسَاكِرَ ٱلْمَذْكُورُ عَالِمٌ بِالتَّارِيخِ، مُتَبَحِّرٌ فِي ٱلْعُلُومِ، وَلَهُ كِتَابٌ فِي أَنْسَابِ بَنِي سَعِيدٍ أَصْحَابِ هَذِهِ ٱلتَّرْجَمَةِ، وَمِنْ شِعْرِهِ:

أَهْوَاكَ يَا بَدْرُ، وَأَهْوَى ٱلَّذِي
يَعْذِلُنِي فِيكَ، وَأَهْوَى ٱلرَّقِيبْ

وَٱلْجَارَ وَٱلدَّارَ وَمَنْ حَلَّهَا ... وَكُلَّ مَنْ مَرَّ بِهَا مِنْ قَرِيبْ

---

(١) أظهرت وكشفت

وفى الخطوب تظهر الجواهر ... ماغلب الأيام الا الصابر

(٢) من قول نصيب يمدح سليمان بن عبد الملك بن مروان :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

جمع حقيبة : وهى الرفادة فى مؤخر القتب، وكل ماشد فى مؤخرة رحل أو قتب فقد احتقب (٣) سارت وأسرعت (٤) المظلم : شديد السواد والحلوكة. والغرة : البياض « أحمد يوسف نجاتى »

وَكُلَّ مُبْدٍ شَبَهًا مِنْكُمُ
وَكُلَّ مَنْ يَلْفِظُ بِاسْمِ الْحَبِيبْ

***

وصية والد ابن سعيد لابنه علي بن سعيد المغربي

«رَجْعٌ» قَالَ ابْنُهُ عَلِيٌّ: لَمَّا أَرَدْتُ النُّهُوضَ مِنْ ثَغْرِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ إِلَى الْقَاهِرَةِ أَوَّلَ وُصُولِي إِلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ رَأَى أَنْ يَكْتُبَ لِي وَصِيَّةً أَجْعَلُهَا إِمَامًا فِي الْغُرْبَةِ، فَبَقِيَ فِيهَا أَيَّامًا إِلَى أَنْ كَتَبْتُهَا عَنْهُ، وَهِيَ هَذِهِ - وَكَفَى بِهَا دَلِيلًا عَلَى مَا اخْتَبَرَ وَعَلِمَ:

أُودِعُكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكْ   مُرْتَقِبًا رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكْ

وَمَا اخْتِيَارِي كَانَ طَوْعَ النَّوَى
لَكِنَّنِي أَجْرِي عَلَى بُغْيَتِكْ

فَلَا تُطِلْ حَبْلَ النَّوَى، إِنَّنِي   وَاللهِ أَشْتَاقُ إِلَى طَلْعَتِكْ

مَنْ كَانَ مَفْتُونًا بِأَبْنَائِهِ   فَإِنَّنِي أَمْعَنْتُ فِي خِبْرَتِكْ

فَاخْتَصِرِ التَّوْدِيعَ أَخْذًا، فَمَا
لِي نَاظِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكْ

وَاجْعَلْ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ، وَلَا
تَبْرَحْ مَدَى الأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِكْ

خُلَاصَةُ ٱلْعُمْرِ ٱلَّتِي حُنِّكَتْ

فِي سَاعَةٍ زُفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكْ

فَلِلتَّجَارِيبِ أُمُورٌ إِذَا

طَالَعْتَهَا تَشْحَذُ مِنْ غَفْلَتِكْ

فَلَا تَنَمْ عَنْ وَعْيِهَا سَاعَةً

فَإِنَّهَا عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكْ

وَكُلُّ مَا كَابَدْتَهُ فِي ٱلنَّوَى

إِيَّاكَ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هِمَّتِكْ

فَلَيْسَ يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ وَإِنَّمَا تُعْرَفُ مِنْ شِيمَتِكْ

وَكُلُّ مَا يُفْضِي لِعُذْرٍ فَلَا

تَجْعَلْهُ فِي ٱلْغُرْبَةِ مِنْ إِرْبَتِكْ[(١)]

وَلَا تُجَالِسْ مَنْ فَشَا جَهْلُهُ

وَٱقْصِدْ لِمَنْ يَرْغَبُ فِي صَنْعَتِكْ

وَلَا تُجَادِلْ أَبَدًا حَاسِدًا فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى هَيْبَتِكْ

---

(١) الاربة : الغرض والحاجة ، وفى معناه :

واياك والأمر الذى ان توسعت   موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه   وليس له من سائر الناس عاذر

يقول له: اياكومايعتذر منه . « أحمديوسف نجاتى »

وَامْشِ الْهُوَيْنَى(١) مُظْهِرًا عِفَّةً
وَابْغِ رِضَا الْأَعْيُنِ عَنْ هَيْئَتِكْ

أَفْشِ التَّحِيَّاتِ إِلَى أَهْلِهَا   وَنَبِّهِ النَّاسَ عَلَى رُتْبَتِكْ

وَانْطِقْ بِحَيْثُ الْعِيُّ(٢) مُسْتَقْبَحٌ
وَاصْمُتْ بِحَيْثُ الْخَيْرُ فِي سَكْتَتِكْ

وَلَا تَزَلْ مُجْتَمِعاً طَالِبًا
مِنْ دَهْرِكَ الْفُرْصَةَ فِي وَثْبَتِكْ(٣)

وَكُلَّمَا أَبْصَرْتَهَا أَمْكَنَتْ   ثِبْ وَاثِقًا بِاللهِ فِي مُكْنَتِكْ

وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ
وَاقْصِدْ لَهُ مَا عِشْتَ فِي بُكْرَتِكْ(٤)

وَايْأَسْ مِنَ الْوِدِّ لَدَى حَاسِدٍ
ضِدٍّ ، وَنَافِسْهُ عَلَى خُطَّتِكْ

وَوَفِّرِ الْجُهْدَ ، فَمَنْ قَصْدُهُ   قَصْدُكَ لَا تَعْتِبْهُ فِي بُغْضَتِكْ

وَوَفِّ كُلًّا حَقَّهُ ، وَلْتَكُنْ
تَكْسِرُ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حِدَّتِكْ

(١) أي بتؤدة ورفق ليكون ذلك أبعث على الهيبة وأدعى إلى الوقار، فسرعة المشي تذهب ببهاء المرء (٢) العي : العجز عن الكلام (٣) يحثه على دوام الاستعداد والنشاط لانتهاز الفرصة (٤) لج : ادخل، أمر من ولج ، والبكرة : أول النهار

وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُتْبَةٍ فَإِنَّهُ أَنْفَعُ فِي غُرْبَتِكْ

وَحَيْثُمَا خَيَّمْتَ فَاقْصِدْ إِلَى

صُحْبَةِ مَنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكْ

وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةٌ مَالَهَا إِلَّا الَّذِي تَذْخَرُ مِنْ عُدَّتِكْ

وَلَا تَقُلْ: أَسْلَمُ لِي وَحْدَتِي فَقَدْ تُقَاسِي الذُّلَّ فِي وَحْدَتِكْ

وَلْتَزِنِ[1] الْأَحْوَالَ وَزْنًا، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكْ

وَلْتَجْعَلِ الْعَقْلَ مَحَكًّا، وَخُذْ كُلًّا بِمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكْ

وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِأَلْفَاظِهِمْ

وَاصْحَبْ أَخًا يَرْغَبُ فِي صُحْبَتِكْ

بَعْدَ اخْتِبَارٍ مِنْكَ يَقْضِي بِمَا

يَحْسُنُ فِي الْأَخْدَانِ[2] مِنْ خُلْطَتِكْ

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصْحَهُ وَفِكْرُهُ وَقْفٌ عَلَى عَثْرَتِكْ

إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ، إِنَّهُ عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكْ

وَاقْنَعْ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا

وَاطْمَعْ إِذَا أُنْعِشْتَ مِنْ عَثْرَتِكْ[3]

---

(١) فى الأصل « ولتزم » وهو تصحيف ظاهر . « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) جمع خدن ، وهو الصاحب والصديق ، وفى الأصل « يحسن فى الأخذ

(٣) أنعشه من عثرته : أقاله — وفى نسخة « نفست من عسرتك » والمعنى واحد « أحمد يوسف نجاتى »

وَأْنمُ نُمُـوَّ ٱلنَّبْتِ قَدْ زَارَهُ

غِبُّ ٱلنَّدَى[1] وَٱسْمُ إِلَى قُدْرَتِكْ

وَإِنْ نَبَا دَهْــرٌ فَوَطِّنْ لَهُ

جَأْشَكَ ، وَٱنْظُرْهُ إِلَى مُدَّتِكْ[2]

فَكُلُّ ذِى أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ فَوَفِّ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِك

وَلَا تُضَــيِّعْ زَمَنًا مُمْكِنًا

تَذْكَارُهُ يُذْكِى لَظَى حَسْرَتِكْ[3]

وَٱلشَّرَّ مَهْمَا ٱسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ

فَإِنَّهُ حُوبٌ عَلَى مُهْجَتِكْ[4]

يَا بُنَيَّ ٱلَّذِى لَا نَاصِحَ لَهُ مِثْلِي،وَلَا مَنْصُوحَ لِي مِثْلُهُ،قَدْ قَدَّمْتُ لَكَ فِي هَذَا ٱلنَّظْمِ مَا إِنْ أَخْطَرْتَهُ بِخَاطِرِكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ رَجَوْتُ لَكَ حُسْنَ ٱلْعَاقِبَةِ ـ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى ـ وَإِنَّ أَخَفَّ مِنْهُ لِلْحِفْظِ،وَأَعْلَقَ بِالْفِكْرِ،وَأَحَقَّ بِالتَّقَدُّمِ قَوْلُ ٱلْأَوَّلِ:

من خلطتك»(١) أى الندى الذى ينزل يوما بعد يوم (٢) نبابه الدهر: لم يوافقه حاله ، ولم يعرف قدره ، والجأش : رواع القلب اذا اضطرب عند الفزع . أو نفس الانسان (٣) يذكى : يوقد،واللظى: النار وقيل لهبها (٤) الحوب: الهلاك والهم والغم والبلاء ، والحوب : الوجع والألم والاثم والظلم ، وفى الأصل « حوز » وهو تصحيف قد يكون عن « حور » أيضا ، والحور الهلاك والنقص والذهاب بالشىء والفساد . « أحمد يوسف نجاتى » .

يَزِينُ ٱلْغَرِيبَ إِذَا مَا ٱغْتَرَبْ ثَلَاثٌ ؛ فَمِنْهُنَّ حُسْنُ ٱلْأَدَبْ
وَثَانِيَةٌ حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ اِجْتِنَابُ ٱلرِّيَبْ

وَإِذَا ٱعْتَبَرْتَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ وَلَزِمْتَهَا فِي ٱلْغُرْبَةِ رَأَيْتَهَا جَامِعَةً نَافِعَةً ، لَا يَلْحَقُكَ -إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى- مَعَ ٱسْتِعْمَالِهَا نَدَمٌ ، وَلَا يُفَارِقُكَ بِرٌّ وَلَا كَرَمٌ ، وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

يُعَدُّ رَفِيعُ ٱلْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ
وَمَا عَاقِلٌ فِي بَلْدَةٍ بِغَرِيبِ

وَمَا قَصَّرَ ٱلْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَٱصْبِرْ عَلَى خُلُقِ مَنْ تُعَاشِرُهُ
وَدَارِهِ ، فَٱللَّبِيبُ مَنْ دَارَى
وَٱتَّخِذِ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمَثِّلِ ٱلْأَرْضَ كُلَّهَا دَارَا

وَأَصْغِ يَا بُنَيَّ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ ٱلدَّهْرِ ، وَسُلَّمُ ٱلْكَرَمِ وَٱلصَّبْرِ :

لَوْ أَنَّ أَوْطَانَ ٱلدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ
لَسَكَنْتُمُ ٱلْأَخْلَاقَ وَٱلْآدَابَا

إِذْ حُسْنُ ٱلْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ، وَٱلْآدَابُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ.
وَلْتَكُنْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي أَدِيبٍ مُتَغَرِّبٍ: وَكَانَ كُلَّمَا طَرَأَ
عَلَى مَلِكٍ فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وُلِدَ، وَإِلَيْهِ قَصَدَ، غَيْرَ مُسْتَرِيبٍ
بِدَهْرِهِ، وَلَا مُنْكِرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ. وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى
صُحْبَةِ مَنْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ هَوَاهُ فَاجْعَلِ ٱلتَّكَلُّفَ لَهُ سُلَّمًا،
وَهُبَّ فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هُبُوبَ ٱلنَّسِيمِ، وَحُلَّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ
ٱلْوَسَنِ، وَٱنْزِلْ بِقَلْبِهِ نُزُولَ ٱلْمَسَرَّةِ، حَتَّى يَتَمَكَّنَ لَكَ وِدَادُهُ،
وَيَخْلُصَ فِيكَ ٱعْتِقَادُهُ. وَطَهِّرْ مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِيهِ لِسَانَكَ،
وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ، وَلَا تُرَخِّصْ فِي جَانِبِهِ لِحَسُودٍ لَكَ مِنْهُ،
يُرِيدُ إِبْعَادَكَ عَنْهُ لِمَنْفَعَتِهِ، أَوْ حَسُودٍ لَهُ يَغَارُ لِتَجَمُّلِهِ بِصُحْبَتِكَ.
وَمَعَ هَذَا فَلَا تَغْتَرَّ بِطُولِ صُحْبَتِكَ، وَلَا تَتَمَهَّدْ بِدَوَامِ
رَقْدَتِهِ، فَقَدْ يُنَبِّهُهُ ٱلزَّمَانُ، وَيُغَيِّرُ مِنْهُ ٱلْقَلْبَ وَٱللِّسَانَ، وَلِذَا
قِيلَ: إِذَا أَحْبَبْتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا، فَفِي ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَنْقَلِبَ
ٱلصَّدِيقُ عَدُوًّا وَٱلْعَدُوُّ صَدِيقًا، وَإِنَّمَا ٱلْعَاقِلُ مَنْ جَعَلَ عَقْلَهُ
مِعْيَارًا، وَكَانَ كَالْمِرْآةِ يَلْقَى كُلَّ وَجْهٍ بِمِثَالِهِ، وَجَعَلَ نُصْبَ
نَاظِرِهِ قَوْلَ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ ٱلنَّاسِ خِبًّا(١) جَزَيْتُ عَلَى ٱبْتِسَامٍ بِٱبْتِسَامِ

وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَامَّةِ: مَنْ سَبَقَكَ بِيَوْمٍ فَقَدْ سَبَقَكَ بِعَقْلٍ، فَٱحْتَذِ بِأَمْثِلَةِ مَنْ جَرَّبَ، وَٱسْتَمِعْ إِلَى مَا خَلَّدَ ٱلْمَاضُونَ بَعْدَ جُهْدِهِمْ وَتَعَبِهِمْ مِنَ ٱلْأَقْوَالِ، فَإِنَّهَا خُلَاصَةُ عُمْرِهِمْ، وَزُبْدَةُ تَجَارِبِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ، وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى عَقْلِكَ، فَإِنَّ ٱلنَّظَرَ فِيمَا تَعِبَ فِيهِ ٱلنَّاسُ طُولَ أَعْمَارِهِمْ، وَٱبْتَاعُوهُ غَالِيًا بِتَجَارِبِهِمْ يُرِيحُكَ، وَيَقَعُ عَلَيْكَ رَخِيصًا. وَإِنْ رَأَيْتَ مَنْ لَهُ مُرُوءَةٌ وَعَقْلٌ وَتَجْرِبَةٌ فَٱسْتَفِدْ مِنْهُ، وَلَا تُضَيِّعْ قَوْلَهُ وَلَا فِعْلَهُ، فَإِنَّ فِيمَا تَلْقَاهُ تَلْقِيحًا لِعَقْلِكَ وَحَثًّا لَكَ وَٱهْتِدَاءً. وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْمَلَ بِهَٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ * وَٱلْحُرُّ يُخْدَعُ بِٱلْكَلَامِ ٱلطَّيِّبِ * فَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمْ: مَا قِيلَ أَضَرُّ مِنْ هَٰذَا

(١) خبا: أى مكرا وخداعا وملقا وغشا ونفاقا. وبعده:

وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام
يحب العاقلون على التصافى وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من أخى لأبى وأمى اذا لم أجده من الكرام

وهى من قصيدة قالها يذكر الحمى التى كانت تغشاه بمصر، وأولها:

ملومكما يجل عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

ومنها:

ولم أر فى عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

وهى قصيدة غراء من بدائع أبى الطيب رحمه الله. «أحمد يوسف نجاتى»

الْبَيْتِ عَلَى أَهْلِ التَّجَمُّلِ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا تَسْمَعُ مِنْ أَقْوَالِ الشُّعَرَاءِ يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَتْبَعَهُ حَتَّى تَتَدَبَّرَهُ، فَإِنْ كَانَ مُوَافِقاً لِعَقْلِكَ مُصْلِحًا لِحَالِكَ فَرَاعِ[1] ذَلِكَ عِنْدَكَ ، وَإِلَّا فَانْبِذْهُ نَبْذَ النَّوَاةِ، فَلَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ يُتَبَسَّمُ، وَلَا كُلُّ شَخْصٍ يُكَلَّمُ ، وَلَا الْجُودُ مِمَّا يُعَمُّ بِهِ، وَلَا حُسْنُ الظَّنِّ وَطِيبُ النَّفْسِ مِمَّا يُعَامَلُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

وَمَالِيَ لَا أُوفِي الْبَرِيَّةَ قِسْطَهَا
عَلَى قَدْرِ مَا يُعْطِي وَعَقْلِيَ مِيزَانُ ؟!

وَإِيَّاكَ أَنْ تُعْطِيَ مِنْ نَفْسِكَ إِلَّا بِقَدَرٍ ، فَلَا تُعَامِلِ الدُّونَ بِمُعَامَلَةِ الْكُفْءِ ، وَلَا الْكُفْءَ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْلَى . وَلَا تُضَيِّعْ عُمُرَكَ فِيمَنْ يُعَلِّلُكَ بِالْمَطَامِعِ ، وَيَثْنِيكَ عَنْ[2] مَصْلَحَةٍ حَاضِرَةٍ عَاجِلَةٍ بِغَائِبَةٍ آجِلَةٍ ، وَاسْمَعْ قَوْلَ الْأَوَّلِ: وَبِعْ آجِلًا مِنْكَ بِالْعَاجِلِ . وَأَقْلِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفُهُمْ بِالْجُمْلَةِ ، وَلَكِنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَلَلٌ وَلَا ضَجَرٌ وَلَا جَفَاءٌ ، وَلَا تَقُلْ

(١) وفى نسخة « قواه » بدل «فراع» (٢) فى الأصل « فيمن يعاملك بالمطامع ويثنيك على مصلحة عاجلة الخ» وفى نسخة «يملكك» بدل «يعللك»

أَيْضًا أقعُدُ فِي كِسْرِ بَيْتِي[1] وَلَا أَرَى أَحَدًا، وَأَسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنَّ ذٰلِكَ كَسَلٌ دَاعٍ إِلَى الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَإِذَا عَلِمَ عَدُوٌّ لَكَ أَوْ صَدِيقٌ مِنْكَ ذَلِكَ عَامَلَاكَ بِحَسَبِهِ ، فَازْدَرَاكَ الصَّدِيقُ، وَجَسُرَ عَلَيْكَ الْعَدُوُّ ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَغُرَّكَ صَاحِبٌ وَاحِدٌ عَنْ أَنْ تَدَّخِرَ غَيْرَهُ لِلزَّمَانِ، وَتُطِيعَهُ فِي عَدَاوَةِ سِوَاهُ ، فَفِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْكَ، فَتَطْلُبَ إِعَانَةً عَلَيْهِ أَوِ اسْتِغْنَاءً عَنْهُ فَلَا تَجِدَ ذَخِيرَةً قَدَّمْتَهَا ، وَكَانَ هُوَ فِي أَوْسَعِ حَالٍ وَأَعْلَى رَأْيٍ بِمَا دَبَّرَهُ بِحِيلَتِهِ فِي انْقِطَاعِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلَوِ اتَّفَقَ لَكَ أَنْ تَصْحَبَ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَكُلِّ رِيَاسَةٍ مَنْ يَكُونُ لَكَ عُدَّةً لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَصْوَبَ ، وَسَلْنِي فَإِنِّي خَبِيرٌ ، طَالَ وَاللهِ مَا صَحِبْتُ الشَّخْصَ أَكْثَرَ عُمُرِي، لا أَعْتَمِدُ عَلَى سِوَاهُ، وَلَا أَعْتَدُّ إِلَّا إِيَّاه ، مُنْخَدِعًا بِسَرَابِهِ ، مَوْثُوقًا[2] فِي حَبَائِلِ خِطَابِهِ ، إِلَى أَلَّا يَحْصُلَ لِي مِنْهُ غَيْرُ الْعَضِّ عَلَى الْبَنَانِ[3] ، وَقَوْلُ: لَوْ كَانَ وَلَوْ كَانَ ، وَلَا يَحْمِلَنَّكَ أَيْضًا هَذَا الْقَوْلُ أَنْ تَظُنَّهُ فِي كُلِّ أَحَدٍ وَتُعَجِّلَ الْمُكَافَأَةَ ، وَلْيَكُنْ حُسْنُ

(١) طرفه أو جانب منه وشقة (٢) أى مربوطا ومعلقا ، والحبائل : جمع حبالة ، وهى الشرك ينصب للصيد (٣) العض على البنان : كناية عن الأسف والندم والحسرة «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلظَّنِّ بِمِقْدَارٍ مَّا ، وَٱصْبِرْ بِمِقْدَارٍ مَّا ، وَٱلْفَطِنُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَخَايِلُ(١) ٱلْأَحْوَالِ ، وَفِي ٱلْوُجُوهِ دِلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ(٢) ، وَأَصْغِ إِلَى ٱلْقَائِلِ :

لَيْسَ ذَا وَجْهَ مَنْ يُضِيفُ وَلَا يَقْـ
ـرِي وَلَا يَدْفَعُ ٱلْأَذَى عَنْ حَرِيمِ(٣)

فَمَنْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ هَذَا ٱلْوَجْهِ فَوَلِّ وَجْهَكَ عَنْهُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، وَلْتَحْرِصْ جُهْدَكَ عَلَى أَلَّا تَصْحَبَ أَوْ تَخْدُمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَمَنْ نَشَأَ فِي رَفَاهِيَةٍ وَمُرُوءَةٍ ، فَإِنَّكَ تَنَامُ مَعَهُ فِي مِهَادِ ٱلْعَافِيَةِ ، وَإِنَّ ٱلْجِيَادَ عَلَى أَعْرَاقِهَا(٤) تَجْرِي ، وَأَهْلُ ٱلْأَحْسَابِ وَٱلْمُرُوءَاتِ يَتْرُكُونَ مَنَافِعَهُمْ مَتَى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فِيهَا وَصْمَةٌ(٥) ، وَقَدْ قِيلَ فِي مَجْلِسِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ : أَشَرِبَ مُصْعَبٌ ٱلْخَمْرَ(٦) ؟ . فَقَالَ

---

(١) علامات وأمارات

(٢) وجه الفتى كصحيفة ولطالما قرأ الضمير بها اللبيب الأكيس

(٣) يقرى : أى يكرم الضيف ، والشاهد فى البيت أن الشاعر ذم صاحبه بصفات استملاها من وجهه، واستدل عليها من منظره (٤) أعراقها : أصولها جمع عرق ، وهو مثل يضرب للفرع يتخلق بأخلاق أصله (٥) الوصمة : العيب والعار (٦) يريد مصعب بن الزبير بن العوام أخا عبد الله بن الزبير قتل رحمه الله سنة ٧٢ فى وقعة مسكن « موضع قريب من نهر دجيل عند دير الجاثليق القريب من بغداد » بينه وبين عبد الملك «أحمد يوسف نجاتى»

عَبْدُ ٱلْمَلِكِ - وَهُوَ عَدُوٌّ لَهُ مُحَارِبٌ لَهُ عَلَى ٱلْمُلْكِ - : لَوْ عَلِمَ مُصْعَبٌ أَنَّ ٱلْمَاءَ يُفْسِدُ مُرُوءَتَهُ مَا شَرِبَهُ ، وَٱلْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ ٱلْأَعْدَاءُ(١) . يَا بُنَيَّ - وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ ٱلدُّنْيَا دَارُ مُفَارَقَةٍ وَتَغَيُّرٍ ، وَقَدْ قِيلَ : أَصْحَبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ - فَمَتَى فَارَقْتَ أَحَدًا فَعَلَى حُسْنَى فِي ٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ، فَلِذَلِكَ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

* وَلَمَّا مَضَى سَلْمٌ بَكَيْتُ عَلَى سَلْمِ (٢) *

وَإِيَّاكَ وَٱلْبَيْتَ ٱلسَّائِرَ(٣) :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ
رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ ، وَتَرَكْتَ عَارَا

وَٱحْرِصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ : ثَلَاثَةٌ تُبْقِي لَكَ ٱلْوُدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتُوَسِّعَ لَهُ فِي ٱلْمَجْلِسِ ، وَتَدْعُوَهُ بِأَحَبِّ ٱلْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ . وَٱحْذَرْ كُلَّ مَا يَبْنِهُ

---

(١) عجز بيت، وصدره * ومليحة شهدت لها ضراتها * (٢) يريد سلم بن قتيبة ابن مسلم الباهلي والد أبي عمرو سعيد بن سلم السيد الجواد الممدوح المتوفى سنة ٢١٧ - وفي هذا المعنى :

تضجرت من عمرو فلما فقدته ... وعاشرت أقواما بكيت على عمرو

(٣) من قصيدة لجرير يهجو بها الفرزدق

لكَ ٱلْقَائِلُ : كُلُّ مَا تغرِسُهُ تَجْنيهِ إِلَّا ٱبْنَ آدمَ ، فإنَّكَ إذا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ ، وقَوْلُ ٱلآخَرِ : ٱبْنُ آدمَ يتَمَسْكَنُ حَتَّى يَتَمَكَّنَ ، وقَوْلُ ٱلآخَرِ : ٱبْنُ آدمَ ذِئْبٌ مَعَ ٱلضَّعْفِ أَسَدٌ مَعَ ٱلْقُوَّةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَثْبُتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ ٱخْتِبَارَهُ ، فَيُحْكَى أَنَّ ٱبْنَ ٱلْمُقَفَّعِ خَطَبَ مِنَ ٱلْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : إِنَّ ٱلصُّحْبَةَ رِقٌّ ، وَلَا أَضَعُ رِقِّي فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ[1] . وَٱسْتَمْلِ مِنْ عَيْنِ مَنْ تُعَاشِرُهُ ، وَتَفَقَّدْ فِي فَلَتَاتِ ٱلْأَلْسُنِ وَصَفَحَاتِ ٱلْأَوْجُهِ[2] ، وَلَا يَحْمِلْكَ ٱلْحَيَاءُ عَلَى ٱلسُّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَلَّا تُبَيِّنَهُ ، فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ سِلَاحُ ٱلسِّلْمِ ، وَبِٱلْأَنِينِ يُعْرَفُ أَلَمُ ٱلْجُرْحِ . وَٱجْعَلْ لِكُلِّ أَمْرٍ أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةً تَجْعَلُهَا نِهَايَةً لَكَ . وَآكَدُ مَا أُوصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ ٱلْأَفْكَارَ ، وَتُسَلِّمَ لِلْأَقْدَارِ ،

وَٱقْبَلْ مِنَ ٱلدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ   مَنْ قَرَّ عَيْناً بِعَيْشِهِ نَفَعَهْ[3]

---

(١) أى معاملتك للرقيق الذى تملكه (٢) لله در من قال :

واذا سمعت من الرجال حديثهم   ان كان يخبث قولهم أو ينفس

أدركت ماتحوى الصدور فربما   نطق اللسان بما تكن الأنفس

وتفقد الشيء : تعاهده وبحث عنه . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) البيت من قصيدة للأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم شاعر جاهلى ؛ أولها :

لكل هم من الهموم سعه   والمسى والصبح لافلاح معه

إِذِالْأَفْكَارُ تَجْلِبُ الْهُمُومَ، وَتُضَاعِفُ الْغُمُومَ، وَمُلَازَمَةُ الْقُطُوبِ(١) ، عِنْوَانُ الْمَصَائِبِ وَالْخُطُوبِ ، يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ، وَيَشْمَتُ الْعَدُوُّ الْمُجَانِبُ ، وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا نَفْسَكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصُرُ بِهَا الدَّهْرَ عَلَيْكَ ، وَلِلّٰهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا
عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ؟

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ(٢) ، وَلَا يَرْعَوِى

لاتحقرن الفقير علك أن تركع يوماوالدهر قد رفعه
وصل حبال البعيد ان وصل الـ
حبل ، وأقص القريب ان قطعه
واقبل من الدهر . .

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ويرقع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من رقعه
مابال من غيه مصيبك لو يملك شيئا من أمره وزعه
حتى اذا ماانجلت غوايته أقبل يلحى وغيه فجعه
أذود عن حوضه ويخدعنى ياقوم منعاذرى من الخدعه

الفلاح : البقاء،ووزعه: كفهومنعه . « أحمد يوسف نجاتى » (١) عبوس الوجه وتجهمه (٢) عجز البيت لأبى الطيب وهو :

فمايدوم سرور ماسررت به ولايرد عليك الفائت الحزن

وهو من قصيدة قالها وقد بلغه أن قوما نعوه فى مجلس سيف الدولة بحلب وهو بمصر؛ أولها:

بِطُولِ عَتْبِكَ ٱلزَّمَنُ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُ بِغَرْنَاطَةَ شَخْصًا قَدْ أَلِفَتْهُ ٱلْهُمُومُ، وَعَشِقَتْهُ ٱلْغُمُومُ، مِنْ صِغَرِهِ إِلَى كِبَرِهِ، لَا تَرَاهُ أَبَدًا خَلِيًّا مِنْ فِكْرِهِ، حَتَّى لُقِّبَ بِصَدْرِ ٱلْهَمِّ، وَمِنْ أَعْجَبِ مَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ فِي ٱلشِّدَّةِ، وَلَا يَتَعَلَّلُ بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرَجٌ، وَيَتَنَكَّدُ فِي ٱلرَّخَاءِ خَوْفًا مِنْ أَلَّا يَدُومَ، وَيُنْشِدُ :

تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذْ قِيـــلَ تَمَّ (١)

وَيُنْشِدُ :

وَعِنْدَ ٱلتَّنَاهِي يَقْصُرُ ٱلْمُتَطَاوِلُ (٢)

بم التعلل ؟ لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كاس ولا سكن
أريد من زمنى ذا أن يبلغنى ... ماليس يبلغه فى نفسه الزمن
لاتلق دهرك الا غير مكترث ... مادام يصحب فيه روحك البدن

وبعده البيت ـ الى أن قال :

يامن نعيت على بعد بمجلسه ... كل بما زعم الناعون مرتهن
كم قد قتلت، وكم قد مت عندكم ... ثم انتفضت فزال القبر والكفن
ما كل مايتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

وهى قصيدة غراء جيدة . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) عجز بيت صدره : اذا تم شيء بدا نقصه ، وقبله :

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الاله ... فان الاله سريع النقم

(٢) عجز بيت لأبى العلاء المعرى وصدره :

وَلَهُ مِنَ ٱلْحِكَايَاتِ فِي هَذَا ٱلشَّأْنِ عَجَائِبُ ، وَمِثْلُ هَذَا عُمْرُهُ مَخْسُورٌ يَمُرُّ ضَيَاعًا. وَمَتَى دَفَعَكَ ٱلزَّمَانُ إِلَى قَوْمٍ يَذُمُّونَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا تُحْسِنُهُ ، حَسَدًا لَكَ وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ قَدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَزْهِيدًا لَكَ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلَكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَزْهَدَ فِي عِلْمِكَ وَتَرْكَنَ إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي مَدَحُوهُ ، فَتَكُونَ مِثْلَ ٱلْغُرَابِ ٱلَّذِي أَعْجَبَهُ مَشْيُ ٱلْحَجَلَةِ(١) ، فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، فَصَعُبَ عَلَيْهِ ،

فان كنت تبغ العز فابغ توسطا

وبعده :

توقى البدور النقص وهى أهلة ... ويدركها النقصان وهى كوامل

ولست أرى هذا ، ولكنى أقول :

لاتقنعن ومطلب لك ممكن ... فاذا تضايقت المطالب فاقنع

وقد قال الصاحب بن عباد :

وقائلة: لم عرتك الهموم ... وأمرك ممتثل فى الأمم؟!

فقلت: ذرينى لما أشتكى ... فان الهموم بقدر الهمم

وقد أصبح عصرنا عصر منافسة وجد وطموح ، وصارت القناعة تعلة العاجز ، وانما يزرى بالمرء اراقة ماء وجهه ، والتوسل الى نيل مآربه بوسائل غير شريفه ، وعسى أن يفيق الزمان من غفلته ، فينال كل عامل حقه بقدر جده واستحقاقه . « أحمد يوسف نجاتى » (١) الحجلة : طائر فى حجم الحمام كالقطا أحمر المنقار والرجلين ويسمى دجاج البر . « أحمد يوسف نجاتى »

ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَنَسِيَهُ ، فَبَقِيَ مُخَبَّلَ الْمَشْيِ كَمَا قِيلَ (١) :

حَسَدَ الْقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مَشْيَهَا
فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَّالِ (٢)
فَأَضَلَّ مِشْيَتَهُ ، وَأَخْطَأَ مَشْيَهَا
فَلِذَاكَ سَمَّوْهُ أَبَا الْمِرْقَالِ

وَلَا يُفْسِدْ خَاطِرَكَ مَنْ جَعَلَ يَذُمُّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ وَلَا مَكَانٌ يُرْتَاحُ فِيهِ ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ أَكْثَرَ مَا يَكُونُونَ مِمَّنْ صَحِبَهُ الْحِرْمَانُ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتُهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا (٣) عَلَى النَّاسِ بِالسُّؤَالِ فَمَقَتُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلَبِ الْأُمُورِ مِنْ وُجُوهِهَا فَاسْتَرَاحُوا إِلَى الْوُقُوعِ فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْذَارِ لِأَنْفُسِهِمْ

---

(١) أول الأبيات :

ان الغراب ــ وكان يمشى مشية فيما مضى من سالف الأجيال

والعرب تصف القطا بحسن المشى؛ لتقارب خطاها، ومشيها يشبه مشى النساء الخفرات بمشيتهن . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) القطا : طائر فى حجم الحمام، وكأنه منه ، والعقال : داء يأخذ الدواب فى أرجلها، كأنه يعقلها عن المشى، فاذا مشت ظلعت ساعة ثم انبسطت، وأكثر ما يعترى الشاء (٣) ألحوا عليهم وأضجروهم . ومقته : أبغضه وكرهه أشد الكراهية. «أحمد يوسف نجاتى»

بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ وَتَعْذِيرِ أُمُورِهِمْ . وَلَا تُزِلْ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَلَا قَوْلَ آخَرَ :

تِهْ وَارْتَفِعْ إِنْ قِيلَ أَقْ تَرَ، وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى
كَالْغُصْنِ يَسْفُلُ مَا اكْتَسَى ثَمَرًا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى[1]

وَلَا قَوْلَ الْآخَرِ :

اَلْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ
وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ

وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ :

وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ
وَمَنْ يَغْوِ لَا يَعْدَمْ عَلَى الْغَيِّ لَائِمَا

وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْهُبُوطُ فَإِيَّاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَهْ
وَكُنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطْتَ تَقُومُ وَرِجْلَاكَ فِي عَافِيَهْ

(١) ومما يقرب من المعنى المراد قول بعض الأجواد:

وَتَحَفَّظْ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ(١) :

وَمَنْ دَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّوهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

مَا كُلُّ مَا فَوْقَ ٱلْبَسِيطَةِ كَافِياً
فَإِذَا ٱقْتَنَعْتَ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافِي

وَٱلْأَمْثَالُ يَضْرِبُهَا لِذِي ٱللُّبِّ ٱلْحَكِيمِ(٢)، وَذُو ٱلْبَصَرِ يَمْشِي عَلَى ٱلصِّرَاطِ ٱلْمُسْتَقِيمِ، وَٱلْفَطِنُ يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ، وَيَسْتَدِلُّ بِالْيَسِيرِ،

وانى لصب بالتلاقى ، وانما يعوقنى عن قصد صاحبى العسر
أذوب حياء من زيارة صاحب اذا لم يساعدنى على بره الوفر

وقول عبد الصمد بن بابك :

اذا هو أثرى بدا واصلا وان قل فارقهم واحتجب
كذا البدر يسفر فى تمه فان خاف نقص المحاق احتجب

توفى عبد الصمد بن منصور بن الحسين بن بابك سنة ٤١٠ «أحمد يوسف نجاتى»

(١) هو عبد الرحمن بن حسان بن ثابت وقبله :

مقالة السوء الى أهلها أسرع من منحدر سائل

(٢) من قول الشاعر الحكيم :

يابدر والأمثال يض ربها لذى اللب الحكيم
دم للخليل بوده ماخير ود لايدوم

وهى قصيدة فى باب الأدب من ديوان الحماسة . « أحمد يوسف نجاتى »

وَٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ، لَا رَبَّ سِوَاهُ. تَمَّتِ ٱلْوَصِيَّةُ.
وَيَكْفِيكَ عُنْوَانًا عَلَى طَبَقَتِهِ فِي ٱلنَّثْرِ قَوْلُهُ فِي رِسَالَةٍ كَتَبَ بِهَا إِلَى مَلِكِ ٱلْمَغْرِبِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ بْنِ أَبِي يَعْقُوبَ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ مُهَنِّئًا لَهُ بِٱلْخِلَافَةِ حِينَ بُويِعَ بِهَا بِمُرَّاكِشَ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ بِإِشْبِيلِيَةَ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ كَاتِبًا لَهُ وَمُخْتَصًّا بِهِ: ٱلْحَضْرَةُ ٱلْعَلِيَّةُ، ٱلسَّامِيَةُ ٱلسَّنِيَّةُ ٱلطَّاهِرَةُ ٱلْقُدْسِيَّةُ: حَضْرَةُ ٱلْإِمَامَةِ، وَجَنَّةُ دَارِ ٱلْإِقَامَةِ، مَدَّ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلْإِسْلَامِ ظِلَالَهَا، وَأَنْمَى فِي سَمَاءِ ٱلسَّعَادَةِ تَمَامَهَا وَكَمَالَهَا، وَهَنَّأَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِٱسْتِقْبَالِ إِمَارَتِهَا، وَأَدَامَ لَهُمْ بَرَكَةَ خِلَافَتِهَا، عَبْدُ أَيَادِيهَا، وَخَدِيمُ نَادِيهَا، ٱلْمُتَوَسِّلُ بِقَدِيمِ ٱلْخِدْمَةِ، ٱلْمُتَوَصِّلُ بِعَمِيمِ ٱلنِّعْمَةِ، وَكَرِيمِ ٱلْحُرْمَةِ، ٱلْمُنْشِدُ بِلِسَانِ ٱلْمَسَرَّةِ، حِينَ أَطْلَعَ ٱلزَّمَانُ هَذِهِ ٱلْغُرَّةَ:

أَتَتْهُ ٱلْخِلَافَةُ مُنْقَادَةً ... إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا (١)
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ ... وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

مُوسَى بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ، لَا زَالَ هَذَا ٱلْأَمْرُ ٱلْعَلِيُّ مَحْمُودًا سَعِيدًا، وَلَا بَرِحَ يَسْتَزِيدُ تَرَقِّيًا وَصُعُودًا:

(١) البيت لأبي العتاهية من قصيدته المشهورة في تهنئة المهدي بالخلافة، وبعد البيتين:
ولو لم تطعه بنات القلوب ... لما قبل الله أعمالها

يَا نِعْمَةَ ٱللّٰهِ زِيدِى   إِنْ كَانَ فِيكِ مَزِيدُ

سَلَامُ ٱللّٰهِ ٱلْكَرِيمِ ، يَخُصُّ حَضْرَةَ ٱلْإِجْلَالِ وَٱلتَّعْظِيمِ ، وَٱلتَّقْدِيسِ وَٱلتَّفْخِيمِ ، وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . « وَبَعْدَ » حَمْدِ ٱللّٰهِ ٱلَّذِى بَلَّغَ ٱلْإِسْلَامَ بِهَذِهِ ٱلْخِلَافَةِ آمَالَهُ ، وَحَلَّى بِهَذِهِ ٱلْوِلَايَةِ ٱلسَّعِيدَةِ أَحْوَالَهُ ، وَٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى أَدْحَضَ[1] ٱللّٰهُ تَعَالَى بِنُبُوَّتِهِ ٱلْكُفْرَ وَضَلَالَهُ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ٱلطَّاهِرِينَ ٱلَّذِينَ سَمِعُوا أَقْوَالَهُ ، وَٱمْتَثَلُوا أَفْعَالَهُ ، وَٱلرِّضَا عَنِ ٱلْإِمَامِ ٱلْمَهْدِىِّ ٱلْمَعْلُومِ ٱلَّذِى أَفَاءَ[2] ٱللّٰهُ بِهِ عَلَى ٱلدِّينِ ٱلْحَنِيفِيِّ ظِلَالَهُ ، وَأَذْهَبَ عَنْهُ طَوَاغِيتَهُ[3] وَضَلَالَهُ ، وَٱلدُّعَاءِ لِلْمَقَامِ ٱلْعَالِى ٱلْكَرِيمِ ، بِالسَّعْدِ ٱلْمُتَوَالِى وَٱلنَّصْرِ ٱلْجَسِيمِ ، وَكَتَبَ ٱلْعَبْدُ وَقَدْ مَلَأَتْ هَذِهِ ٱلْبُشْرَى بِالْمَسَرَّةِ أُفُقَهُ ، وَوَسَّعَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلْعَلِيَّةُ طُرُقَهُ :

فَهَذِهِ رُتْبَةٌ مَا زِلْتُ أَرْقُبُهَا   فَٱلْيَوْمَ أَبْسُطُ آمَالِى وَأَحْتَكِمُ

وَلَا أَقْنَعُ مِنِّى إِنِ ٱقْتَصَرْتُ عَلَى ٱلسَّمَاءِ دَارًا ، وَٱلْهِلَالِ

(١) أزال وأبطل (٢) مد ونشر وبسط (٣) جمع طاغوت: الضلال ، والكاهن والساحر ، أو الشيطان وكل ما عبد من دون الله تعالى . «أحمد يوسف نجاتى»

لِلْبَشِيرِ سِوَارًا ، وَالنُّجُومِ عِقْدًا ، وَالصَّبَاحِ بَنْدًا[1] حَتَّى أَسُرَّ كُلَّ أَحَدٍ بِشَكْلِهِ ، وَأُقَابِلَ كُلَّ شَخْصٍ بِمِثْلِهِ :

وَمَنْ خَدَمَ الْأَقْوَامَ يَرْجُو نَوَالَهُمْ
فَإِنِّى لَمْ أَخْدُمْكَ إِلَّا لِأُخْدَمَا[2]

وَمَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ رُتْبَةٌ ، وَدُونَ ثَبِيرٍ[3] تَنْحَطُّ كُلُّ هَضْبَةٍ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَهَنِيئًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، حَيْثُ نَظَرَ لَهُمْ نَظَرَ رَحْمَةٍ ، فَأَسْبَلَ عَلَيْهِمْ سِتْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ ذَلِكَ مِعْصَمٌ
مَا كَانَ يَتْرُكُهُ بِغَيْرِ سِوَارِ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ، وَإِلَى مَنْ يُشِيرُ بِآيَاتِهِ فَلِلَّهِ صَبَاحُ ذَلِكَ الْيَوْمِ السَّعِيدِ وَلَيْلَتُهُ ، لَقَدْ سَفَرَ عَنْ وَجْهٍ مِنَ الْبُشْرَى أَضَاءَتِ الْآفَاقَ شَرْقًا وَغَرْبًا غُرَّتُهُ ، وَلَقَدِ

(١) البند : العلم الكبير (٢) هذا مثل قول محمد بن عبدالملك الزيات وقد مدح الحسن بن سهل فى وزراته للمأمون فأعطاه مالا جزيلا :

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه — لكن لتلبسنى التحجيل والغررا
ما كان ذلك الا أننى رجل — لاأقرب الورد حتى أعرف الصدرا

وغرضه من التحجيل والغرة الاشادة به والرفع من قدره، وقد نال ذلك . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) ثبير : جبل ، وهو من أعظم جبال مكة بينها وبين عرفة . « أحمد يوسف نجاتى »

أُجْتَمَعَتْ آرَاءُ ٱلسَّدَادِ ، حَتَّى أَتَتِ ٱلْإِسْلَامَ بِالْمُرَادِ ، فَأَخَذَ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا(١) ، وَحَلَّ بِالدَّارِ بَانِيهَا ، هَنِيئًا زَادَكَ ٱلرَّحْمٰنُ لُطْفًا(٢) وَخَيْرًا ، وَلَا بَرِحَتِ ٱلْمَسَرَّاتُ تَسِيرُ إِلَيْكَ سَيْرًا ، وَهَلْ يَصْلُحُ ٱلنُّورُ إِلَّا لِلْمُقَلِ ، وَهَلْ يَلِيقُ بِالْحُسْنِ إِلَّا ٱلْحُلَلُ ، فَالْآنَ مَهَّدَ ٱللّٰهُ ٱلْبَرَّيْنِ ،وَأَفَاضَ ٱلْعَدْلَ عَلَى ٱلْعُدْوَتَيْنِ، وَقَدَّمَ لِلنَّظَرِ مَنْ لَا يَعْزُبُ عَنْ حِفْظِهِ مَكَانٌ ، وَلَا يَخْتَصُّ بِحِفْظِهِ إِنْسَانٌ دُونَ إِنْسَانٍ ، خَلِيفَةٌ لَهُ ٱلنَّفْسُ ٱلْعُمَرِيَّةُ ، وَٱلْآرَاءُ ٱلْعَمْرِيَّةُ (٣) ، وَٱلْفَرَاسَةُ ٱلْإِيَاسِيَّةُ (٤) وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ، فَلَقَدْ شَاهَدَ ٱلْعَبْدُ مَا لَا يَحْصُرُهُ تَفْسِيرٌ ، وَلَعَمْرِى قَدْ صَارَ ٱلصَّبَاحُ فِى إِشْرَاقِ ٱلنَّهَارِ ، وَلَمْ يَخْفَ عَنَّا مَا زَادَ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْبَهَجَاتِ وَٱلْمَسَارِّ ، وَشَمِلَتْ ٱلنَّاسَ هَذِهِ ٱلْبَشَائِرُ ، وَعَمَّتْ

(١) مثل يضرب لمن ولى أمرا من الأمور وكان أهلا له (٢) من قوله :

هنيئا زادك الرحمن خيرا   فقد أدركت ثارك يابلال

(٣) العمرية : نسبة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، والعمرية : نسبة الى عمرو بن العاص (٤) يريد القاضى اياس بن معاوية بن قرة بن اياس ابن هلال المزنى ، اللسن البليغ والألمعى المصيب ، والمعدود مثلا فى الذكاء وصدق الفراسة والظن ، واياه عنى أبو تمام بقوله :

اقـدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

والحريرى بقوله فى المقامة السابقة :

كُلَّ بَادٍ وَحَاضِرٍ ، وَأَصَاخُوا(١) لِتَالِيهَا إِصَاخَةَ الْمُجْدِبِينَ لِمُرْتَادِهِمْ ، وَأَهْطَعُوا(٢) لَهَا مُهَلِّلِينَ وَمُكَبِّرِينَ إِهْطَاعَ النَّاسِ لِأَعْيَادِهِمْ . وَأَمَّا الْعَبْدُ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظِّهِ ، حَتَّى خَافَ أَنْ يَغْلِبَ السُّرُورُ عَلَى قَلْبِهِ وَلَحْظِهِ « وَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتُلُ(٣) » وَهَذِهِ نِعْمَةٌ يَقْصُرُ عَنْهَا النَّثْرُ وَالنَّظْمُ ، وَيَحْسُدُ عَلَيْهَا الْهِلَالُ وَالنَّجْمُ ، بَلْ يُسَلِّمَانِ لِمَا اسْتَحَقَّتْهُ مِنَ الْمَرَاتِبِ ، وَيَخْضَعَانِ إِلَيْهَا خُضُوعَ الْمُفْتَرَضِ الْوَاجِبِ ، أَقَرَّ اللهُ بِهَا عُيُونَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَفَاضَ سُحُبَهَا عَلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَحَفِظَهَا بِعَيْنِهِ الَّتِي لَا تَنَامُ ، وَوَقَفَ عَلَى خِدْمَتِهَا اللَّيَالِيَ وَالْأَيَّامَ . وَلَمَّا قَدِمَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ عَلَى تُونُسَ مَدَحَ سُلْطَانَهَا أَبَا زَكَرِيَّا بِقَوْلِهِ :

فاذا ألمعيته ألمعية ابن عباس ، وفراسته فراسة اياس . وتوفى اياس سنة ١٢٢ . « أحمد يوسف نجاتى » (١) استمعوا وأصغوا ، والمرتاد هو من يطلب الماء أو الكلأ فى موضعه ، واذا ارتادلقومه وعاد اليهم ليخبرهم فانهم يستمعون له عن شغف واهتمام ، وفى الحديث « ان الرائد لا يكذب أهله » « أحمد يوسف نجاتى » (٢) أسرعوا مقبلين ـ قال تعالى : « مهطعين الى الداعى » الآية (٣) عجز بيت لأبى الطيب من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، وكان قد ضرب خيمة وهو بمدينة ميا فارقين ، وأشاع الناس أن مقامه يتصل بها فهبت ريح شديدة قلعت الخيمة ورمت بها ، فتكلم الناس فى ذلك ، فقال أبو الطيب :

أينفع فى الخيمة العذل ! وتشمل من دهرها يشمل !

وتعلو الذى زحل تحته ! محال لعمرك ما تسأل

بُشْرَى وَيُسْرَى قَدْ أَنَارَ ٱلْمُظْلِمُ
نَجْماً ، وَقَدْ وَضَحَ ٱلصَّبَاحُ ٱلْمُعْلَمُ(١)
وَرَنَتْ عُيُونُ ٱلْأَمْنِ وَهْيَ قَرِيرَةٌ
وَبَدَتْ ثُغُورُ ٱلسَّعْدِ وَهْيَ تَبَسَّمُ
فَارْحَلْ لِتُونِسَ، وَاعْتَقِدْ أَعْلَامَ مَنْ
قَوِيَ ٱلضَّعِيفُ بِهِ، وَأَثْرَى ٱلْمُعْدِمُ
حَيْثُ ٱلْمَعَالِي وَٱلْمَعَانِي وَٱلنَّدَى
وَٱلْفَضْلُ وَٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُمُ هُمُ(٢)

الى أن قال :

رأت لون نورك فى لونها ... كلون الغزالة لا يغسل
وان لها شرفا باذخا ... وان الخيام بها تخجل
فلا تنكرن لها صرعة ... فمن فرح النفس مايقتل
ولو بلغ الناس مابلغت ... لخانتهم حولك الأرجل

وهى طويلة حسن موقعها من سيف الدولة وسر بها وسرى عنه .

« أحمد يوسف نجاتى » (١) الصباح المعلم : المشرق المضىء الذى طرزت حواشى الأفق فيه بالنور (٢) هذا من قول أبى الطمحان القينى « حنظلة ابن الشرقى من القين بن جسر بن شيع الله من قضاعة، وهو شاعر مخضرم لص خبيث » من كلمة يمدح بها بجير بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى، وكان أسيرا فى يده فأطلقه :

لذا قيل: أى الناس خير قبيلة ... وأصبر يوما لاتوارى كواكبه ؟
فان بنى لأم بن عمرو أرومة ... علت فوق صعب لاتنال مراقبه

أَجْرَوْا إِلَى ٱلْغَايَاتِ مِلْءَ عِنَانِهِمْ
سَبْقاً، وَبَذَّهُمُ ٱلْجَوَادُ ٱلْمُنْعِمُ(١)

سَادَ ٱلْإِمَامُ ٱلْمَلْكُ يَحْيَى سَادَةً
أَعْطَى ٱلْوَرَى لَهُمُ ٱلْقِيَادَ وَسَلَّمُوا

إِنَّ ٱلْإِمَارَةَ مُذْ غَدَا يَقْتَادُهَا
يَقْظَى، وَأَجْفَانُ ٱلْحَوَادِثِ نُوَّمُ

لِلّٰهِ مِنْكَ مُبَارَكٌ ذُو فِطْنَةٍ
نَزَغَتْ، فَأَحْجَمَ عِنْدَهَا مَنْ يُقْدِمُ

وانى من القوم الذين هم هم ... اذا مات منهم سيد قام صاحبه
نجوم سماء، كلما غار كوكب ... بدا كوكب تأوى اليه كواكبه
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
ومازال منهم حيث كان مسود ... تسير المنايا حيث سارت ركائبه
لهم مجلس لا يحصرون عن الندى ... اذا مطلب المعروف أجدب راكبه

قوله لاتوارى كواكبه: مثل قولهم: لأرينك النجوم ظهرا، كناية عن اشتداد الخطب حتى يسد غبار الأفق عنان السماء. والأرومة: الأصل، والمراقب جمع مرقبة: وهى الموضع المشرف من جبل أو رابية يرتفع عليه الرقيب ينتظر العدو من بعد، والبيت تمثيل لعلو شرفهم، وعدم دنو غيرهم من مثل مجدهم وعزتهم. والجزع: الخرز اليمانى فيه بياض وسواد، تشبه به العيون، وفى البيت مبالغة حسنة مقبوله، أبرز بها المعقول فى معرض المحسوس، وحصر «كفرح»: بخل. «أحمد يوسف نجاتى» (١) بذه: فاقه وعلاه وغلبه، جعل بنى حفص كالجياد فى حلبة السباق، وجعل الملك الممدوح المجلى فى تلك الحلبة وتلاه سائر أسرته بعده، ثم يأتى سائر الناس عقبهم «أحمد يوسف نجاتى»

يَقْظَانُ ، لَا وَانٍ وَلَا مُتَقَاعِسٌ

كَالدَّهْرِ يَبْنِي مَا يَشَاءُ وَيَهْدِمُ(١)

إِنْ صَالَ فَاللَّيْثُ الْهَصُورُ الْمُقْدِمُ

أَوْ سَالَ فَالْغَيْثُ الْمُعِينُ الْمُثْجِمُ(٢)

أَعْلَى مَنَارَ الْحَقِّ حِينَ أَمَالَهُ قَوْمٌ تَبَرَّأَتِ الْمَنَابِرُ مِنْهُمُ

أَعْلَى الْإِلٰهُ مَكَانَهُ وَزَمَانَهُ وَالنَّصْرُ يَقْدُمُ، وَالسَّعَادَةُ تَخْدُمُ

وَقَالَ يُخَاطِبُ مَلِكَ الْمَغْرِبِ مَأْمُونَ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ(٣) حِينَ أَخَذَ الْبَيْعَةَ لِنَفْسِهِ بِإِشْبِيلِيَةَ -وَكَانَ الْمَذْكُورُ بِمُرَّاكُشَ- وَلِبَنِي سَعِيدٍ بِهَذَا الْمُلْكِ اخْتِصَاصٌ قَدِيمٌ :

---

(١) تقاعس عن الأمر: اذا تأخر ولم يقدم فيه ، وونى فى الأمر يني: اذا ضعف وفتر وكل وأعيا (٢) هصر الشيء : كسره ، والهصور : الأسد الشديد لأنه يهصر الفريسة أي يكسرها ويميلها اليه ، وأثجم المطر : اذا كثر ودام (٣) هو المأمون أبو العلاء ادريس بن يعقوب بن المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ابن على ، كان فى عهد أخيه واليا على الأندلس، وبلغه انتقاض الموحدين والعرب بمراكش على أخيه أبي محمد العادل بن المنصور، وعرف ماهو فيه من الاضطراب فدعا لنفسه باشبيلية، فبويع بها، وأجابه أكثر أهل الأندلس، وتلقب بالمأمون وكان ذلك فى أوائل شوال سنة ٦٢٤ وبايعه الموحدون بالحضرة، ثم ندموا لما يعلمون من شهامته وقوة عزيمته وشدة بأسه، فاتفق رأيهم على مبايعة يحي ابن الناصر بن المنصور - وهو شاب غر كما بقل عذاره- وتأخر قدوم المأمون الى مراكش ، وبقي بالأندلس لأسباب اقتضت ذلك، وحصل بمراكش خلاف

أَلْحَزْمُ وَالْعَزْمُ مَوْجُودَانِ وَالنَّظَرُ
وَالْيُمْنُ وَالسَّعْدُ مَضْمُونَانِ وَالظَّفَرُ
وَالنُّورُ فَاضَ عَلَى أَرْجَاءِ أَنْدَلُسٍ
وَالزُّورُ لَيْسَ لَهُ عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
حُثَّ الرِّكَابَ إِلَى هَذَا الْجَنَابِ، فَقَدْ
ضَلُّوا، فَمَا تَنْفَعُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ
وَاعْزِمْ كَمَا عَزَمَ الْمَأْمُونُ إِذْ نَشَزَتْ
أَرْضُ الْعِرَاقِ، فَزَالَ الْبُؤْسُ وَالضَّرَرُ(١)

حتى انتقضت الأحوال على يحيى بن الناصر ، ثم رحل المأمون عن الأندلس الى مراكش ، فبايع أهل الأندلس لابن هود محمد بن يوسف بن هود فى سنة ٦٢٥ ولم يبق للموحدين سلطان بالأندلس ، وبعث المأمون إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين، فاشترط عليه شروطا قاسية مزرية أجابه المأمون اليها، وخرج يحيى بن الناصر فارا بنفسه فى جمادى الآخرة سنة ٦٢٦ وتمت البيعة للمأمون بعد ثورات وحوادث، ولكن لم يصف له الملك، فقد تتابعت عليه فتوق عجز عن رتقها، وتوالت عليه، فمات أسفا وحسرة فى آخر يوم من سنة ٦٢٩ وكانت أيامه أيام شقاء وعناء وخلاف ومنازعة، وكان المأمون بليغا خطيبا، فصيح اللسان، أديبا علامة فقيها، حافظا للحديث، ضابطا للرواية عارفا بالقراءات حسن الصوت والتلاوة، مقدما فى علوم اللغة وآدابها وأيام الناس ، كاتبا مجيدا شهما حازما، مقداما على عظائم الأمور رحمه الله تعالى .
« أحمد يوسف نجاتى » .

(١) يشير الى الخليفة المأمون العباسى ، وكيف بايع أهل العراق فى غيبته

وَلَمَّا قَدِمَ الْعَادِلُ الْقَائِمُ بِمُرْسِيَةَ[1] الْمُتَوَلِّى عَلَى مَمْلَكَةِ الْبَرَّيْنِ إِلَى إِشْبِيلِيَةَ كَانَ فِى جُمْلَةِ مَنْ خَرَجَ لِلِقَائِهِ، وَرَفَعَ لَهُ قَصِيدَةً مِنْهَا :

قبل قدومه الى بغداد عمه أبا اسحق ابراهيم بن المهدى فى أول سنة ٢٠٢ فلما توجه المأمون من خراسان الى بغداد خاف ابراهيم بن المهدى على نفسه فاستخفى فى أواخر سنة ٢٠٣ ودخل المأمون بغداد فى صفر سنة ٢٠٤ وصفا أمر الخلافة له، فحادثتا المأمونين كما ترى متشابهتان « أحمد يوسف نجاتى ».

(٢) هو أبو محمد عبد الله العادل بن يعقوب المنصور، وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف المنتصر بالله بن الناصر بن يعقوب المنصور لما بويع له بعد وفاة أبيه الناصر فى شعبان سنة ٦١٠ عقد لعمه أبى محمد عبد الله بن المنصور على مرسية ودانية وأعمالها، وتوفى يوسف المنتصر آخر سنة ٦٢٠ فبويع للسيد أبى محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بن على أخى يعقوب المنصور — وهو فى سن الشيخوخة — وكان عالما فاضلا متورعا فاستقام بالأمر نحو شهرين، وخطب له فى جميع أعمال الموحدين ماعدا مرسية، فان ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان واليا عليها، فاستدعى من بها وبأعمالها من الموحدين والفقهاء والأشياخ فدعاهم الى بيعته، فبايعوه، ولقب العادل، وكان اخوته أبو العلاء الأصغر صاحب قرطبة، وأبو الحسن صاحب غرناطة، وأبو موسى صاحب مالقة، فبايعوه سرا، وخرج العادل من مرسية الى اشبيلية، وكتب الى أشياخ الموحدين بمراكش يدعوهم الى بيعته وخلع عبد الواحد، ووعدهم على ذلك الأموال الجزيلة والمنازل الرفيعة والولايات الجليلة، فسارعوا الى ذلك، وهددوا عبد الواحد بالقتل ان لم يخلع نفسه ويبايع العادل، فأجابهم الى ذلك فى أواخر شعبان من سنة ٦٢١ ثم قتلوه وانتهبوا قصره، وخلص الأمر للعادل، وبايعه الموحدون كافة، ولكنه لم يلبث أن التاثت عليه الأمور، واضطربت الأحوال

لِقَاءٍ بِهِ[١] لِلْبِرِّ وَالشُّكْرِ مَجْمَعُ
إِلَى يَوْمِهِ كُنَّا نَخُبُّ وَنُوضِعُ .
لَقَدْ يَسَّرَ الرَّحْمٰنُ صَعْبَ مَرَامِهِ
فَأَبْصَرْتُ أَضْعَافَ الَّذِى كُنْتُ أَسْمَعُ

وَلَهُ :

يَامُنْعِماً قَدْ جَاءَنِى بِرُّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُجْرِىَ لَهُ ذِكْرًا
إِنَّ أَحَبَّ الْخَيْرِ مَا جَاءَنِى عَفْوًا، وَلَمْ أُعْمِلْ بِهِ فِكْرًا

وَلَهُ فِى غُلَامٍ وَاعِظٍ وَهُوَ مِنْ حَسَنَاتِهِ :

وَشَادِنٍ ظَلَّ لِلْوَعْـ ظِ تَالِيًا بَيْنَ جَمْعِ
مَتَّعْتُ طَرْفِى بِمَرْآ هُ فِى خَفَارَةِ[٢] سَمْعِى

وَلَهُ مِنْ أَبْيَاتٍ :

وكثرت الفتن والثورات، فلما انتهى ذلك الى أخيه أبى العلاء المأمون صاحب الأندلس دعا لنفسه باشبيلية كما تقدم . « أحمد يوسف نجاتى »(١) فى الأصل « القائمة » بدل « لقاء به » وهو تصحيف مشوه موهم. والخبب والايضاع: نوعان من السير السريع . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) خفره يخفره : أجاره وأمنه ، وكان له خفيرا يمنعه، والاسم منه الخفرة، والخفارة ـ مثله يريد أنه نزه طرفه فى محاسن وجه الواعظ تحت ستار من سماع وعظة . وتشنيف أذنيه من نغمات حديثه « أحمد يوسف نجاتى » .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ ٱللَيَالِى تَغَيَّرَتْ
وَلَـكِنَّهَا مَا غَيَّرَتْ مِنِّىَ ٱلْعَهْدَا

وَمِنَ ٱلْفُضَلَاءِ ٱلَّذِينَ أَدْرَكَهُمْ وَأَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ ٱلْجَدِّ ، وَأَبُو بَكْرِ بْنُ زُهْرٍ [1] وَغَيْرُهُمَا ، وَحَضَرَ حِصَارَ طُلَيْطُلَةَ مَعَ مَنْصُورِ بَنِى [2] عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ ، وَكَتَبَ لِمَلِكِ ٱلْبَرَّيْنِ أَبِى مُحَمَّدٍ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ ، وَكَتَبَ أَيْضًا عَنْ مَأْمُونِ بَنِى عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ ، وَكَتَبَ أَخِيرًا عَنْ مَلِكِ بِجَايَةَ وَٱلْغَرْبِ ٱلْأَوْسَطِ ٱلْأَمِيرِ أَبِى يَحْيَى ٱبْنِ مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ ـ رَحِمَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْجَمِيعَ

***

رجع الى ابن سعيد

« رَجْعٌ إِلَى أَبِى ٱلْحَسَنِ بْنِ سَعِيدٍ » قَالَ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى حَضَرْتُ لَيْلَةَ أُنْسٍ مَعَ كَاتِبِ مَلِكِ إِفْرِيقِيَّةَ أَبِى ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدَ ٱلْغَسَّانِىِّ ، فَاحْتَاجَتِ ٱلشَّمْعَةُ أَنْ تُقَطَّ ، فَتَنَاوَلَ قَطَّهَا غُلَامٌ بِبَنَانِهِ ، فَقُلْتُ :

---

(١) تقدم التعريف بأبى بكر بن الجد وأبى بكر بن زهر ، وقد نشأت بينهما عداوة مفرطة للاشتراك فى العلم والرياسة وكثرة المال والبلدية ، فكلاهما من اشبيلية ، وأبو بكر محمد بن عبد الله بن يحى بن فرج بن الجد الفهرى الاشبيلى توفى سنة ٥٨٦ ، وأبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادى الاشبيلى توفى بمراكش فى أواخر سنة ٥٩٥ : « أحمد يوسف نجاتى » (٢) فى الأصل « منصور بن عبد المؤمن » وهو تصحيف فاسد . « أحمد يوسف نجاتى »

وَرَخْصِ ٱلْبَنَانِ تَصَدَّى لِأَنْ ‌ ‌ ‌ ‌ يَقُطَّ ٱلسِّرَاجَ بِمِثْلِ ٱلْعَنَمْ[1]

فَقَالَ :

وَلَمْ يَهَبِ ٱلنَّارَ فِي لَمْسِهِ

وَلَا ٱحْتَاجَ فِي قَطِّهِ لِلْجَلَمْ[1]

فَقُلْتُ :

وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِسُكْنَاهُ فِي

فُؤَادِي عَلَى مَا حَوَى مِنْ ضَرَمْ[2]

فَقَالَ :

تَعَوَّدَ حَرَّ لَهِيبٍ بِهِ ‌ ‌ ‌ ‌ فَلَيْسَ بِهِ مِنْ أُوَارٍ أَلَمْ[2]

(١) الرخص: الناعم الطرى اللين ، وأصابع رخصة:غير كزة،وقد رخص «ككرم»رخاصةورخوصة ، اذا وصفت به المرأة فرخاصتها نعمة بشرتها ورقتها ونعومة جسمها،ورخاصة أناملها:لينها،وان وصف به النبات فرخوصته هشاشته. والعنم شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب، وأغصانه رطبة لينة ، قال النابغة :

بمخضب رخص كأن بنانه ‌ ‌ ‌ ‌ عنم على الأغصان لما يعقد

والجلم : المقص، قال سالم بن وابصة الأسدى :

داويت صدرا طويلا غمره حقدا ‌ ‌ ‌ ‌ منه ، وقلمت أظفارا بلا جلم

وجلم الشيء:قطعه.والغمر:الحسد والحقد والعداوة . «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) الضرم : شدة الحرارة ، وضرمت النار:اشتعلت ، وأضرمها وضرمها واستضرمها : أوقدها فاضطرمت.وتضرمت: ألتهبت ، والأوار : حر النار ووهجها ، وشدة حر الشمس . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَأَنْشَدَ فِي الْمُغْرِبِ لِلغَسَّانِيِّ الْمَذْكُورِ فِي خُسُوفِ الْقَمَرِ مِمَّا قَالَهُ ارْتِجَالًا :

كَأَنَّ الْبَدْرَ لَمَّا أَنْ عَلَاهُ خُسُوفٌ لَمْ يَكُنْ يَعْتَادُ غَيْرَهْ
سَجَنْجَلُ غَادَةٍ قَلَبَتْهُ لَمَّا أَرَاهَا شِبْهَهَا حَسَدًا وَغَيْرَهْ[1]

وَخَاطَبَهُ الْمَذْكُورُ بِرِسَالَةٍ يَقُولُ فِي آخِرِهَا: وَعِنْدَ حَامِلِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ سَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى كُنْهُ[2] خَبَرِي، وَاسْتِيعَابُ مَا قَصَّرَ عَنْهُ قَلَمِي ،فَضَاقَتْ بِحَمْلِهِ أَسْطُرِي ، لِتَعْلَمَ مَا أَجِدُهُ وَأَفْقِدُهُ مِنْ تَشَوُّقِي وَتَصَبُّرِي، وَأَنِّي لَا أَزَالُ أُنْشِدُ حَيْثُ تَذَكُّرِي وَتَفَكُّرِي:

يَانَائِيًا قَدْ نَأَى عَنِّي بِمُصْطَبَرِي
وَثَاوِيًا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ

---

(١) السجنجل : المرآة « وهو لفظ معرب »قال امرؤ القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

والتشبيه فى بيت الغسانى جيد ، والخيال فيه حسن ، والتعليل بديع لولا ثقل كلمة سجنجل . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) كنه الشيء : حقيقته وقدره وغايته ونهايته ــ ويطلق على وقت الشيء ووجهه، ومنه قول الشاعر :

وان كلام المرء فى غير كنهه لكالنبل يهوى ليس فيه نصالها

ولم يشتقوا منه فعلا، وقولهم: لايكتنهه الوصف ــ بمعنى لا يبلغ كنهه ــ كلام مولد وان صححه بعضهم . « أحمد يوسف نجاتى »

إِذَا تَنَاسَيْتَ عَهْدًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ
فَاذْكُرْ عُهُودِي، فَمَا أُخْلِيكَ مِنْ فِكَرِي[1]

وَأُرْدُدْ عَلَىَّ تَحِيَّاتِي بِأَحْسَنِهَا تَرْدُدْ عَلَيَّ حَيَاتِي آخِرَ الْعُمُرِ

وَلْنُمْسِكِ الْعِنَانَ عَنِ الْجَرْيِ فِي مَيْدَانِ أَخْبَارِ ابْنِ سَعِيدٍ فَإِنَّهَا لَا يُشَقُّ غُبَارُهَا[2]؛ وَمِنْهَا قَوْلُهُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-: سَمِعْتُ كَثِيرًا مِنَ السَّمَاعِ الْمَشْرِقِيِّ، فَلَمْ يَهُزَّنِي مِثْلُ قَوْلِ الشَّرِيفِ الشَّمْسِ الْمَكِّيِّ:

مُقَلٌ بِالدَّمْعِ غَرْقَى وَفُؤَادٌ طَارَ خَفْقَا
وَتَجَنٍّ وَتَثَنٍّ شَقَّ جَيْبَ الصَّبْرِ شَقَّا
يَا ثِقَاتِي خَبِّرُونِي عَنْ حَدِيثِ الْيَوْمِ[3] حَقَّا
أَكَذَا كُلُّ مُحِبٍّ فَارَقَ الْأَحْبَابَ يَشْقَى؟
لَا وَعَيْشٍ قَدْ تَقَضَّى وَغَرَامٍ قَدْ تَبَقَّى

(١) هذا من قول حسان بن ثابت فى أبى بكر رضى الله عنهما :

اذا تذكرت شجوا من أخى ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأفضلها بعد النبى وأوفاها بما حملا
والثانى التالى المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وسمع هذا الشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم فراقه ولم ينكره . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) أى لا تجارى ولا يبلغ مداها ولا يوصل الى غايتها

(٣) قد تكون « النوم » يعنى أنه نسيه ويطلب من ثقاته الحديث عنه .

وَنَعِيمٍ فِي ذَرَاكُمْ قَدْ صَفَا دَهْرًا وَرَقَّا
وَنَسِيمٍ مِنْ حِمَاكُمْ حَمَلَ الْوَجْدَ فَرَقَّا
بِرِسَالَاتِ صَبَابَاتٍ عَلَى الْمُشْتَاقِ تُلْقَى
وَغُصُونٍ نَاعِمَاتٍ بِمِيَاهِ الدَّنِّ[1] تُسْقَى
وَوُجُوهٍ فِضْنَ[2] حُسْنًا فَمَلَأْنَ الْأَرْضَ عِشْقَا
لَوْ رَضِيتُمْ بِي عَبْدًا مَا رَضِيتُ الدَّهْرَ عِتْقَا[3]

وَقَالَ: مَا سَمِعْتُ وَلَا وَقَفْتُ عَلَى شَيْءٍ أَبْدَعَ مِنْ قَوْلِ الْجَزَّارِ ـ وَقَدْ تَرَدَّدَ إِلَى جَمَالِ الدِّينِ بْنِ يَغْمُورَ[4] رَئِيسِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لَهُ الِاجْتِمَاعُ بِهِ ـ :

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُدِيمَ لَكَ الْعِزْ زَ، وَيُبْقِيكَ مَا أَرَدْتَ الْبَقَاءَ

---

(١) مياه الدن: كناية عن الراح (٢) فى الأصل « فقن » ولكن « فضن » أنسب بعجز البيت وبكلمة « ملأن » « أحمد يوسف نجاتى » (٣) هذا البيت هو جواب القسم الذى بدأه قبله بسبعة أبيات من أول قوله: لا وعيش قدتقضى، ومثل هذا القسم يعد من المحسنات البديعية؛ وهو أن يقصد الشاعر الحلف فيقسم بما يراه أعظم الأقسام عنده وأحسنها لديه، ومنه فى الغزل قول ابن المعتز:

لا والذى سل من جفنيه سيف ردى قدت له من عذاريه حمائله
ما صارمت مقلتى دمعا، ولا وصلت غمضا، ولا سالمت قلبى بلابله

وقد يكون القسم بما يفيد مدحا للشاعر وهجوا لغيره وغير ذلك. « أحمد يوسف نجاتى » (٤) تقدم التعريف بالجزار، وهو أبو الحسين يحيى

كُلَّ يَوْمٍ أَرْجُو ٱلنَّعِيمَ بِلُقْيَا ... كَ ، فَأَلْقَى بِالْبُعْدِ عَنْكَ شَقَاءَ
عَلِمَ ٱلدَّهْرُ أَنَّنِي أَشْتَكِيهِ ... لَكَ إِذْ نَلْتَقِي ، فَعَاقَ ٱللِّقَاءَ

فَبَعَثَ لَهُ بِمَا أَصْلَحَ حَالَهُ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ ، وَكَتَبَ فِي حَقِّهِ إِلَى وُلَاةِ ٱلصَّعِيدِ كُتُبًا أَغْنَتْهُ مُدَّةً عَنْ شَكْوَى ٱلزَّمَانِ. اهـ . وَقَالَ أَيْضًا : وَلَمْ أَسْمَعْ فِي وَضْعِ ٱلشَّيْءِ مَوْضِعَهُ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي (١) :

وَأَصْبَحَ شِعْرِي مِنْهُمَا فِي مَكَانِهِ
وَفِي عُنُقِ ٱلْحَسْنَاءِ يُسْتَحْسَنُ ٱلْعِقْدُ

وَلَمْ أَسْمَعْ فِي وَضْعِ ٱلشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ أَحْسَنَ مِنْ قَوْلِ أَبِي ٱلْفَرَجِ :

مَرَّ مَدْحِي ضَائِعًا فِي لُؤْمِهِ
كَضَيَاعِ ٱلسَّيْفِ فِي كَفِّ ٱلْجَبَانْ

ابن عبد العظيم المصرى المتوفى سنة ٦٧٩ وكذا ابن يغمور جمال الدين موسى بن يغمور الباروقى، وكان من جلة الأمراء، ولى نيابة مصر والشام وتوفى سنة ٦٦٣ . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) البيت آخر قصيدة يمدح بها الحسين بن على الهمذانى؛ أولها :

لقد حازنى وجد بمن حازه بعد ... فياليتنى بعد ! وياليته وجد
أسر بتجديد الهوى ذكر مامضى ... وان كان لايبقى له الحجر الصلد
...اذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ... ومن عهدها ألا يدوم لها عهد

وَمِنْ تَآلِيفِ ٱلنُّورِ ٱبْنِ سَعِيدٍ كِتَابُ « عِدَةُ ٱلْمُسْتَنْجِزِ وَعُقْلَةُ ٱلْمُسْتَوْفِزِ(١) » وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّهُ ٱرْتَحَلَ مِنْ تُونُسَ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ رِحْلَتَهُ ٱلثَّانِيَةَ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَأَوْرَدَ فِي هَذَا ٱلْكِتَابِ غَرَائِبَ وَبَدَائِعَ،وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّهُ

وان عشقت كانت أشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق فى قلبها رضا وان رضيت لم يبق فى قلبها حقد
كذلك أخلاق النساء ، وربما يضل بها الهادى ويخفى بها الرشد
ولكن حبا خامر القلب فى الصبا يزيد على مر الزمان ويشتد
سقى ابن على كل مزن سقتكم مكافأة يغدو اليها كما تغدو

الى أن قال :

مدحت أباه قبله ، فشفى يدى من العدم من تشفى به الأعين الرمد
وجدت عليا وابنه خير قومه وهم خير قوم ، واستوى الحر والعبد

وأصبح شعرى الخ، ومعنى البيت قبله أن عليا أبا الممدوح وابنه الحسين هما خير قومهما، وهم خير قوم فى الناس،ثم بعد هؤلاء يستوى الأحرار والعبيد من الخلق سواهم ، فلا يكون لأحد فضل على آخر . «أحمد يوسف نجاتى»

(١) المستوفز: المتعجل. وعقله: منعه عن غرضه، فكأن هذا الكتاب لحسنه يعقل المستعجل عن حاجته، ويؤثر قراءته والتمتع به على الذهاب لغرضه، وهو من قول ابن الرومى فى وصف حسن الحديث :

وحديثها السحر الحلال لو انه لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يملل،وان هى أوجزت ود المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ، ونهزة مامثلها للمطمئن ، وعقله المستوفز

وهو من أجود ماقيل فى حسن الحديث ، بل هو السحر الحلال .
« أحمد يوسف نجاتى » .

لَمَّا دَخَلَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ آكَدُ مِنَ ٱلسُّؤَالِ عَنِ ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ(١) فَأُخْبِرَ بِحَالِهِ وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ ٱلتَّتَرِ حَتَّى قَتَلُوهُ بَعْدَ ٱلْأَمَانِ. ثُمَّ سَاقَ فِيهِ دُخُولَ هُولَاكُو حَلَبَ، فَقَالَ بَعْدَ كَلَامٍ كَثِيرٍ : وَٱرْتَكَبَ فِي أَهْلِ حَلَبَ ٱلطَّطَرُ وَٱلْمُرْتَدُّونَ وَنَصَارَى ٱلْأَرْمَنِ مَا تَصَمُّ عَنْهُ ٱلْأَسْمَاعُ، وَكَانَ فِيمَنْ قُتِلَ بِتِلْكَ ٱلْكَائِنَةِ ٱلْبَدْرُ ٱبْنُ ٱلْعَدِيمِ(٢) ٱلَّذِي صَدَرَ عَنْهُ مِنَ ٱلطَّبَقَةِ ٱلْعَالِيَةِ فِي ٱلشِّعْرِ مِثْلُ قَوْلِهِ :

وَاهًا لِعَقْرَبِ صُدْغِهِ ... لَوْ لَمْ تَكُنْ لِلْمَاءِ تَحْمِي
وَلِغُفْلِ خَطِّ عِذَارِهِ ... لَوْ بِتُّ أُعْجِمُهُ بِلَثْمِي(٣)

(١) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى،وهو صاحب الشام، ولد سنة ٦٢٧ وسلطنوه بعد أبيه سنة ٦٣٤ وكان حليما جواداء موطأ الأكناف حسن الأخلاق محببا الى الرعية، فيه عدل فى الجملة وصفح وقلةجود، وكان للشعراء دولة فى أيامه،لأنه كان يقول الشعر ويجيز عليه، ومجلسه مجلس أدباء وندماء ، وقع فى قبضة التتارخديعة ، وانتهى الأمر بقتله سنة ٦٥٩ وكان آخر ملوك بنى أيوب ، وتقدم حديث عنه أوسع من هذا « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تقدم تعريفنا ببنى العديم من أعيان حلب وسادة أدبائها (٣) اللمى : سمرة مستحسنة فى الشفتين ، والخط الغفل: المهمل من النقط والشكل.وأعجم الكتاب وعجمه: أزال عجمته بالنقط والعجم: النقط بالسواد « أحمد يوسف نجاتى »

وَٱبْنُ عَمِّهِ ٱلِافْتِخَارُ ٱبْنُ ٱلْعَدِيمِ ٱلَّذِى وَقَعَ لَهُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

وَٱلْغُصْنُ فِيهِ ٱلْمَاءُ مُطَّرِدٌ   وَٱلْمَاءُ فِيهِ ٱلْغُصْنُ مُنْعَكِسُ

ثُمَّ قَالَ لَمَّا ذَكَرَ أَحْوَالَ ٱلنَّاصِرِ بَعْدَ ٱسْتِيلَاءِ ٱلطَّطَرِ عَلَى بِلَادِهِ حَلَبَ وَٱلشَّامِ وَمَا يَلِيهِمَا مَا نَصُّهُ : قَالَ مَنْ دَخَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ ٱلنَّاصِرِ – وَقَدْ نَزَلَ بِمَيْدَانِ دِمَشْقَ – : قَبَّلْتُ يَدَهُ، وَجَعَلْتُ أَدْعُو لَهُ ، وَأُظْهِرُ تَعْزِيَتَهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ تِلْكَ ٱلْمَصَائِبِ ٱلْعَظِيمَةِ ، فَأَضْرَبَ عَنْ ذٰلِكَ، وَقَالَ لِى : فِيمَ تَتَغَزَّلُ ٱلْيَوْمَ ؟ ثُمَّ أَنْشَدَنِى قَوْلَهُ فِى مَمْلُوكٍ فَقَدَ لَهُ فِى هَذِهِ ٱلْكَائِنَةِ :

وَٱللّٰهِ مَا أَبْكِى لِمُلْكٍ مَضَى   وَلَا لِحَالٍ ظَاعِنٍ أَوْ مُقِيمْ(١)

وَإِنَّمَا أَبْكِى – وَقَدْ حَقَّ لِى –   لِفَقْدِ مَنْ كُنْتُ بِهِ فِى نَعِيمْ

يَطْلُعُ بَدْرًا ، يَنْثَنِى بَانَةً   يَمُرُّ فِيمَا رُمْتُهُ كَالنَّسِيمْ

فِى خَاطِرِى أُبْصِرُهُ خَاطِرًا

فَأَلْتَوِى مِثْلَ ٱلْتِوَاءِ ٱلسَّقِيمْ(٢)

يَا عَاذِلِى دَعْنِى وَمَا حَلَّ بِى   فَمَا سِوَى ٱللّٰهِ بِحَالِى عَلِيمْ

إِنْ مُتُّ مِنْ حُزْنٍ لَهُ أَسْتَرِحْ   وَإِنْ أَعِشْ عِشْتُ بِهَمٍّ عَظِيمْ

(١) فى نسخة « لحظ » بدل « لحال » (٢) خاطرا من خطر يخطر اذا اختال وتبختر ، وفى نسخة «السليم» بدل « السقيم »والسليم: هو اللديغ.

قَالَ ثُمَّ إِنَّهُ سَارَ نَحْوَ هُولَاكُو، فَلَمَّا مَرَّ بِحَلَبَ وَنَظَرَ إِلَى مَعَاهِدِهِ عَلَى غَيْرِ مَا يَعْهَدُ قَالَ :

مَرَرْتُ بِجَرْعَاءِ ٱلْحِمَى فَتَلَفَّتَتْ
لِحَاظِي إِلَى ٱلدَّارِ ٱلَّتِي رَحَلُوا عَنْهَا
وَلَوْ كَانَ عِنْدِي أَلْفُ عَيْنٍ وَقُمْتُ فِي
مَعَالِمِهَا عُمْرِي لَمَا شَبِعَتْ مِنْهَا

وَصَنَعَ فِي نَعْيِهَا أَشْعَارًا يُغَنِّي بِهَا ٱلْمُسْمِعُونَ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى صَحَرَاءِ يُوشَنَ[1] فِي جِهَةِ طَرِيقِ أَرْمِينِيَةَ ، فَوَجَدَ هُولَاكُو هُنَالِكَ فِي تِلْكَ ٱلْمُرُوجِ ٱلْمَشْهُورَةِ بِالْخِصْبِ ، فَأَنْزَلَهُ، وَأَقَامَ يَشْرَبُ مَعَهُ ، إِلَى أَنْ وَصَلَ ٱلْخَبَرُ بِوَقْعَةِ عَيْنِ جَالُوتَ[2] عَلَى ٱلتَّتَرِ لِلْمَلِكِ ٱلْمُظَفَّرِ قُطُزَ[3] صَاحِبِ مِصْرَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ، فَقَتَلُوهُ ، وَخَلَعُوا عَظْمَ كَتِفِهِ، وَجَعَلُوهُ فِي أَحَدِ ٱلْأَعْلَامِ ـ عَلَى عَادَتِهِ فِي أَكْتَافِ ٱلْمُلُوكِ . أَنْتَهَى بِاخْتِصَارٍ .

---

(١) فى نسخة «صحراء يوش» (٢) «عين جالوت» بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس، كانت من أعمال فلسطين، وكان الروم قد استولوا عليها مدة، ثم استنقذها منهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٧٩ (٣) الملك المظفر سيف الدين

قطز كان أحد مماليك الملك المعز أيبك التركمانى صاحب مصر ، ثم كان أتابك الملك المنصور على ولد أستاذه المعز أيبك ـ وذلك أنه بعـد أن قتل الملك المعظم توران شاه «ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين محمد أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى الأيوبى» سلطان الديار المصرية وآخر ملوك بنى أيوب بها، وكان مقتله فى أوائل سنة ٦٤٨ كما تقدم ـ اتفقوا على ولاية زوج أبيه الملكة شجرة الدر بنت عبد الله لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المعز أيبك التركمانى الصالحى أتا بكالها ، ثم خلعت نفسها بعد ثلاثة أشهر، واستقر زوجها الملك المعز عز الدين أيبك « وقيل ان أيبك تزوجها بعد سلطنته، وكانت مستولية عليه فى جميع أحواله، ليس له معها كلام، وكانت سيدة تركية ورئيسة عظيمة فى النفوس، ذات جمال فائق وشهامة ورأى وتدبير ودهاء وعقل وإباء، مع قوة نفس وشدة غيرة » ولما بلغها أن زوجها الملك المعز أيبك يريد أن يتزوج بابنة الملك الرحيم أبى الفضائل بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله « النورى الأرمنى الأتابكى صاحب الموصل توفى سنة ٦٥٧ » وتخيلت منه أنه ربما عزم على ابعادها أو القضاء عليها ؛ لأنه سئم من حجرها عليه واستطالتها ـ احتالت هى فى القضاء عليه، حتى قتل فى شهر ربيع الأول من سنة ٦٥٥ وكان ذا عقل ودين وعفة وكرم وبعد حوادث اتفقوا على تمليك الملك المنصور على بن الملك المعز أيبك، وعمره يومئذ نحو ١٥ سنة، وكان سيف الدين قطز أتا بكاله «وآل أمر الملكة شجرة الدر الى أن قتلت وألقيت تحت قلعة مصر مسلوبة فى ربيع الآخر سنة ٦٥٥ ولم يدر قاتلها» وفى أواخر سنة ٦٥٧ قبض سيف الدين قطز على ولد أستاذه الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك، وخلعه من السلطنة لما رآه لا يغنى شيئا ، واستقر قطز فى ملك الديار المصرية ، وتلقب بالملك المظفر ، وكان رسول الملك الناصر يوسف صاحب الشام ـ وهو كمال الدين بن العديم ـ قد قدم الى مصر فى أيام الملك المنصور على بن المعز أيبك مستنجدا على التتار واتفق خلع على المذكور وولاية قطز بحضرة كمال الدين بن العديم، ففى

هذه السنة سنة ٦٥٧ قدم هولاكو الى البلاد التى فى شرقى الفرات، فاستولى على الجزيرة وحران، ثم قصد التتر مدينة حلب، ففزع صاحبها الناصر يوسف الى الاستعانة بالملك المظفر قطز صاحب مصر، وفى هذه السنة سنة ٦٥٧ فارق بيبرس البندقدارى الشام، وسار الى مصر فى جماعة من أصحابه، فأقبل عليه الملك المظفر قطز، وأنزله فى دار الوزارة، وأقطعه قليوب وأعمالها.
واستولى التتر على حلب فى شهر صفر سنة ٦٥٨ وأعملوا السيف فى أهلها فلما بلغ الملك الناصر بدمشق أخذ حلب رحل من دمشق بما معه من العساكر — ومعه الملك المنصور صاحب حماة — الى جهة الديار المصرية، وأرسل وهو بجهة العريش القاضى برهان الدين بن الخضر رسولا الى الملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منه المعاضدة، ورحلت العساكر ومعها الملك المنصور فالتقاهم الملك المظفر بالصالحية، وطيب قلوبهم « وكان التتر قد استولوا على دمشق وعلى سائر البلاد الى غزة » أما الملك الناصر يوسف فقد خدعه بعض أتباعه وغره، وزين له الذهاب الى هولاكو، فأقبل عليه هولاكو ووعده برده الى مملكته، وأقام عنده مدة، ولما اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر عزم الملك المظفر قطز على الخروج الى الشام لقتال التتر، فسار وصحبته الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل على، وذلك فى أوائل رمضان من سنة ٦٥٨ والتقى الجمعان، وكانت هزيمة التتر بعين جالوت هزيمة قبيحة، وأخذتهم سيوف المسلمين، وقتل مقدمهم كتبغا نائب هولاكو، وأسر ابنه، وتعلق من سلم من التتر برءوس الجبال، وتبعهم المسلمون فأفنوهم، وهرب من سلم منهم الى الشرق، وجرد قطز ركن الدين بيبرس البندقدارى فى أثرهم، فتبعهم الى أطراف البلاد الشرقية فى أول سنة ٦٥٩ وكانت هزيمة التتار بحمص، ولما انقضى أمر المصاف أحسن الملك المظفر قطز الى الملك المنصور صاحب حماة، وأقره على حماة، وأعاد اليه بعض بلاد كانت أخذت منه، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر المبين، فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر؛ لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام لأنهم ماقصدوا اقليما الا فتحوه، ولا عسكرا الا هزموه، فابتهجت الرعايا

بالنصرة عليهم، وبقدوم الملك المظفر قطز الى الشام ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

هلك الكفر فى الشآم جميعا　　واستجد الاسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر الملك الأر　　وع سيف الاسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعزم وحزم　　فاعتززنا بسمره وبيضه

أوجب الله شكر ذاك علينا　　دائما مثل واجبات فروضه

ثم جهز الملك المظفر قطز عسكرا الى حلب لحفظها ، وقرر أمر الشام على حال حسنة، وسار من دمشق الى جهة البلاد المصرية، فلما وصل الى القصير كان قد كمن له بيبرس البندقدارى الصالحى هناك بطرف الرمل على نحو مرحلة من الصالحية ومعه جماعة من أتباعه ومن أعداء الملك المظفر، فقتلوه بالنشاب غيلة وغدرا فى ذى القعدة من سنة ٦٥٨ رحمه الله تعالى. فقد كان بطلا شجاعا حازما دينا مجاهدا، كسر التتار كسرة جبر بها الاسلام، واستعاد منهم الشام ، وذهب الى جوار ربه لم يعقب ولم يخلف ولدا ، فتولى السلطنة بعده بيبرس، واستولى على مصر والشام ، ولما بلغ هولاكو هزيمة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانيا غضب من ذلك، وأحضر الملك الناصر يوسف وأخاه الملك الظاهر غازى، وأهانهما ووبخهما، وضرب الملك الناصر، فقال له: ياخوند الصنيعة ـ فنهاه أخوه الظاهر، وقتلهما هولاكو ومن كان معهما فى جمادى الأولى سنة ٦٥٩ واستبقوا الملك العزيز بن الملك الناصر لأنه كان صغيرا، فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا اليه، ثم توفى ـ هذا ومن شعر الملك الناصر :

فوالله لو قطعت قلبي تأسفا　　وجرعتنى كاسات دمعى دما صرفا

لما زادنى الا هوى ومحبة　　ولا اتخذت روحى سواك لها الفا

وتوفى الصاحب كمال الدين عمر بن عبد العزيز المعروف بابن العديم فى أواخر سنة ٦٦٠ وتوفى الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس الصالحى النجمى بدمشق سنة ٦٧٦ وكان ملكا جليلا شجاعا عاقلا مهيبا، وتوفى الملك المنصور صاحب حماة محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن

***

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ابن سعيد

« رَجْعٌ » وَمِنَ ٱلْوَافِدِينَ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى ٱلْمَشْرِقِ ٱلْادِيبُ ٱلْحَسِيبُ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ » وَكَانَ صَعْبَ ٱلْخُلُقِ شَدِيداً ٱلْأَنفَةِ، جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقَارِبِهِ مَا أَوْجَبَ خُرُوجَهُ إِلَى أَقْصَى ٱلْمَشْرِقِ ، وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ — وَكَتَبَ بِهِ إِلَيْهِمْ —:

مَنْ لِصَبٍّ يَرْعَى ٱلنُّجُومَ صَبَابَهْ!

ضَيَّعَ ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْهُمُومِ شَبَابَهْ

زِدْتُ بُعْدًا ، فَزِدْتُ فِيهِ ٱقْتِرَابًا

بِوِدَادِي ، كَذَاكَ حُكْمُ ٱلْقَرَابَهْ

مَنْزِلِي ٱلْآنَ سَمَرْقَنْدُ ، وَبِالْقَلْ

عَةِ رَبْعٌ وَطِئْتُ طِفْلًا تُرَابَهْ[1]

شَدَّ مَا أَبْعَدَ ٱلْفِرَاقُ ٱنْتِزَاحِي!

هٰكَذَا ٱللَّيْثُ لَيْسَ يَدْرِي ٱغْتِرَابَهْ[2]

تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى سنة ٦٨٣ وكان قد تملك بعد أبيه سنة ٦٤٢ وهلك هولاكو سنة ٦٦٣ « أحمد يوسف نجاتى » (١) سمرقند « بفتحتين فسكون ففتح فسكون » بلد معروف مشهور بما وراء النهر ، ويريد بالقلعة قلعة بنى سعيد، وتقدم التعريف بها (٢) «شدما» من التراكيب

لا ، وَلَا أَرْتَجِى اْلإِيَابَ لِأَمْرٍ
إِنْ يَكُنْ يَرْتَجِي غَرِيبٌ إِيَابَهْ

وَكَتبَ لَهُمْ مِنْ بُخَارَى :

إِذَا هبَّتْ رِيَاحُ اْلغَرْبِ طَارَتْ
إِلَيْهَا مُهْجَتِي نَحْوَ التَّلَاقِي
وَأَحْسَبُ مَنْ تَرَكْتُ بِهِ يُلَاقِي
إِذَا هَبَّتْ صَبَاهَا مَا أُلَاقِي
فَيَالَيْتَ التَّفَرُّقَ كَانَ عَدْلًا
فَحَمَّلَ مَا نُطِيقُ مِنَ اشْتِيَاقِي!
وَلَيْتَ الْعُمْرَ لَمْ يَبْرَحْ وِصَالًا
وَلَمْ يَخْتِمْ عَلَيْنَا بِالْفِرَاقِ[1]

إِذَا كَانَ الشَّوْقُ فَوْقَ كُلِّ صِفَةٍ ، فَكَيْفَ تُعَبِّرُ عَنْهُ الشَّفَةُ ! لَكِنَّ الْعُنْوَانَ دَلِيلٌ عَلَى بَعْضِ مَا فِي الصَّحِيفَةِ وَالْحَاجِبُ قَدْ يَنُوبُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ مَنَابَ الْخَلِيفَةِ ، وَمَا ظَنُّكُمْ بِمَشُوقٍ طَرِيحٍ ، فِي يَدِ الْأَشْوَاقِ طَلِيحٍ[2] ، يَقْطَعُ

التي تفيد التعجب: أى ماأشد ، والانتزاح البعد « أحمد يوسف نجاتى »

(١) لعلها « لم يحتم» من الحتم وهو القضاء، وحتم عليه الشيء يحتمه: أوجبه وقضاه، والحتم: اللازم الواجب الذى لابد من فعله (٢) الطلح والطلاحة:

مَسَافَاتِ ٱلْآفَاقِ يَتَقَلَّبُ تَقَلُّبَ ٱلْأَفْيَاءِ(١) ، وَيَتَلَوَّنُ تَلَوُّنَ ٱلْحِرْبَاءِ(٢) ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَخْبُرُ مَسَاحَاتِ ٱلْأَرْضِ، ذَاتِ ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ، وَيَجُوبُ أَهْوِيَةَ ٱلْأَقَالِيمِ ٱلسَّبْعِ ، خَارِجًا بِمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ ٱللَّجَاجُ(٣) عَنِ ٱلسَّمْعِ ، فَكَأَنَّهُ خَلِيفَةُ ٱلْإِسْكَنْدَرِ ، لٰكِنْ مَا يَجِيشُ مِنْ هُمُومِ ٱلْغُرْبَةِ بِفِكْرِي قَائِمَةٌ مَقَامَ ٱلْجَيْشِ وَٱلْعَسْكَرِ ، جُزْتُ إِلَى بَرِّ ٱلْعُدْوَةِ مِنَ ٱلْغَرْبِ ٱلْأَقْصَى، ثُمَّ تَشَوَّقَتْ نَفْسِي فَطَمَحَتْ إِلَى مُشَاهَدَةِ ٱلْغَرْبِ ٱلْأَوْسَطِ، فَلَاقَيْتُ فِيمَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْمَسَافَةِ مِنَ ٱلْمَشَاقِّ مَا لَا يُحْصَرُ ، ثُمَّ تَشَوَّقْتُ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ دَرْبِ بِلَادِ ٱلشَّرْقِ فَٱسْتَشْعَرْتُ مِنْ هُنَالِكَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بِلَادِي مِنَ ٱلْفَرْقِ ، وَٱخْتُطِفَتْ مِنْ عَيْنِي تِلْكَ ٱلطُّلَاوَةَ ، وَٱنْتُزِعَتْ مِنْ قَلْبِي تِلْكَ ٱلْحَلَاوَةَ :

الأعياء والسقوط من السفر . وطلح البعير يطلح: اذا أعيا وتعب وكل، فهو طلح وطليح، ويقال: انه لطليح سفر، ورجيع سفر، ورزية سفر بمعنى واحد وذلك اذا جهده السير وهزله (١) جمع فيء: وهو ما كان شمسا فنسخه الظل، وفاء الفيء: تحول (٢) الحرباء: دويبة معروفة تستقبل الشمس برأسها وتكون معها كيف دارت، وتتلون ألوانا مختلفة بحرها (٣) التمادى فى الأمر والعناد « أحمد يوسف نجاتى »

فللهِ عَيْنٌ لَمْ تَرَ ٱلْعَيْنُ مِثْلَهَا
وَلا تَلْتَقِي إِلَّا بِجَنَّاتِ رِضْوَانِ

ثُمَّ نَازَعَتْنِي ٱلنَّفْسُ ٱلتَّوَّاقَةُ إِلَى ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ، فَكَابَدْتُ فِي ٱلْبَحْرِ مَالَا يَفِي بِوَصْفِهِ إِلَّا ٱلْمُشَاهَدَةُ[1] إِلَى أَنْ أَبْصَرْتُ مَنَارَ ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ، فَيَالَكَ مِنَ ٱسْتِئْنَافِ عُمْرٍ جَدِيدٍ، بَعْدَ ٱلْيَأْسِ مِنَ ٱلْحَيَاةِ بِمَا لَقِينَا مِنَ ٱلْهَوْلِ وَٱلتَّنْكِيدِ، ثُمَّ صَعِدْتُ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ قَاعِدَةِ ٱلدِّيَارِ ٱلْمِصْرِيَّةِ، لِمُعَايَنَةِ ٱلْهَرَمَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْمَعَالِمِ ٱلْأَزَلِيَّةِ، وَعَايَنْتُ ٱلْقَاهِرَةَ ٱلْمُعِزِّيَّةَ، وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلْهِمَمِ ٱلْعَلِيَّةِ ٱلْمُلُوكِيَّةِ، غَيْرَ أَنِّي أَنْكَرْتُ مَبَانِيهَا ٱلْوَاهِيَةَ عَلَى مَا حَوَتْ مِنْ أُولِي ٱلْهِمَمِ ٱلْعَالِيَةِ، وَكَوْنِهَا حَاضِرَةَ ٱلْعَسْكَرِ ٱلْجَرَّارِ، وَكُرْسِيَّ ٱلْمُلْكِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْمِقْدَارِ، وَقُلْتُ: أَصْدَافٌ فِيهَا جَوَاهِرُ، وَشَوْكٌ مُحْدِقٌ بِأَزَاهِرَ. ثُمَّ رَكِبْتُ ٱلنِّيلَ وَعَايَنْتُ تَمَاسِيحَهُ، وَجُزْتُ بَحْرَ جُدَّةَ[2] وَذُقْتُ تَبَارِيحَهُ، وَقَضَيْتُ ٱلْحَجَّ وَٱلزِّيَارَةَ، وَمِلْتُ إِلَى حَاضِرَةِ ٱلشَّامِ دِمَشْقَ

(١) فى نسخة « المشافهة » (٢) يريد البحر الأحمر ، والتباريح: الأهوال والمشاق والشدائد « أحمد يوسف نجاتى »

وَٱلنَّفْسُ بِالسُّوءِ أَمَّارَةٌ ، فَهُنَالِكَ بعثتُ ٱلزِّيَارَةَ بِالِازْوِرَارِ[1] ، وَآلَتْ تِلْكَ ٱلتِّجَارَةُ إِلَى مَا حَكَمَتْ بِهِ ٱلْأَقْدَارُ ، إِذْ هِيَ كَمَا قَالَ أَحَدُ مَنْ عَايَنَهَا :

أَمَّا دِمَشْقُ فَجَنَّاتٌ مُعَجَّلَةٌ ... لِلطَّالِبِينَ، بِهَا ٱلْوِلْدَانُ وَٱلْحُورُ

فَلِلَّهِ مَا تَضَمَّنَ دَاخِلُهَا مِنَ ٱلْحُورِ وَٱلْوِلْدَانِ ، وَمَا تَزَيَّنَ بِهِ خَارِجُهَا مِنَ ٱلْأَنْهَارِ وَٱلْجِنَانِ ، وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهَا حِمًى تَتَقَاصَرُ عَنْ إِدْرَاكِهَا أَعْنَاقُ ٱلْفَصَاحَةِ ، وَتَقْصُرُ عَنْ مُنَاوَلَتِهَا فِي مَيْدَانِ ٱلْأَوْصَافِ كُلُّ رَاحَةٍ . وَلَمْ أَزَلْ أَسْمَعُ عَنْ حَلَبَ ، أَنَّهَا دَارُ ٱلْكَرَمِ وَٱلْأَدَبِ ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَحْظَى بَصَرِي بِمَا حَظِيَ بِهِ سَمْعِي ، وَرَحَلْتُ إِلَيْهَا وَأَقَمْتُ جَابِرًا بِالْمُذَاكَرَةِ وَٱلْمُطَايَبَةِ صَدْعِي[2] . ثُمَّ رَحَلْتُ إِلَى ٱلْمَوْصِلِ فَأَلْفَيْتُ مَدِينَةً عَلَيْهَا رَوْنَقُ ٱلْأَنْدَلُسِ ، وَفِيهَا لَطَافَةٌ وَفِي مَبَانِيهَا طَلَاوَةٌ تَرْتَاحُ لَهَا ٱلْأَنْفُسُ . ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى مَقَرِّ ٱلْخِلَافَةِ بَغْدَادَ ، فَعَايَنْتُ مِنَ ٱلْعِظَمِ وَٱلضَّخَامَةِ مَا لَا تَفِي بِهِ ٱلْكُتُبُ وَلَوْ أَنَّ ٱلْبَحْرَ مِدَادٌ . ثُمَّ تَغَلْغَلْتُ فِي بِلَادِ ٱلْعَجَمِ بَلَدًا بَلَدًا ، غَيْرَ مُقْتَنِعٍ بِغَايَةٍ وَلَا

---

(١) ازور عن الشيء : انحرف عنه ومال وأعرض حائدا . وفي نسخة «الأوزار» جمع وزر بمعنى الذنب والاثم (٢) الصدع : الكسر والشق «أحمد يوسف نجاتي»

قَاصِدٍ أَمَدًا ، إِلَى أَنْ حَلَلْتُ بِبُخَارَى قُبَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَمَجْمَعِ الْأَنَامِ ، فَأَلْقَيْتُ بِهَا عَصَا التَّسْيَارِ ، وَعَكَفْتُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَاصِلًا فِي اجْتِهَادِهِ سَوَادَ اللَّيْلِ وَبَيَاضَ النَّهَارِ . انْتَهَى .

وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا مِنْ هٰذِهِ الرِّسَالَةِ : كَتَبْتُ وَقَدْ حَصَّلَتْنِي السَّعَادَةُ ، وَحَظُّ الْأَمَلِ وَالْإِرَادَةِ ، بِحَضْرَةِ بُخَارَى قُبَّةِ الْإِسْلَامِ . وَأَجَابَهُ أَهْلُهُ مِنَ الْغَرْبِ بِكَلَامٍ مِنْ جُمْلَتِهِ : وَإِنْ كُنْتَ قَدْ تَحَصَّلْتَ (1) بِقُبَّةِ الْإِسْلَامِ ، فَقَدْ تَعَجَّلْتَ لَنَا وَلَكَ الْفَقْدَ قَبْلَ وَقْتِ الْحِمَامِ ، وَأَتْبَعُوا ذَلِكَ بِمَا دَعَاهُ لِأَنْ خَاطَبَهُمْ بِشِعْرٍ مِنْهُ :

عَتَبْتُمْ عَلَى حَثِّ الْمَطِيِّ ، وَقُلْتُمْ :
تَعَجَّلْتَ فَقْدًا قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ حَالِي مُهِمًّا لَدَيْكُمُ
سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ رِحْلَتِي وَمُقَامِي

وَقُتِلَ الْمَذْكُورُ بِبُخَارَى حِينَ دَخَلَهَا الطَّطَرُ ، وَهُوَ عَمُّ عَلِيِّ بْنِ سَعِيدٍ الشَّهِيرِ . وَكَانَ لِعَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْمَذْكُورِ أَخٌ يُسَمَّى يَحْيَى قَدْ عَانَى الْجُنْدِيَّةَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا الْقَاسِمِ

(1) وفي الأصل « تحصنت » « أحمد يوسف نجاتي »

عَبْدَ ٱلرَّحْمَنِ قُتِلَ بِبُخَارَى قَالَ : لَا إِلٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، كَانَ أَبَدًا يُسَفِّهُ رَأْيِي فِي ٱلْجُنْدِيَّةِ ، وَيَقُولُ : لَو ٱتَّبَعْتَ طَرِيقَ ٱلنَّجَاةِ كَمَا صَنَعْتُ أَنَا لَكَانَ خَيْرًا لَكَ ، فَهَا هُوَ رَبٌّ قَلَمٍ قَدْ قُتِلَ شَرَّ قِتْلَةٍ بِحَيْثُ لَا يَنْتَصِرُ ، وَسُلِبَ سِلَاحُهُ ، وَأَنَا مَا زِلْتُ أُغَازِي فِي عُبَّادِ ٱلصَّلِيبِ وَأَخْلُصُ ، فَمَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُحْسِنَ لِنَفْسِهِ عَاقِبَةً . ٱنْتَهَى . قَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ : ثُمَّ إِنَّ يَحْيَى ٱلْمَذْكُورَ بَعْدَ خَوْضِهِ فِي ٱلْحُرُوبِ صَرَعَهُ فِي طَرِيقِهِ غُلَامٌ كَانَ يَخْدُمُهُ ، فَذَبَحَهُ عَلَى نَزْرٍ مِنَ ٱلْمَالِ أَفْلَتَ بِهِ ، فَٱنْظُرْ إِلَى تَقَلُّبِ ٱلْأَحْوَالِ كَيْفَ يَجْرِي فِي أَنْوَاعِ ٱلْأُمُورِ لَا عَلَى تَقْدِيرٍ وَلَا ٱحْتِيَاطٍ . ٱنْتَهَى . وَمِنْ شِعْرِ أَبِي ٱلْقَاسِمِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلْمَذْكُورِ مَا خَاطَبَ بِهِ نَقِيبَ ٱلْأَشْرَافِ بِبُخَارَى وَقَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ فَاخِتًا[1] مَعَ زَوْجِهِ :

أَيَا سَيِّدَ ٱلْأَشْرَافِ لَا زِلْتَ عَالِيًا

مَعَالِيكَ تَنْبُو ٱلدَّهْرَ عَنْ كُلِّ نَاعِتِ

مِنَ ٱلْفَضْلِ إِقْبَالٌ عَلَى مَا بَعَثْتُهُ لِمَغْنَاكَ مِنْ شَادٍ دَعَوْهُ بِفَاخِتِ

---

(١) الفاختة : ضرب من الحمام المطوق ، وفيها فصاحة وملاحة وحسن صوت ، وفي طبعها الأنس بالناس « أحمد يوسف نجاتي »

أَلَا حَبَّذَا مِنْ فَاخِتٍ سَادَ جِنْسَهُ
وَأَصْبَحَ مَقْرُونًا بِسِتِّ الْفَوَاخِتِ
لَئِنْ فَاتَنِي مِنْهُ الْأَنِيسُ فَكُلُّ مَا
يَحُلُّ لَدَى عَلْيَاكَ لَيْسَ بِفَائِتِ

انْتَهَى

***

على بن عبد الله المعروف بابن العابد

« وَمِنْهُمُ الشَّيْخُ الصَّالِحُ الزَّاهِدُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ يُوسُفَ بْنِ حَمْزَةَ الْقُرْطُبِيُّ الْأَنْصَارِيُّ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْعَابِدِ[1] » نَزِيلُ رِبَاطِ الصَّاحِبِ الصَّفِيِّ بْنِ شُكْرٍ[2]، قَالَ بَعْضُ الْمَشَارِقَةِ عَنْهُ : إِنَّمَا سُمِّيَتِ الْخَمْرُ بِالْعَجُوزِ[3]

---

(١) وفى نسخة « ابن العائد » (٢) الصاحب صفى الدين عبد الله بن على ابن شكر الشيبى وزير الملك العادل «سيف الدين أبى بكر محمد بن الأمير أبى الشكر نجم الدين أيوب بن شادى » توفى سنة ٦٣٠ وأصله من قرية دميرة: احدى قرى مركز طلخا بمديرية الغربية، وكان وزيرا مهيبا عالما فاضلا له معرفة بقوانين الوزارة ، وكانت عنايته مصروفة الى العلماء والفقهاء والأدباء، مع شدة فيه وميل الى التشفى والانتقام، وأنشأ بالقاهرة مدرسة فى سنة ٦١٨ وجعلها وقفا على المالكية، ثم جددها القاضى علم الدين ابراهيم بن عبد اللطيف بن ابراهيم المعروف بابن الزبير ناظر الدولة فى سنة ٧٥٨ وقد اندثرت بعد وزال أثرها « أحمد يوسف نجاتى » (٣) العجوز: الخمر القديمة المعتقة، وقال الشاعر :

لِأَنَّهَا بِنْتُ ثَمَانِينَ-يَعْنِي عَدَدَ حَدِّهَا- وَأَنْشَدَ لَهُ :

عَذَلْنَا فُلَانًا عَلَى فِعْلِهِ ... وَلُمْنَاهُ فِي شُرْبِهِ لِلْعَجُوزْ

فَقَالَ دَعُونِي مِنْ أَجْلِهَا ... أَنَالُ أَنَا وَأَخِي وَالْعَجُوزْ

***

محمد بن على ابن يوسف الأنصارى

« وَمِنْهُمُ الشَّيْخُ الْفَاضِلُ الْمُتْقِنُ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ الْأَنْصَارِيُّ » الشَّاطِبِيُّ الْأَصْلِ الْبَلَنْسِيُّ الْمَوْلِدِ-فِي أَحَدِ رَبِيعَيْ سَنَةَ إِحْدَى وَسِتِّمِائَةٍ وَلَقَّبَهُ الْمَشَارِقَةُ بِرَضِيِّ الدِّينِ ، وَتُوُفِّيَ بِالْقَاهِرَةِ فِي جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - . وَمِنْ نَظْمِهِ لَمَّا حَضَرَ أَجَلُهُ وَقَدْ أَمَرَ خَادِمَهُ أَنْ يُنَظِّفَ لَهُ بَيْتَهُ ، وَأَنْ يُغْلِقَ عَلَيْهِ الْبَابَ وَيَفْتَقِدَهُ بَعْدَ زَمَانٍ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ مَيِّتًا وَقَدْ كَتَبَ فِي رُقْعَةٍ :

ليته جام فضة من هدايا ... سوى مابه الأمير مجيزى

انما أبتغيه للعسل المم ... زوج بالماء لا لشرب العجوز

وقال غيره من قصيدة طويلة كل قوافيها « العجوز » جمعت كل معانيها :

وكم أطفا لماه العذب قلبا ... أضربه اللهيب من العجوز

ولكلمة « العجوز » نحو ثمانين معنى مبسوطة فى كتب اللغة « أحمد يوسف نجاتى » .

حَانَ ٱلرَّحِيـلُ ، فَوَدِّعِ ٱلدَّارَ ٱلَّتِي

مَا كَانَ سَاكِنُهَا بِهَـا بِمُخَلَّدِ

وَٱضْرَعْ إِلَى ٱلْمَلِكِ ٱلْجَوَادِ، وَقُلْ لَهُ:

عَبْدٌ بِبَابِ ٱلْجُودِ أَصْبَحَ يَجْتَدِي

لَمْ يَرْضَ غَـيْرَ ٱللهِ مَعْبُودًا ، وَلَا

دِينًا سِوَى دِينِ ٱلنَّبِيِّ مُحَمَّـدِ

وَمِنْ نَظْمِهِ أَيْضًا ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ:

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ قَابَلَهَا ٱلرَّدَى

فَرَاغَتْ فِرَارًا مِنْهُ يُسْرَى إِلَى يُمْنَى

قِرِي تَحْمَلِي بَعْضَ ٱلَّذِي تَـكْرَهِينَهُ

فَقَدْ طَالَمَا ٱعْتَدْتِ ٱلْفِرَارَ إِلَى ٱلْأَهْنَى[1]

أَنْشَدَهُ لَهُ تِلْمِيذُهُ أَبُو حَيَّانَ إِمَامُ عَصْرِهِ فِي ٱللُّغَـةِ ، حَدَّثَ عَنِ ٱبْنِ ٱلْمُقَيَّرِ[2] وَغَيْرِهِ، وَٱشْتَغَلَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ بِالْقَاهِرَةِ وَلَهُ تَصَانِيفُ مُفِيدَةٌ ، وَسَمِعَ مِنَ ٱلْحَافِظِ أَبِي ٱلرَّبِيعِ بْنِ

---

(١) قرى : اثبتى وقفى واسكنى، أمر من وقر يقر ، وفى الأصل « ترى »

(٢) فى الأصل « ابن المنير » وهو تصحيف ، وابن المقير هو أبو الحسن على بن الحسين بن على بن منصور البغدادى الأزجى الحنبلى النجار ، ولد سنة ٥٤٥ ببغداد، وحدث بالقاهرة حتى كان فى عصره مسند الديار المصرية

سَالِمٍ[1] ، وَكَتَبَ عَلَى صِحَاحِ ٱلْجَوْهَرِيِّ وَغَيْرِهِ حَوَاشِيَ فِي مُجَلَّدَاتٍ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ تِلْمِيذُهُ أَبُو حَيَّانَ ــ رَحِمَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْجَمِيعَ ــ . وَمِنْ فَوَائِدِهِ قَوْلُهُ : نَقَلْتُ مِنْ خَطِّ أَبِي ٱلْوَلِيدِ بْنِ خِيرَةَ ٱلْحَافِظِ[2] ٱلْقُرْطُبِيِّ فِي فَهْرَسْتِ أَبِي بَكْرِ ٱبْنِ مُفَوَّزٍ[3] وَقَدْ أَدْرَكْتُهُ بِسِنِّي وَلَمْ آخُذْ عَنْهُ ، وَٱجْتَمَعْتُ بِهِ أَنْشَدَنِي لَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ بْنُ ٱلْأَبْرَشِ[4] يُخَاطِبُ بَعْضَ أَكَابِرِ

وبها توفى سنة ٦٤٣ ــ قيل سقط بعض آبائه فى حفير فيه قار فقيل له المنير. وحفيده أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن أبى الحسن المقرىء كان عبدا صالحا، استشهد سنة ٦٩٩ ــ أما ابن المنير فهو العلامة ناصر الدين أحمد ابن محمد بن منصور الجذامى الجروى الاسكندرى المالكى قاضى الاسكندرية وفاضلها المشهور ولد سنة ٦٢٠ وبرع فى الفقه والأصول والنظر والعربية والبلاغة ، وصنف التصانيف المفيدة ، وتوفى فى ربيع الأول سنة ٦٨٣ « أحمد يوسف نجاتى » (١) هو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميرى الكلاعى البلنسى ، كان اماما فى صناعة الحديث بصيرا به حافظا مؤرخا أديبا، ولد سنة ٥٦٥ وتوفى سنة ٦٣٤ وتقدم زيادة تعريف به وسيأتى حديث عنه « أحمد يوسف نجاتى » (٢) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن محمد بن خيرة القرطبى الفقيه الحافظ، كان من أحفظ الناس للرأى ، مع المشاركة فى الأدب والتفنن فى المعارف، ورحل حاجا سنة ٥٤٢ وصدر عن مكة بعد أداء الفريضة يريد بلاد اليمن فتوفى بزبيد سنة ٥٥١ وقد قارب ستين عاما « أحمد يوسف نجاتى » (٣) أبو بكر محمد بن حيدرة بن أحمد بن مفوز المعافرى من أهل شاطبة، كان حافظا للحديث وعلله منسوبا الى فهمه، عارفا بأسماء رجاله وحملته، أديبا لغويا ، أسمع الناس بالمسجد الجامع بقرطبة، وأخذوا عنه، ولم يزل مفيدا لهم الى أن توفى سنة ٥٠٥ (٤) أبو القاسم خلف بن يوسف بن فرتون

أَصْحَابِ أَبِي مُحَمَّدِ[1] بْنِ حَزْمٍ - وَالْإِشَارَةُ لِابْنِ حَزْمٍ الظَّاهِرِيِّ :

يَا مَنْ تُعَانِي أُمُورًا لَنْ تُعَانِيهَا
خَلِّ التَّعَانِي ، وَأَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا
تَرْوِي الْأَحَادِيثَ عَنْ كُلِّ مُسَامَحَةٍ
وَإِنَّمَا لِمُعَانِيهَا مَعَانِيهَا

وَقَدْ سَبَقَ فِي تَرْجَمَةِ الْقَاضِي أَبِي الْوَلِيدِ الْبَاجِيِّ ذِكْرُ هٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ عِنْدَمَا أَجْرَيْنَا ذِكْرَ ابْنِ حَزْمٍ - قَالَ : وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا الشِّعْرَ فِي ذِكْرِ رِوَايَةٍ ادُّعِيَتْ عَلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ خَالِدًا قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وَصَحَّحَ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى «أَعْبُدَهُ» جَمْعَ عَبْدٍ ، وَعَلَّلَ رِوَايَةَ مَنْ رَوَى «أَعْتُدَهُ» بِالتَّاءِ مُثَنَّاةً بِاثْنَتَيْنِ مِنْ فَوْقُ: جَمْعَ عَتَدٍ: وَهُوَ الْفَرَسُ ، قَالَ ابْنُ خِيرَةَ : الْإِحَاطَةُ مُمْتَنِعَةٌ ، وَهَذِهِ

الشنتريني المعروف بابن الأبرش، كان عالما بالآداب واللغات، مقدما في معرفتهما واتقانهما ، مع الفضل والدين والخير والتواضع، وتوفى سنة ٥٣٢ بقرطبة « أحمد يوسف نجاتى »

(١) فى الأصل « محمد بن حزم » باسقاط صدر الكنية « أبى » وهو نقص مفسد ، وتقدم التعريف بأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الامام المشهور المتوفى سنة ٤٥٦ «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلرِّوَايَةُ قَدْ رَوَاهَا جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمُحَدِّثِينَ ، فَهُوَ إِنْكَارٌ غَيْرُ مَعْرُوفٍ ، وَٱللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . وَمِنْ فَوَائِدِهِ مَا نَقَلَهُ تِلْمِيذُهُ أَبُو حَيَّانَ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْهُ ، قَالَ أَنْشَدَنَا لِلْمُقْرِى وَنَقَلْتُهُ مِنْ خَطِّهِ :

إِذَا مَا شِئْتَ مَعْرِفَةً لِمَا حَارَ ٱلْوَرَى فِيهِ
فَخُذْ خَمْسًا لِأَرْبَعَةٍ وَدَعْ لِلثَّوْبِ رَافِيهِ

وَهُوَ لُغَزٌ فِي وَرْدٍ . قَالَ وَأَنْشَدَنَا لِبَعْضِهِمْ :

لَا رَعَى ٱللهُ عَزْمَةً ضَمِنَتْ لِي
سَلْوَةَ ٱلصَّبْرِ وَٱلتَّصَبُّرَ عَنْهُ
مَا وَفَتْ غَيْرَ سَاعَةٍ ، ثُمَّ عَادَتْ
مِثْلَ قَلْبِي تَقُولُ : لَا بُدَّ مِنْهُ

قَالَ وَأَنْشَدَنَا لِغَيْرِهِ :

وَكَانَ غَرِيبَ ٱلْحُسْنِ قَبْلَ ٱلْتِحَائِهِ
فَلَمَّا ٱلْتَحَى صَارَ ٱلْغَرِيبَ ٱلْمُصَنَّفَا[1]

---

(١) فى قوله « الغريب المصنف » تورية وتوجيه، فان « الغريب المصنف » كتاب فى غريب الحديث تأليف أبى عمرو اسحق بن مرار الشيبانى المتوفى سنة ٢٠٦ واختصره محمد بن على اللخمى اللغوى المعروف بابن الرضى المتوفى سنة ٦١٦ وسماه حلية الأديب، وأبو يحيى محمد بن رضوان المتوفى

وَأَنْشَدَنَا لِغَيْرِهِ :

طِبْ عَلَى ٱلْوَحْدَةِ نَفْسَا وَٱرْضَ بِالْوَحْشَةِ أُنْسَا
مَا عَلَيْهَا مَنْ يُسَاوِى حِينَ يُسْتَخْبَرُ فَلْسَا

وَقَرَأَ ٱلرَّضِىُّ بِبَلَدِهِ عَلَى ٱبْنِ صَاحِبِ ٱلصَّلَاةِ آخِرِ أَصْحَابِ ٱبْنِ هُذَيْلٍ (١) ، وَسَمِعَ مِنْهُ كِتَابَ ٱلتَّلْخِيصِ لِلْوَانِى (٢) ، وَسَمِعَ بِمِصْرَ مِنَ ٱبْنِ ٱلْمُقَيَّرِ وَجَمَاعَةٍ ، وَرَوَى عَنْهُ ٱلْحَافِظُ

سنة ٦٥٧ ، والمعنى الثانى للغريب المصنف أن وجهه صار غربيا عن الحسن واستحقاق الحب مصنفا من ألوان مختلفة بعد أن كان لونا واحدا مشرقا ناضرا « أحمد يوسف نجاتى »

(١) تقدم التعريف بأبى الحسن على بن محمد بن على بن هذيل البلنسى المتوفى سنة ٥٦٤ - وابن صاحب الصلاة هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسعود بن عبد الرحمن الأزدى من أهل شاطبة، ولد سنة ٥٤٢ بشاطبة، وأخذ عن أبى الحسن بن هذيل قراءة نافع، وسمع منه كثيرا، وأجاز له فى سنة ٥٦٣ واحتيج اليه بأخرة من عمره عند انقراض أصحاب ابن هذيل، وتوفى سنة ٦٢٥ ، وقرأ عليه القرآن الرضى الشاطبى وابن مسدى وغيرهما « أحمد يوسف نجاتى » (٢) كذا بالأصل، وقد يكون «الوانى» محرفا عن الدانى؛ يريد أبا عمرو عثمان بن سعيد المقرئ المتوفى سنة ٤٤٤ بدانية، وتقدم التعريف به ، أو يكون محرفا عن « القيروانى » ويراد كتاب « تلخيص العبارات فى القراءات » لأبى على حسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة المقرئ القيروانى نزيل الاسكندرية المتوفى بها سنة ٥١٤ - وهناك كتاب فى القراءات يسمى «التلخيص» أيضا لأبى معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبرى المتوفى سنة ٤٧٨ وأغلب ظنى أنه يريد الأول «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْمِزِّيُّ(١) وَٱلْيُونِينِيُّ(٢) وَٱلظَّاهِرِيُّ(٣) وَآخَرُون ، وَٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ مَعْرِفَةُ ٱللُّغَةِ وَغَرِيبُهَا ،وَكَانَ يَقُولُ : أَحْرُفُ(٤) ٱللُّغَةِ عَلَى قِسْمَيْنِ:قِسْمٌ أَعْرِفُ مَعْنَاهُ وَشَوَاهِدَهُ ، وَقِسْمٌ أَعْرِفُ كَيْفَ أَنْطِقُ بِهِ فَقَطْ - رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى -. وَمِنْ فَوَائِدِ ٱلرَّضِيِّ ٱلشَّاطِبِيِّ ٱلْمَذْكُورِ مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَيَّانَ فِي «ٱلْبَحْرِ» قَالَ:وَهُوَ مِنَ غَرِيبِ مَا أَنْشَدَنَا ٱلْإِمَامُ ٱللُّغَوِيُّ رَضِيُّ ٱلدِّينِ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ

(١) فى الأصل «المزنى» وفى نسخة «المرى» وهما تصحيف محرف مفسد مشوه - والحافظ المزى هو جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف بن على بن أبى الزهر الامام العلامة الحافظ الكبير الدمشقى المزى الشافعى شيخ المحدثين وعمدة الحفاظ فى عصره ولد سنة ٦٥٤ بظاهر حلب ، ونشأ بالمزة « واليها نسب - وهى قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق بينها وبين دمشق نحو نصف فرسخ» وبرع فى اللغة وعلومها، وفى الحديث والفقه، وقد بالغ فى الثناء عليه أبو حيان وغيره وتوفى سنة ٧٤٢ « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تقدم التعريف به، وهو شيخ بعلبك الحافظ شرف الدين أبو الحسين على بن محمد بن أحمد اليونينى الحنبلى، ولد ببعلبك سنة ٦٢١ وتوفى سنة ٧٠١ « أحمد يوسف نجاتى » (٣) لعله الحافظ الزاهد القدوة جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الحلبى الحنفى المقرىء المحدث، كان أحد من عنى بهذا الشأن، وكتب عن نحو ٧٠٠ شيخ بالشام والجزيرة ومصر ، ولم يزل فى طلب الحديث وافادته وتخريجه الى أن توفى سنة ٦٩٦ وكان من الثقات الأثبات، وابنه المحدث الزاهد فخر الدين عثمان كان محدثا جليلا ، توفى بمصر سنة ٧٠٠ عن نحو ستين سنة «أحمد يوسف نجاتى» (٤) فى نسخة «أعرف» بدل «أحرف» «أحمد يوسف نجاتى»

مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يُوسُفَ ٱلْأَنْصَارِيُّ ٱلشَّاطِبِيُّ لِزَيْنَبَ بِنْتِ إِسْحَقَ ٱلنَّصْرَانِيِّ ٱلرَّسْعَنِيِّ[١] :

عَدِيٌّ وَتَيْمٌ لَا أُحَاوِلُ ذِكْرَهُمْ بِسُوءٍ، وَلَكِنِّي مُحِبٌّ لِهَاشِمِ
وَمَا يَعْتَرِينِي فِي عَلِيٍّ وَرَهْطِهِ إِذَا ذُكِرُوا فِي ٱللهِ لَوْمَةُ لَائِمِ

يَقُولُونَ : مَا بَالُ ٱلنَّصَارَى تُحِبُّهُمْ؟!
وَأَهْلُ ٱلنُّهَى مِنْ أَعْرُبٍ وَأَعَاجِمِ!
فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنِّي لَأَحْسَبُ حُبَّهُمْ
سَرَى فِي قُلُوبِ ٱلْخَلْقِ حَتَّى ٱلْبَهَائِمِ

وَمِنْ نَظْمِ ٱلرَّضِيِّ ٱلْمَذْكُورِ :

مُنَغَّصُ ٱلْعَيْشِ لَا يَأْوِي إِلَى دَعَةٍ
مَنْ كَانَ ذَا[٢] بَلَدٍ أَوْ كَانَ ذَا وَلَدِ
وَٱلسَّاكِنُ ٱلنَّفْسِ مَنْ لَمْ تَرْضَ هِمَّتُهُ
سُكْنَى بِلَادٍ، وَلَمْ يَسْكُنْ إِلَى أَحَدِ

---

(١) نسبة الى « رأس عين » وهى مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين، بينها وبين كلتيهما نحو خمسة عشر فرسخا، وفى رأس عين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور، والمشهور فى النسبة اليها « الرسعنى » وربما قيل: الراسى. وممن ينسب اليها أبو بكر بن الياس ابن محمد بن سعيد الرسعنى الحنبلى ، توفى بالقاهرة سنة ٦٩٤ « أحمد يوسف نجاتى » . (٢) وفى الأصل «فى بلد» « أحمد يوسف نجاتى »

وَلَهُ :

لَوْلَا بَنَاتِي وَسَيِّئَاتِي   لَطِرْتُ شَوْقًا إِلَى الْمَمَاتِ
لِأَنَّنِي فِي جِوَارِ قَوْمٍ   بَغَّضَنِي قُرْبُهُمْ حَيَاتِي

وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَبُو حَيَّانَ كِتَابَ التَّيْسِيرِ [1] وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَلَمَّا تُوُفِّيَ أَنْشَدَ ارْتِجَالًا :

نَعَوْا لِيَ الرَّضِيَّ ! فَقُلْتُ : لَقَدْ   نَعَوْا لِيَ شَيْخَ الْعُلَا وَالْأَدَبْ
فَمَنْ لِلُّغَاتِ ! وَمَنْ لِلثِّقَاتِ ؟!   وَمَنْ لِلنُّحَاةِ ؟! وَمَنْ لِلنَّسَبْ !
لَقَدْ كَانَ لِلْعِلْمِ بَحْرًا فَغَارَ   وَإِنَّ غُؤُورَ الْبِحَارِ الْعَجَبْ

---

(١) كتاب «التيسير» فى القراءات السبع للامام أبى عمرو عثمان بن سعيد ابن عثمان الدانى المتوفى سنة ٤٤٤ وهو مختصر مشتمل على مذاهب القراء السبعة بالأمصار، وما اشتهر وانتشر من الروايات والطرق عند التالين، وصح وثبت لدى الأئمة المتقدمين ، فذكر عن كل واحد من القراء روايتين ، وقد شرحه أبو محمد عبد الواحد بن محمد الباهلى المتوفى سنه ٧٥٠ـ وقد أضاف اليه القراءات الثلاث الامام شمس الدين محمد بن محمد بن الجزرى الشافعى المتوفى سنة ٨٣٣ فى كتاب سماه « تحبير التيسير » وقد ترجح عندى الآن أن كلمة « الوانى» السابقة مصحفة عن «الدانى» كما قلت آنفا، وان كان هناك آخر فى القراءات يسمى « التيسير » أيضا لأبى العباس أحمد ابن عمار المهدوى المتوفى بعد سنة ٤٣٠ وكان معاصرا لأبى عمرو الدانى الا أن كتابه لم يشتهر شهرة «تيسير الدانى» الذى هو من أصح كتب القراءات، ومؤلفه صاحب الشاطبية من أشهر رجالها ، وتقدم التعريف به «أحمد يوسف نجاتى».

فَقُدِّسَ مِنْ عَالِمٍ عَامِلٍ ... أَثَارَ لِشَجْوِى لَمَّا ذَهَبْ

وَتَحَاكَمَ إِلَى رَضِيِّ ٱلدِّينِ ٱلْمَذْكُورِ ٱلْجَزَّارُ[١] وَٱلسِّرَاجُ ٱلْوَرَّاقُ[٢] أَيُّهُمَا أَشْعَرُ؟ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ٱلْجَزَّارُ شَيْئًا، فَقَالَ: هَـٰذَا شِعْرٌ جَزْلٌ مِنْ نَمَطِ شِعْرِ ٱلْعَرَبِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ٱلْوَرَّاقَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا، فَقَالَ: هَذَا شِعْرٌ سَلِسٌ، وَآخِرُ ٱلْأَمْرِ قَالَ: مَا أَحْكَمُ بَيْنَكُمَا — رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى — . قُلْتُ: رَأَيْتُ بِخَطِّهِ كُتُبًا كَثِيرَةً بِمِصْرَ، وَحَوَاشِيَ مُفِيدَةً فِي ٱللُّغَةِ وَعَلَى دَوَاوِينِ ٱلْعَرَبِ — رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى — .

***

حميد بن أبى محمد الزاهد

«وَمِنْهُمْ حُمَيْدُ ٱلزَّاهِدُ؛ وَهُوَ ٱلْأَدِيبُ ٱلْفَاضِلُ ٱلزَّاهِدُ أَبُو بَكْرٍ حُمَيْدُ بْنُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ

---

(١) أبو الحسين جمال الدين يحي بن عبد العظيم المصرى الشاعر الأديب المشهور الفاضل، ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ وتقدم التعريف به «أحمد يوسف نجاتى» (٢) سراج الدين عمر بن محمد الوراق المصرى أديب الديار المصرية فى عصره، كان شاعرا ظريفا مكثرا حسن التصرف، ولد سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥ ومن رقيق شعره:

سألتهم وقد حثوا المطايا ... قفوا انفساء فساروا حيث شاءوا

وما عطفوا على وهم غصون ... ولا التفتوا الى وهم ظباء

ولنا موازنة أدبية بين الشاعرين فى كتابنا الجامع فى الأدب «أحمد يوسف نجاتى»

يَحْيَى بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْأَنْصَارِيُّ ٱلْقُرْطُبِيُّ نَزِيلُ مَالَقَةَ »

قَالَ ٱلرَّضِيُّ ٱلشَّاطِبِيُّ ٱلْمَذْكُورُ قَرِيبًا : أَنْشَدَنِي حُمَيْدٌ بِالْقَاهِرَةِ لِأَبِيهِ أَبِي مُحَمَّدٍ(١) وَقَدْ تَأَخَّرَ شَيْبُهُ مَعَ عُلُوِّ سِنِّهِ :

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ أَخْطَأَ ٱلشَّيْبُ مَفْرِقِي
وَقَدْ شَابَ أَتْرَابِي وَشَابَ لِدَاتِي ؟!

إِذَا كَانَ خَطْبُ ٱلشَّيْبِ يُوجَدُ عَيْنُهُ
بِتِرْبِي فَمَعْنَاهُ يَقُومُ بِذَاتِي

---

(١) أبو محمد عبدالله بن الحسن المالقي،ويعرف بابن القرطبي؛لأن أباه انتقل منها—وهم من بيت نباهة بقرطبة يعرفون ببنى عبد الله — كان أبو محمد ذا عناية تامة بالرواية ولقاء الشيوخ والرحلة فى سماع العلم ، وكان من أهل المعرفة الكاملة بصناعة الحديث والبصر بها والاتقان لها ، والحفظ لأسماء الرجال، والتقدم فى ذلك على الكمال ، مع المعرفة بالقراءات ووجوهها، والمشاركة فى علوم اللغة وآدابها ، ورث براعته فى علوم الحديث عن أبيه وأورثها من بعده بنيه، ولم يكن أحد يدانيه فى حفظ التواريخ والتجريح والتعديل الا أفراد من أهل عصره ، هذا الى كرم خلال وحميد عشرة ودماثة خلق ولين جانب، فكان محببا الى الناس معظما لدى خاصتهم وعامتهم، وكان مولده بمدينة مالقة سنة ٥٥٨ وتوفى بها فى شهر ربيع الآخر من سنة ٦١١ — قلت وأبوه هو أبو على الحسن بن أحمد بن يحيى من أهل قرطبة ، كان ذا معرفة ودراية بالحديث والقراءات والعروض واللغة، وانتقل من وطنه قرطبة فى الفتنة. ولد سنة ٥١٨ وتوفى بمالقة سنة ٥٨٥ « أحمد يوسف نجاتى»

وَٱللِّدَاتُ : مَنْ وُلِدَ مَعَهُ فِي زَمَانٍ وَاحِدٍ[1] ٱنْتَهَى . وَفِي ذِكْرِى أَنَّهُ قَالَ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ لَمَّا قَالَ لَهُ ٱلْقَاضِي عِيَاضٌ[2] شِبْنَا وَلَمْ تَشِبْ ! وَقَالَ ٱلرَّضِيُّ أَيْضًا أَنْشَدَنِي حُمَيْدٌ لِأَبِيهِ فِيمَنْ يَكْتُبُ فِي ٱلْوَرَقِ بِالْمِقَصِّ ـ وَهُوَ غَرِيبٌ :

وَكَاتِبٍ وَشْيُ طِرْسِهِ حِبَرٌ لَمْ يَشِهَا حِبْرُهُ وَلَا قَلَمُهْ[3]

لَكِنْ بِمِقْرَاضِهِ يُنَمْنِمُهَا نَمْنَمَةَ ٱلرَّوْضِ جَادَهُ رِهَمُهْ

يُوجِدُ بِالْقَطْعِ أَحْرُفًا عُدِمَتْ

فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ وُجُودُهُ عَدَمُهْ

وَٱلرِّهَمُ[4] ٱلْمَطَرُ. قَالَ وَتُوُفِّيَ حُمَيْدٌ ٱلزَّاهِدُ هَذَا بِمِصْرَ قُبَيْلَ ٱلظُّهْرِ يَوْمَ ٱلثُّلَاثَاءِ ، وَصُلِّيَ عَلَيْهِ خَارِجَ مِصْرَ بِجَامِعِ

---

(١) وكذا الترب؛ وان كان أكثر اطلاقه على النساء الكواعب الأتراب «أحمد يوسف نجاتى» (٢) تقدم التعريف بالقاضى أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عياض امام وقته فى الحديث وعلومه والنحو واللغة والأدب ، وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ «أحمد يوسف نجاتى» (٣) الحبر جمع حبرة ، وهى فى الأصل ضرب من برود اليمن منقوش منمر، شبهت بها هنا الكتابة، والوشى: النقش، والطرس: الصحيفة ، ونمنم الكتاب والثوب وغيره: اذا نقشه ووشاه وزخرفه وحسنه ، ونمنمت الريح التراب: اذا خطته وتركت عليه أثرا كالكتابة والأثر (٤) الرهمة: المطر الضعيف الدائم، وقال أبو زيد: من الديمة الرهمة، وهى أشد وقعا من الديمة وأسرع ذهابا، وجمعه رهم ورهام ، وأرهمت السماء: اذا أتت بهذا المطر الضعيف ، وروضة مرهومة:

رَاشِدَةَ (١) بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ ٱلثُّلَاثَاءِ ٱلْمَذْكُورِ ، وَدُفِنَ بِسَفْحِ ٱلْمُقَطَّمِ بِتُرْبَةِ ٱلشَّيْخِ ٱلْفَاضِلِ ٱلزَّاهِدِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ ٱلْخَزْرَجِيِّ ـ ٱلَّذِي يَدُقُّ ٱلرَّصَاصَ ـ حِذَاءَ رِجْلَيْهِ ـ فِي ٱلثَّالِثِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنَ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ . وَمَوْلِدُهُ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّمِائَةٍ . ٱنْتَهَى .

***

اليسع بن عيسى ابن حزم بن عبد الله الغافقى

« وَمِنْهُمُ ٱلْيَسَعُ بْنُ عِيسَى بْنِ حَزْمِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْيَسَعِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْغَافِقِيُّ » مِنْ أَهْلِ بَلَنْسِيَةَ ، وَأَصْلُهُ مِنْ جَيَّانَ ، وَسَكَنَ ٱلْمَرِيَّةَ ثُمَّ مَالَقَةَ ، يُكَنَّى أَبَا يَحْيَى ، كَتَبَ لِبَعْضِ

جادها الرهم « أحمد يوسف نجاتى » (١) كان هذا الجامع يعرف بجامع راشدة؛ لأنه كان فى خطة تسمى خطة راشدة ، منسوبة الى راشدة بن أدوب ابن جديلة من لخم ، وقد دثرت هذه الخطة ، ثم عرفت بالماردانى. وابتدىء فى بناء هذا الجامع فى ربيع الآخر سنة ٣٩٣ وتم فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ وركب الحاكم بأمر الله عشية منتصف رمضان وأشرف عليه، وهو الذى عمره، وصلى به الجمعة فى رمضان سنة ٣٩٨ـ وهدم فى سنة ٤٠١ وابتدىء بعمارته وصلى به الحاكم صلاة الجمعة فى رمضان من سنة ٤٠٣ وظل هذا الجامع عامرا تقام به الصلوات زمنا طويلا، وعطل من اقامة الجمعة بعد حوادث سنة ٨٠٦ وقال الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة: راشدة بطن من لخم، وهم ولد راشدة بن الحرث بن أد بن جديلة من لخم بن عدى بن الحرث ابن مرة بن أدد، وقيل راشدة بن أدوب، ولهم خطة بمصر بالجبل المعروف بالرصد المطل على بركة الحبش اه « أحمد يوسف نجاتى » .

الْأُمَرَاءِ بِشَرْقِيِّ الْأَنْدَلُسِ[١] وَلَهُ تَأْلِيفٌ سَمَّاهُ «الْمُغْرِبَ فِي أَخْبَارِ مَحَاسِنِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ» جَمَعَهُ لِلسُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بِالدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بَعْدَ أَنْ رَحَلَ إِلَيْهَا مِنَ الْأَنْدَلُسِ سَنَةَ سِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَبِهَا تُوُفِّيَ يَوْمَ الْخَمِيسِ التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ — رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى — .

***

محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي

« وَمِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ التُّجِيبِيُّ، يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ اللهِ[٢] مِنْ أَهْلِ إِشْبِيلِيَةَ . تَجَوَّلَ فِي بِلَادِ

(١) وأخذ القراءات عن أبيه وغيره ، وسمع البخارى من أبى الحسن على ابن هذيل سنة ٥٤٤ ثم رحل واستوطن الاسكندرية ثم القاهرة، واشتمل عليه الملك صلاح الدين، ورسم له جاريا يقوم به. واشتمل عليه وقربه واحترمه وكان يكرمه ويشفعه فى مطالب الناس ؛ لأنه كان أول من خطب على منابر العبيدية عند نقل الدعوة الى العباسية، اجترأ على ذلك حين تهيبه سواه، وكان فقيها مشاورا تقيا مقرئا محدثا حافظا نسابة أخباريا، من أبدع الناس خطا . قلت: وأبوه هو أبو الأصبغ عيسى بن حزم الغافقى نزيل المرية ، كان مقرئا مجوادا ضابطا صالحا متعففا، ولى خطة الشورى والخطابة بالمرية ، وكان أبوه حزم بن عبد الله مقرئا أيضا من أهل جيان، أخذ القراءات عن أبى محمد عبد الله بن سهل الذى توفى بمدينة رندة من نظر قرطبة سنة ٤٨٠

(٢) قد تقدمت ترجمته والتعريف به بأوسع من هذا «أحمد يوسف نجاتى»

ٱلْأَنْدَلُسِ طَالِباً لِلْعِلْمِ ، ثُمَّ حَجَّ ، وَلَقِيَ ٱلْحَافِظَ ٱلسِّلَفِيَّ وَغَيْرَهُ . وَٱسْتَوْطَنَ تِلِمْسَانَ ، وَبِهَا تُوُفِّيَ فِي جُمَادَى ٱلْأُولَى سَنَةَ عَشْرٍ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَلَهُ تَوَالِيفُ كَثِيرَةٌ .

***

محمد بن أحمد ابن عبد الملك اللخمى الباجى

« وَمِنْهُمْ أَبُو مَرْوَانَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ[1] ٱللَّخْمِيُّ ٱلْبَاجِيُّ »

مِنْ أَهْلِ إِشْبِيلِيَةَ ، وُلِّيَ ٱلْقَضَاءَ بِهَا ، وَأَصْلُهُ مِنْ بَاجَةِ إِفْرِيقِيَّةَ ، دَخَلَ ٱلْمَشْرِقَ لِأَدَاءِ ٱلْفَرِيضَةِ ، فَحَجَّ ، وَتُوُفِّيَ بِمِصْرَ - بَعْدَ مَا دَخَلَ ٱلشَّامَ - فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّامِنِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَمَوْلِدُهُ عَامَ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . وَكَانَتْ رِحْلَتُهُ مِنَ ٱلْمَغْرِبِ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ عَامَ أَرْبَعَةٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ .

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله الراوية ، كان قاضى الجماعة باشبيلية ولى القضاء والخطبة بها دهرا طويلا ، وكان فاضلا متواضعا . وامتحن فى الفتنة عند مقتل ابن أخيه الباجى والى اشبيلية أبى مروان أحمد بن محمد بن أحمد على يد أبى عبد الله بن الأحمر فى جمادى الأولى سنة ٦٣١ فخرج من وطنه سنة ٦٣٢ - ورحل الى المشرق من سبتة فى المحرم من سنة ٦٣٤ ودخل دمشق من مرسى عكا فى شهر رمضان منها ، وأقام بها الى منتصف شوال ، وأخذ بها عنه الحديث ، ثم حج وزار من جدة

***

وليد بن بكر ابن مخلد بن زياد العمرى

« وَمِنْهُمْ وَلِيدُ بْنُ بَكْرِ بْنِ مَخْلَدِ بْنِ زِيَادٍ الْعُمَرِىُّ » مِنْ أَهْلِ سَرَقُسْطَةَ ، يُكَنَّى أَبَا الْعَبَّاسِ(١) لَهُ كِتَابٌ سَمَّاهُ « الْوَجَازَةُ فِى صِحَّةِ الْقَوْلِ بِالْإِجَازَةِ » وَلَهُ رِحْلَةٌ لَقِىَ فِيهَا أَلْفَ شَيْخٍ وَمُحَدِّثٍ وَفَقِيهٍ ، تُوُفِّىَ بِالدِّينَوَرِ(٢) سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ ، يَرْوِى عَنْهُ أَبُو ذَرٍّ الْهَرَوِىُّ(٣) ، وَعَبْدُ الْغَنِىِّ الْحَافِظُ(٤) ، وَكَفَاهُ فَخْرًا بِهَذَيْنِ الْإِمَامَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى الْجَمِيعَ .

فى البحر الى عيذاب ، ثم الى قنا ، ثم الى قوص، ثم الى مصر، فتوفى بها بعد دخوله اياها بليلتين - بخان ابن الرصاص- فى أواخر شهر ربيع الآخر من سنة ٦٣٥ لافى ربيع الأول كما هنا « أحمد يوسف نجاتى » (١) كان ثقة أمينا كثير السماع والكتاب فى بلده وفى الغربة، عالما فاضلا (٢) مدينة من أعمال الجبل بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخا،وهى مدينة كثيرة الثمار والزروع ، وأهلها أجودطبعا من أهل همذان، وينسب اليها كثير من أهل العلم والحديث والأدب « أحمديوسف نجاتى » (٣) هو عبد بن أحمد ابن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصارى الحافظ الثقة، توفى سنة ٤٣٤ وقد سبق التعريف به وحديث عنه « أحمد يوسف نجاتى » (٤) هو الحافظ عبد الغنى بن سعيد بن على بن سعيد بن بشر بن مروان الأزدى المصرى السمرقندى صاحب التصانيف، كان ثقة صاحب سنة ، حافظا علامة قوى الذكاء، وانتفع به خلق كثيرون ، توفى فى صفر سنة ٤٠٩ عن ٧٧ سنة « أحمد يوسف نجاتى » .

***

عيسى بن سليمان ابن عبد الملك الرعينى الرندى

« وَمِنْهُمْ عِيسَى بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مُحَمَّدٍ الرُّعَيْنِيُّ الرُّنْدِيُّ »

يُكَنَّى أَبَا مُحَمَّدٍ ، اسْتَوْطَنَ مَالَقَةَ ، وَرَحَلَ إِلَى الْمَشْرِقِ وَحَجَّ، وَلَقِيَ جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَقَفَلَ إِلَى الْمَغْرِبِ أَوَاخِرَ عَامِ وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَوُلِّيَ الْإِمَامَةَ بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِمَالَقَةَ ، وَبِهَا تُوُفِّيَ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسِتِّمِائَةٍ؛ وَلُقِّبَ فِي الْمَشْرِقِ بِرَشِيدِ الدِّينِ؛ وَوُلِدَ فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ - بِقَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الْأَنْدَلُسِ يُقَالُ لَهَا يَلْمَالْتِينُ[١] كُورَةُ بَشْتَغَيْرَ ، ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ الْمُسْتَوْفِي فِي تَارِيخِ إِرْبِلَ .

***

سليمان بن أحمد اليذينى

« وَمِنْهُمْ أَبُو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ الْيَذِينِيُّ[٢] »

مِنْ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ ، اسْتَوْطَنَ الْمَشْرِقَ، وَمَدَحَ الْمَلِكَ الْكَامِلَ[٣] ، وَمِنْ شِعْرِهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - قَوْلُهُ :

(١) فى نسخة «يلماتين» (٢) كذا بالأصل ، وفى نسخة « الينيبى » ويخيل الى أن ذلك تصحيف محرف عن « البنتى » نسبة الى « البنت » وتقدم التعريف بها (٣) الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد بن العادل

لَوْلَا تَحَدِّيهِ بِآيَةِ سِحْرِهِ
مَا كُنْتُ مُمْتَثِلًا شَرِيعَةَ أَمْرِهِ
رَشَأٌ أُصَدِّقُهُ ، وَكَاذِبُ وَعْدِهِ
يُبْدِي لِعَاشِقِهِ أَدِلَّةَ عُذْرِهِ[1]
ظَهَرَتْ نُبُوَّةُ حُسْنِهِ فِي فَتْرَةٍ
مِنْ جَفْنِهِ وَضَلَالَةٍ مِنْ شَعْرِهِ[2]

سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب بن شادى، وله سنة ٥٧٦ أو سنة ٥٧٣ وتملك الديار المصرية تحت جناح والده عشرين سنة، وبعده عشرين سنة، فقد كان يتولى سلطنة مصر فى حياة والده العادل؛ وبعد موته استقل بالأمر فى جمادى الآخرة سنة ٦١٥ وكان أبوه قد عهد اليه لما رأى من ثباته وعقله وحزمه وسدادرأيه . وكان شجاعا ذكيا فطنا يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات، ويتكلم على صحيح مسلم بكلام مليح، ويثبت بين العدو. وأما عدله فكان اليه المنتهى . وأجاز له كثير من أئمة عصره . وكان محبا للحديث وأهله، حريصا على حفظه ونقله، وللعلم عنده شرف، ولأهله قدر وقيمة، وهو الذى بنى المدرسة الكاملية سنة ٦٢٢ وقد سبق الكلام فيها، وله كثير من أعمال البر والخير بمصر وغيرها، وله المواقف المشهودة فى الجهاد بدمياط المدة الطويلة، وأنفق الأموال الكثيرة، وكافح العدو المخذول برا وبحرا ليلا ونهارا ، وتوفى فى شهر رجب من سنة ٦٣٥ رحمه الله « أحمد يوسف نجاتى »

(١) لعلها « غدره »

(٢) لا تخفى التورية فى كلمة «فترة» والمعنى المورى عنه هو فتور الجفن « أحمد يوسف نجاتى »

***

أحمد بن يحيى الضبي

« وَمِنْهُمْ أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الضَّبِّيُّ* » رَحَلَ حَاجًّا، وَلَقِيَ بِبِجَايَةَ عَبْدَ الْحَقِّ الْأَشْبِيلِيَّ(١)، وَبِالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ أَبَا الطَّاهِرِ

* ترجم له فى كتاب الأعلام « ج ١ ص ٨٦ »

هو من علماء الأندلس ومن كبار مؤرخيها، ولد فى مدينة « بلسن » المعروفة اليوم باسم « روبيو بلانكو » وهى غربى مدينة « لورقة » وتلقى مبادئ العلم قبل أن يبلغ العاشرة من عمره، وقد ركب متن الأسفار فى شمالى افريقية، وطوف فى بلادها، فزار سبتة، ومراكش، وبجاية، ثم جاء الى الاسكندرية، والظاهر أنه أمضى أكثر عمره فى مدينة مرسية بالأندلس، وله تصانيف كثيرة أخنى عليها الدهر، وذهبت بها الأيام، ولم يبق منها الا « بغية الملتمس فى تاريخ الأندلس »

* ترجم له فى مذكرات أحمد زكى باشا

(١) هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدى الأشبيلى الخطيب ببجاية، ويعرف بابن الخراط، نزل ببجاية عند الفتنة الواقعة بالأندلس عند انقراض الدولة اللمتونية، فنشر بها علمه، وكان فقيها محدثا مشهورا حافظا زاهدا أديبا. ومن شعره :

يا راكب الردع للذاته ... كأنه فى أتن عير

وآكلا كل الذى يشتهى ... كأنه فى كلأ ثور

وناهضا ان يدع داعى الهوى ... كأنه من خفة طير

وكل ما يسمع أو ما يرى ... كأنما يعنى به الغير

ان كؤوس الموت بين الورى ... دائرة قد حثها السير

وقد تيقنت وان أبطأت ... أن سوف يأتيك بها الدور

ومن يكن فى سيره جائرا ... بالله ما فى سيرها جور

أَبْنَ عَوْفٍ(١) وَلَقِيَ غَيْرَ وَاحِدٍ فِي رِحْلَتِهِ ؛ كَالْغَزْنَوِيِّ(٢) ، وَأَبِي الثَّنَاءِ(٣) الْحَرَّانِيِّ ، وَأَبِي الْحُسَيْنِ الْحُرَيْثِيِّ(٤) ، وَلِلْحُرَيْثِيِّ أَحَادِيثُ سَاوَى بِهَا الْبُخَارِيَّ وَمُسْلِماً ، وَلَقِيَ جَمَاعَةً مِمَّنْ شَارَكَ السِّلَفِيَّ فِي شُيُوخِهِ

ولد سنة ٥١٠ وتوفى ببجاية سنة ٥٨١ وتقدم التعريف به بأوسع من هذا « أحمد يوسف نجاتى » (١) هو أبو الطاهر اسماعيل بن مكى بن اسمعيل ابن عيسى بن عوف الزهرى شيخ المالكية بثغر الاسكندرية، وسمع الحديث منه الملك العزيز ملك مصر ، وتوفى بسنة ٥٨١ « أحمد يوسف نجاتى »
(٢) لعله الفقيه بهاء الدين أبو الفضل محمد بن يوسف الحنفى المقرىء ، توفى بالقاهرة سنة ٥٩٩ وفى نسخة « كالعربوى » « أحمد يوسف نجاتى »
(٣) أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد بن الفضل الحرانى المحدث الحافظ الحنبلى المؤرخ ، توفى بحران سنة ٥٩٨ وتقدم التعريف به « أحمد يوسف نجاتى » (٤) لعله جد العلامة القدوة أبى عبد الله محمد بن محمد بن على بن حريث القرشى البلنسى ثم السبتى المالكى روى الموطأ عن أبى الربيع عن ابن بقى ولى خطابة سبتة ٣٠ عاما وتوفى بمكة سنة ٧٢٢ — وقد تكون « الحريثى » مصحفة عن « الحديثى » نسبة الى حديثة الموصل بليدة كانت على الجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى، ينسب اليها جماعة منهم أبو الحسن على ابن عبد الرحمن بن محمد بن بابويه الفقيه السمنجانى، نزل أصبهان وتوفى بها. وحديثة الفرات على فراسخ من الأنبار، ينسب اليها أيضا جماعة من أهل العلم والحديث؛ منهم قاضى القضاة ببغداد روح بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن صالح الحديثى الفقيه المحدث توفى سنة ٥٧٠ — وابنه أبو المعالى عبد الملك ابن روح، ومنهم أبو جعفر النفيس بن وهبان الحديثى السلمى توفى سنة ٥٩٩ وابنه الامام أبو نصر عبد الرحيم بن النفيس، كان عارفا بالحديث ورجاله وعلومه عالما أديبا قيما باللغة جدا وخاصة لغة الحديث ، فقيها مناظرا كريم الأخلاق توفى سنة ٦١٧ قتله التتر فى ثورتهم المشؤومة «أحمد يوسف نجاتى».

***

محمد بن أحمد ابن جبير

« وَمِنْهُمْ أَبُو ٱلْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُبَيْرٍ[١] ٱلْكِنَانِيُّ صَاحِبُ ٱلرِّحْلَةِ » وَهُوَ مِنْ وَلَدِ ضَمْرَةَ بْنِ بَكْرِ ابْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ[٢] أَنْدَلُسِيٌّ شَاطِبِيٌّ بَلَنْسِيٌّ ، مَوْلِدُهُ لَيْلَةَ ٱلسَّبْتِ عَاشِرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ بِبَلَنْسِيَةَ ، وَقِيلَ فِي مَوْلِدِهِ غَيْرُ ذَلِكَ؛ وَسَمِعَ مِنْ أَبِيهِ بِشَاطِبَةَ وَمِنْ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ ٱلْأَصِيلِيِّ، وَأَبِي ٱلْحَسَنِ بْنِ أَبِي ٱلْعَيْشِ[٣] ، وَأَخَذَ عَنْهُ ٱلْقِرَاءَاتِ. وَعُنِيَ بِالْأَدَبِ، فَبَلَغَ ٱلْغَايَةَ فِيهِ ، وَتَقَدَّمَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْقَرِيضِ وَٱلْكِتَابَةِ . وَمِنْ شِعْرِهِ قَوْلُهُ ـ وَقَدْ

---

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى الواصل الى الأندلس، دخل جده عبد السلام الأندلس فى ولاية بلج بن بشر بن عياض القشيرى فى أول سنة ١٢٣ وكان نزوله بكورة شذونة (٢) ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس، وهم رهط عمرو بن أمية الضمرى الصحابى رضى الله عنه « أحمد يوسف نجاتى » (٣) أبو الحسن على بن محمد بن أبى العيش الطرطوشى نزيل شاطبة، وتصدر للاقراء بها، وكان من أهل الفضل والصلاح توفى حوالى سنة ٥٦٠ « أحمد يوسف نجاتى » .

دَخَلَ إِلَى بَغْـدَادَ ، فَاقْتَطَعَ غُصْنًا نَضِيرًا مِنْ أَحَدِ بَسَاتِينِهَا فَذَوَى (١) فِي يَدِهِ ـ :

لَا تَغْـتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ ... وَاذْكُرْ تَصَارِيفَ ٱلنَّوَى

أَمَا تَرَى ٱلْغُصْنَ إِذَا ... مَافَارَقَ ٱلْأَصْلَ ذَوَى؟!

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى ـ يُخَاطِبُ ٱلصَّدْرَ ٱلْخُجَنْدِيَّ (٢) :

---

(١) ذبل وجف وزالت نضرته (٢) الصدر الخجندى هو أبو بكر صدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن محمد المهلبى الأزدى ثم الأصفهانى، كان اماما فاضلامناظرا شافعيا، صدر العراق فى زمانه على الاطلاق،جوادا مهيبا متقدما عنـد السلاطين يصدرون عن رأيه ، ورد بغداد، وتولى تدريس المدرسة النظامية، ووعظ بها وبجامع القصر،وكان كوزير ذاحشمة أشبه منه بالعلماء، يمشى والسيوف حوله مشهورة، وخرج من بغداد الى أصبهان، فنزل بقرية بين همذان والـكرخ ، فنام وهو فى عافية فأصبح ميتا، وذلك فى شهر شوال من سنة ٥٥٢ ـ قلت : ولهذا يبعد أن يكون هوالذى خاطبه ابن جبير ـ ان كان مولد ابن جبير سنة ٥٤٠ ـ فلعله خاطب ولده عبد اللطيف بن محمد بن عبداللطيف، كان فى عصره رئيس أصبهان فى العلم، وكان كأبيه فقيها فاضلا مقدما معظما مكينا أمينا لدى السلاطين والرعايا، تفقه على أبيه، ودرس بعده وأفتى ووعظ وأنشأ وسمع وحدث ، وتوفى بهمذان بعد عوده من الحجاز فى سنة ٥٨٠ عن ٤٨سنة ، وحمل الى أصبهان ودفن بها ، وابنه أبو بكر محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن عبد اللطيف بن محمد كان كذلك فقيها بارعا رئيسا كبيرا، عريقا فى الفضل والرياسة ، انتهت اليـه رياسة الشافعية بأصبهان بعد وفاة أبيه،وورد بغداد، فأنعم عليه الخليفة بما لم ينعم به على أحـد من أمثاله ، ورتب له وظائف جمة ، وتولى نظر النظامية والنظر فى أحوال الفقهاء ، ثم خرج مع الوزير الى أصبهان، واستولى عليها، وولى الخليفة

يَا مَنْ حَوَاهُ ٱلدِّينُ فِي عَصْرِهِ صَدْرًا يَحُلُّ ٱلْعِلْمُ مِنْهُ فُؤَادْ

مَاذَا يَرَى سَيِّدُنَا ٱلْمُرْتَضَى فِي زَائِرٍ يَخْطُبُ مِنْهُ ٱلْوِدَادْ؟

لَا يَبْتَغِي مِنْهُ سِوَى أَحْرُفٍ يَعْتَدُّهَا أَشْرَفَ ذُخْرٍ يُفَادْ

تَرْسِمُهَا أَنْمُلُهُ مِثْلَ مَا

نَمَّقَ زَهْرَ ٱلرَّوْضِ كَفُّ ٱلْعِهَادْ (١)

فِي رُقْعَةٍ كَٱلصُّبْحِ أَهْدَى لَهَا يَدُ ٱلْمَعَالِي مِسْكَ لَيْلِ ٱلْمِدَادْ

إِجَازَةً يُورِثُنِيهَا ٱلْعُلَا جَائِزَةً تَبْقَى وَتَفْنَى ٱلْبِلَادْ

بها سنقر الطويل من أمراء بغداد، وأذن لابن الخجندي في المقام بها، فجرت بينه وبين الأمير سنقر وحشة، فيقال انه دس عليه من قتله، وذلك في احدى الجماديين من سنة ٥٩٢ وسمع شيئا من الحديث، الا أنه لم يبلغ سن الرواية عنه . وهم منسوبون الى خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون ، وكانت مدينة نزهة، ولم يكن بذلك الصقع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهر جار، والجبل متصل بها، وفيها قيل:

ولم أر بلدة بازاء شرق ولا غرب بأنزه من خجنده

هى الغراء تعجب من رآها وهي بالفارسية «دل مزنده»

وفي أهلها جمال ومروءة، وينسب اليها كثير من أهل العلم «أحمد يوسف نجاتى»

(١) العهاد والعهد: أول المطر الوسمى، وعهد المكان: عمه المطر ، والعهاد أيضا: المطر بعد المطر يدرك آخره بلل أوله، وهو جمع عهد أو عهدة ، ومنه قول الساجع: أصابتنا ديمة بعد ديمه، على عهاد غير قديمه، تشبع منها الناب قبل العظيمه « أحمد يوسف نجاتى »

يُسْتَصْحَبُ ٱلشُّكْرُ خَدِيمًا لَهَا
وَٱلشُّكْرُ لِلأَمْجَادِ أَسْنَى عَتَادْ[1]

فَأَجَابَهُ ٱلصَّدْرُ ٱلْخُجَنْدِيُّ :

لَكَ ٱللّٰهُ مِنْ خَاطِبٍ خُلَّتِي
وَمِنْ قَابِسٍ يَجْتَدِي سَقْطَ زَنْدِي[2]

أَجَزْتُ لَهُ مَا أَجَازُوهُ لِي وَمَا حَدَّثُوهُ، وَمَا صَحَّ عِنْدِي

وَكَاتِبُ هٰذِي ٱلسُّطُورِ ٱلَّتِي
تَرَاهُنَّ عَبْدُ ٱللَّطِيفِ ٱلْخُجَنْدِي[3]

وَرَافَقَ ٱبْنَ جُبَيْرٍ فِي هٰذِهِ ٱلرِّحْلَةِ[4] أَبُو جَعْفَرٍ أَحْمَدُ ٱبْنُ حَسَّانَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْقُضَاعِيُّ، وَأَصْلُهُ مِنْ أُنْدَةَ[5].

---

(١) العتاد: العدة لأمر ما تهيئه له، وجمعه أعتد وأعتدة وعتد « بضمتين »
(٢) الخلة: الصداقة والمودة ، وقبس منه نارا « كضرب » واقتبسها: أخذها، وقبس من العلم، والعلم، واقتبس: اذا أخذ واستفاد، والقبس: النار أو الشعلة منها تقتبس، أي تؤخذ من معظم النار — وفى حديث على: حتى أورى قبسا لقابس — أى أظهر نورا من العلم والحق لطالبه . واجتدى: سأل وطلب . والسقط: ماسقط بين الزندين قبل القدح واستحكام الورى (٣) صح مارجحناه من أن الخاطب هو عبد اللطيف بن الصدر الخجندى كما تقدم « أحمد يوسف نجاتى » (٤) كانت هذه الرحلة فى شوال سنة ٥٧٨ ثم عاد الى وطنه غرناطة فى المحرم سنة ٥٨١ « أحمد يوسف نجاتى » (٥) أندة onda مدينة كانت من أعمال بلنسية كثيرة المياه والرساتيق والشجر

مِنْ عَمَلِ بَلَنْسِيَةَ ، رَحَلَ مَعَهُ ، فَأَدَّيَا الْفَرِيضَةَ ، وَسَمِعَا بِدِمَشْقَ مِنْ أَبِي الطَّاهِرِ الْخُشُوعِيِّ(١) ، وَأَجَازَ لَهُمَا أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ أَبِي عَصْرُونَ(٢) ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ بْنُ عَسَاكِرَ(٣) وَغَيْرُهُمَا،

وخاصة التين ، وكانت دار القضاعيين؛ منهم أبو عمر يوسف بن خيرون القضاعي الأندى، دخل بغداد سنة ٥٠٤ وسمع من الحريري مقاماته، وعاد الى المغرب، فهو أول من دخلها بالمقامات ، ومنهم أبو الحجاج يوسف بن على ابن محمد بن عبد الله بن على بن محمد القضاعى الأندى توفى سنة ٥٤٢.

(١) أبو طاهر بركات بن ابراهيم بن طاهر الدمشقى الخشوعى توفى سنة ٥٩٨. وتقدم التعريف به « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هو قاضى القضاة شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن على بن أبى عصرون التميمى الحديثى ثم الموصلى، أحد الأعلام، وفقيه الشام، ولد سنة ٤٩٢ وتفقه بالموصل، وأخذ ببغداد وواسط وغيرها ، وعاد الى الموصل بعلوم جمة، ودرس بها وأفتى، ثم سكن سنجار مدة، ثم قدم حلب ودرس بها، وولى القضاء لصلاح الدين سنة ٥٧٣ وله مؤلفات جمة مفيدة، وتوفى سنة ٥٨٥ - ومحيي الدين أبو الخطاب عمر بن محمد بن القاضى أبى سعد عبد الله بن محمد، درس بمدرسة جده بدمشق، وتوفى فجأة سنة ٦٨٢ والشيخ قطب الدين أبو المعالى أحمد ابن عبد السلام بن المطهر بن أبى سعد بن أبى عصرون، ولد سنة ٥٩٢ وتوفى بحلب سنة ٦٩٢ ونور الدين محمود بن القاضى نجم الدين عبد الرحمن بن أبى سعد بن أبى عصرون، توفى سنة ٦٩١ - وابن عصرون أيضا تاج الدين محمد بن عبد السلام بن المطهر بن عبد الله بن أبى سعد بن عصرون، كان عالما محدثا جليلا ، توفى سنة ٦٩٥ « أحمد يوسف نجاتى ».

(٣) أبو محمد القاسم بن الحافظ أبى القاسم على بن الحسن بن عساكر الدمشقى المحدث الشافعى، كان راوية فقيها جليلا حسن المعرفة شديد الورع ذا دعابة لطيفة ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية بعد والده، فلم يتناول

وَدَخَلا بَغْدَادَ، وَتَجَوَّلا مُدَّةً، ثُمَّ قَفَلا جَمِيعًا إِلَى الْمَغْرِبِ، فَسُمِعَ مِنْهُمَا بِهِ بَعْضُ مَا كَانَ عِنْدَهُمَا - وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ هَذَا مُتَحَقِّقًا بِعِلْمِ الطِّبِّ، وَلَهُ فِيهِ تَقْيِيدٌ مُفِيدٌ، مَعَ الْمُشَارَكَةِ الْكَامِلَةِ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ « وَكَتَبَ عَنِ السَّيِّدِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ[1] » وجَدُّهُ لِأُمِّهِ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَقِّ ابْنُ عَطِيَّةَ[2]، وتُوُفِّيَ أَبُو جَعْفَرٍ هٰذَا بِمُرَّاكِش سَنَةَ ثَمَانٍ

من معلومها شيئا ، بل كان يرصده للواردين من الطلبة وتوفى سنة ٦٠٠ وأخذ ابن جبير عن أبى القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأخضر بن على بن عساكر « أحمد يوسف نجاتى » (١) وضعنا هـذه العبارة بين قوسين لأنى أعرف أن الذى كتب عن السيد أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ابن على هو ابن جبير، كتب له بمدينة سبته ، كما كتب بغرناطة عن غيره من ذوى قرابته، وله فيهم أمداح كثيرة، فهى عبارة معترضة بين الحديث عن أبى جعفر القضاعى ، وفى الأصل « ومنهم السيد أبو سعيد الخ » وهو كلام غير مفهوم ــ ولعل أباجعفر القضاعى كتب أيضا لأبى سعيد بن عبد المؤمن وكان أبو سعيد هذا من أعوان أخيه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وقد انتصر فى عهده على الافرنج بالأندلس سنة ٥٦٠ وكان عاملا لأخيه على غرناطة اذ ذاك ، وتوفى أبو سعيد هذا سنة ٥٧١ بمدينة مراكش فى طاعون جارف مات فيه أيضا أخوه أبو عمران موسى بن عبد المؤمن صاحب تلمسان، والسيد أبو زكريا يحي صاحب بجاية، وكانوا قد وفدوا اليها صحبة جيوش كثيرة من العرب والبربر، لعزم أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن على غزو الفرنج بالأندلس، ونهض اليها، واستخلف على مراكش أخاه موسى « أحمد يوسف نجاتى » (٢) أبو محمد عبد الحق بن غالب

أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَلَمْ يَبْلُغِ الْخَمْسِينَ فِي سِنِّهِ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ

« رَجْعٌ إِلَى ابْنِ جُبَيْرٍ » قَالَ لِسَانُ الدِّينِ فِي حَقِّهِ: إِنَّهُ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ بِالْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي الْآدَابِ. وَلَهُ الرِّحْلَةُ الْمَشْهُورَةُ(١) . وَاشْتَهَرَتْ فِي السُّلْطَانِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ لَهُ قَصِيدَتَانِ ، إِحْدَاهُمَا أَوَّلُهَا :

أَطَلَّتْ عَلَى أُفْقِكَ الزَّاهِرِ سُعُودٌ مِنَ الْفَلَكِ الدَّائِرِ

وَمِنْهَا :

رَفَعْتَ مَغَارِمَ مَكْسِ الْحِجَازِ بِإِنْعَامِكَ الشَّامِلِ الْغَامِرِ

ابن عبد الرحمن بن عطية المحاربى من أهل غرناطة ، كان واسع المعرفة قوى الأدب متفننا فى العلوم توفى سنة ٥٤٢ « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) وقال لسان الدين : كان ابن جبير شاعرا مجيدا سنيا فاضلا ، نزيه الهمة سرى النفس، كريم الأخلاق، أنيق الطريقة ، وجرت بينه وبين طائفة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته، ونظمه فائق، ونثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة، وذكره شهير، ورحلته نسيجة وحدها، طارت كل مطار، ذكر مانقله فيها وما شاهده من عجائب البلدان وغرائب المشاهد وبدائع الصنائع، وهو كتاب مؤنس ممتع مثير سواكن الأنفس الى تلك المعالم، وكان أبو الحسن الشادى يقول: انها ليست من تصانيفه، وانما قيد معانى ماتضمنته، فتولى ترتيبها وتنضيد معانيها بعض الآخذين عنه على ماتلقاه . والله أعلم « أحمد يوسف نجاتى »

وَآمَنْتَ أَكْنَافَ تِلْكَ الْبِلَادْ فَهَانَ السَّبِيلُ عَلَى الْعَابِرِ
وَسُحْبُ أَيَادِيكَ فَيَّاضَةٌ عَلَى وَارِدٍ وَعَلَى صَادِرِ
فَكَمْ لَكَ بِالشَّرْقِ مِنْ حَامِدٍ وَكَمْ لَكَ بِالْغَرْبِ مِنْ شَاكِرِ

وَالْأُخْرَى مِنْهَا فِي الشَّكْوَى مِنِ ابْنِ شُكْرٍ[1] الَّذِي كَانَ أَخَذَ الْمَكْسَ مِنَ النَّاسِ فِي الْحِجَازِ :

وَمَا نَالَ الْحِجَازُ بِكُمْ صَلَاحًا وَقَدْ نَالَتْهُ مِصْرٌ وَالشَّآمُ

وَمِنْ شِعْرِهِ :

أَخِلَاءُ هٰذَا الزَّمَانِ الْخَوُنْ تَوَالَتْ عَلَيْهِمْ حُرُوفُ الْعِلَلْ
قَضَيْتُ التَّعَجُّبَ مِنْ بَابِهِمْ فَصِرْتُ أُطَالِعُ بَابَ الْبَدَلْ

وَقَوْلُهُ :

غَرِيبٌ تَذَكَّرَ أَوْطَانَهُ فَهَيَّجَ بِالذِّكْرِ أَشْجَانَهُ
يَحُلُّ عُرَا صَبْرِهِ بِالْأَسَى وَيَعْقِدُ بِالنَّجْمِ أَجْفَانَهُ

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ لَمَّا رَأَى الْبَيْتَ الْحَرَامَ ـ زَادَهُ اللهُ شَرَفاً وَمَهَابَةً وَتَعْظِيماً :

---

(١) تقدم التعريف بابن شكر الصاحب الوزير صفى الدين أبى محمد عبد الله ابن الحسين المتوفى سنة ٦٢٢ وكان يبالغ فى اقامة النواميس ـ وبالوزير صفى الدين أبى عبد الله محمد بن شكر ، وتوفى ذلك العام، وكانت له بدمشق آثار حسنة «أحمد يوسف نجاتى »

بَدَتْ لِيَ أَعْلَامُ بَيْتِ الْهُدَى ... بِمَكَّةَ ، وَالنُّورُ بَادٍ عَلَيْهِ
فَأَحْرَمْتُ شَوْقًا لَهُ بِالْهَوَى ... وَأَهْدَيْتُ قَلْبِيَ هَدْيًا إِلَيْهِ (١)

وَقَوْلُهُ يُخَاطِبُ مَنْ أَهْدَى إِلَيْهِ مَوْزًا :

يَا مُهْدِيَ الْمَوْزِ تَبْقَى ... وَمِيمُهُ لَكَ فَاءُ
وَزَايُهُ عَنْ قَرِيبٍ ... لِمَنْ يُعَادِيكَ تَاءُ

وَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

قَدْ ظَهَرَتْ فِي عَصْرِنَا فِرْقَةٌ ... ظُهُورُهَا شُؤْمٌ عَلَى الْعَصْرِ
لَا تَقْتَدِي فِي الدِّينِ إِلَّا بِمَا ... سَنَّ ابْنُ سِينَا وَأَبُو نَصْرِ (٢)

وَقَالَ :

---

(١) وقال فى هذا الغرض :

هنيئا لمن حج بيت الهدى ... وحط عن النفس أوزارها
فان السعادة مضمونة ... لمن حج طيبة أوزارها

وقال :

اذا بلغ المرء أرض الحجاز ... فقد نال أفضل ماأمله
وان زار قبر نبى الهدى ... فقد كمل الله ماأم له

أم بمعنى قصد، ولا يخفى الجناس التام فى البيتين واللذين قبلهما «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) يريد الرئيس أبا على الحسين بن عبد الله بن سينا الحكيم المشهور المتوفى سنة ٤٢٨ وأبا نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ الفارابى التركى الحكيم المشهور أكبر فلاسفة المسلمين فى عصره ، وتوفى سنة ٣٣٩ وبكتب الفارابى تخرج ابن سينا، وبكلامه انتفع فى تصانيفه ـ رحمهما الله « أحمد يوسف نجاتى » .

يَاوَحْشَةَ ٱلْإِسْلَامِ مِنْ فِرْقَةٍ
شَاغِلَةٍ أَنْفُسَهَا بِالسَّفَهْ
قَدْ نَبَذَتْ دِينَ ٱلْهُدَى خَلْفَهَا
وَٱدَّعَتِ ٱلْحِكْمَةَ وَٱلْفَلْسَفَهْ

وَقَالَ :

ضَلَّتْ بِأَفْعَالِهَا ٱلشَّنِيعَهْ طَائِفَةٌ عَنْ هُدَى ٱلشَّرِيعَهْ
لَيْسَتْ تَرَى فَاعِلًا حَكِيمًا يَفْعَلُ شَيْئًا سِوَى ٱلطَّبِيعَهْ

وَكَانَ ٱنْفِصَالُهُ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى - مِنْ غَرْنَاطَةَ بِقَصْدِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَشْرِقِيَّةِ أَوَّلَ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ ٱلثَّامِنِ لِشَوَّالٍ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمائَةٍ ، وَوَصَلَ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَوْمَ ٱلسَّبْتِ ٱلتَّاسِعَ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ ذِي ٱلْقَعْدَةِ ٱلْحَرَامِ مِنَ ٱلسَّنَةِ ، فَكَانَتْ إِقَامَتُهُ عَلَى مَتْنِ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلْأَنْدَلُسِ إِلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا ، وَنَزَلَ ٱلْبَرَّ ٱلْإِسْكَنْدَرَانِيَّ فِي ٱلْحَادِي وَٱلثَّلَاثِينَ ، وَحَجَّ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى - وَتَجَوَّلَ فِي ٱلْبِلَادِ ، وَدَخَلَ ٱلشَّامَ وَٱلْعِرَاقَ وَٱلْجَزِيرَةَ وَغَيْرَهَا . وَكَانَ - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى - كَمَا قَالَ ٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ: مِنْ أَعْلَامِ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْعَارِفِينَ بِاللَّهِ ، كَتَبَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ عَنِ ٱلسَّيِّدِ

أَبِي سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ صَاحِبِ غَرْنَاطَةَ (١) ، فَاسْتَدْعَاهُ لِأَنْ يَكْتُبَ عَنْهُ كِتَابًا وَهُوَ عَلَى شَرَابِهِ ،فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهِ بِكَاسٍ فَأَظْهَرَ ٱلِانْقِبَاضَ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي مَا شَرِبْتُهَا قَطُّ ،فَقَالَ: وَٱللهِ لَتَشْرَبَنَّ مِنْهَا سَبْعًا ، فَلَمَّا رَأَى ٱلْعَزِيمَةَ شَرِبَ سَبْعَ أَكْؤُسٍ، فَمَلَأَ لَهُ ٱلسَّيِّدُ ٱلْكَاسَ مِنْ دَنَانِيرَ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَصَبَّ ذَلِكَ فِي حِجْرِهِ ، فَحَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَأَضْمَرَ أَنْ يَجْعَلَ كَفَّارَةَ شُرْبِهِ ٱلْحَجَّ بِتِلْكَ ٱلدَّنَانِيرِ ، ثُمَّ رَغِبَ إِلَى ٱلسَّيِّدِ، وَأَعْلَمَهُ أَنَّهُ حَلَفَ بِأَيْمَانٍ لَا خُرُوجَ لَهُ عَنْهَا أَنَّهُ يَحُجُّ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةَ ، فَأَسْعَفَهُ وَبَاعَ مِلْكًا لَهُ تَزَوَّدَ بِهِ ،وَأَنْفَقَ تِلْكَ ٱلدَّنَانِيرَ فِي سَبِيلِ ٱلْبِرِّ.

وَمِنْ شِعْرِهِ فِي جَارِيَةٍ تَرَكَهَا بِغَرْنَاطَةَ :

طُولُ ٱغْتِرَابٍ وَبَرْحُ شَوْقٍ — لَا صَبْرَ وَٱللهِ لِي عَلَيْهِ
إِلَيْكَ أَشْكُو ٱلَّذِي أُلَاقِي — يَا خَيْرَ مَنْ يُشْتَكَى إِلَيْهِ
وَلِي بِغَرْنَاطَةٍ حَبِيبٌ — قَدْ غَلِقَ ٱلرَّهْنُ فِي يَدَيْهِ (٢)

(١) سبق قريبا أن شرحنا ذلك وفصلنا القول فيه « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) غلق الرهن « كفرح » استحقه المرتهن، وذلك اذا لم يفتك فى الوقت المشروط، فبقى فى يد المرتهن لايقدر راهنه على تخليصه ، قال زهير بن أبى سلمى يذكر امرأته :

وفارقتك برهن لافكاك له — يوم الوداع، فأمسى الرهن قدغلقا

وَدَّعْتُهُ وَهْوَ فِي دَلَالٍ يُظْهِرُ لِي بَعْضَ مَا لَدَيْهِ[١]

فَلَوْ تَرَى طَلَّ نَرْجِسَيْهِ يَنْهَلُّ فِي وَرْدِ وَجْنَتَيْهِ[٢]

أَبْصَرْتَ دُرًّا عَلَى عَقِيقٍ مِنْ دَمْعِهِ فَوْقَ صَفْحَتَيْهِ

وَلَهُ رِحْلَةٌ مَشْهُورَةٌ بِأَيْدِي ٱلنَّاسِ . وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ تَذَكَّرَ بَلَدَهُ فَقَالَ :

سَقَى ٱللّٰهُ بَابَ ٱلطَّاقِ صَوْبَ غَمَامَةٍ

وَرَدَّ إِلَى ٱلْأَوْطَانِ كُلَّ غَرِيبِ[٣]

انْتَهَى .

يقول انها ارتهنت قلبه لديها فلم يقدر على افتكاكه، فصار ملكا لها. وقال آخر

هل من نجاز لموعود بخلت به؟! أو للرهين الذى استغلقت من فادى؟!

وقال عمارة بن صفوان الضبي :

أجارتنا من يجتمع يتفرق ومن يك رهنا للحوادث يغلق

ويقال : غلق قلبه فى يد من يهوى- وقوم مغاليق : يغلق الرهن على أيديهم « أحمد يوسف نجاتى »(١) فى الأصل «ودعته وهو بارتحاض» وآثرنا هنا ما رأيناه فى نسخة أخرى « أحمد يوسف نجاتى » (٢) يريد بالطل الدمع، وبنرجسيه عينيه ، وينهل: ينصب ويهطل (٣) باب الطاق: محلة كبيرة كانت ببغداد بالجانب الشرقى ، تعرف بطاق أسماء، بين الرصافة ونهر المعلى، تنسب الى أسماء بنت المنصور، وعند هذا الطاق كان يجلس الشعراء فى أيام الرشيد، واجتاز به عبد الله بن طاهر بن الحسين ، فرأى قمرية تنوح، فأمر بشرائها واطلاقها، فاشتريت بثمن باهظ ، وأنشد عبد الله يقول :

ناحت مطوقة بباب الطاق فجرت سوابق دمعى المهراق

***

وصف دمشق فى رحلة ابن جبير

وَقَالَ فِي رِحْلَتِهِ فِي حَقِّ دِمَشْقَ : جَنَّةُ ٱلْمَشْرِقِ، وَمَطْلَعُ حُسْنِهِ ٱلْمُونِقِ[1] ٱلْمُشْرِقِ، وَهِيَ خَاتِمَةُ بِلَادِ ٱلْإِسْلَامِ ٱلَّتِي ٱسْتَقْرَيْنَاهَا[2]، وَعَرُوسُ ٱلْمُدُنِ ٱلَّتِي ٱجْتَلَيْنَاهَا، ٱلَّتِي قَدْ تَحَلَّتْ بِأَزَاهِيرِ ٱلرَّيَاحِينِ، وَتَجَلَّتْ فِي حُلَلٍ سُنْدُسِيَّةٍ مِنَ ٱلْبَسَاتِينِ، وَحَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِ ٱلْحُسْنِ بِالْمَكَانِ ٱلْمَكِينِ، وَتَزَيَّنَتْ فِي مِنَصَّتِهَا[3] أَجْمَلَ تَزْيِينٍ، وَتَشَرَّفَتْ بِأَنْ آوَى ٱللَّهُ تَعَالَى ٱلْمَسِيحَ وَأُمَّهُ مِنْهَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ[4]، ظِلٌّ ظَلِيلٌ، وَمَاءٌ

كانت تغرد بالأراك ، وربما	كانت تغرد فى فروع الساق
فرمى الفراق بها العراق، فأصبحت	بعد الأراك تنوح فى الأسواق
فجعت بأفرخها ، فأسبل دمعها	ان الدموع تبوح بالمشتاق
تعس الفراق، وبت حبل وتينه	وسقاه من سم الأساود ساق
ماذا أراد بقصده قمرية	لم تدر ما بغداد فى الآفاق؟!
بى مثل مابك ياحمامة ، فاسألى	من فك أسرك أن يحل وثاقى

وبت: قطع، والوتين: عرق فى القلب اذا انقطع مات صاحبه ،استعير للفراق بتشبيهه بعدو يستحق الهلاك وأن يدعى عليه بالموت . والأساود: الحيات، وقد روى أن صاحب القصة فى اطلاق القمرية هو اليمان بن أبى اليمان الشاعر البندنيجى الضرير الرقيق ـ هذا ويروى: سقى الله الأرض الغرب ، بدل: باب الطاق ـ « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) المونق : الحسن المعجب (٢) أى تتبعناها وجبناها (٣) المنصة : ماترفع عليه العروس عند جلوتها كسرير أو كرسى، ونص العروس: اذا أقعدها على المنصة لترى من بين النساء (٤) هذا من قوله تعالى « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » والآية هى الولادة على

سَلْسَبِيلٌ(١) تَنْسَابُ مَذَانِبُهُ(٢) أُنْسِيَابَ ٱلْأَرَاقِمِ بِكُلِّ سَبِيلٍ، وَرِيَاضٌ يُحْيِي ٱلنُّفُوسَ نَسِيمُهَا ٱلْعَلِيلُ، تَتَبَرَّجُ لِنَاظِرِيهَا بِمُجْتَلًى صَقِيلٍ، وَتُنَادِيهِمْ: هَلُمُّوا إِلَى مُعَرَّسٍ لِلْحُسْنِ وَمَقِيلٍ(٣)، قَدْ سَئِمَتْ أَرْضُهَا كَثْرَةَ ٱلْمَا، حَتَّى أَشْتَاقَتْ إِلَى ٱلظَّمَا، فَتَكَادُ تُنَادِيكَ بِهَا ٱلصُّمُّ ٱلصِّلَابُ «ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» قَدْ أَحْدَقَتْ بِهَا ٱلْبَسَاتِينُ إِحْدَاقَ ٱلْهَالَةِ بِالْقَمَرِ، وَٱكْتَنَفَتْهَا ٱكْتِنَافَ ٱلْكِمَامَةِ(٤) لِلزَّهَرِ، وَٱمْتَدَّتْ

الوجه العجيب الناقض للعادة ، والربوة هى الأرض المرتفعة ــ والأكثرون على أنها دمشق وغوطتها ــ والقرار: المستقر من الأرض المنبسطة المستوية ، والمعين : الماء الظاهر الجارى على وجه الأرض؛ من عانه يعينه: اذا أدركه بعينه، أو من عان الماء يعينه: اذا استنبطه « فوزنه مفعول وأصله معيون » وان شئت جعلته « فعيلا » من المعن: وهو الشىء السهل الذى لا يجد معطيه أى صعوبة؛ لأنه ينقاد ولا يتعاصى ، أو أنه نفاع لظهوره وجريه، مشتقا من الماعون: وهو المنفعة « أحمد يوسف نجاتى » (١) ظل ظليل: أى ممتد وارف والسلسبيل: السهل المدخل فى الحلق فى غاية السهولة (٢) المذانب : جمع مذنب، وهو مسيل ما بين التلعتين، أو هو مسيل الماء الى الأرض ، والأراقم جمع أرقم: وهو الحية، أو ما فيه سواد وبياض ، أو رقم بحمرة وسواد وكدرة وبغثة (٣) المعرس: موضع التعريس: وهو النزول ليلا للاستراحة من عناء السفر، والمقيل: موضع القيلولة؛ وهى النوم نصف النهار ، والقائلة: الظهيرة نصف النهار ، وقال يقيل: اذا نام فيه (٤) الكمامة : غلاف النور أو الغطاء الزهرى « أحمد يوسف نجاتى » .

بِشَرْقِيِّهَا غُوطَتُهَا ٱلْخَضْرَاءِ ٱمْتِدَادَ ٱلْبَصَرِ ، فَكُلُّ مَوْقِعِ لَحْظَةٍ بِجِهَاتِهَا ٱلْأَرْبَعِ نُضْرَتُهُ ٱلْيَانِعَةُ قَيْدُ ٱلنَّظَرِ ، وَلِلَّهِ صِدْقُ ٱلْقَائِلِينَ فِيهَا: إِنْ كَانَتِ ٱلْجَنَّةُ فِي ٱلْأَرْضِ فَدِمَشْقُ لَا شَكَّ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلسَّمَاءِ فَهِيَ بِحَيْثُ تُسَامِتُهَا[1] وَتُحَاذِيهَا. قَالَ ٱلْعَلَّامَةُ ٱبْنُ جَابِرٍ ٱلْوَادِي آشِيُّ[2] بَعْدَ ذِكْرِهِ وَصْفَ ٱبْنِ جُبَيْرٍ لِدِمَشْقَ مَا نَصُّهُ: وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِيمَا وَصَفَ مِنْهَا وَأَجَادَ، وَتَوَّقَ ٱلْأَنْفُسَ لِلتَّطَلُّعِ عَلَى صُورَتِهَا بِمَا أَفَادَ، هَذَا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ بِهَا إِقَامَةٌ ، فَيُعْرِبَ عَنْهَا بِحَقِيقَةِ عَلَامَةٍ ، وَمَا وَصَفَ ذَهَبِيَّاتِ أَصِيلِهَا وَقَدْ حَانَ مِنَ ٱلشَّمْسِ غُرُوبٌ ، وَلَا أَزْمَانَ فُصُولِهَا ٱلْمُتَنَوِّعَاتِ ، وَلَا أَوْقَاتَ سُرُورِهَا ٱلْمُهَنِّئَاتِ ، وَلَقَدْ أَنْصَفَ مَنْ قَالَ: أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُ ٱلْأَلْسُنُ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ . ٱنْتَهَى .

---

(١) تقابلها وتوازيها . قلت: وهذا معنى قول الشاعر فى أوائل الكتاب :

ان تكن جنة الخلود بأرض فدمشق ، ولا يكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها قد أمدت هواءها وهواها

وان كان البيت الثانى قد يحتمل معنى آخر « أحمد يوسف نجاتى » (٢) أبو عبد الله محمد بن جابر القيسى الوادى آشى الأديب المؤرخ، روى عن الشيخ المقرئ المحدث أبى عبد الله محمد بن حيان الأوسى الأندلسى نزيل تونس، وهو منسوب الى وادى آش Guadix كان من اقليم البيرة vera الذى منه مدينة غرناطة، وتقدم وصف هذا الوادى والتعريف به «أحمد يوسف نجاتى»

***

وصف مسجد دمشق

« رَجْعُ إِلَى كَلامِ ابْنِ جُبَيْرٍ » فَنَقُولُ: ثُمَّ ذَكَرَ فِي وَصْفِ الْجَامِعِ أَنَّهُ مِنْ أَشْهَرِ جَوَامِعِ الْإِسْلَامِ حُسْنًا، وَإِتْقَانَ بِنَاءٍ، وَغَرَابَةَ صَنْعَةٍ، وَاحْتِفَالَ تَنْمِيقٍ وَتَزْيِينٍ، وَشُهْرَتُهُ الْمُتَعَارَفَةُ فِي ذَلِكَ تُغْنِي عَنِ اسْتِغْرَاقِ الْوَصْفِ فِيهِ. وَمِنْ عَجِيبِ شَأْنِهِ أَنَّهُ لَا تَنْسِجُ بِهِ الْعَنْكَبُوتُ، وَلَا تَدْخُلُهُ، وَلَا تُلِمُّ بِهِ الطَّيْرُ الْمَعْرُوفَةُ بِالْخُطَّافِ. ثُمَّ مَدَّ النَّفَسَ فِي وَصْفِ الْجَامِعِ وَمَا بِهِ مِنَ الْعَجَائِبِ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ عِدَّةِ أَوْرَاقٍ مَا نَصُّهُ: وَعَنْ يَمِينِ الْخَارِجِ مِنْ بَابِ جَيْرُونَ (١) فِي جِدَارِ الْبَلَاطِ الَّذِي أَمَامَهُ غُرْفَةٌ، وَلَهَا هَيْئَةُ طَاقٍ كَبِيرٍ مُسْتَدِيرٍ فِيهِ طِيقَانُ صُفْرٌ وَقَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابًا صِغَارًا عَلَى عَدَدِ سَاعَاتِ النَّهَارِ، وَدُبِّرَتْ تَدْبِيرًا هَنْدَسِيًّا، فَعِنْدَ انْقِضَاءِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ تَسْقُطُ صَنْجَتَانِ (٢) مِنْ صُفْرٍ مِنْ فَمَيْ بَازِيَيْنِ مُصَوَّرَيْنِ مِنْ صُفْرٍ قَائِمَيْنِ عَلَى طَاسَيْ

(١) اسم باب من أبواب مسجد دمشق هو بابه الشرقى، كان فيه فوارة ينزل عليها بدرج كثيرة فى حوض من رخام وقبة خشب، يعلو ماؤها نحو الرمح وقد نسب اليه بعض الرواة؛ منهم هبة الله بن أحمد بن عبد الله بن على بن طاوس المقرئ الجيرونى امام جامع دمشق، كان محدثا ثقة، توفى سنة ٥٣٦

(٢) الصنجة: صفيحة مدورة من النحاس يضرب بها على أخرى مثلها فى الطرب، والصفر: النحاس « أحمد يوسف نجاتى »

صُفْرٍ تَحْتَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، أَحَدُهُمَا تَحْتَ أَوَّلِ بَابٍ مِنْ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ، وَالثَّانِي تَحْتَ آخِرِهَا، وَالطَّاسَتَانِ مَثْقُوبَتَانِ، فَعِنْدَ
وُقُوعِ الْبُنْدُقَتَيْنِ فِيهِمَا تَعُودَانِ دَاخِلَ الْجِدَارِ إِلَى الْغُرْفَةِ، وَتُبْصِرُ
الْبَازَيَيْنِ يَمُدَّانِ أَعْنَاقَهُمَا بِالْبُنْدُقَتَيْنِ إِلَى الطَّاسَيْنِ، وَيَقْذِفَانِهِمَا
بِسُرْعَةٍ بِتَدْبِيرٍ عَجِيبٍ تَتَخَيَّلُهُ الْأَوْهَامُ سِحْرًا، وَعِنْدَ وُقُوعِ
الْبُنْدُقَتَيْنِ فِي الطَّاسَتَيْنِ يُسْمَعُ لَهُمَا دَوِيٌّ، وَيَنْغَلِقُ الْبَابُ الَّذِي هُوَ
لِتِلْكَ السَّاعَةِ لِلْحِينِ بِلَوْحٍ مِنَ الصُّفْرِ، لَا يَزَالُ كَذَلِكَ عِنْدَ
انْقِضَاءِ كُلِّ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ، حَتَّى تَنْغَلِقَ الْأَبْوَابُ كُلُّهَا، وَتَنْقَضِيَ
السَّاعَاتُ، ثُمَّ تَعُودُ إِلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ. وَلَهَا بِاللَّيْلِ تَدْبِيرٌ آخَرُ؛
وَذَلِكَ أَنَّ فِي الْقَوْسِ الْمُنْعَطِفِ عَلَى تِلْكَ الطِّيقَانِ الْمَذْكُورَةِ
اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دَائِرَةً مِنَ النُّحَاسِ مُخَرَّمَةً، وَتَعْتَرِضُ فِي كُلِّ
دَائِرَةٍ زُجَاجَةٌ مِنْ دَاخِلِ الْجِدَارِ فِي الْغُرْفَةِ مُدَبَّرَةٌ ذَلِكَ كُلُّهُ
مِنْهَا خَلْفَ الطِّيقَانِ الْمَذْكُورَةِ، وَخَلْفَ الزُّجَاجَةِ مِصْبَاحٌ
يَدُورُ بِهِ الْمَاءُ عَلَى تَرْتِيبِ مِقْدَارِ السَّاعَةِ، فَإِذَا انْقَضَتْ عَمَّ
الزُّجَاجَةَ ضَوْءُ الْمِصْبَاحِ، وَفَاضَ عَلَى الدَّائِرَةِ أَمَامَهَا شُعَاعُهَا
فَلَاحَتْ لِلْأَبْصَارِ دَائِرَةٌ مُحْمَرَّةٌ، ثُمَّ انْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأُخْرَى
حَتَّى تَنْقَضِيَ سَاعَاتُ اللَّيْلِ، وَتَحْمَرَّ الدَّوَائِرُ كُلُّهَا، وَقَدْ وُكِّلَ

بِهَا فِي ٱلْغُرْفَةِ مُتَفَقِّدٌ لِحَالِهَا ، دَرِبٌ بِشَأْنِهَا وَٱنْتِقَالِهَا، يُعِيدُ فَتْحَ ٱلْأَبْوَابِ وَصَرْفَ ٱلصِّنَجِ إِلَى مَوْضِعِهَا ، وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمِّيهَا ٱلنَّاسُ ٱلْمَنْجَانَةَ. ٱنْتَهَى ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ .

قُلْتُ كُلُّ مَاذَكَرَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ فِي وَصْفِ دِمَشْقَ ٱلشَّامِ وَأَهْلِهَا فَهُوَ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ يَسِيرٌ ،وَمَنْ ذَا يَرُومُ عَدَّ مَحَاسِنِهَا ٱلَّتِي إِذَا رَجَعَ ٱلْبَصَرُ فِيهَا ٱنْقَلَبَ وَهُوَ حَسِيرٌ(١) ! وَقَدْ أَطْنَبَ ٱلنَّاسُ فِيهَا،وَمَا بَقِيَ أَكْثَرُ مِمَّا ذَكَرُوهُ، وَقَدْ دَخَلْتُهَا أَوَاخِرَ شَعْبَانَ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ وَأَلْفٍ لِلْهِجْرَةِ ، وَأَقَمْتُ بِهَا إِلَى أَوَائِلِ شَوَّالٍ مِنَ ٱلسَّنَةِ ، وَٱرْتَحَلْتُ عَنْهَا إِلَى مِصْرَ ؛ وَقَدْ تَرَكْتُ ٱلْقَلْبَ فِيهَا رَهْنًا ، وَمَلَكَ هَوَاهَا مِنِّي فِكْرًا وَذِهْنًا ، فَكَأَنَّهَا بَلَدِي ٱلَّتِي بِهَا رُبِّيتُ ، وَقَرَارِي ٱلَّذِي لِي بِهِ أَهْلٌ وَبَيْتٌ ، لِأَنَّ أَهْلَهَا عَامَلُونِي بِمَا لَيْسَ لِي بِشُكْرِهِ يَدَانِ(٢)، وَهَا أَنَذَا إِلَى هَذَا ٱلتَّارِيخِ لَا أَرْتَاحُ لِغَيْرِهَا مِنَ ٱلْبُلْدَانِ، وَلَا يَشُوقُنِي ذِكْرُ أَرْضِ بَابِلَ وَلَا بَغْدَانَ(٣) ، فَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَطِّرُ مِنْهَا بِٱلْعَافِيَةِ ٱلْأَرْدَانَ . وَقَدْ عَنَّ لِي أَنْ أَذْكُرَ جُمْلَةً مِمَّا قِيلَ فِيهَا

---

(١) حسر بصره يحسر: اذا كل وتعب وأعيا من طول النظر (٢) أى قوة وطاقة وقدرة (٣) لغة فى بغداد « أحمد يوسف نجاتى »

مِنَ ٱلْأَمْدَاحِ ٱلرَّائِقَةِ ،وَأَسْرُدَ مَاخَاطَبَنِى بِهِ أَهْلُهَا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ ٱلْفَائِقَةِ : فَأَقُولُ : قَالَ ٱلْبَدْرُ بْنُ حَبِيبٍ (١) :

***

بعض ماقيل فى دمشق من أقوال الشعراء

يَمِّمْ دِمَشْقَ ، وَمِلْ إِلَى غَرْبِيِّهَا
وَٱلْمَحْ مَحَاسِنَ حُسْنِ جَامِعِ يِلْبُغَا (٢)
مَنْ قَالَ مِنْ حَسَدٍ : رَأَيْتُ نَظِيرَهُ
بَيْنَ ٱلْجَوَامِعِ فِى ٱلْبِلَادِ فَقَدْ لَغَا

(١) هو بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر بن حسن بن عمر بن حبيب ابن عمر بن شريح بن عمر الدمشقى الأصل الحلبى ، ولد بحلب سنة ٧١٠ ورحل فسمع بمصر وغيرها ، واشتغل وبرع الى أن صار رأسا فى الأدب والتاريخ والانشاء، وله نظم ونثر التزم فيه السجع، فهو يمثل أرقى نماذج الانشاء المسجوع فى عصره، وله تآليف مفيدة، وكان دمث الأخلاق حسن المحاضرة حميد المذاكرة، توفى بحلب سنة ٧٧٩ـ وهو والد زين الدين أبى العز طاهر ابن الحسن المولود سنة ٧٤١ كاتب ديوان الانشاء بحلب ثم القاهرة، وله ذيل على تاريخ والده ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ رحمهما الله تعالى «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) يلبغا بن عبد الله الخاسكى الناصرى الأمير الكبير الشهير، أول ما أمره الناصر حسن ملك مصر مقدم ألف بعد موت تنكز، ثم كان يلبغا رأس من قام على أستاذه الناصر حسن، حتى قتل سنة ٧٦٢ وتسلطن صلاح الدين الملك المنصور محمد بن المظفر حاجى بن الناصر محمد بن قلاوون ، فاستقر أتابكه، ثم خلعه فى شعبان من سنة ٧٦٤ « وتوفى الملك المنصور سنة ٨٠١» وتسلطن الأشرف شعبان، فتناهت الى يلبغا الرياسة، ولقب نظام الملك، وصار اليه الأمر والنهى، وهو السلطان فى الباطن، وارتقى الى أن صار العدد الكثير من مماليكه نواب البلاد ومقدمى ألوف، وبلغت عدة مماليكه ثلاثة آلاف وكان يسكن الكبش بالقرب من قناطر السباع، وكان موكبه أعظم المواكب،

وَقَالَ فِي كِتَابِ «شَنْفِ ٱلسَّامِعِ بِوَصْفِ ٱلْجَامِعِ[١]»

لِلَّهِ مَا أَحْلَى مَحَاسِنَ جِلِّقٍ
وَجِهَاتِهَا ٱللَّاتِي تَرُوقُ وَتَعْذُبُ[٢]

بِيَزِيدِ رَبْوَتِهَا ٱلْفُرَاتِ وَجَنْبِهَا
يَا صَاحِ كَمْ كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ[٣]

وَقَالَ فِيهِ أَيْضًا:

وأمنت فى زمانه الطرقات من العربان والتركمان لقطعه أخبارهم وآثارهم وفى زمنه كانت وقعة الاسكندرية واستيلاء الفرنج عليها أول سنة ٧٦٧ فقام بجهدوقوة استعداد وانتزعها من أيديهم،وانتقم منهم على سوء صنيعهم، وكانت له صدقات كثيرة على طلبة العلم ومعروف كثير فى بلاد الحجاز،وهو الذى حط المكس عن الحجاج بمكة، وعوض أمراءها بلدا بمصر،وكان يتعصب للحنفية،ويعطى لمن كان مذهبه حنفيا العطاء الجزيل،فتحول كثير من الشافعية الى مذهب أبى حنيفة. ثم اتفق مماليكه على قتله « ومنهم أقبغا الأحمدى الذى كان من خواص يلبغا،واستقر بعده أميرا كبيرا،وآل أمره الى أن مات فى سجن الاسكندرية فى أواخر سنة ٧٦٨ » ففر، ثم جاء خاضعا طائعا ، فأمر السلطان بحبسه ، ثم أذن فى قتله فى شهر ربيع الآخر من سنة ٧٦٨ . « أحمد يوسف نجاتى » (١) أى جامع بنى أمية،والكتاب تأليف زين الدين طاهر بن البدر بن حبيب السابق ــ والشنف : القرط تحلى به الأذن . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) جلق اسم لكورة الغوطة كلها،أو هى دمشق نفسها، وفيها يقول حسان بن ثابت :

لله در عصابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

(٣) نهر يزيد بدمشق فى لحف جبل قاسيون، منسوب الى يزيد بن أبى سفيان ، وبدمشق فى لحف جبل على فرسخ منها موضع يسمى الربوة لم

لِلّٰهِ مَا أَجْمَلَ وَصْفَ جِلِّقٍ
وَمَا حَوَى جَامِعُهَا الْمُنْفَرِدُ

يكن فى الدنيا أنزه منه؛ لأنه فى لحف جبل تحته سواء نهر بردى، وبه نهر يزيد يجرى ويصب منه ماء الى سقايته والى بركه، وهناك أيضا مسجد الربوة منسوب اليها «فأضاف ابن حبيب يزيد «اسم النهر» الى مكانه «ربوة دمشق» والفرات صفة له: أى شديد العذوبة ـ والجنك فى الأصل: آلة الطرب كالعود «معرب» مما عربه المحدثون، قال بعض المتأخرين فى قوس قزح:

وكأن قوس الغيم جنك مذهب   وكأنما قطر الحيا أوتاره

وكان نور الدين قد بنى بالربوة قاعة على شعب جبل منحوتة بألواح من خشب سقفها نهر يزيد، وأساسها من تحتها نهر «ثورى» ويقابلها دف الزعفران والجنك الشرقى فى رأسه مثل الجنك، الى غير ذلك مما ذهب بذهاب أيامه. وهذا الجبل هو المقصود بالجنك فى الشعر هنا. و «ثورى» نهر عظيم بدمشق، وهو من فروع نهر بردى الذى هو أعظم أنهار دمشق، ونهر يزيد فى شمال نهر ثورى. وقال العماد الأصفهانى أبو عبد الله محمد بن محمد الكاتب المشهور يذكر هذه الأنهر:

الى ناس باناس لى صبوة   لها الوجد داع وذكرى مثير
ومن بردى برد قلبى المشوق   فهـأنا من حره مستجير

وباناس من أنهار دمشق، وفيه يقول الحسن بن عبدالله بن أبى حصينة المعرى

ياصاحبى سقى منازل جلق   غيث يروى محلات طساسها
فرواق جامعها، فباب بريدها   فمشارب القهوات من باناسها
من لى برد شبيبة قضيتها   فيها وفى حمص وفى عرناسها!
وزمان لهـو بالمعرة مونق   بسيابها وبجانبى هرماسهـا

والهرماس: موضع بالمعرة، والعرناس: موضع بحمص، والطساس هناك كالكور أو النواحى والأعمال فى غيرها. «أحمد يوسف نجاتى»

قَدْ أَطْرَبَ ٱلنَّاسَ بِصَوْتِ صِيتِهِ
وَكَيْفَ لَا يُطْرِبُ وَهْوَ مَعْبَدُ[١]

وَقَالَ فِي ذِكْرِ بَابِ ٱلْجَامِعِ ٱلْمَعْرُوفِ بِبَابِ ٱلزِّيَادَةِ :

يَا رَاغِبًا فِي غَيْرِ جَامِعِ جِلِّقٍ
هَلْ يَسْتَوِي ٱلْمَمْنُوعُ وَٱلْمَمْنُوحُ ؟!
أَقْصِرْ عَنَاكَ ، وَفِي غُلُوِّكَ لَا تَزِدْ
إِنَّ ٱلزِّيَادَةَ بَابُهَا مَفْتُوحُ[٢]

وَقَالَ فِي مَنَارَتِهِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِالْعَرُوسِ :

---

(١) التورية فى لفظ «معبد» ظاهرة ـ فالمعبد: موضع العبادة ، ومعبد المغنى معروف مشهور ، والأصل فى ذلك قول برهان الدين القيراطى :

سقى بدمشق الغيث جامع نسكها ... بروضاته غنى الحمام المغرد
اذا مازها فى العين من ذاك معبد ... لذكر حلا فى السمع من ذاك معبد

ومنه أخذ الصلاح الصفدى قوله :

تقول دمشق اذ تفاخر غيرها ... بمعبدها الزاهى البديع المشيد
جرى ليباهى حسنه كل معبد ... وما قصبات السبق الا لمعبد

ومن معانى البرهان القيراطى قوله :

دمشق فى الحسن لها منصب ... عال وذكر فى الورى شائع
فخل من قاس بها غيرها ... وقل له ذا الجامع الجامع

والقول فى دمشق وأما كنها كثير ربما عرضنا له . «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) قلت وقد أخذ هذا المعنى من قول ابن نباتة

أرى الحسن مجموعا بجامع جلق ... وفى صدره معنى الملاحة مشروح

مَعْبَدُ ٱلشَّامِ يَجْمَعُ ٱلنَّاسَ طرًّا

وَإِلَيْهِ شَوْقًا تَمِيلُ ٱلنُّفُوسُ

كَيْفَ لَا يَجْمَعُ ٱلْوَرَى وَهُوَ بَيْتٌ

فِيهِ تُجْلَى عَلَى ٱلدَّوَامِ ٱلْعَرُوسُ!

وَمِنْهُ فِي ذِكْرِ بَانِيهِ ٱلْوَلِيدِ:

تَاللهِ مَا كَانَ ٱلْوَلِيدُ عَابِثًا

فِي صَرْفِهِ ٱلْمَالَ وَبَذْلِ جُهْدِهِ

لٰكِنَّهُ أَحْرَزَ مُلْكَ مَعْبَدٍ

لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

وَمِنْ أَبْيَاتٍ فِي آخِرِهِ:

بِجَامِعِ جِلِّقٍ رَبِّ ٱلزَّعَامَهْ ... أَقِمْ تَلْقَ ٱلْعِنَايَةَ وَٱلْكَرَامَهْ

وَيَمِّمْ نَحْوَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ... وَصَلِّ بِهِ تَصِلْ دَارَ ٱلْإِقَامَهْ

مُصَلًّى فِيهِ لِلرَّحْمٰنِ ذِكْرٌ ... وَمَثْوًى لِلْقَبُولِ بِهِ عَلَامَهْ

مَحَلٌّ كَمَّلَ ٱلْبَارِي حِلَاهُ ... وَبَيْتٌ أَبْدَعَ ٱلْبَانِي نِظَامَهْ[1]

اذا ماتغالى فى الزيادة معشر ... فقل لهم: باب الزيادة مفتوح

(١) وفى الأصل « البارى » بدل « البانى » « أحمد يوسف نجاتى »

دِمَشْقُ لَمْ تَزَلْ لِلشَّامِ وَجْهًا
وَمَسْجِدُهَا لِوَجْهِ ٱلشَّامِ شَامَهْ(١)

وَبَيْنَ مَعَابِدِ ٱلْآفَاقِ طُرًّا ... لَهُ أَمْرُ ٱلْإِمَارَةِ وَٱلْإِمَامَهْ
أَدَامَ ٱللهُ بَهْجَتَهُ، وَأَبْقَى ... مَحَاسِنَهُ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَهْ

انْتَهَى

وَلَمْ أَقِفْ عَلَى كُلِّ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْمَذْكُورِ، بَلْ عَلَى بَعْضِهِ فَقَطْ. وَمِنْ قَصِيدَةِ ٱلْقَاضِي ٱلْمُهَذَّبِ(٢) ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ:

بِاللهِ يَارِيحَ ٱلشَّمَا ... لِ إِذَا ٱشْتَمَلْتِ ٱلرَّنْدَ بُرْدَا(٣)
وَحَمَلْتِ مِنْ عَرْفِ ٱلْخُزَا ... مَى مَا ٱغْتَدَى لِلنَّدِّ نِدًّا(٤)

---

(١) الشامة : علامة تخالف لون البدن الذى هى فيه ، أو هى الخال .

(٢) هو القاضى المهذب أبو محمد الحسن بن القاضى الرشيد أبى الحسن على ابن القاضى الرشيد أبى اسحق ابراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الغسانى كان شاعرا مجيدا رقيق الشعر ، ومن شعره :

وترى المجرة والنجوم كأنما ... تسقى الرياض بجدول ملآن
لو لم تكن نهرا لما عامت بها ... أبدا نجوم الحوت والسرطان

وهو معنى لطيف غريب — وله أيضا من جملة قصيدة :

ومالى الى ماء سوى النيل غلة ... ولو أنه — أستغفر الله — زمزم

وله كل معنى حسن ، وأول شعر قاله سنة ٥٢٦ وتوفى سنة ٥٦١ بالقاهرة « أحمد يوسف نجاتى » (٣) الرند : شجر بالبادية طيب الرائحة يستاك به وليس بالكبير ، وله حب يسمى الغار ، وربما سموا العود الذى يتبخر به رندا. وقيل الرند هو الآس (٤) العرف : الرائحة ، أو ذكاؤها وطيبها ، والخزامى : نبت طيب الريح ؛ أو هو خيرى البر ، وزهره من أطيب الأزهار نفحة وتضوع

وَنَسَجْتِ مَا بَيْنَ ٱلْغُصُو نِ إِذَا ٱعْتَنَقْنَ هَوًى وَوُدًّا

وَهَزَزْتِ عِنْدَ ٱلصُّبْحِ مِنْ أَعْطَافِهَا قَدًّا فَقَدًّا

وَنَثَرْتِ فَوْقَ ٱلْمَاءِ مِنْ أَجْيَادِهَا لِلزَّهْرِ عِقْدَا

فَمَلَأْتِ صَفْحَةَ وَجْهِهِ حَتَّى ٱكْتَسَى آسًا وَوَرْدَا

وَكَأَنَّمَا أَلَّفْتِ فِيهِ مِنْهُمَا صُدْغًا وَخَدًّا

مُرِّى عَلَى بَرَدَى، عَسَاهُ يَزِيدُ فِي مَسْرَاكِ بَرْدَا!

نَهْرٌ كَنَصْلِ ٱلسَّيْفِ تَكْسُو مَتْنَهُ ٱلْأَزْهَارُ غِمْدَا[1]

صَقَلَتْهُ أَنْفَاسُ ٱلنَّسِيمِ بِمَرِّهِنَّ، فَلَيْسَ يَصْدَا[2]

وَمِنْهَا:

أَحْبَابَنَا مَا بَالُكُمْ فِينَا مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ أَعْدَى ؟!

وَحَيَاةِ حُبِّكُمُ وَحُرْ مَةِ أَصْلِكُمْ مَا خُنْتُ عَهْدَا

وَقَالَ ٱلْكَمَالُ ٱلشَّرِيشِيُّ[3]:

رائحة، واحده خزاماة، وهى طويلة العيدان صغيرة الورق حمراء الزهر، ومنابتها الرمل والرياض. والند نوع من الطيب، أو هو العود، أو الغالية، أو هو العود المطرى بالمسك والعنبر والبان، أو هو العنبر ـ قال العرجى :

تشب متون الجمر بالند تارة وبالعنبر الهندى، فالعرف ساطع

والند «بالكسر» : المثل والنظير، وجمعه أنداد «أحمد يوسف نجاتى» (١) كان البيت فى الأصل « نهر كنصل السيف تكسر متنه الأزهار عمدا » ففيه تصحيف فى كلمتين جعل معنى البيت بفسادهما مغلقا تافها «أحمد يوسف نجاتى» (٢) يصدا : مخفف من يصدأ (٣) تقدمت ترجمة أبى العباس أحمد بن عبد

يَا جِيرَةَ الشَّامِ هَلْ مِنْ نَحْوِكُمْ خَبَرُ
فَإِنَّ قَلْبِي بِنَارِ الشَّوْقِ يَسْتَعِرُ
بَعُدْتُ عَنْكُمْ، فَلَا وَاللهِ بَعْدَكُمُ
مَا لَذَّ لِلْعَيْنِ لَا نَوْمٌ وَلَا سَهَرُ
إِذَا تَذَكَّرْتُ أَوْقَاتًا نَأَتْ وَمَضَتْ
بِقُرْبِكُمْ كَادَتِ الْأَحْشَاءُ تَنْفَطِرُ
كَأَنَّنِي لَمْ أَكُنْ بِالنَّيْرَبَيْنِ[1] ضُحًى
وَالْغَيْمُ يَبْكِي وَمِنْهُ يَضْحَكُ الزَّهَرُ
وَالْوُرْقُ تُنْشِدُ، وَالْأَغْصَانُ رَاقِصَةٌ
وَالدَّوْحُ يَطْرَبُ بِالتَّصْفِيقِ وَالنَّهَرُ
وَالسَّفْحُ أَيْنَ عَشِيَّاتِي الَّتِي ذَهَبَتْ
لِي فِيهِ! فَهْيَ لَعَمْرِي عِنْدِيَ الْعُمُرُ

المؤمن الشريشي المتوفى سنة ٦١٩، وتقدمت هذه القصيدة. وهناك كمال الدين أحمد ابن جمال الدين محمد بن أحمد بن الشريشي الوائلي البكري، وكيل بيت المال وشيخ دار الحديث وشيخ الرباط الناصري، ولد سنة ٦٥٣، ورحل وسمع وطلب مدة، وأفتى ودرس وناظر، وناب في القضاء عن ابن جماعة، وكان خبيرا بالنظم والنثر، مشكور السيرة فيما يتولاه من الجهات كلها، وتوفي سنة ٧١٨ بالحسا متوجها الى الحج، ودفن هناك. « أحمد يوسف نجاتي »(١) في الأصل « النيرين » وهو تحريف مفسد، وتقدم القول في النيرب: قرية على نصف

سَقَاكَ يَا سَفْحُ سَفْحُ ٱلدَّمْعِ مُنْهَمِرًا
وَقَلَّ ذَاكَ لَهُ إِنْ أَعْوَزَ ٱلْمَطَرُ[١]

وَحَكَى ٱبْنُ سَعِيدٍ وَغَيْرُهُ أَنَّ غَرْنَاطَةَ تُسَمَّى دِمَشْقَ ٱلْأَنْدَلُسِ؛ لِسُكْنَى أَهْلِ دِمَشْقِ ٱلشَّامِ بِهَا عِنْدَ دُخُولِهِمُ ٱلْأَنْدَلُسَ، وَقَدْ شَبَّهُوهَا بِهَا لَمَّا رَأَوْهَا كَثِيرَةَ ٱلْمِيَاهِ وَٱلْأَشْجَارِ، وَقَدْ أَطَلَّ عَلَيْهَا جَبَلُ ٱلثَّلْجِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱبْنُ جُبَيْرٍ صَاحِبُ ٱلرِّحْلَةِ:

يَا دِمَشْقَ ٱلْغَرْبِ هَاتِيكَ لَقَدْ زِدْتِ عَلَيْهَا
تَحْتَكِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِى وَهِيَ تَنْصَبُّ إِلَيْهَا

قَالَ ٱبْنُ سَعِيدٍ: أَشَارَ ٱبْنُ جُبَيْرٍ إِلَى أَنَّ غَرْنَاطَةَ فِي مَكَانٍ مُشْرِفٍ، وَغُوطَتُهَا تَحْتَهَا تَجْرِى فِيهَا ٱلْأَنْهَارُ، وَدِمَشْقُ فِي وَهْدَةٍ تَنْصَبُّ إِلَيْهَا ٱلْأَنْهَارُ، وَقَدْ قَالَ ٱللهُ تَعَالَى فِي وَصْفِ ٱلْجَنَّةِ «تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ» ٱنْتَهَى. وَقَالَ ٱلصَّفَدِيُّ[٢] فِي تَذْكِرَتِهِ: أَنْشَدَنِي ٱلْمَوْلَى ٱلْفَاضِلُ ٱلْبَارِعُ شَمْسُ ٱلدِّينِ

---

(١) في الأصل «سقاك بالسفح» — وسفح الجبل: منحدره، وسفح الدمع: أساله وأجراه فرسخ من دمشق في وسط بساتين غناء ورياض فيحاء

(٢) تقدم التعريف بصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤

مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْخَيَّاطُ(١) بِقَلْعَهِ الْجَبَلِ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ — حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى — لِنَفْسِهِ فِي شَعْبَانَ الْمُكَرَّمِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ :

قَصَدْتُ مِصْرًا مِنْ رُبَا جِلَّقٍ بِهِمَّةٍ تَجْرِي بِتَجْرِيبِي
فَلَمْ أَرَ الطُّرَّةَ حَتَّى جَرَتْ دُمُوعُ عَيْنِي بِالْمُزَيْرِيبِ(٢)

وَأَنْشَدَ لِنَفْسِهِ أَيْضًا :

خَلَّفْتُ بِالشَّامِ حَبِيبِي ، وَقَدْ
يَمَّمْتُ مِصْرًا لِعَنًا طَارِقِ(٣)
وَالْأَرْضُ قَدْ طَالَتْ ، فَلَا تَبْعُدِي
بِاللهِ يَا مِصْرُ عَلَى الْعَاشِقِ

وتذكرته في نحو ثلاثين مجلدا، جمع فيها نوادر الأشعار ولطائف الآداب نثرا ونظما . « أحمد يوسف نجاتي » (١) محمد بن يوسف بن عبدالله الدمشقي الحنفي شمس الدين الخياط الشاعر المشهور الملقب ضفدع ، ولد في شهر رجب سنة ٦٩٣ وعني بطلب العلم والأدب، ولازم أجلاء عصره، وحفظ كثيرا من الشعر حتى انطلق لسانه به، وكان مسلطا على ابن نباتة؛ كلما نظم شيئا عارضه وناقضه ،وابن نباتة أقدر منه، وكان طويل النفس في الشعر ، ولكن لم يكن له غوص على المعاني والاحتفال بطريقة المتأخرين، لكنه مقراض الأعراض كان هجوه أكثر من مدحه، وقد ناله من ذلك اهانة وسوء ، وكان قد أثرى لكثرة ما أخذه من الناس اتقاء معرة لسانه، فقد كان الناس يخافون من شره، ويشفقون على أنفسهم من بذاءة هجوه ،وتوفي سنة ٧٥٦ عفا الله عنه «أحمد يوسف نجاتي» (٢) تقدم البيتان في الجزء الأول (٣) « عنا » مخفف من « عناء » أي

وَأَنشَدَنِي لِنَفْسِهِ أَيْضًا :

يَاأَهْلَ مِصْرٍ أَنْتُمُ لِلْعُلَا
كَوَاكِبُ ٱلْإِحْسَانِ وَٱلْفَضْلِ
لَوْ لَمْ تَكُونُوا لِي سُعُودًا لَمَا
وَافَيْتُكُمْ أَضْرِبُ فِي ٱلرَّمْلِ[1]

انْتَهَى

وَذَكَرْتُهُ بِرُمَّتِهِ لِحُسْنِ مَغْزَاهُ . وَقَالَ ٱلشَّيْخُ مَجْدُ ٱلدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْمَعْرُوفُ بِابْنِ ٱلظَّهِيرِ ٱلْحَنَفِيُّ ٱلْإِرْبِلِيُّ[2] :

تعب وجهد ومشقة (١) لايخفى التورية والتوجيه بمصطلح علم الرمل ومراعاة النظير فى الألفاظ : كواكب، وسعود، وأضرب فى الرمل (٢) صحف اسم هذا الأديب فى الأصل فى موضعين ، فقد كان هكذا « ابن الطهر الحنفى الأزبكى » مع شهرة هذا الشاعر لدى الأدباء، وهو العلامة الظهير مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبى شاكر الاربلى الحنفى الأديب ، ولد سنة ٦٠٢ بمدينة اربل ، وسمع من السخاوى وغيره بدمشق وبغداد ، وله ديوان شعر فيه نظم رائق مع ما كان عليه من الوقار والديانة التامة. وله :

أصغى الى قول العذول بجملتى … مستفهما عنكم بغير ملال
لتلقطى زهرات ورد حديثكم … من بين شوك ملامة العذال

وهو ممن تلطف فى استعمال الاستعارة المرشحة ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٦٧٧ ، وابنه قاضى القضاة شهاب الدين محمد بن المجد الاربلى ثم الدمشقى الشافعى، كان فقيها جليلا، أفتى وناظر، وحكم نحو ثلاث سنين ، وتوفى فى جمادى

لَعَلَّ سَنَى بَرْقِ الْحِمَى يَتَأَلَّقُ
عَلَى النَّأْي، أَوْ طَيْفاً لِأَسْمَاءَ يَطْرُقُ[1]

فَلَا نَارُهَا تَبْدُو لِمُرْتَقِبٍ، وَلَا
وُعُودُ الْأَمَانِيِّ الْكَوَاذِبُ تَصْدُقُ

لَعَلَّ الرِّيَاحَ الْهُوجَ تُدْنِي لِنَازِحٍ
مِنَ الشَّامِ عَرْفاً كَاللَّطِيمَةِ تَعْبَقُ[2]

دِيَارٌ قَضَيْنَا الْعَيْشَ فِيهَا مُنَعَّماً
وَأَيَّامُنَا تَحْنُو عَلَيْنَا وَتُشْفِقُ

سَحَبْنَا بِهَا بُرْدَ الشَّبَابِ، وَشُرْبُنَا
لَدَيْنَا[3] كَمَا شِئْنَا لَذِيذٌ مُرَوَّقُ

مَوَاطِنُ مِنْهَا السَّهْمُ سَهْمِي، وَظِلُّهُ
تَخُبُّ مَطَايَا اللَّهْوِ فِيهِ وَتُعْنِقُ[4]

الأولى سنة ٧٣٨ عن ٧٦ سنة . « أحمد يوسف نجاتى » (١) السنا : الضوء، وتألق : لمع وأضاء، والنأى : البعد (٢) الرياح الهوج : الشديدة الهبوب، جمع أهوج وهوجاء، والنازح : البعيد، واللطيمة: المسك أو وعاؤه أو سوقه، أو كل طيب يحمل على الصدغ، من اللطم الذى هو الخد. قال ذو الرمة يصف أرطاة يكنس فيها الثور الوحشى :

كأنها بيت عطار يضمنه لطائم المسك يحويها وتنتهب

وعبق به الطيب « كفرح » : لزق به وبقى فائحا متضوعا « أحمد يوسف نجاتى »
(٣) فى نسخة « لديها » (٤) السهم الأول اسم موضع، والثانى بمعنى الحظ والنصيب.

جَـلَا جَانِبَيْهِ مُعْـلَمٌ مُتَجَعِّدٌ
مِنَ ٱلْمَاءِ فِي أَطْـلَالِهِ يَتَدَفَّقُ
إِذَاٱلشَّمْسُ حَلَّتْ مَتْنَهُ فَهُوَ مُذْهَبٌ
وَإِنْ حَجَبَتْهَا دَوْحُهُ فَهُوَ أَزْرَقُ
وَإِنْ فُرَجُ ٱلْأَوْرَاقِ جَادَتْ بِنُورِهَا
فَرَقْمٌ أَجَادَتْهُ ٱلْأَكُفُّ مُنَمَّقُ [1]
يُطِلُّ عَلَيْهِ قَاسِـيُونُ [2] كَأَنَّهُ
غَمَامٌ مُعَـلَّى أَوْ نَعَامٌ مُعَلَّقُ
تُسَافِرُ عَنْهُ ٱلشَّمْسُ قَبْـلَ غُرُوبِهَا
وَتَرْجُفُ إِجْلَالًا لَهُ حِينَ تُشْرِقُ [3]
وَتَصْفَرُّ مِنْ قَبْـلِ ٱلْأَصِيلِ كَأَنَّهَا
مُحِبٌّ مِنَ ٱلْبَيْنِ ٱلْمُشَتِّتِ مُشْفِقُ
وَفِي ٱلنَّيْرَبِ ٱلْمَيْمُونِ لِلُّبِّ سَالِبٌ
مِنَ ٱلْمَنْظَرِ ٱلزَّاهِي وَلِلطَّرْفِ مُومِقُ [4]

---

(١) الفرج جمع فرجة : وهو خلل مابين الشيئين، وخب وأعنق : أى أسرع والرقم: الوشى، ونمقه : حسنه وزانه وزخرفه وحلاه (٢) قاسيون: اسم الجبل المشرف على مدينة دمشق (٣) فى نسخة « وتزحف » بدل « ترجف » (٤) تقدم التعريف بالنيرب ، وومقه « كورثه » مقة : أحبه ـ وقد تـكون

بَدَائِعُ مِنْ صُنْعِ ٱلْقَدِيمِ رَصَائِعٌ
تأَنَّقَ فِيهَا ٱلْمُحْدَثُ ٱلْمُتَأَنِّقُ(١)

رِيَاضٌ كَوَشْيٍ لِلْبُرُودِ(٢)، تَشُقُّهَا
جَدَاوِلُهَا ، فَالنَّوْرُ بِالْمَاءِ يَشْرَقُ

فَمِنْ نَرْجِسٍ يَخْشَى فِرَاقَ فَرِيقِهِ
تَرَى ٱلدَّمْعَ فِي أَجْفَانِهِ يَتَرَقْرَقُ

وَمِنْ كُلِّ رَيْحَانٍ مُقِيمٌ وَزَائِرٌ
يُصَافِحُ رَيَّاهُ ٱلرِّيَاضَ فَتَعْبَقُ

كَأَنَّ قُدُودَ ٱلسَّرْوِ فِيهِ مَوَائِسًا(٣)
قُدُودُ عَــذَارَى مَيْلُهَا مُتَرَفِّقُ

---

(١) الرصائع جمع رصيعة : وهى فى الأصل حلية السيف المستديرة،أو كل حلقة مستديرة فى حلية سيف أو سرج أو غيره ، ورصعه:حلاه ونسجه ـ يريد بها هنا الأماكن والآثار والمناظر التى أبدعتها الطبيعة وعنى بها بنو الانسان ـ يعنى أن ماأبدعته قدرة الخالق وما تأنقت فيه صناعة المخلوق وأتقنته يد الانسان ، قد جمعا فى هذا المكان ، وفى نسخة : بدائع من صنع القديم ومحدث . «أحمديوسف نجاتى» (٢) فى نسخة « كموشى البرود » « مومق » مصحفة عن « مونق » أى سار معجب بحسنه

(٣) فى الأصل «مواشيا» وهوتصحيف خبيث مشوه سخيف:و«موائس» جمع مائس أو مائسة، من ماس يميس: اذا تبختر وتثنى وتمايل معجبا. والسرو: شجر جميل المنظر « وان كان لايثمر » ويشبه به قدود الغانيات فى اعتداله

إِذَا مَا تَدَلَّتْ لِلشَّقَائِقِ صَدَّهَا
عُيُونٌ مِنَ النَّوْرِ الْمُفَتَّحِ تَرْمُقُ (١)

وتثنيه ولينه ، ومن ألطف ماقيل فيه قول أحمد بن سليمان بن وهب فى وصف رياض :

حفت بسرو كالقيان ، ولحفت   خضر الحرير على قوام معتدل
فكأنها والريح حين تميلها   تبغى التعانق ثم يمنعها الخجل

ولابن طباطبا العلوى :

ياحسن بستان دارى   والورد يقطر طله
والسرو قد مد فيه   على الرياحين ظله

ولابن وكيع التنيسى :

والسرو تثنيه الرياح لواعبا   من فوق جدول مائه المتفجر
كالجندفى خضراللابس حاولوا   أمرا فبين مقلص ومشمر

وللصنوبرى :

ياريح قومى الآن ويحك فانظرى   ما للحدائق أظهرت اعجابها
والسرو تحسبه العيون غوانيا   قد شمرت عن سوقها أ ثوابها
وكأن احداهن من نفح الصبا   خود تلاعب موهنا أترابها

ومن أبيات للسرى الرفاء الموصلى :

وقد كتبت أيدى الربيع صحائفا   كأن سطور السرو حسنا سطورها

وقال ابن لنكك البصرى يهجو :

لاتخدعنك اللحى ولا الصور   تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا   وليس فيه لطالب مطر
فى شجر السرو منهم مثل   له رواء وماله ثمر

وحسبك هذا لتعرف من أين أخذ ظهيرالدين الاربلى « أحمد يوسف نجاتى »

(١) فى نسخة « تداعت » بدل : تدلت « أحمد يوسف نجاتى »

وَقَصْرٌ يَكِلُّ ٱلطَّرْفُ عَنْهُ، كَأَنَّهُ
إِلَى ٱلنَّسْرِ نَسْرٌ فِي ٱلسَّمَاءِ مُعَلَّقُ
وَكَمْ جَدْوَلٍ جَارٍ يُطَارِدُ جَدْوَلًا
وَكَمْ جَوْسَقٍ عَالٍ يُوَازِيهِ جَوْسَقُ (١)
وَكَمْ بِرْكَةٍ فِيهَا تُضَاحِكُ بِرْكَةً
وَكَمْ قَسْطَلٍ لِلْمَاءِ فِيهِ تَدَفُّقُ
وَكَمْ مَنْزِلٍ يُعْشِي ٱلْعُيُونَ، كَأَنَّمَا
تَأَلَّقَ فِيهَا بَارِقٌ يَتَأَلَّقُ
وَفِي ٱلرَّبْوَةِ ٱلْفَيْحَاءِ لِلْقَلْبِ جَاذِبٌ
وَلِلْهَمِّ مَسْلَاةٌ، وَلِلْعَيْنِ مَرْمَقُ
عَرُوسٌ جَلَاهَا ٱلدَّهْرُ فَوْقَ مَنَصَّةٍ
مِنَ ٱلدَّهْرِ، وَٱلْأَبْصَارُ تَرْمِي وَتَرْمُقُ
فَهَامَ بِهَا ٱلْوَادِي، فَفَاضَتْ عُيُونُهُ
فَكُلُّ قَرَارٍ مِنْهُ بِالدَّمْعِ يَشْرَقُ

---

(١) الجوسق : القصر والحصن، وهو لفظ معرب ـ وفى نسخة «يطاول» بدل «يطارد» «أحمد يوسف نجاتى»

تَـكَفَّلَ مِنْ دُونِ الْجَدَاوِلِ شُرْبَهَا

«يَزِيدُ» يُصَفِّيهِ لَهَا وَيُرَوِّقُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ فِي دِمَشْقَ (١):

لَوْلَا حَـدَاثَتُهَا وَأَنِّي لَا أَرَى

عَـرْشًا هُنَاكَ ظَنَنْتُهَا بِلْقِيسَا

---

(١) الأبيات من قصيدة يمدح بها أبا المغيث موسى بن ابراهيم الرافقي أولها:

أقشيب ربعهم أراك دريسا وقرى ضيوفك لوعة ورسيسا

فلئن حبست على البلى لقد اغتدى دمعي عليك الى الممات حبيسا

أترى الفراق يظن أني غافل عنه وقـد لمست يداه لميسا

رود أصابتها النوى في خرد كانت بدور دجنة وشموسا

فـكأنما أهـدى شقائقه الى وجناتهن ضحى أبو قابوسـا

قـد أوتيت من كل شيء نعمة وددا وحسنا في الصبا مغموسا

بيض بدرن عيونهن الى الصبا فـكأنهن بها يدرن كؤوسا

لولا حداثتها الخ

ايها دمشق فقد حويت مكارما بأبي المغيث وسوددا قدموسا

وأرى الزمان غدا الخ

قد بوركت تلك الظهور، وقدست تلك البطون بقربه تقـديسا

فصنيعة تسـدى، وخطب يعتلى وعظيمة تـكفى، وجرح يوسى

القشيب: الجديد ضد الدريس: وهو القديم البالى. والقرى: الضيافة. والرسيس الحب الثابت، ولميس علم امرأة، والرود: اللينة. والخرد: الأبكار الحييات والدجنة: الظلمة، وشقائق النعمان: ورد أحمر، وأبو قابوس كنية ملك العرب النعمان بن المنـذر، والدد: اللهو واللعب، والحداثة: صغر السن. وفي الأصل لولا « حداثقها » بدل « حداثتها » وهو تصحيف كما عرفت من

إِيهًا دِمَشْقُ ، فَقَدْ حَوَيْتِ مَكَارِمًا

بِأَبِي ٱلْمُغِيثِ وَسُودَدًا قُدْمُوسَا [١]

وَأَرَى ٱلزَّمَانَ غَدَا عَلَيْكِ بِوَجْهِهِ

جَذْلَانَ بَسَّامًا ، وَكَانَ عَبُوسَا

قَدْ بُورِكَتْ تِلْكَ ٱلْبُطُونُ، وَقَدْ سَمَتْ

تِلْكَ ٱلظُّهُورُ، وَقُدِّسَتْ تَقْدِيسَا [٢]

وَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ [٣] :

سياق القصيدة « أحمد يوسف نجاتى» (١) ايها: كلمة تقال لاستزادة الحديث، والقدموس: القديم « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) ويروى :

قد بوركت تلك الظهور، وقدست   تلك البطون بقربه تقديسا

وفى الأصل «قد نورت» وهو تصحيف «أحمد يوسف نجاتى» (٣) الأبيات من قصيدة غراء يمدح بها المتوكل، أولها :

العيش فى ليل داريا اذا بردا   والراح تمزجها بالماء من بردى

قل للامام الذى عمت فواضله   شرقا وغربا فما نحصى لها عددا

الله ولاك عن علم خلافته   والله أعطاك مالم يعطه أحدا

وما بعثت عتاق الخيل فى بلد   الا تعرفت فيه اليمن والرشدا

أما دمشق الخ ، وبعد الأبيات :

يا أكثر الناس احسانا، وأعرضهم   سيباء، وأطولهم فى المكرمات يدا

مانسأل الله الا أن تدوم لك النـ   ـعماء فينا ، وأن تبقى لنا أبدا

« داريا » قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة ـ وأطرى الشىء: بالغ فى مدحه والثناء عليه ـ والفرق: الخوف ، والبدد: المبدد المشتت ، والوا كف

أَمَّا دِمَشْقُ فَقَدْ أَبْدَتْ مَحَاسِنَهَا
وَقَدْ وَفَى لَكَ مُطْرِيهَا بِمَا وَعَدَا
إِذَا أَرَدْتَ مَلَأْتَ الْعَيْنَ مِنْ بَلَدٍ
مُسْتَحْسَنٍ وَزَمَانٍ يُشْبِهُ الْبَلَدَا
تَمْشِي السَّحَابُ عَلَى أَجْبَالِهَا فِرَقًا
وَيُصْبِحُ النَّوْرُ فِي صَحْرَائِهَا بَدَدَا
فَلَسْتَ تُبْصِرُ إِلَّا وَاكِفًا خَضِلًا
أَوْ يَانِعًا خَضِرًا ، أَوْ طَائِرًا غَرِدَا
كَأَنَّمَا الْقَيْظُ وَلَّى بَعْدَ جِيئَتِهِ (١)
أَوِ الرَّبِيعُ دَنَا مِنْ بَعْدِ مَا بَعُدَا

وَفِي دِمَشْقَ يَقُولُ بَعْضُهُمْ:

بَرَزَتْ دِمَشْقُ لِزَائِرِي أَوْطَانِهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِوَجْهٍ أَزْهَرِ
لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَعَمَّدَ أَنْ يَرَى
مَغْنًى خَلَا مِنْ نُزْهَةٍ لَمْ يَقْدِرِ

وَقَالَ الْقِيرَاطِيُّ (٢) فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

السحاب المنهل ــ وكف المطر والدمع ونحوهما: سال، والخضل: الندى الذي يترشرش نداه، وأخضله الدمع: بله (١) في الديوان «وقدته» (٢) هو برهان الدين ابراهيم

* لِلصَّبِّ بَعْدَكِ حَالَةٌ لَا تُعْجِبُ * :

لِلّٰهِ لَيْلٌ كَالنَّهَارِ قَطَعْتُهُ
بِالْوَصْلِ لَا أَخْشَى بِهِ مَا يُرْهَبُ

ابن شرف الدين عبدالله بن محمد بن عسكر بن مظفر بن بحر بن ساون «أوـشادى» ابن هلال الطائى القيراطى الشاعر المشهور ، ولد فى صفر سنة ٧٢٦ وتفقه وعنى بطلب العلم واللغة والأدب، وعالج النظم فبرع فيه، واشتهرت مرثيته فى القاضى تقى الدين السبكى « شيخ الاسلام أبو الفتح محمد بن عبد اللطيف ابن يحى بن على بن تمام الأنصارى السبكى الفقيه المحدث الأديب المتوفى سنة ٧٤٤» وكان عابدا فاضلا ، توفى بمكة مجاورا فى ربيع الآخر سنة ٧٨١ ومن شعره :

كأن خديه ديناران قد وزنا ... لحرر الصيرفى الوزن واحتاطا
فشح بعضهما عن وزن صاحبه ... فزاده من فتيت المسك قيراطا

ومنه من قصيدة يمدح بها الأمير سيف الدين الكريمى مطلعها :

غرامى فيك ياقمرى غريمى ... وذكرك فى دجا ليلى نديمى
وملنى الحميم ، وصد عنى ... ومالى غير دمعى من حميم
وكم سأل العواذل عن حديثى ... فقلت لهم : على العهد القديم
وعم تساءلون ولى دموع ... تخبرهم عن النبأ العظيم!
فموعده وناظره وجسمى ... سقيم من سقيم فى سقيم
كريم مال بخلا عن ودادى ... فملت لنحو مخدوم كريم

ومن لطائف برهان الدين القيراطى فى باب الساعات بدمشق :

فى الجامع الأموى الحسن مجتمع ... وبابه فيه للأحداق لذات
دقائق الحسن يحويها له درج ... فحبذا منه بالساعات ساعات
وحبذا معبد كم أطربت أذنا ... فيه من الذكر نغمات وأصوات
جلى العروس على الرائى منصتها ... تزفها من بدور التم طارات

وقال :

يقول لنـا نسر بجامع جلق : «أناالطائرالمحكي والآخر الصدى»
وقد أطرب الأسماع مطرب جنكها «وغنى به من لايغنى مغردا»

ويعجبنى من شعره قوله :

كفوا حديث العذل عن مسمعى فأين من يعقل أو من يعى
ياعاذلى فى الحسن ان كنت لم تصـبر فانى منك لم أسمع
لاتزد القلب عـلى شجوه ان كنت لاتأرق لى فاهجـع
أنا الذى أروى حديث الأسى مسلسلا فى الحب عن مدمعى
واعجبا فى الحب أشـكو الجفا من ساكن فى منحنى أضلعى
ان شئت يابدر الدجا ان بدا فاطلع ، وان شئت فلا تطلع
وأنت ياأغصان بان النقـا اذا تبـدى فاسجدى واركعى
لا آخـذ الله ليـالى اللقا فانهـا أصل الأسى الأوجع
لو نسيت عينـاى انسـانها مانسيت ليلا عـلى الأجرع
وغفـلة الواشين عن وصلنا ونحن كالواحد فى مضجع

وله :

ان للروح فى دمشق لمأوى ذا قرار وذا معين وربوه
وبروضاتهـا بساتين ورد لى بأزرارها صبابة عروه

وله :

أرتاح للأقمـار وهى طوالع وشموس راحى للمغارب تجنح
ويهزنى زجـل الطيور بلحنها والروض بالزهر النظيم موشح

وله :

أهيم بأعطاف القـدود صبابة وان هى زادتنى جفا وتباعدا
ويعجبنى بين الأنام تطفـلى عليها اذا شاهدتهن موائدا

وللقيراطى ديوان جمعه لنفسه يشتمل على نظم و نثر جيدين «أحمد يوسف نجاتى»

وَرَكِبْتُ مِنْهُ إِلَى ٱلتَّصَابِى أَدْهَمًا
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْدُو لِصُبْحٍ أَشْهَبُ[(١)]

أَيَّامَ لَا مَاءُ ٱلْخُدُودِ يَشُوبُهُ
كَدَرُ ٱلْعِذَارِ، وَلَا عِذَارٌ أَشْيَبُ[(٢)]

كَمْ فِي مَجَالِ ٱللَّهْوِ لِى مِنْ جَوْلَةٍ
أَضْحَتْ تُرَقِّصُ بِالشَّبَابِ[(٣)] وَتُطْرِبُ

وَأَقَمْتُ لِلنُّدَمَاءِ سُوقَ خَلَاعَةٍ
تُجْبَى ٱلْمُجُونُ إِلَىَّ فِيهِ وَتُجْلَبُ

وَذَكَرْتُ فِي مَغْنَى دِمَشْقَ مَعْشَرًا
أُمُّ ٱلزَّمَانِ بِمِثْلِهِمْ لَا تُنْجِبُ

لَا يَسْأَلُ ٱلْقُصَّادُ عَنْ نَادِيهِمُ
لَكِنْ يَدُلُّهُمُ ٱلثَّنَاءُ ٱلطَّيِّبُ

قَوْمٌ بِحُسْنِ صِفَاتِهِمْ وَفِعَالِهِمْ
قَدْ جَاءَ يَعْتَذِرُ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُذْنِبُ

---

(١) يريد بالأدهم « الأسود » الشباب ، وبالأشهب « الأبيض » الشيب « أحمد يوسف نجاتى » (٢) أى أيام كان محبوبه ناضر الخد لم يسوده نبت العذار، وكان هو شابا ذا عذار أسود لم يكدره بياض المشيب (٣) فى نسخة (بالسماع)

يَا مَنْ لَحَرَّانِ ٱلْفُؤَادِ ! وَطَـرْفُهُ
بِدِمَشْقَ أَدْمُعُهُ غَدَتْ تَتَحَلَّبُ
أَشْتَاقُ فِي وَادِي دِمَشْقٍ مَعْهَدًا
كُلُّ ٱلْجَمَالِ إِلَى حِمَـاهُ يُنْسَبُ
مَا فِيهِ إِلَّا رَوْضَةٌ أَوْ جَوْسَقٌ
أَوْ جَدْوَلٌ أَوْ بُلْبُـلٌ أَوْ رَبْرَبُ (١)
وَكَأَنَّ ذَاكَ ٱلنَّهْرَ فِيـهِ مِعْصَمٌ
بِيَدِ ٱلنَّسِيمِ مُنَقَّشٌ وَمُـكَتَّبُ
وَإِذَا تَـكَسَّرَ مَاؤُهُ أَبْصَرْتَهُ
فِي ٱلْحَالِ بَيْنَ رِيَاضِهِ يَتَشَعَّبُ (٢)
وَشَدَتْ عَلَى ٱلْعِيدَانِ وُرْقٌ أَطْرَبَتْ
بِغِنَائِهَا مَنْ غَابَ عَنْهُ ٱلْمُطْرِبُ

---

(١) الربرب: القطيع من بقر الوحش، يريد به الغادات الفاتنات (٢) أخذ هذا المعنى من قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي :

وحـديقة مطلولة باكرتها والشمس ترشف ريق أزهار الربا
يتـكسر الماء الزلال على الحصا فاذا جرى بين الرياض تشعبا

توفى ابن لؤلؤ الذهبي سنة ٦٨٠ وكان من كبار شعراء الدولة الناصرية « أحمد يوسف نجاتي » .

فَالْوُرْقُ تُنْشِدُ ، وَالنَّسِيمُ مُشَبِّبٌ

وَالنَّهْرُ يَسْقِي ، وَالْحَدَائِقُ تَشْرَبُ (١)

وَضِيَاعُهَا ضَاعَ النَّسِيمُ بِهَا فَكَمْ

أَضْحَى لَهُ مِنْ بَيْنِ رَوْضٍ مَطْلَبُ (٢)

وَحَلَتْ بِقَلْبِي مِنْ عَسَاكِرَ جَنَّةٌ

فِيهَا لِأَرْبَابِ الْخَلَاعَةِ مَلْعَبُ (٣)

وَلَكَمْ رَقَصْتُ عَلَى السَّمَاعِ بِجَنْكِهَا

وَغَدَا بِرَبْوَتِهَا اللِّسَانُ يُشَبِّبُ (٤)

فَمَتَى أَزُورُ مَعَالِمًا أَبْوَابُهَا

بِسَمَاحِهَا كُتُبُ السَّمَاحِ تُبَوَّبُ .

(١) فى « مشبب » تورية ؛ اما من التشبيب بمعنى التغزل ، أو من الشبابة التى هى آلة من آلات الطرب (٢) فى قوله « ضاع النسيم » كذلك تورية . اما من ضاع يضيع ضياعا بمعنى الذهاب ، أو ضاعت الرائحة تضوع ، وتضوعت : اذا أرجت رائحتها وفاحت عاطرة منتشرة . « أحمد يوسف نجاتى » .

(٣) قد يكون فيه اشارة الى قول المتنبى :

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

وفى نسخة «عسالة» بدل « عساكر» وأغلب ظنى أن ذلك كله تصحيف من : «وحلت بقلبي من عسيل جنة» فان هناك ناحية بين دمشق وبعلبك كانت تسمى « جبة عسيل » تشتمل على عدة قرى ، وبهذا أيضا يظهر معنى التناسب بين «حلت» و«عسيل» . « أحمد يوسف نجاتى » (٤) الجنك : من آلات الطرب كالعود ، واسم مكان نزه هناك ، وتقدم القول فى ربوة دمشق ، وفى التشبيب والشبابة

وَقَالَ ٱلصَّفِيُّ ٱلْحِلِّيُّ[١] عِنْدَ نُزُولِهِ بِدِمَشْقَ مُسَمِّطًا لِقَصِيدَةِ ٱلسَّمَوْءَلِ بِالْحَمَاسَةِ :

قَبِيحٌ بِمَنْ ضَاقَتْ عَنِ ٱلرِّزْقِ أَرْضُهُ
وَطُولُ ٱلْفَلَا رَحْبٌ لَدَيْهِ وَعَرْضُهُ
وَلَمْ يُبْلِ سِرْبَالَ ٱلدُّجَى فِيهِ رَكْضُهُ
إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ ٱللُّؤْمِ عِرْضُهُ[٢]
فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

إِذَا ٱلْمَرْءُ لَمْ يَحْجُبْ عَنِ ٱلْعَيْنِ نَوْمَهَا
وَيُغْلِ مِنَ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّفِيسَةِ سَوْمَهَا[٣]
أُضِيعَ وَلَمْ تَأْمَنْ مَعَالِيهِ لَوْمَهَا[٤]
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى ٱلنَّفْسِ ضَيْمَهَا
فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ ٱلثَّنَاءِ سَبِيلُ

رَفَعْنَا عَلَى هَامِ ٱلسِّمَاكِ مَحَلَّنَا فَلَا مَلِكٌ إِلَّا تَغَشَّاهُ ظِلُّنَا[٥]

(١) هو الأديب الكبير والشاعر المجيد عبد العزيز بن سرايا بن علي المتوفى سنة ٧٥٩ (٢) السربال : القميص أو الدرع أو كل ما لبس ، والركض : السير السريع واستحثاث الفرس للعدو (٣) أغلاه : طلب فيه ثمنا غاليا أو جعله غاليا ، والسوم: عرض السلعة على البيع ، أو ذكر ثمنها (٤) في نسخة « يومها » (٥) السماك الأعزل ، والرامح : نجمان نيران ، وسبق وصفهما وماقيل فيهما . « أحمد يوسف نجاتي » .

لَقَدْ هَابَ جَيْشُ ٱلْأَكْثَرِينَ أَقَلَّنَا

وَلَا قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا

شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَا وَكُهُولُ

يُوَازِي ٱلْجِبَالَ ٱلرَّاسِيَاتِ وَقَارُنَا

وَتُبْنَى عَلَى هَامِ ٱلْمَجَرَّةِ دَارُنَا[1]

وَيَأْمَنُ مِنْ صَرْفِ ٱلزَّمَانِ جِوَارُنَا

وَمَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا

عَزِيزٌ وَجَارُ ٱلْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

وَلَمَّا حَلَلْنَا ٱلشَّامَ تَمَّتْ أُمُورُهُ

لَنَا ، وَحَبَانَا مَلْكُهُ وَأَمِيرُهُ[2]

وَبِالنَّيْرَبِ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِي عَزَّ طُورُهُ

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ[3]

مَنِيعٌ يَرُدُّ ٱلطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلُ

يُرِيكَ ٱلثُّرَيَّا مِنْ خِلَالِ شِعَابِهِ

وَتُحْدِقُ شُهْبُ ٱلْأُفْقِ حَوْلَ هِضَابِهِ

---

(١) تقدم وصف المجرة وماقيل فيها (٢) فى الأصل « ووزيره » (٣) تقدم التعريف بالنيرب ، وجبل الطور معروف مشهور مشرف على نابلس .

وَيَقْصُرُ خَطْوُ ٱلسُّحْبِ دُونَ ٱرْتِكَابِهِ

رَسَا أَصْلُهُ تَحْتَ ٱلثَّرَى وَسَمَا بِهِ

إِلَى ٱلنَّجْمِ فَرْعٌ لَا يُنَالُ طَوِيلُ

وَقَصْرٍ عَلَى ٱلشَّقْرَاءِ قَدْ فَاضَ نَهْرُهُ

وَفَاقَ عَلَى فَخْرِ ٱلْكَوَاكِبِ فَخْرُهُ

وَقَدْ شَاعَ مَا بَيْنَ ٱلْبَرِيَّةِ شُكْرُهُ

هُوَ ٱلْأَبْلَقُ ٱلْفَرْدُ ٱلَّذِي سَارَ ذِكْرُهُ(١)

يَعِزُّ عَلَى مَنْ رَامَهُ وَيَطُولُ

إِذَا مَا غَضِبْنَا فِي رِضَا ٱلْمَجْدِ غَضْبَةً

لِنُدْرِكَ ثَأْرًا أَوْ لِنَبْلُغَ رُتْبَةً

نَزِيدُ غَدَاةَ ٱلْكَرِّ فِي ٱلْمَوْتِ رَغْبَةً

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى ٱلْمَوْتَ سُبَّةً

إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

---

(١) الأبلق الفرد : حصن السموءل بن عادياء مشرف على تيماء بين الحجاز والشام ، وقيل له الأبلق لأنه كان في بنائه بياض وحمرة. قال ياقوت: وهو على رابية من تراب فيه آثار أبنيــة من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من العظمة والحصانة « أحمد يوسف نجاتي » .

وَكَتَبَ ٱلشَّيْخُ مُحِبُّ ٱلدِّينِ ٱلْحَمَوِيُّ تَرْجَمَةً لِلشَّيْخِ إِسْمَعِيلَ ٱلنَّابُلُسِيِّ شَيْخِ ٱلْإِسْلَامِ (١) مِنْ مِصْرَ :

لِوَاءُ ٱلتَّهَانِي بِالْمَسَرَّةِ يَخْفِقُ
وَشَمْسُ ٱلْمَعَالِي فِي سَمَا ٱلْفَضْلِ تُشْرِقُ

وَسَعْدٌ وَإِقْبَالٌ وَمَجْدٌ مُخَيِّمٌ
وَأَيَّامُ عِزٍّ بِالْوَفَا تَتَخَلَّقُ

فَيَا أَيُّهَا ٱلْمَوْلَى ٱلَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ
وَيَا أَيُّهَا ٱلْحَبْرُ ٱللَّبِيبُ ٱلْمُدَقِّقُ

أَرَى ٱلشَّامَ مُذْ فَارَقْتَهَا زَالَ نُورُهَا
وَثَوْبُ بَهَاهَا وَٱلنَّضَارَةِ يَخْلُقُ (٢)

(١) النابلسى، هو الشيخ اسماعيل بن أحمد بن الحاج ابراهيم النابلسى الشافعى شيخ الاسلام، ومفتى الانام، وأستاذ العصر، ومفرد الوقت، تصدر للأفتاء والتدريس، وصار اليه المرجع بعد شيخ الاسلام والده، ولد سنة ٩٣٧ وعنى بطلب العلم والأدب، وأخذ عن أجلاء عصره حتى وصل الى درجة عالية وكانت دروسه حافلة لصفاء ذهنه وطلاقة لسانه وحسن تقريره، وتوفى فى المحرم من سنة ٩٩٣ ـ وابنه عبد الغنى بن اسماعيل كان من أهل العلم والأدب والدين، توفى سنة ١٠٣٢ وابنه اسماعيل بن عبد الغنى بن اسماعيل النابلسى الأصل الدمشقى المولد والدار، ولد سنة ١٠١٧ وكان عالما متبحرا غواصا على المعانى الدقيقة، قوى الحافظة ففيها أديبا، وله مؤلفات فى الفقه كثيرة، ودرس بالجامع الأموى سنة ١٠٣٩ وتوفى فى أواخر سنة ١٠٦٢

(٢) خلق الثوب «كنصر وكرم وسمع» خلوقا وخلوقة: اذا بلى .

إِذَا غِبْتَ عَنْهَا غَابَ عَنْهَا جَمَالُهَا
وَنَفْسٌ بِدُونِ ٱلرُّوحِ لَا تَتَحَقَّقُ
وَإِنْ عُدْتَ فِيهَا عَادَ فِيهَا كَمَالُهَا
وَصَارَ عَلَيْهَا مِنْ بَهَائِكَ رَوْنَقُ
فَيَاسَاكِنِي وَادِي دِمَشْقَ مَزَارُكُمْ
بَعِيدٌ، وَبَابُ ٱلْوَصْلِ دُونِيَ مُغْلَقُ
وَلَيْسَ عَلَى هَذَا ٱلنَّوَى لِيَ طَاقَةٌ
فَهَلْ مِنْ قُيُودِ ٱلْبَيْنِ وَٱلْبُعْدِ أُطْلَقُ؟!
وَإِنِّي إِلَى أَخْبَارِكُمْ مُتَشَوِّفٌ(١)
وَإِنِّي إِلَى لُقْيَاكُمُ مُتَشَوِّقُ
أَوَدُّ إِذَا هَبَّ ٱلنَّسِيمُ لِنَحْوِكُمْ بِأَنِّيَ فِي أَذْيَالِهِ أَتَعَلَّقُ
وَأَصْبُو لِذِكْرَاكُمْ إِذَ هَبَّتِ ٱلصَّبَا
لَعَلِّيَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ أَتَنَشَّقُ
وَلِي أَنَّةٌ أَوْدَتْ بِجِسْمِي وَلَوْعَةٌ
وَنَارُ جَوًى مِنْ حَرِّهَا أَتَفَلَّقُ

(١) تشوف اليه : تطلع واشتاق «أحمد يوسف نجاتي»

فَحِنُّوا عَلَى ٱلْمُضْنَى ٱلَّذِى ثَوْبُ صَبْرِهِ
إِذَا مَسَّهُ ذَيْلُ ٱلْهَوَى يَتَمَزَّقُ

غَرِيبٌ بِأَقْصَى مِصْرَ أَضْحَتْ دِيَارُهُ
وَلٰكِنَّ قَلْبِي بِالشَّآمِ مُعَلَّقُ

وَقَدْ نَسَخَ ٱلتَّبْرِيحُ جِسْمِى، فَهَلْ إِلَى
غُبَارِ ثَرَى أَعْتَابِ وَصْلٍ يُحَقَّقُ[1]

فَيَالَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَفُوزُ بِرَوْضَةٍ
وَفِيهَا عُيُونُ ٱلنَّرْجِسِ ٱلْغَضِّ تُحْدِقُ؟!

وَأَنْظُرُ وَادِيهَا ! وَآوِى[2] لِرَبْوَةٍ
وَمَاءٍ مَعِينٍ حَوْلَنَا يَتَدَفَّقُ؟!

وَيَحْلُو لِيَ ٱلْعَيْشُ ٱلَّذِى مَرَّ[3] صَفْوُهُ
وَهَلْ عَائِدٌ ذَاكَ ٱلنَّعِيمُ ٱلْمُرَوَّقُ؟!

وَأَنْظُرُ ذَاكَ ٱلْجَامِعَ ٱلْفَرْدَ مَرَّةً
وَفِى صَحْنِهِ تِلْكَ ٱلْحَلَاوَةُ تُشْرِقُ؟!

---

(١) التبريح : شدة الجهد والمشقة (٢) فى الأصل و « وأدنو » . وفى نسخة « حولها » بدل حولنا (٣) فى « مر » تورية، فهى من المرور أو من المرارة « أحمد يوسف نجاتى » .

وَأَصْحَابُنَا فِيـهِ نُجُومٌ زَوَاهِرٌ
وَنُورُ مُحَيَّـا وَجْهِهِمْ يَتَأَلَّقُ

فَلَا بَرِحُوا فِي نِعْمَةٍ وَسَعَادَةٍ
وَعِزٍّ وَمَجْـدٍ شَأْوُهُ لَيْسَ يُلْحَقُ

ابن عنين وشيء من أخباره وشعره

وَقَالَ ابْنُ عُنَيْنٍ(١) :

مَاذَا عَلَى طَيْفِ الْأَحِبَّةِ لَوْ سَرَى؟!
وَعَلَيْهِمُ لَوْ سَاعَدُونِي بِالْـكَرَى؟!

جَنَحُوا إِلَى قَوْلِ الْوُشَاةِ ، وَأَعْرَضُوا
وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مُفْتَرَى

(١) أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاری الـكوفی الأصل الدمشقی المولد الشاعر المشهور ، كتب هذه القصيدة الى الملك العادل بعد موت السلطان صلاح الدين وملك العادل دمشق « وكان ابن عنين قد نفاه السلطان صلاح الدين لوقوعه فی أعراض الناس » يستأذنه فی الدخول اليها ويصف دمشق ويذكر ماقاساه فی الغربة، ولقد أحسن فيها كل الاحسان، واستعطفه أبلغ استعطاف، وهو يعارض بها قصيدة ذی الوزارتين أبی بكر محمد بن عمار المهری الأندلسی الشبلی الشاعر المشهور المتوفی سنة ٤٧٧ ، والتی أولها :

أدر الزجاجة ، فالنسيم قـد انبری والنجم قد صرف العنان عن السری
والصبح قـد أهدى لنا كافوره لمـا استرد الليـل منـا العنـبرا

وهی طويلة فائقة يمدح بها المعتمد بن عباد ، ولم يقصر ابن عنين فی مجاراة ابن عمار، بل قد يفوقه فی بعض أبياته ومعانيه ـ فلما وقف عليها الملك العادل

يَا مُعْرِضًا عَنِّى بِغَيْرِ جِنَـايَةٍ(١)
إِلَّا لِمَا نَقَلَ الْعَذُولُ وَزَوَّرَا
هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا تَقُولُ وَتَفْتَرِى
وَأَتَيْتُ فِي حُبِّكَ شَيْئًا مُنْكَرَا
مَا بَعْدَ بُعْـدِكَ وَالصُّدُودِ عُقُوبَةٌ
يَا هَاجِرِى مَا آنَ لِى أَنْ تَغْفِرَا!
لَا تَجْمَعَنَّ عَلَيَّ عَتْبَكَ وَالنَّوَى
حَسْبُ الْمُحِبِّ عُقُوبَةً أَنْ يُهْجَرَا
لَوْ عَاقَبُونِى فِي الْهَوَى بِسِوَى النَّوَى
لَرَجَوْتُهُمْ وَطَمِعْتُ أَنْ أَتَصَبَّرَا
عِبءُ الصُّدُودِ أَخَفُّ مِنْ عِبءِ النَّوَى
لَوْ كَانَ لِي فِي الْحُبِّ أَنْ أَتَخَيَّرَا

أذن له فى الدخول الى دمشق، فلما دخلها قال:

هجرت الأكابر فى جلق ورعت الوضيع بسب الرفيع
وأخرجت منها، ولكننى رجعت على رغم أنف الجميع

وتوفى ابن عنين فى شهر ربيع الأول من سنة ٦٣٠ بدمشق «أحمد يوسف نجاتى»

(١) فى رواية:

* يامن نأى عنى لغير جناية *

فَسَقَى دِمَشْقَ وَوَادِيَهَا وَالْحِمَى
مُتَوَاصِلُ الْأَرْهَامِ مُنْفَصِمُ الْعُرَا(١)
حَتَّى تَرَى وَجْهَ الرِّيَاضِ بِعَارِضٍ
أَحْوَى، وَفَوْدَ الدَّوْحِ أَزْهَرَ نَيِّرَا(٢)
تِلْكَ الْمَنَازِلُ لَا مَلَاعِبُ عَالِجٍ
وَرِمَالُ كَاظِمَةٍ وَلَا وَادِي الْقُرَى(٣)
أَرْضٌ إِذَا مَرَّتْ بِهَا رِيحُ الصَّبَا
حَمَلَتْ عَلَى الْأَغْصَانِ مِسْكاً أَذْفَرَا(٤)

---

(١) الأرهام : جمع رهمة ، وهو المطر الضعيف الدائم (٢) أحوى من الحوة : وهو سواد الى خضرة ، والأحوى : النبات الضارب الى السواد لشدة خضرته وهو أنعم مايكون من النبات ـ والفود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، والدوح جمع دوحة: وهي الشجرة العظيمة ذات الفروع الممتدة ، يدعو لرياض دمشق أن يخضر عارضها ويشيب فود أدواحها « أى أن تخضر بالنبات وتزهر بالنور » . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) عالج : اسم رملة بالبادية ـ كان ينزلها بنو بحتر من طيء ، وفيه يقول أعرابى من أبيات :

فيا راشقات العين من رمل عالج   متى منكم سرب الى الماء وارد!!
فما القلب من ذكرى أميمة نازع   ولا الدمع مما أضمر القلب جامد

وكاظمة : جو على سيف البحر فى طريق البحرين مما يلى البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان، ووادى القرى: واد بين المدينة والشام «أحمد يوسف نجاتى» (٤) مسك أذفر : ذكى الرائحة جيد الى الغاية ، ولا يقال فى شىء من الطيب الا فى المسك وحده، والقلى: شدة البغض والكراهية « أحمد يوسف نجاتى»

فَارَقْتُهَا لَا عَنْ رِضًا ، وَهَجَرْتُهَا
لَا عَنْ قِلًى ، وَرَحَلْتُ لَا مُتَخَيِّرَا
أَسْعَى لِرِزْقٍ فِي الْبِلَادِ مُشَتَّتٍ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكُونَ مُقَتَّرًا[1]

وَابْنُ عُنَيْنٍ الْمَذْكُورُ كَانَ هَجَّاءً، وَهُوَ صَاحِبُ « مِقْرَاضِ الْأَعْرَاضِ[2] » ـ تَجَاوَزَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ ـ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

---

(١) وبعده :

وأصون وجه مدائحي متقنعا … وأكف ذيل مطامعي متسترا

ومنها يشكو الغربة وماقاساه فيها :

أشكو اليك نوى تمادى عمرها … حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لاعيشتي تصفو، ولا رسم الهوى … يعفو، ولاجفني يصالحه الكرى
أضحى عن الأحوى المريع محولا … وأبيت عن ورد النمير منفرا
ومن العجائب أن يقيل بظلكم … كل الورى ونبذت وحدى بالعرا

عفا الرسم : محى وزال أثره ، والأحوى: المخصب شديد الخضرة ، والمريع الممرع ذو الخصب ، والنمير: الماء العذب السائغ ، والعراء : المكان الفضاء لايستر فيه شيء بشيء ، ومنه قوله تعالى : فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وقوله : «لنبذ بالعراء وهو مذموم » « أحمد يوسف نجاتى» (٢) اسم قصيدة طويلة نحو خمسمائة بيت جمع فيها خلقا كثيرا من رؤساء دمشق ثلب فيها أعراضهم ولما نفاه صلاح الدين كما تقدم قال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة … لم يقترف ذنبا ولاسرقا
انفوا المؤذن من بلادكم … ان كان ينفى كل من صدقا

فطاف البلاد من الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم وماوراء النهر، ثم دخل الهند واليمن وملكها يومئذ سيف الاسلام

أَرِحْ مِنْ نَزْحِ مَاءِ ٱلْبُرْجِ يَوْمًا
فَقَــدْ أَفْضَى إِلَى تَعَبٍ وَعِيٍّ
مُرِ ٱلْقَاضِى بِوَضْعِ يَدَيْهِ فِيهِ
وَقَدْ أَضْحَى كَرَأْسِ ٱلدَّوْلَعِيِّ(١)

طغتكين كما سيأتى . « أحمد يوسف نجاتى » (١) فى الأصل « كرأس زير نعى » وهو تحريف جاهل وتصحيف فاسد . والدولعى هنا هو خطيب دمشق أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين التغلبى الدولعى الموصلى الشافعى ، ولد بالدولعية « قرية كبيرة قرب الموصل على سير القوافل فى طريق نصيبين » وكان فقيها مفتيا بالمذهب خطب دهرا ، قال النووى فى طبقاته : كان عبد الملك شيخ شيوخنا ، وكان أحد الفقهاء المشهورين ، والصلحاء الورعين ، زاهدا ورعا ، وكان للناس فيه اعتقاد حسن ، مات بدمشق وهو خطيبها سنة ٥٩٨ عن ٩١ سنة — وكان مولد ابن عنين بدمشق سنة ٥٤٩ وابن أخيه أبو عبد الله جمال الدين محمد بن أبى الفضل بن زيد بن يس التغلبى الشافعى ، ولد بالدولعية سنة ٥٥٥ وتفقه على عمه ضياء الدين خطيب دمشق وغيره ، وولى الخطابة بعد عمه ، وطالت مدته فى المنصب نحو ٣٧ سنة وكان له سمت حسن ، ويفخم كلامه ، وكان الملك المعظم قد منعه من الفتوى وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥ ، وقد يكون هو الذى بقصده ابن عنين فالبيتان يهجو بهما الخطيب الدولعى على طريق الاستطراد البديعى ، ويهجو القاضى بالخيانة والرشوة وانتزاعه كل ما امتدت يده اليه ، وقد هجا ابن عنين الخطيب الدولعى هنا فى أبيات أخرى يهجو فيها السلطان صلاح الدين الأيوبى ووزيره وغيرهما منها :

سلطاننا أعرج ، وكاتبه ذو عمش ، والوزير منحدب
وصاحب الأمر خلقه شرس وعارض الجيش داؤه عجب

يَعْنِي أَقْرَعَ . وَسَبَبُ قَوْلِهِ ٱلْبَيْتَيْنِ أَنَّ ٱلْمُعَظَّمَ(١) أَمَرَ بِنَزْحِ مَاءٍ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ ، فَأَعْيَاهُمْ ذَلِكَ . وَمِنْ هَجْوِهِ قَوْلُهُ :

شَكَا شِعْرِي إِلَيَّ، وَقَالَ : تَهْجُو
بِمِثْلِي عِرْضَ ذَا ٱلْكَلْبِ ٱللَّئِيمِ !
فَقُلْتُ لَهُ : تَسَلَّ ، فَرُبَّ نَجْمٍ
هَوَى فِي إِثْرِ شَيْطَانٍ رَجِيمِ

وَقَالَ فِيمَنْ خَرَجَ حَاجًّا فَسَقَطَ عَنِ ٱلْهَجِينِ فَتَخَلَّفَ :

والدولعي الخطيب معتكف — وهو على قشر بيضة يثب
ولابن باقا وعظ يغربه النـ — ـناس، وعبداللطيف محتسب
عيوب قوم لو أنها جمعت — فى فلك ماسرت به الشهب

هذا وفى نسخة « أرح » من نزح ماء « البرج » بدل « البئر » والبرج موضع بدمشق كان بها ثم درس، ينسب اليه أبو محمد عبدالله بن سلمة البرجى الدمشقى . « أحمد يوسف نجاتى » (١) الملك المعظم سلطان الشام وصاحب دمشق شرف الدين عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦ ، وكان رجل بنى أيوب وعالمهم، برز فى كثير من العلوم والفنون ومن النجباء الأذكياء، شاعرا أديبا عالما نبيلا ، ومن شعره وقد مرض بالحمى

زارت ممحصة الذنوب وودعت — تبالها من زائر ومودع
باتت معانقتى كأنى حبها — ومقيلها ومبيتها فى أضلعى
قالت وقد عزمت على ترحالها: — ماذا تريد ؟ فقلت : ألا ترجعى

ومرض ابن عنين فكتب اليه :

أنظر الى بعين مولى لم يزل — يولى الندى، وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى أحتاج ماتحتاجه — فاغنم ثنائى والثواب الوافى

إِذَا مَا ذُمَّ فِعْلُ ٱلنُّوقِ يَوْمًا ... فَإِنِّى شَاكِرٌ فِعْلَ ٱلنِّيَاقِ
أَرَادَ ٱللَّهُ بِٱلْحُجَّاجِ خَيْرًا ... فَثَبَّطَ عَنْهُمُ أَهْلَ ٱلنِّفَاقِ

وَقَالَ :

وَرَاحِلٍ سِرْتُ فِي رَكْبٍ أُوَدِّعُهُ
تَبَارَكَ ٱللَّهُ مَا أَحْلَى تَلَاجِينَا(١)
جِئْنَا إِلَى بَابِهِ لَاجِينَ نَسْأَلُهُ
فَلَيْتَنَا عَاقَنَا مَوْتٌ وَلَا جِينَا(٢)
رَاجِينَ نَسْأَلُ مَيْتًا لَا حَرَاكَ بِهِ
مِثْلَ ٱلنَّصَارَى إِلَى ٱلْأَصْنَامِ لَاجِينَا

وَقَالَ :

وَصَلَتْ مِنْكَ رُقْعَةٌ أَسْأَمَتْنِى
صَيَّرَتْ صَبْرِىَ ٱلْجَمِيلَ قَلِيلَا

فجاء اليه فعاده ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة وأنا العائد وهذه لو وقعت من أكابر النحاة لاستحسنت منه، فكيف هذا الملك، وتوفى الملك المعظم سنة ٦٢٤ وكان قد استكتب ابن عنين فعد كثير من المؤرخين ذلك من سيئاته ــ رحمه الله تعالى . « أحمد يوسف نجاتى » .

(١) وفى نسخة ماأشهى « تناجينا » من النجوى ، وهى الحديث والمسارة والتلاجى: أى التجاء كليهما الى صاحبه (٢) لاجين أصله لاجئين، ولاجينا ـ فى آخر البيت مخفف من: ولاجئنا « أحمد يوسف نجاتى »

كَنَهَارِ ٱلْمَصِيفِ حَرًّا وَكَرْبًا
وَكَلَيْلِ ٱلشِّتَاءِ بَرْدًا وَطُولًا

وَأَوَّلُ مِقْرَاضِ ٱلْأَعْرَاضِ قَوْلُهُ :

أَضَالِعٌ تَنْطَوِى عَلَى كَرْبِ
وَمُقْلَةٌ مُسْتَهِلَّةُ ٱلْغَرْبِ(١)

شَوْقًا إِلَى سَاكِنِى دِمِشْقَ ، فَلَا
عَدَتْ رُبَاهَا مَوَاطِرُ ٱلسُّحْبِ(٢)

مَوَاطِنٌ مَا دَعَا تَوَطُّنُهَا إِلَّا وَلَبَّى نِدَاءَهَا لُبِّى(٣)

ثُمَّ ذَكَرَ مِنَ ٱلْهَجْوِ مَاتَصَمُّ عَنْهُ ٱلْآذَانُ. وَهُوَ ٱلْقَائِلُ فِى دِمَشْقَ(٤) :

---

(١) الغرب : عرق فى مجرى الدمع ، أو عرق فى العين يسقى ولا ينقطع سقيه ، ويقال: بعينه غرب اذا كانت تسيل ولا تنقطع دموعها، والغرب: الدمع حين يخرج من العين،وجمعه غروب ، قال مالك

مالك لاتذكر أم عمرو الا بعينيك غروب تجرى؟!

واستهل السحاب بالمطر وهل: اشتد انصبابه وارتفع صوت وقعه . «أحمد يوسف نجاتى » (٢) عداه يعدوه : تجاوزه وحاد عنه وبعد (٣) فى نسخة «منازل مادعا تذكرها» بدل «مواطن مادعا توطنها» كما هنا (٤) مدح بهذه القصيدة سيف الاسلام طغتكين لما قصده باليمن بعد نفيه من دمشق، وأول القصيدة

حنين الى الأوطان ليس يزول وقلب عن الأشواق ليس يحول

ألا ليت شعرى الخ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً
وَظِلُّكِ يَا مُقْرَى عَلَىَّ ظَلِيلُ(١) ؟!
وَهَلْ أَرَيَنِّى بَعْدَ مَا شَطَّتِ النَّوَى
وَلِى فِى ذَرَا رَوْضٍ هُنَاكَ مَقِيلُ ؟!

وَمِنْهَا :

دِمَشْقُ ! بِنَا شَوْقٌ إِلَيْكِ مُبَرِّحٌ
وَإِنْ لَجَّ وَاشٍ ، أَوْ أَلَحَّ عَذُولُ
بِلَادٌ بِهَا الْحَصْبَاءُ دُرٌّ ، وَتُرْبُهَا
عَبِيرٌ ، وَأَنْفَاسُ الشَّمَالِ شَمُولُ
تَسَلْسَلَ فِيهَا مَاؤُهَا وَهْوَ مُطْلَقٌ
وَصَحَّ نَسِيمُ الرَّوْضِ وَهْوَ عَلِيلُ

وفى كبدى من قاسيون حرارة — تزول رواسيه وليس تزول
ووالله مافارقتها عن ملالة — سواى عن العهد القديم يحول
ولكن أبت أن تحمل الضيم همتى — ونفس لها فوق السماك حلول
فان الفتى يلقى المنايا مكرما — ويكره طول العمر وهو ذليل

وكيف أخاف الفقر — الى آخر ماهنا، فأجزل الملك صلته « أحمد يوسف نجاتى »

(١) مقرى « بفتح الميم وضمها » قرية بالشام كانت من نواحى دمشق، قال البحترى يمدح خمارويه بن أحمد بن طولون :

أما كان فى يوم الثنية منظر — ومستمع ينبى عن البطشة الكبرى ؟!
وعطف أبى الجيش الجواد بكرة — مدافعة عن دير مران أو مقرى

وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلتَّمَثُّلُ بِهٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ فِي خُطْبَةِ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ، وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ :

وَكَيْفَ أَخَافُ ٱلْفَقْرَ أَوْ أُحْرَمُ ٱلْغِنَى
وَرَأْيُ ظَهِيرِ ٱلدِّينِ فِيَّ جَمِيلُ(١) ؟!

مِنَ ٱلْقَوْمِ أَمَّا أَحْنَفٌ فَمُسَفَّهٌ
لَدَيْهِمْ ، وَأَمَّا حَاتِمٌ فَبَخِيلُ(٢)

فَتَى ٱلْمَجْدِ ، أَمَّا جَارُهُ فَمُمَنَّعٌ
عَزِيزٌ ، وَأَمَّا ضِدُّهُ فَذَلِيلُ

وَأَمَّا عَطَايَا كَفِّهِ فَمُبَاحَةٌ
حَلَالٌ ، وَأَمَّا ظِلُّهُ فَظَلِيلُ

« الثنية هنا ثنية العقاب ، وهى مشرفة على غوطة دمشق يمر بها القاصد من دمشق الى حمص ، وثنية العقاب أيضا بالثغور الشامية قرب المصيصة ، ودير مران كان بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة ، وكان من أنزه الجهات ، يقصده ظرفاء الشعراء يقضون بها أوقات مسراتهم . « أحمد يوسف نجاتى » (١) من قول اسحق بن ابراهيم الموصلى للرشيد :

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى   ورأى أمير المؤمنين جميل ؟!

من أبيات رقيقة مشهورة . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) سبق التعريف بالأحنف بن قيس التميمى الذى يضرب به المثل فى الحلم ، وبحاتم الطائى . « أحمد يوسف نجاتى » .

وَظَهِيرُ ٱلدِّينِ ٱلْمَمْدُوحُ هُوَ طُغْتِكِينُ بْنُ أَيُّوبَ أَخُو ٱلسُّلْطَانِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ - وَكَانَ مَلِكَ ٱلْيَمَنِ(١)، وَأَحْسَنَ إِلَى ٱبْنِ عُنَيْنٍ إِحْسَانًا كَثِيرًا وَافِرًا، وَخَرَجَ ٱبْنُ عُنَيْنٍ مِنَ ٱلْيَمَنِ بِمَالٍ جَمٍّ. وَطُغْتِكِينُ بِضَمِّ ٱلطَّاءِ ٱلْمُهْمَلَةِ وَبَعْدَهَا غَيْنٌ مُعْجَمَةٌ ثُمَّ تَاءٌ مُثَنَّاةٌ مِنْ فَوْقِهَا مَكْسُورَةٌ ثُمَّ كَافٌ مَكْسُورَةٌ أَيْضًا ثُمَّ يَاءٌ تَحْتِيَّةٌ ثُمَّ نُونٌ - وَكَانَ يُلَقَّبُ بِالْمَلِكِ ٱلْعَزِيزِ، وَلِذَلِكَ قَالَ ٱبْنُ عُنَيْنٍ لَمَّا رَجَعَ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى مِصْرَ أَيَّامَ ٱلْعَزِيزِ عُثْمَانَ(٢) بْنِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ، فَأَلْزَمَ أَرْبَابُ

---

(١) قد عرفت أن ابن عنين بعد نفيه جاب الأرض، وفتش آماق الآفاق، حتى كان كما قال عن نفسه من قصيدة:

أشقق قلب الشرق، حتى كأننى أفتش فى سودائه عن سنا الفجر

فلما وصل الى اليمن كان ملكها يومئذ سيف الاسلام طغتكين بن أيوب، وهو أخو السلطان صلاح الدين، وكان صلاح الدين لما ملك مصر سير أخاه شمس الدولة توران شاه الى بلاد اليمن، فملكها، واستولى على كثير من بلادها، ثم سير السلطان اليها بعد ذلك أخاه سيف الاسلام المذكور، وذلك فى سنة ٥٧٧، وكان رجلا شجاعا كريما مشكور السيرة حسن السياسة مقصودا من البلاد الشاسعة لاحسانه وبره « توفى فى شوال من سنة ٥٩٣ وتولى بعده ولده الملك المعز فتح الدين أبو الفداء اسمعيل، وتوفى فى رجب سنة ٥٩٨، وتولى مكانه أخوه الملك الناصر أيوب «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين، ولد بمصر سنة ٥٦٧ وملك بمصر بعد أبيه سنة ٥٨٩ وكان ملكا قويا ذا بطش منصفا عادلا شجاعا مباركا لطيفا عفيفا رفيقا بالرعية حليما جوادا كثير الخير واسع الكرم محسنا الى الناس، وتوفى

ٱلدِّيوَانِ ٱبْنَ عُنَيْنٍ بِدَفْعِ ٱلزَّكَاةِ مِنَ ٱلْمَتَاجِرِ ٱلَّتِي وَصَلَتْ صُحْبَتَهُ :

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بِالْعَزِيزِ لَهَا
أَهْلٌ،وَمَا كُلُّ بَرْقٍ سُحْبُهُ غَدِقَهْ(١)
بَيْنَ ٱلْعَزِيزَيْنِ بَوْنٌ فِي فِعَالِهِمَا
هٰذَاكَ يُعْطِي،وَهٰذَا يَأْخُذُ ٱلصَّدَقَهْ

وَمِنْ هَجْوِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ قَوْلُهُ فِي فَقِيهَيْنِ يُلَقَّبُ أَحَدُهُمَا بِالْبَغْلِ،وَٱلْآخَرُ بِالْجَامُوسِ(٢) :

فى المحرم من سنة ٥٩٥ ، وكان قد أوصى بالملك لأكبر أولاده، وهو ناصر الدين الملك المنصور محمد ، والعزيز الذى يفضله هو الملك العزيز سيف الاسلام طغتكين . « أحمد يوسف نجاتى » (١) الغدق : الماء الكثير أو المطر الكثير العام ، وغدقت العين « كفرح » غزرت وعذبت ، فهى غدقة ، وفى الحديث « اللهم اسقناغدقا مغدقا » وأرباب الديوان أى ديوان الزكاة بمصر ، وكان السلطان صلاح الدين هو أول من جباها بمصر ، واستخدم ابن حمدان فى ديوان الزكاة بها فى سنة ٥٨٨ ، وفى زمن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ولى النظر فى ديوان الزكاة القاضى الأسعد شرف الدين أبو المكارم أسعد بن مهذب ابن مماتى ، فاستخرج الزكاة من أربابها، بعد أن كان الأغنياء يضنون بها ولكن لم يكن بعض جباتها يسلم من الجور والعسف «أحمد يوسف نجاتى »

(٢) كان هذان الفقيهان بدمشق ، ويروى صدر البيت الأول « ... فى جدليهما» بدل «حاليهما» وصدر الثانى «برزاعشية ليلة فتباحثا» وأول الثالث «ما أتقنا» وبنو

عساكر أسرة كانت بدمشق مشهورة بالعلم والأدب والحديث والنبل: منهم « ممن عاصرهم ابن عنين » الحافظ الجليل أبو القاسم على بن هبة الله محدث الشام، وصاحب تاريخ دمشق، وفخر الشافعية، وامام أهل الحديث فى عصره، ولد سنة ٤٩٩، وتوفى سنة ٥٧١ – وابنه القاسم كان محدثا شديد الورع، ولد سنة ٥٢٧، وتوفى سنة ٦٠٠ – ومنهم أبو الفضل تاج الأمناء أحمد بن محمد ابن الحسن بن هبة الله الدمشقى المعدل ابن عساكر، ولد سنة ٥٤٢، وتوفى سنة ٦١٠ – وعماد الدين على بن القاسم بن الحافظ أبى القاسم على ولد سنة ٥٨١، وتوفى سنة ٦١٠، وكان حافظا مجدا فى الطب صدوقا ذكيا يميل الى التشيع – وفخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن عساكر، الامام المفتى الدمشقى، شيخ الشافعية بالشام ولد سنة ٥٥٠، وتوفى سنة ٦٢٠، وكان محدثا جليلا حسن السمت وقورا زاهدا عابدا ورعا حسن الأخلاق – وزين الأمناء أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر كان صالحا خيرا من سروات الناس حسن السمت فقيها محدثا، وولى نظر الخزائن والأوقاف ثم تزهد، وتوفى سنة ٦٢٧ عن ٨٣ سنة – وأبو نصر عبد الرحيم بن محمد بن الحسن بن عساكر، روى عن عمه الحافظ وغيره، وتوفى سنة ٦٣١ – والعز النسابة أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن عساكر، كان صدرا كبيرا وقورا، وتوفى سنة ٦٤٣ – والتاج عبد الوهاب بن زين الأمناء أبى البركات الحسن بن محمد، ولى مشيخة النورية بعد والده، وتوفى سنة ٦٦٠ والمجد محمد بن اسمعيل بن عثمان بن مظفر بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين ابن عساكر، المعدل توفى سنة ٦٦٩ – ومنهم الامام الزاهد أمين الدين أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن زين الأمناء، كان صالحا خيرا عالما أديبا بديع النظم لطيف الشمائل، ولد سنة ٦١٤، وتوفى سنة ٦٨٦ – وشرف الدين أبو العباس أحمد بن هبة الله بن أحمد بن محمد بن الحسن ابن عساكر المسند الأجل، ولد سنة ٦١٤ – وتوفى سنة ٦٩٩ – وروى أول البيت الرابع «اثنان» وعجزه «الأخادع» بدل «رقاعة»، والجلف هو

الجافى الفظ الغليظ ، والأخدعان: عرقان خفيان فى موضع الحجامة من العنق أوهما الودجان، والتعبير بهما هنا للدلالة على تيه مذلويه الشاعر وكبره وصلفه لأنه يقال: اعوج أخدعاه، ولوى أخدعه: اذا أعرض وكان متكبرا، قال الفرزدق:

وكنا اذا الجبار صعر خـده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

وسوى أخدعه: اذا ترك التكبر ، ورجل شديد الأخدع: أى ممتنع أبى، ولين الأخدع ضده — أو عبر بهما كناية عن مهانته واحتقاره واستحقاقه الصفع على أخدعيه . والرقيع : الأحمق الذى يتمزق عليه عقله، وقد رقع رقاعة كأنه لحمقه رقع، لأنه لا يرقع الا الواهى الخلق، ففى عقله مرمة ونقص ووهى و « مذلويه » لقب كان ينبز به الرشيد عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن الحسن بن الفرج بن بكار الشاعر المعروف بابن النابلسى ، وكان مقيما بدمشق، ولابن عنين فيه عدة مقاطيع هجو ، وتوفى فى منتصف صفر من سنة ٦١٩ بدمشق . رحمه الله تعالى — وعبد اللطيف كان محتسبا بدمشق. وفى أبيات ابن عنين الاستطراد البديعى أيضا كالبيتين الماضيين اللذين هجا بهما الخطيب الدولعى المتقدم ، وقد كان ابن عنين يجيد الاستطراد ، وهو فى أبياته هذه مثل الطاهر الجزرى « أبى محمد بن الزمكدم » فى قوله يمدح الأمير قرواش بن المقلد بن المسيب أمير بنى عقيل المتوفى سنة ٤٤٤ :

وليل كوجه البرقعيـدى ظلمة وبرد أغانيـه وطول قرونه

سريت ونومى فيه نوم مشرد كعقل سليمان بن فهد ودينه

على أولق فيـه مضاء كأنه أبو جابر فى طيشـه وجنونه

الى أن بدا ضوء الصباح كأنه سنى وجه قرواش وضوء جبينه

وسليمان بن فهد الموصلى كان فى حداثته يكتب بين يدى أبى اسحق الصابى وخدم المقلد بن المسيب والد الأمير قرواش، ثم أصعد الى الموصل، واقتنى بها ضياعا، ونظر فيها للأمير قرواش، فظلم أهلها وصادرهم، فسخط قرواش عليه وعلى وزيره أبى القاسم الحسين بن على بن الحسين بن على المعروف بالوزير المغربى، فقبض عليهما فى سنة ٤١١ وحبسهما، وطولب سليمان بن فهد بالمال فادعى الفقر فقتل ، وأما الوزير المغربى فانه خدع قرواشا ووعده بمال له

أَلْبَغْـلُ وَأَلْجَامُوسُ فِي حَالَيهِمَا
قَدْ أَصْبَحَا مَثَلًا لِـكُلِّ مُنَاظِرِ

قَعَدَا عَشِيَّةَ يَوْمِنَا ، فَتَنَاظَرَا
هٰـذَا بِقَرْنَيْهِ ، وَذَا بِالْحَافِرِ

مَا أَحْـكَمَا غَيْرَ أَلصِّيَاحِ ، كَأَنَّمَا
لَقِيَا جِدَالَ أَلْمُرْتَضَى أَبْنِ عَسَاكِرِ

جِلْفَانِ مَا لَهُمَا شَبِيهٌ ثَالِثٌ إِلَّا رَقَاعَةَ مَذْلَوَيْهِ أَلشَّاعِرِ

لَفْظٌ طَوِيلٌ تَحْتَ مَعْنًى قَاصِرٍ
كَأَلْعَقْلِ فِي عَبْدِ أَللَّطِيفِ أَلنَّاظِرِ

***

رجع الى دمشق

« رَجْعٌ إِلَى دِمَشْقَ » وَقَالَ أَلْعِزُّ أَلْمَوْصِلِيُّ[1] :

فى الكوفة وبغداد ، فأمره بحمله وتركه . وقد أجمع أهل البيان على أن هذه الأبيات غاية فى الجودة ، ولم يقل خير منها فى معناها وفى قوة الاستطراد فيها من وصف حاله مع الليل الى هجاء الثلاثة ومدح الأمير قرواش . وبرقعيد : بليدة فى طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين ، وكانوا يضربون بأهلها المثل فى اللصوصية ، فيقال : لص برقعيدى ، وكانت القوافل اذا نزلت بهم لقيت منهم الأمرين ، ومنها كان بنو حمدان التغلبيون سيف الدولة وأهله . «أحمد يوسف نجاتى » (١) عز الدين أبو الخير على بن بهاء الدين حسن الموصلى ، ولد سنة ٧٢٤ ، وتوفى سنة ٧٨٩ ، وكان شاعرا رقيقا أديبا أكثر شعره فى الغزل يميل فيه الى التورية اللطيفة «أحمد يوسف نجاتى»

«موازنة أدبية شعرية بين الشام ومصر»

إِلَيْكِ حِيَاضَ حَمَّامَاتِ مِصْرٍ
وَلَا تَتَكَثَّرِي عِنْدِي بِمَيْنِ
حِيَاضُ الشَّامِ أَحْلَى مِنْكِ مَاءً
وَأَطْهَرُ وَهِيَ دُونَ الْقُلَّتَيْنِ

وَهٰذَانِ الْبَيْتَانِ جَوَابٌ مِنْهُ عَنْ قَوْلِ ابْنِ نُبَاتَةَ :

أَحْوَاضَ حَمَّامِ الشَّآ م أَلَا اسْمَعِي لِي كِلْمَتَيْنِ
لَا تَذْكُرِي أَحْوَاضَ مِصْ رَ، فَأَنْتِ دُونَ الْقُلَّتَيْنِ[1]

وَأَمَّا قَوْلُ النَّوَاجِي[2] سَامَحَهُ اللّٰهُ تَعَالَى :

(١) ابن نباتة المصرى هو الشاعر المشهور محي الدين محمد بن محمد بن محمد ابن محمد بن الحسن بن نباتة، قدم القاهرة بعد السبعين ، وتوفى بها سنة ٧٦٨ « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هو شمس الدين محمد بن حسن بن على بن عثمان النواجى المصرى الامام العلامة الأديب الشاعر الرقيق ، ولد بالقاهرة حوالى سنة ٧٨٥ وجد فى طلب العلم والأدب حتى فاق أهل عصره . قال فى « عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران ـ لبرهان الدين ابراهيم بن عمر البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ » وأمعن النواجى فى النظر الى علوم الأدب وأنعم ، حتى فاق أهل العصر فما رام بديع معنى الا أطاعه وأنعم، وأطال الاعتناء بالأدب، فحوى فيه قصب السبق الى أعلى الرتب . اه . وله مصنفات أدبية لطيفة ممتعة ، ومن شعره :

بعد صباح الوجه عيشى مضى فيارعى الله زمان الصباح
وبت أرعى النجم ، لكننى أهفو اذا هب نسيم الصباح

وهو صاحب كتاب « حلبة الكميت » فى الأدب والمحاضرات والنوادر

مِصْرُ قَالَتْ : دِمَشْقُ لَا تَفْتَخِرْ قَطُّ بِاسْمِهَا
لَوْ رَأَتْ قَوْسَ رَوْضَتِي مِنْهُ رَاحَتْ بِسَهْمِهَا

فَهُوَ مِنْ بَابِ تَفْضِيلِ الْوَطَنِ مِنْ حُبِّهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْوَدَاعِيِّ(١) :

رَوِّ بِمِصْرٍ وَبِسُكَّانِهَا شَوْقِي، وَجَدِّدْ عَهْدِيَ الْخَالِي

المتعلقة بالخمر ومايرتبط بسبب منها ، وهو كتاب مفيد لطيف يعتد به الأدباء، ولاعبرة بمن ذمه، فانه من الحسد والتعصب، أومن ضيق العطن والتزمت والتنطع، وتوفى النواجى سنة ٨٥٩ ـ ولايخفى التورية والتناسب فى قوله «قوس» «سهم» ويشير بذلك الى أن دمشق لو رأت قوس روضة مصر لراحت بسهم من الحسد أو الغيظ ، وقد عرفت أن السهم موضع بدمشق أيضا . « أحمد يوسف نجاتى » (١) علاء الدين الوداعى على بن مظفر الكندى، ويعرف بكاتب ابن وداعة ، ولد سنة ٦٤٠ ، وكان أديبا بارعا محدثا، ومن قوله يعتذر الى بعض أصحابه :

ان كنت ياأكرم الصحاب حجبت لما طرقت بابى
فأنت قلبى ، ولا عجيب اذا غدا القلب فى حجاب

وله :

ترى ياجيرة الرمل يعود بقربكم شملى!
وهل تقتص أيدينا من الهجران للوصل!
وهل ينسخ لقياكم حديث الكتب والرسل!

هو ممن أجادوا التورية البديعية ، بل هو امرؤقيسها وكنديها، واذا ذكر شرف نسبها فانه علويها ، وانتقل من حلب الى دمشق، وعاصر جماعة من حلبة الأدباء فى عصره، وتوفى سنة ٧١٦ . « أحمد يوسف نجاتى »

وَارْوِ لَنَا يَاسَعْدُ عَنْ نِيلِهَا حَدِيثَ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالِ[١]
فَهْوَ مُرَادِي «لَا يَزِيدُ» وَلَا «ثَوْرَى» وَإِنْ رَقَّا، وَرَقَّا لِي[٢]

وَمِنْ ذَلِكَ ٱلنَّمَطِ قَوْلُ ٱلشِّهَابِ ٱلْحِجَازِيِّ[٣] :

قَالُوا : دِمَشْقُ قَدْ زَهَتْ لِزَهْرِهَا
فَامْضِ ، وَشَاهِدْ جَوْزَهَا وَلَوْزَهَا

(١) فى «صفوان بن عسال» تورية، يريد المعنى الاشتقاقى أى الصفاء والحلاوة التى كالعسل يصف بهما ماء النيل ، و «صفوان بن عسال» المورى به هو صفوان ابن عسال المرادى الجملى صحابى جليل ، وهو من بنى الربض بن زاهر بن عامر بن عوثبان بن مراد ، أو من بنى جمل بن كنانة بن ناجية بن مراد، سكن الكوفة، وغزا مع النبى صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة غزوة، وروى عنه عبد الله بن مسعود وغيره . « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تقدم التعريف بنهر يزيد ونهر ثورى — ورقا الأول: من الرقة بمعنى الصفاء ، ورق الثانى من رق له اذا رحمه وأشفق عليه وعطف؛ من الرقة فى القلب بمعنى الرحمة وفى الأصل كان عجز البيت « ثوروان رق ورقى لى » وهو تصحيف وفساد على فساد . « أحمد يوسف نجاتى » (٣) شهاب الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن على بن حسن بن ابراهيم الأنصارى الخزرجى القاهرى المعروف بالشهاب الحجازى الشاعر المفلق ، والأديب البليغ ، ولد فى شعبان من سنة ٧٩٠ ، وعنى بالأدب كثيرا حتى صار أوحد أهل زمانه ، وصنف كتبا أدبية ممتعة؛ منها كتاب « روض الآداب » جمع فيه مااستحسن وراق من المقاطيع والمطولات وجيد المنثور والمنظوم والموشحات وما استغرب به من الحكايات، فرغ من تأليفه سنة ٨٢٦ ، وتوفى سنة ٨٧٥ . رحمه الله « أحمد يوسف نجاتى »

فَقُلْتُ : لَا أُبْدِلُ بَلْدَتِي بِهَا

وَلَسْتُ أَرْضَى زَهْرَهَا وَلَوْزَهَا[١]

وَقَوْلُ الْخَفَاجِيِّ[٢] قَاضِي مِصْرَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي دِمَشْقَ لَكِنْ فِي السِّيَاقِ فِي النَّظْمِ :

قَدْ فَتَنَ الْعَاشِقِينَ حِينَ بَدَا بِطَلْعَةٍ كَالْهِلَالِ أَبْرَزَهَا

طَرَّ لَهُ شَارِبٌ عَلَى شَفَةٍ

كَالْوَرْدِ فِي الْآس حِينَ طَرَّزَهَا[٣]

---

(١) بين « ولوزها » فى آخر البيتين جناس تام: الأول هو اللوز المعروف و « لوزها » فى البيت الثانى مركب من « لو » الشرطية ، و « زها » فعل ماض ـ زها يزهو : اذا حسن وراق وصار مونقا معجبا. والزهو: المنظر الحسن، ونور النبت وزهره واشراقه، واختلاف ألوانه من حمرة وصفرة وغيرها ، والزهو : هز الريح النبات غب الندى وفى نسخة « قالوا : دمشق قد زهت لزهوها » « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) الشهاب الخفاجى : هو الأريب الكامل والأديب الفاضل والعالم المحقق الجليل شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجى ، أحد أعيان القرن الحادى عشر، وقاضى العسكر بمصر، أقام بدمشق أياما فمدحه فضلاؤها، واعتنى به أهلها وعلماؤها، وأكرموا نزله، وأحسنوا مثواه، وهو أشهر من أن يذكر أو يعرف، وقد ترجم لنفسه ترجمة ضافية فى آخر كتابه « ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا » وتوفى سنة ١٠٦٩ وقد أناف على التسعين. ووالده محمد بن عمر الخفاجى أصله من سرياقوس، وكان من أجلاء العلماء فى عصره ، مفتيا بارعا محققا، مشهور الصيت ذائع الذكر، توفى سنة ١٠١١ رحمهما الله تعالى « أحمد يوسف نجاتى »

(٣) طر الشارب والنبت: اذا طلع، وزها يزهو: حسن وراق ونضر. والزهو نور النبت وزهره واشراقه كما تقدم . وزها الغلام يزهو: اذا شب، وزها

وَقَوْلُ ٱلآخَرِ :

قَدْ قَالَ وَادِى جِلِّقٍ لِلنِّيلِ إِذْ
كَسَرُوهُ : أَعْيُنُ جَبْهَتِى لَكَ تُرْفَعُ

فَأَجَابَ بَحْرُ ٱلنِّيلِ لَمَّا أَنْ طَغَى :
عِنْدِى مُقَابِلَ كُلِّ عَيْنٍ إِصْبَعُ

وَقَدْ تَذَكَّرْتُ هُنَا قَوْلَ بَعْضِهِمْ :

مَا ذَا يُفِيدُ ٱلْمُعَنَّى مِنَ ٱلْأَذَى ٱلْمُتَتَابِعْ ؟!
بِمِصْرَ ذَاتِ ٱلْأَيَادِى وَنِيلِهَا ذِى ٱلْأَصَابِعْ (١)

الطل النور: زاده حسن منظر « أحمد يوسف نجاتى » (١) يريد بالأصابع ، الأصبع الوحيدة التى كانت لمقياس النيل، وكانوا فى أواخر شهر بؤنة ينادون عليه بالزيادة ، ويحسب كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا الى أن يكمل اثنى عشر ذراعا، فيحسب كل ذراع أربعا وعشرين أصبعا ، فاذا وفى ست عشرة ذراعا « وهو الذى كانوا يعبرون عنه بماء السلطان » كسر خليج القاهرة يوم وفاء النيل ، وكان ذلك عندهم يوما مشهوذا ، وموسما معدودا، وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل الى سائر أقطار المملكة . وكان المقياس قبل الفتح العربى بمدينة منف، ثم بنى عمرو بن العاص مقياسا بأسوان، ثم مقياسا بدندرة ثم بنى فى أيام معاوية مقياسا بأنصنا ، فلما ولى عبد العزيز بن مروان مصر بنى مقياسا صغير الأذرع بحلوان، ثم لما ولى أسامة بن زيد التنوخى بنى مقياسا فى جزيرة الروضة بأمر سليمان بن عبد الملك سنة ٩٧ ثم بنى الخليفة المتوكل مقياسا أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة سنة ٢٤٧ فى ولاية يزيد بن عبدالله ابن دينار التركى على مصر ، ورتب المتوكل للمقياس أبا الرداد عبد الله بن

وَقَدْ شَاعَ ٱلْخِلَافُ قَدِيماً وَحَدِيثاً فِي ٱلْمُفَاضَلَةِ بَيْنَ مِصْرَ وَٱلشَّامِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ:

فِي حَلَبٍ وَشَامِنَا وَمِصْرَ طَالَ ٱللَّغَطُ
فَقُلْتُ قَوْلَ مُنْصِفٍ «خَيْرُ ٱلْأُمُورِ ٱلْوَسَطُ»

وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

تَجَنَّبْ دِمَشْقَ، وَلَا تَأْتِهَا وَإِنْ رَاقَكَ ٱلْجَامِعُ ٱلْجَامِعُ
فَسُوقُ ٱلْفُسُوقِ بِهَا قَائِمٌ وَفَجْرُ ٱلْفُجُورِ بِهَا طَالِعُ

فَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ، وَلَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، إِذْ هُوَ مُجَرَّدُ دَعْوَى خَالِيَةٍ عَنِ ٱلدَّلِيلِ، وَهِيَ مِنْ نَزَغَاتِ بَعْضِ ٱلْهَجَّائِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمِدُونَ إِلَى تَقْبِيحِ ٱلْحَسَنِ ٱلْجَمِيلِ ٱلْجَلِيلِ «وَمَا زَالَتِ ٱلْأَشْرَافُ تُهْجَى وَتُمْدَحُ»(١) وَلَا يُقَابَلُ أَلْفُ مُثْنٍ عَدْلٍ بِفَاسِقٍ يَقْدَحُ:

وَفِي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ ٱلشَّمْسَ نُورَهَا
وَيَأْمُلُ أَنْ يَأْتِيَ لَهَا بِضَرِيبِ(٢)

عبد السلام بن أبي الرداد المؤدب، وكان رجلا صالحا، فاستقر قياسه في بنيه زمنا طويلا. وكان على الخليج جملة قناطر أنشئت في عصور مختلفة، وأغلبها مستحدث في الدولة التركية، وأكثرها في دولة الناصر محمد بن قلاوون

(١) عجز بيت صدره* هجوت زهيرا ثم انى مدحته* (٢) هذا البيت آخر

وَأَخَفُّ مِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ ـ وَهُوَ الْكَاتِبُ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ :

دِمَشْقُ جَنَّةُ الدُّنْيَا حَقِيقًا
وَلَكِنْ لَيْسَ تَصْلُحُ لِلْغَرِيبِ

بِهَا قَوْمٌ لَهُمْ عَدَدٌ وَمَجْدٌ وَصُحْبَتُهُمْ تَئُولُ إِلَى الْحُرُوبِ
تَرَى أَنْهَارَهُمْ ذَاتَ ابْتِسَامٍ وَأَوْجُهُهُمْ تَوَلَّعُ بِالْقُطُوبِ[1]
أَقَمْتُ بِدَارِهِمْ سِتِّينَ يَوْمًا فَلَمْ أَظْفَرْ بِهَا بِفَتًى أَدِيبِ

وَالْجَوَابُ وَاحِدٌ ، وَلَا يَضُرُّ الْحَقَّ الثَّابِتَ إِنْكَارُ الْجَاحِدِ ،

قصيدة لأبى الطيب المتنبي عدتها ٣١ بيتا ، يقولها معزيا سيف الدولة عن عبده يماك التركى ـ وقد توفى بحلب سنة ٣٤٠ ـ وأولها :

فلا يحزن الله الأمير ، فاننى لآخذ من حالاته بنصيب
ومن سر أهل الأرض ثم بكى أسى بكى بعيون سرها وقلوب

وقبل هذا البيت الأخير :

فدتك نفوس الحاسدين ، فانها معذبة فى حضرة ومغيب

والرواية فى الديوان « ويجهد أن يأتى لها بضريب » والضريب : النظير والمثيل، ضرب لسيف الدولة مثلا بالشمس وبحساده ويقول من قدر أن يأتى للشمس بمثل فليأت، فان لم يفعل ـ ولن يفعل ـ فليمت غيظا وكمدا، فكما أن الشمس لا مثيل لها كذلك سيف الدولة ، وانما يحسدونه على فضائل ومزايا هى من ذات نفسه وجوهر خليقته، وهيهات أن يكون له عديل فيها « أحمد يوسف نجاتى » (١) تولع بكذا وولع وأولع : اذا أغرى به وأغرم، والقطوب: العبوس والتجهم « أحمد يوسف نجاتى »

وَأَخَفُّ مِنَ الْجَمِيعِ قَوْلُ الْعَارِفِ بِاللّٰهِ تَعَالَى سَيِّدِى عُمَرَ بْنِ الْفَارِضِ — رَضِىَ اللّٰهُ تَعَالَى عَنْهُ[١] :

جِلِّقٌ جَنَّةٌ مَنْ تَاهَ وَبَاهَى ... وَرُبَاهَا أَرَبِى لَوْلَا وَبَاهَا[٢]

قَالَ غَالٍ : بَرَدَى كَوْثَرُهَا ... قُلْتُ : غَالٍ بَرَدَاهَا بِرَدَاهَا[٣]

وَطَنِي مِصْرُ ، وَفِيهَا وَطَرِى ... وَلِنَفْسِي مُشْتَهَاهَا مُشْتَهَاهَا[٤]

---

(١) كان الأستاذ عمر بن الفارض قد سافر من مصر القاهرة الى دمشق فوصل اليها وأهلها شاكون من فتك الوباء والطاعون ، ولم يجد بها من كان يروم من أهل الود والصفاء ، فعاد الى وطنه ، وقال هذه الأبيات « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تاه من التيه : وهو الصلف والكبر ، وباهى من المباهاة بالشىء والمفاخرة به ؛ يعنى أنه جنة لمن يتيه بحسنه وجماله ، ويعجب بملاحته ودلاله ، ونحو ذلك ، ولمن يفتخر بسكناها لما حوت من الجمال الفطرى والصناعى ومن العلم والأدب وغير ذلك — والربا جمع ربوة : المكان المرتفع ، وانما تمدح الربا فى الشعر لطيب هوائها ، ولأن نبتها يكون أنضر وأنعم ، وهو بحيث يراه كل أحد ، ولأنها تقصد للنزهة وتمتيع العين فى رياض المحاسن ، والوبا مخفف من الوباء « أحمد يوسف نجاتى » (٣) ويروى صدر البيت *قيل لى صف بردى كوثرها* و « غال » الأول من الغلو : وهو مجاوزة الحد فى الشىء والافراط فى وصفه ، وبردى : نهر دمشق — و « غال » فى عجز البيت من الغلاء : وهو ارتفاع ثمن الشىء ، وهو خبر مقدم ، و « بردى » بعده المضاف الى ضمير جلق مبتدأ مؤخر ، و « برداها » قافية البيت « الردى » الموت والهلاك ، وهو مجرور بباء الجر التى للعوض : والمعنى أن نهر بردى دمشق لطيف محبوب جدير بالمدح والثناء ، ولكنه اذا قيس الى الموت الذى لا يأمنه الساكن فيها من الوباء كان غاليا باهظ الثمن ، وأى نفيس ثمين يباع بنفس المرء وهى أعز ما لديه ! « أحمد يوسف نجاتى » (٤) الوطر : المراد والمطلوب ،

وَلِنَفْسِي غَيْرَهَا إِنْ سَكَنَتْ يَاخَلِيلَيَّ سَلَاهَا مَاسَلَاهَا(١)

وَأَخَفُّ مِنْهُ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلظَّاهِرِ(٢) :

والمشتهى : اسم بستان أنيق كان بمصر من محاسنها وأماكن النزهة بها — ومشتهى الآخر بمعنى ماتشتهيه النفس وترغب فيه وتميل اليه « أحمد يوسف نجاتى » (١) يروى « ولعينى » بدل « ولنفسى » وسكن الى كذا اذا مال اليه وارتاح واطمأن ، و « سلا » الأول فعل أمر من سأل مسند الى ألف الاثنين ، وسلا الآخر من السلو : وهو نسيان الشىء والاعراض عنه ، والذهول عن ذكره والتعلق به ، أو من سلاه اذا أذابه ، يقول ان سكنت نفسى الى غير مصر فاسألاها عما أوجب سلوها عن موطنها ، وكيف استراحت الى غير وطنها المعهود ، ومالت الى سوى وردها المورود ، وهذا تعجب منه واستبعاد أن تسكن نفسه الى غير مصر أو تسلو حبها « أحمد يوسف نجاتى » (٢) هو القاضى محى الدين عبد الله بن عبد الظاهر ابن نشوان المصرى الأديب كاتب الانشاء وأحد البلغاء المذكورين ، ولد سنة ٦٢٠ وتوفى سنة ٦٩٢ بمصر ، ومن شعره قوله يصف الشبابة المطربة :

وناطقة بالروح عن أمر ربها تعبر عما عندنا وتترجم
سكتنا ، وقالت للقلوب فأطربت فنحن سكوت والهوى يتكلم

وابنه الصاحب فتح الدين محمد ، توفى بدمشق فى رمضان سنة ٦٩١ ومن رقيق شعره ماكتب به الى والده وقد توجه صحبة الركاب الشريف الظاهر فى مهم شريف ، فناله ضعف وهو بدمشق :

ان شئت تبصرنى وتبصر حالتى قابل اذا هب النسيم قبولا
تلقاه مثلى رقة ونحافة ولأجل قلبك لا أقول عليلا
فهو الرسول اليك منى ، ليتنى كنت اتخذت مع الرسول سبيلا !

وفى قوله «ولأجل قلبك لاأقول عليلا» ما يفتت الأكباد ، أسفا على ماينال الأولاد ، من مرض أو هم أو بعاد ، وقد لاقى حتفه رحمه الله تعالى فى هذه الغربة ، ولم يلبث والده أن لحق به « أحمد يوسف نجاتى » .

لَا تَلُومُوا دِمَشْقَ إِنْ جِئْتُمُوهَا
فَهْيَ قَدْ أَوْضَحَتْ لَكُمْ مَا لَدَيْهَا

إِنَّهَا فِي الْوُجُوهِ تَضْحَكُ بِالزَّهْـ
ـرِ لِمَنْ جَاءَ فِي الرَّبِيعِ إِلَيْهَا

وَتَرَاهَا بِالثَّلْجِ تَبْصُقُ فِي لِحْـ
ـيَةِ مَنْ مَرَّ فِي الشِّتَاءِ عَلَيْهَا

وَقَوْلُ ابْنِ نُبَاتَةَ وَهُوَ بِالشَّامِ يَتَشَوَّقُ إِلَى الْمِقْيَاسِ وَالنِّيلِ:

أَرِقٌ لَهُ بِالشَّامِ نِيلُ مَدَامِعٍ
يُجْرِيهِ ذِكْرُ مَنَازِلِ الْمِقْيَاسِ

سُقْيًا لِمِصْرَ مَنَازِلًا مَعْمُورَةً
بِنُجُومِ أُفْقٍ أَوْ ظِبَاءِ كِنَاسِ (١)

وَطَنِي سَهِرْتُ لَهُ، وَشَابَتْ لِمَّتِي
وَنَعِمْ عَلَى عَيْنِي هَوَاهُ وَرَاسِي (٢)

مَنْ لِي بِهِ وَالْحَالُ لَيْسَ بِآنِسٍ
كَدَرًا، وَعِطْفُ الدَّهْرِ لَيْسَ بِقَاسِي ؟!

---

(١) الكناس: مأوى الظباء والغزلان (٢) اللمة : شعر الرأس اذا كان فوق الوفرة ، أو هى الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن، فاذا بلغت المنكبين فهى

وَالطَّرْفُ يَسْتَجْلِي غَزَالًا آنِسًا

بِالنِّيلِ لَمْ يَعْتَدْ عَلَى بَانَاسِ(١)

« رَجْعٌ إِلَى مَدْحِ دِمَشْقَ » وَقَالَ النَّاصِرُ دَاوُد بْنُ الْمُعَظَّمِ عِيسَى(٢) :

جمة ،أواذا ألم الشعر بالمنكب فهو لمة (١) باناس:من أنهار دمشق،وتقدم وصفه (٢) هو الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب ابن شادى ، ولد فى جمادى الأولى من سنة ٦٠٣ وشب فى عز وعناية بطلب العلم والأدب حتى فاز منهما بالحظ الأوفر ، فكان فقيها حنفيا فاضلا مناظرا ذكيا، بصيرا بالأدب بديع النظم كثير المحاسن . ولما توفى والده سنة ٦٢٤ « وكان صاحب الشام ودمشق ، وقد اتسعت مملكته حتى كانت من حدود بلاد حمص الى العريش يدخل فى ذلك بلاد الساحل منها وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك وغيرها» قام ابنه الناصر مقامه ،فخرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصدا أخذ دمشق منه ، واتفق على ذلك مع أخيه الملك الأشرف ، فملكها الكامل ودفعها لأخيه الأشرف ، وأخذ عوضها من بلاد الأشرف عدة مدن منها حران والرها والرقة وسروج ورأس العين،ثم توفى أخوه الأشرف ، وجعل ولى عهده أخاه الملك الصالح اسمعيل بن العادل،فقصده الملك الكامل أيضا،وانتزع منه دمشق بعد مصالحة بينهما فى سنة ٦٣٥ وأبقى له بعلبك وبعض مدن أخرى ، وكان الناصر لما أخذت دمشق منه تحول الى الكرك فى سنة ٦٢٦ وملكها ٢١ سنة الى سنة ٦٤٧ سلمها ابنه الى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ابن محمد العادل صاحب مصر ،وزالت مملكة الناصر باتفاق أهله عليه وخديعتهم بنيه ، وبقى من سنة ٦٤٧ مشردا فى البلاد الى حين وفاته ، وكان مع أدبه

الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى

إِذَا عَايَنَتْ عَيْنَاىَ أَعْلَامَ جِلَّقٍ
وَبَانَ مِنَ الْقَصْرِ الْمَشِيدِ قِبَابُهُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْبَيْنَ قَدْ بَانَ ، وَالنَّوَى
نَأَى شَخْصُهُ ، وَالْعَيْشُ عَادَ شَبَابُهُ
وَقَالَ أَيْضًا ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى ـ :
يَا رَاكِبًا مِنْ أَعَالِى الشَّامِ يَجْذِبُهُ
إِلَى الْعِرَاقَيْنِ إِدْلَاجٌ وَإِسْحَارُ

وكرمه شجاعا، وقد أبلى فى جهاد الفرنج بلاء حسنا ، وهزمهم فى غير موقعة.
ومن شعره :

أحب الغادة الحسناء ترنو ... بمقلة جؤذر فيها فتور
ولا أصبو الى رشأ غرير ... وان فتن الورى الرشأ الغرير
وأنى يستوى شمس وبدر ... ومنها يستمد ويستنير ؟!
وهل تبدو الغزالة فى سماء ... فيظهر عندها للبدر نور ؟!

وله :

قلبي وطرفك قاتل وشهيد ... ودمى على خديك منه شهود
يأيها الرشأ الذى لحظاته ... كم دونهن صوارم وأسود
ومن العجائب أن قلبك لم يلن ... لى ، والحديد ألانه داود

وله :

ألاليت أمى أيم طول دهرها ... ولم يقضها ربى لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد ... لبيب أريب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتى خلقن عواقرا ... ولا بشرت يوما بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بى حاملا ... أصيب من احتفت عليه من الحمل
ويا ليتنى لما ولدت وأصبحت ... تشد الى الشذ قميات بالرحل

حَدَّثَتْنِي عَنْ رُبُوعٍ طَالَمَا قُضِيَتْ
لِلنَّفْسِ فِيهَا لُبَانَاتٌ وَأَوْطَارُ (١)

لَدَى رِيَاضٍ سَقَاهَا الْمُزْنُ دِيمَتَهُ
وَزَانَهَا زَهَرٌ غَضٌّ وَنُوَّارُ (٢)

شَحَّ النَّدَى أَنْ يُسَقِّيهَا مُجَاجَتَهُ
فَجَادَهَا مُفْعَمُ الشُّؤْبُوبِ مِدْرَارُ (٣)

بَكَتْ عَلَيْهَا الْغَوَادِي وَهْيَ ضَاحِكَةٌ
وَرَاحَتِ الرِّيحُ فِيهَا وَهْيَ مِعْطَارُ (٤)

لحقت بأسلافى فكنت ضجيعهم — ولم أر فى الاسلام مافيه من ثكل

وتوفى رحمه الله فى جمادى الأولى من سنة ٦٥٥ بقرية يقال لها البويضاء بظاهر دمشق، ودفن عند والده، وكانت أمه خوارزمية، وعاشت بعده مدة رحمهما الله تعالى «أحمد يوسف نجاتى» (١) الادلاج والاسحار: السير بالليل والسحر، واللبانات والأوطار: الأغراض والحاجات والمطالب، والربوع: المنازل والأماكن (٢) المزن جمع مزنة وهى السحابة البيضاء والمطرة، والديمة: المطر الذى ليس فيه رعد ولا برق ويدوم زمنا، والغض الناضر (٣) أصل المجاجة ما يمجه المرء من فيه، ويقال: المطر مجاج المزن، والعسل مجاج النحل، وفى الأصل «بحاجته» بدل «مجاجته» وهو تصحيف مشوه، والمفعم: المملوء، والشؤبوب: الدفعة من المطر، والمدرار: الكثير الهاطل، وسماء مدرار، تدر بالمطر (٤) الغوادى: السحب جمع غادية وهو سحابة تنشأ صباحا، والمعطار: ذكية الريح

يَا حُسْنَهَا حِينَ زَانَتْهَا جَوَاسِقُهَا
وَأَيْنَعَتْ فِي أَعَالِي ٱلدَّوْحِ أَثْمَارُ (١)

فَهْيَ ٱلسَّمَاءُ ٱخْضِرَارًا فِي جَوَانِبِهَا
كَوَاكِبٌ زُهُرٌ تَبْدُو وَأَقْمَارُ

حَدَّثْتَنِي وَأَنَا ٱلظَّامِي إِلَى نَبَإٍ
لَافُضَّ فُوكَ ! فَمِنِّي ٱلرِّيَّ تَمْتَارُ (٢)

فَهْوَ ٱلزُّلَالُ ٱلَّذِي طَابَتْ مَشَارِبُهُ
وَفَارَقَتْهُ غُثَاءَاتٌ وَأَكْدَارُ (٣)

كَرِّرْ عَلَى نَازِحٍ شَطَّ ٱلْمَزَارُ بِهِ
حَدِيثَكَ ٱلْعَذْبَ - لَاشَطَّتْ بِكَ ٱلدَّارُ (٤)

وَعَلِّلِ ٱلنَّفْسَ عَنْهُمْ بِٱلْحَدِيثِ بِهِمْ
إِنَّ ٱلْحَدِيثَ عَنِ ٱلْأَحبابِ أَسْمَارُ (٥)

وَهَذَا ٱلْمَلِكُ ٱلنَّاصِرُ لَهُ تَرْجَمَةٌ كَبِيرَةٌ ؛ وَهُوَ مِمَّنْ أَدْرَكَتْهُ ٱلْحِرْفَةُ ٱلْأَدَبِيَّةُ ، وَمُنِعَ حَقَّهُ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْعَصَبِيَّةِ ، وَأُنْكِرَتْ

(١) الجوسق : القصر (٢) الامتيار فى الأصل : طلب الميرة وهى القوت والزاد (٣) الغثاء : مايحمله السيل من المواد والأقذار (٤) النازح : البعيد المفارق، وشطت : بعدت (٥) السمر : الحديث بالليل يصغى له الاخوان

حُقُوقَهُ، وَأَظْهِرَ عُقُوقَهُ، حَتَّى قَضَى نَحْبَهُ، وَلَقِيَ رَبَّهُ .

« رَجْعٌ » وَقَالَ سَيْفُ الدِّينِ الْمُشِدُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى[1] ـ :

بُشْرَى لِأَهْلِ الْهَوَى، عَاشُوا بِهِ سُعَدَا
وَإِنْ يَمُوتُوا فَهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الشُّهَدَا
شِعَارُهُمْ رِقَّةُ الشَّكْوَى، وَمَذْهَبُهُمْ
أَنَّ الضَّلَالَةَ فِيهِمْ فِي الْغَرَامِ هُدَى[2]

أبو الحسن سيف الدين بن المشد التركماني

(١) هو سلطان الشعراء فى عصره الأمير أبو الحسن سيف الدين على بن عمر بن قزل بن المشد التركمانى ، ولد سنة ٦٠٢ بمصر ، وكان شاعرا رقيقا فاضلا كثير الخير والبر ذا مروءة ، ومن شعره :

بين الجفون مصارع العشاق فخذوا حذاركم من الأحداق
فهى السهام بل السيوف ، وانها أمضى وأنكى فى حشا المشتاق

وهو ممن أحسن استعمال التورية البديعية فى شعره، فمن ذلك قوله :

ومجلس راق من واش يكدره ومن رقيب له باللوم ايلام
مافيه ساع سوى الساقى، وليس به على الندى سوى الريحان نمام

والنمام نوع من الرياحين ، ومن ذلك قوله :

فى يوم غيم من لذاذة جوه غنى الحمام ، وطابت الأنداء
والروض بين تكبر وتواضع شمخ القضيب به ، وخر الماء

ومن لطائفه قوله :

الحمد لله فى حلى ومرتحلى على الذى نلت من علمى ومن عملى
بالأمس كنت الى الديوان منتسبا واليوم أصبحت والديوان ينسب لى

يشير الى ديوان شعره الذى جمعه ، وتوفى سنة ٦٥٦ بدمشق ـ رحمه الله « أحمد يوسف نجاتى » (٢) فى نسخة « ان الضلالة تيه الخ »

عُيُونُهُمْ فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ سَاهِرَةٌ
عَبْرَى، وَأَنفَاسُهُمْ تَحْتَ الدُّجَى صُعَدَا (١)

تَجَرَّعُوا كَأْسَ خَمْرِ الْحُبِّ مُتْرَعَةً
ظَلُّوا سُكَارَى، وَظَنُّوا غَيَّهُمْ رَشَدَا

وَعَاسِلِ الْقَدِّ، مَعْسُولٍ مُقَبَّلُهُ
كَالْغُصْنِ لَمَّا انْثَنَى، وَالْبَدْرِ حِينَ بَدَا (٢)

رَقِيمُ عَارِضِهِ كَهْفٌ لِعَاشِقِهِ
يَأْوِي إِلَيْهِ، فَكَمْ فِي حُبِّهِ شَهِدَا (٣)

نَادَمْتُهُ وَثُغُورُ الْبَرْقِ بَاسِمَةٌ
وَالْغَيْثُ يَنْزِلُ مُنْحَلًّا وَمُنْعَقِدَا

كَأَنَّ جِلَّقَ ـ حَيَّا اللهُ سَاكِنَهَا ـ
أَهْدَتْ إِلَى النَّوْرِ مِنْ أَزْهَارِهَا مَدَدَا (٤)

---

(١) عبرى: أى تسيل عبراتها وهى الدموع، والصعداء تنفس ممدود من حرقة الوجد (٢) عاسل القد أى متثن متمايل كالرمح العسال أى المهتز للينه (٣) يشير الى قوله تعالى: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» والرقيم هنا بمعنى المرقوم أى الموشى المنقوش، والرقيم فى الآية: قيل انه لوح أو كتاب فيه أسماء أهل الكهف وقصصهم ونسبهم، وقيل قريتهم التى خرجوا منها، وقيل جبلهم الذى كان فيه الكهف أو الوادى، وقيل كلبهم، وقيل الصخرة (٤) فى الأصل « الغور » بدل « النور » « أحمد يوسف نجاتى »

فَاسْتَرْسَلَ الْجَوُّ مُنْهَلًّا «يَزِيدُ» عَلَى
«ثَوْرَى» وَيَعْقِدُ مَحْلُولَ النَّدَى «بَرَدَا»[1]

وَقَالَ أَيْضًا :

فُؤَادِى إِلَى بَانَاتِ جِلِّقَ مَائِلٌ
وَدَمْعِى عَلَى أَنْهَارِهَا يَتَحَدَّرُ

يُرَنِّحُنِى لَوْزُ ابْنِ كَلَّابَ مُزْهِرًا
وَتَهْتَزُّنِى أَغْصَانُهُ وَهُوَ مُثْمِرُ[2]

وَإِنِّى إِلَى زَهْرِ السَّفَرْجَلِ شَيِّقٌ
إِذَا مَا بَدَا مِثْلَ الدَّرَاهِمِ يُنْثَرُ

غِيَاضٌ يَفِيضُ الْمَاءُ فِي عَرَصَاتِهَا
فَتَزْهُو جَمَالًا عِنْدَ ذَاكَ وَتُزْهِرُ[3]

تَرَى بَرَدَى فِيهَا يَجُولُ كَأَنَّهُ
وَحَصْبَاءُهُ سَيْفٌ صَقِيلٌ مُجَوْهَرُ

---

(١) يزيد وثورى وبردى: أنهار بدمشق كما تقدم، ويزيد وثورى رافدان لبردى من ضفته الشرقية، ولا يخفى لطف التورية فيها هنا « أحمد يوسف نجاتى »

(٢) رنحه : أماله وهزه ، ورنح الرجل وترنح: اذا تمايل وتثنى سكرا أو طربا ونحوها . ورنحه الشراب والسرور والطرب « ولوز ابن كلاب نوع من اللوز الـكلابى » كالحموى (٣) الغياض جمع غيضة : وهى الأجمة أى مجتمع الشجر فى مغيض ماء يجتمع فيه الماء فينبت به الشجر ، والعرصة فى الأصل

وَبِي أَحْوَرٌ لَاحَ الْعِـذَارُ بِخَدِّهِ
يُسَامِحُ قَلْبِي فِي هَوَاهُ وَيَعْذِرُ
يُحَاوِرُنِي فِيـهِ عَلَى الصَّبْرِ صَاحِبِي
وَكَيْفَ أُطِيقُ الصَّبْرَ وَالطَّرْفُ أَحْوَرُ(١)!
إِذَا اشْتَقْتُ وَادِي النَّيْرَبَيْنِ لَمَحْتُهُ
فَأَنْظُرُ مَعْنَاهُ بِهِ وَهْوَ أَنْضَرُ(٢)
حَوَى الشَّرَفَ الْأَعْلَى مِنَ الْحُسْنِ خَدُّهُ
عَلَى أَنَّ مَيْدَانَ الْعَوَارِضِ أَخْضَرُ(٣)
وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَهُ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ :

---

(١) بين « يحاور » و « أحور» جناس الاشتقاق ليوهم أن طرف المحبوب لحوره وحسنه أغلب لصاحبه فى المحاورة ، فهو حجة ناطقة بعذر المحب فى الهوى ، كما أن بين « العذار » « ويعذر » فى البيت قبله جناس الاشتقاق أيضا ليفيد هذا المعنى التعليلى : والفعلان فى عجز البيت : يسامح قلبي الخ يصح أن يكونا مبينين للمعلوم أو للمجهول « أحمد يوسف نجاتى » (٢) تقدم غير مرة التعريف بالنيرب ، ويريد الشاعر أن يجعل من محاسن من يهواه ومن حلاه رياضا ومنازه تغنى عن المناظر البديعة بالشام (٣) الشرف اسم موضع « والشرف الأعلى : جبل قرب زبيد أيضا » وفى « الشرف الأعلى فى البيت تورية ظاهرة » وكذا فى « العوارض » فهى اسم مكان، ويراد بها هنا العارضان وهما ، جانبا الوجه وجانبا اللحية يشير الى اخضرار بنت عارضيه « أحمد يوسف نجاتى »

كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء

وَادٍ بِهِ حَيُّ الْحَبِيبِ نُزُولُ
حَيَّا مَعَاهِدَهُ الْحَيَا وَالنِّيلُ
وَادٍ يَفُوحُ الْمِسْكُ مِنْ جَنَبَاتِهِ
وَيَصِحُّ فِيهِ لِلنَّسِيمِ عَلِيلُ
يَشْتَاقُهُ ، وَيَوَدُّ لَثْمَ تُرَابِهِ
شَوْقاً ، وَلَكِنْ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
مُتَقَلْقِلُ الْأَحْشَاءِ مَسْلُوبُ الْكَرَى
طَلْقُ الدُّمُوعِ فُؤَادُهُ مَتْبُولُ[1]
يَصْبُو إِلَى الْأَثَلَاتِ[2] مِنْ وَادِي الْغَضَى
وَيَحِنُّ إِنْ خَطَرَتْ هُنَاكَ شَمُولُ[2]

---

(١) تبله الحب : أسقمه وذهب بعقله وهيمه ، وتبلت فؤاده : أصابته بتبل أى بسقام ووله ، قال كعب بن زهير :

بانت سعاد ، فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

وقال جرير :

تبلت فؤادك فى المنام خريدة   تسقى الضجيع ببارد بسام

وطلق الدموع أى مرسلها جاريها ، فدموعه لا تزال سائلة «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) الأثلات جمع أثلة : وهو نوع من الشجر أو من الطرفاء ، أو هى السمرة عضاهة طويلة يعمل منها نحو الأقداح ، والشمول : الخمر عرضت للشمال فبردت وطابت ، والغضا : من شجر البادية ، يشبه الأثل الا أنه لا يعظم عظمة الأثل ، ووادى الغضا : موضع بنجد ، وأرض فى ديار بنى كلاب ، وقد

قَالُوا : تبَدَّلْ ! قُلْتُ : يا أَهْلَ الْهوَى
وَالنَّاسُ. فِيهِمْ عَاذِرٌ وَجَهُولُ
هَلْ بَعْدَ قَطْعِ الْأَرْبعِينَ مَسَافَةٌ
لِلْعُمْرِ فِيهَا يَحْسُنُ التَّبْدِيلُ؟!
وَلقدْ هَفَا بِي فِي دِمَشْقَ مُهَفْهَفٌ
يَسْبِي الْعُقُولَ رُضَابُهُ الْمَعْسُولُ(١)
يَهْتَزُّ إِنْ مَرَّ النَّسِيمُ بِقَدِّهِ
وَيَمِيلُ بِي نَحْوَ الصِّبَا فَأَمِيلُ
أَبْدَى لَنَا بَرَدًا تَبَسُّمُ ثَغْرِهِ
وَإِذَا انْثَنَى فَقَوَامُهُ الْمَجْدُولُ(٢)
لَزِمَ التَّسَلْسُلَ مَدْمَعِي وَعِذَارُهُ
فَانْظُرْ إِلَى الْمُهَجَاتِ كَيْفَ تَسِيلُ

أكثر الشعراء من ذكر وادى الغضا والتشوق اليه والتغزل بمن فيه . « أحمد يوسف نجاتى » (١) هفا به : أسرع به وخف ، وهفا فؤاده فى أثر الشيء : اذا ذهب فى أثره وطرب ، والمهفهف : الضامر البطن الدقيق الخصر الأهيف ، وهفهف: اذا مشق بدنه فصار كأنه غصن يميد ملاحة ويتثنى دلالا وجمالا ، والرضاب : ماء الثغر وريقه (٢) البرد : حب الغمام أو مطر جامد ، والمجدول : اللطيف الخلق لطيف القصب محكم الفتل قوى

وَسَقِمْتُ مِنْ سُقْمِ الْجُفُونِ، لِأَنَّهَا
هِيَ عِلَّةٌ، وَفُؤَادِيَ الْمَعْلُولُ

لا تَعْجَبُوا إِنْ رَاعَنِي بِذَوَائِبٍ
فَاللَّيْلُ هَوْلٌ، وَالْمُحِبُّ ذَلِيلُ

مَا صَحَّ لِي أَنَّ الذُّؤَابَةَ حَيَّةٌ
حَتَّى سَعَتْ فِي الْأَرْضِ وَهْيَ تَجُولُ(١)

وَقَالَ نَاظِرُ الْجَيْشِ عَوْنُ الدِّينِ بْنُ الْعَجَمِيِّ(٢):

يَا سَائِقاً يَقْطَعُ الْبَيْدَاءَ مُعْتَسِفاً
بِضَامِرٍ لَمْ يَكُنْ فِي سَيْرِهِ وَانِي(٣)

إِنْ جُزْتَ بِالشَّامِ شِمْ تِلْكَ الْبُرُوقَ، وَلَا
تَعْدِلْ بَلَغْتَ الْمُنَى عَنْ دَيْرِ مُرَّانِ(٤)

الأسر، وساق مجدولة: حسنة الطى (١) فى لفظ «حية» تورية، فهى اما صفة من الحياة، واما الحية تلك المعروفة، يراد تشبيه الذوائب «أى الغدائر والضفائر جمع ذؤابة» بها، وتشبيه الذوائب بالحيات مشهور معروف «أحمد يوسف نجاتى»

(٢) عون الدين سليمان بن عبد المجيد العجمى، ولد سنة ٦٠٦، وتوفى سنة ٦٥٠ بدمشق، وهو ناظر الجيوش بها. «أحمد يوسف نجاتى».

(٣) اعتسف الطريق وتعسفه اذا سار فيه خابطا على غير هداية، وقطعه دون صوب يتوخاه أو قصد يتجه اليه، والضامر: المهزول، والوانى: الفاتر الضعيف

(٤) شام البرق يشيمه شيما: اذا نظر اليه أين يقصد وأين يمطر، ودير مران

وَاُقْصِدْ أَعَالِى قَلَالِيــهِ ، فَإِنَّ بِهَا
مَا تَشْتَهِى اُلنَّفْسُ مِنْ حُورٍ وَوِلْدَانِ[1]
مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ هَيْفَاءِ اُلْقَوامِ ، إِذَا
مَاسَتْ فَوَا خَجَلَ اُلْمُرَّانِ وَاُلْبَانِ[2]
وَكُلِّ أَسْمَرَ قَدْ دَانَ اُلْجَمَالُ لَهُ
وَكَمَّــلَ اُلْحُسْنَ فِيهِ فَرْطُ إِحْسَانِ

كان بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة ، وبناؤه بالجص، وأكثر فرشه بالبلاط الملون، وكان ديرا كبيرا فيه كثيرمن الرهبان، وفى هيــكله صورة عجيبة دقيقة المعانى، والأشجار محيطة به ، وفيه يقول أبو بكر الصنوبرى أحمد بن محمد بن الحسن الحلبي :

أمر بدير مران فأحيــا وأجعل بيت لهوى بيت لهيا
ويبرد غلتى بردى ، فسقيا لأيامى على بردى ورعيا
ولى فى باب جيرون ظباء أعاطيها الهوى ظبيا فظبيا
ونعم الدار داريا ، ففيها حلالى العيش حتى صار أريا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها فليس يريد غير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق يحسن وشيا
مظللة فواكهها بأبهى الـ مناظر فى نواضرها وأهيا
فمن تفاحة لم تعــد خــدا ومن رمانة لم تخط ثديا

وبيت لهيا : قرية كانت مشهورة بغوطة دمشق للشعراء فيها قول كثير ، وتقدم التعريف بباب جيرون وداريا . « أحمد يوسف نجاتى »(١) القلالى جمع قلية « كعلية » وهى شبه الصومعة تــكون فى الــكنائس ، وتسمى أيضا القلاية، وهى من بيوت العبادة (٢) المران: الرماح الصلبة اللدنة، واحده مرانة، واسم شجر تعمل منه الرماح، والبان: شجر معتدل الأغصان مشهور تشبه

وَرُبَّ صُدْغٍ بَدَا فِى خَدِّ مُرْسِلِهِ
فِى فَتْرَةٍ فَتَنَتْ مِنْ سِحْرِ أَجْفَانِ(١)
فَلَيْتَ رِيقَتَهُ وِرْدِى ، وَوَجْنَتَهُ
وَرْدِى ،وَمِنْ صُدْغِهِ آسِى وَرَيْحَانِى!
وَعُجْ عَلَى دَيْرِ مَتَّى ، ثُمَّ حَيِّ بِهِ الرُّ
بَّانَ بُطْرُسَ ، فَالرُّبَّانُ رَبَّانِى
فَهِمْتُ مِنْهُ إِشَارَاتٍ ، فَهِمْتُ بِهَا
وَصُنْتُ مَنْشُورَهَا فِى طَيِّ كِتْمَانِ(٢)
وَاُعْبُرْ بِدَيْرِ حُنَيْنٍ، وَاُنْتَهِزْ فُرَصَ الُ
لَذَّاتِ مَا بَيْنَ قِسِّيسٍ وَمَطْرَانِ

به القدود فى اعتداله ولينه وحسن تثنيه ونضرته . «أحمد يوسف نجاتى »
(١) لايخفى التناسب بين « مرسل » و« فترة »و« فتنت » و«سحر »
« أحمديوسف نجاتى » (٢) فهمت الأولى من فهم يفهم ، والثانية من هام يهيم - ودير متى كان بشرقى الموصل على جبل شامخ يقال له جبل متى ، من استشرفه نظر الى رستاق نينوى والمرج . وكان حسن البناء ، وأكثر بيوته منقورة فى الصخر ، وفيه قيل :

يادير متى سقت أطلالك الديم ... وانهل فيك على سكانك الرهم
فما شفى غلتى ماء على ظمأ ... كما شفى حر قلبي ماؤك الشبم

« الرهم : الأمطار ، والغلة شدة العطش ، والشبم : البرد العذب » .
« أحمد يوسف نجاتى »

وَٱسْتَجْلِ رَاحًا بِهَا تَحْيَا ٱلنُّفُوسُ إِذَا
دَارَتْ بِرَاحِ شَمَامِيسٍ وَرُهْبَانِ[1]
حَمْرَاءَ صَفْرَاءَ بَعْدَ ٱلْمَزْجِ قَدْ قَذَفَتْ
بِشُهْبِهَا مِنْ هُمُومِي كُلَّ شَيْطَانِ
كَمْ رُحْتُ فِي ٱللَّيْلِ أَسْقِيهَا وَأَشْرَبُهَا
حَتَّى ٱنْقَضَى وَنَدِيمِي غَيْرُ نَدْمَانِ
سَأَلْتُ تُومَاسَ عَمَّنْ كَانَ عَاصِرَهَا
أَجَابَ رَمْزًا ، وَلَمْ يَسْمَحْ بِتِبْيَانِ[2]
وَقَالَ: أَخْبَرَنِي شَمْعُونُ يَنْقُلُهُ
عَنِ ٱبْنِ مَرْيَمَ عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانِ
بِأَنَّهَا سَفَرَتْ بِالطُّورِ مُشْرِقَةً
أَنْوَارُهَا ، فَكَنَوْا عَنْهَا بِنِيرَانِ
وَهِيَ ٱلْمُدَامُ ٱلَّتِي كَانَتْ مُعَتَّقَةً
مِنْ عَهْدِ هُرْمُسَ مِنْ قَبْلِ ٱبْنِ كَنْعَانِ[3]

---

(١) الراح أولا : الخمر ، وثانيا : جمع راحة وهى اليد (٢) عاصرها من المعاصرة، أو عصر الخمر يعصرها (٣) المعتقة : الخمر القديمة التى عتقت زمانا حتى قدمت . « أحمد يوسف نجاتى »

وَهِيَ ٱلَّتِي عَبَدَتْهَا فَارِسٌ، فَكَنَى
عَنْهَا بِشَمْسِ ٱلضُّحَى فِي قَوْمِهِ مَانِي[1]

سَكِرْتُ مِنْهَا فَلَا صَحْوٌ، وَجُدْتُ بِهَا
عَلَى ٱلنَّدَامَى، وَلَيْسَ ٱلشُّحُّ مِنْ شَانِي

وَسَوْفَ أَمْنَحُهَا أَهْلًا، وَأُنْشِدُهُ
مَا قِيلَ فِيهَا بِتَرْجِيعٍ وَأَلْحَانِ

حَتَّى تَمِيلَ لَهَا أَعْطَافُهُ طَرَبًا
وَيَنْثَنِي ٱلْكَوْنُ مِنْ أَوْصَافِ نَشْوَانِ

وَهَذِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي دِمَشْقَ عَلَى ٱلْخُصُوصِ فَلَا تَخْرُجُ عَمَّا نَحْنُ بِصَدَدِهِ، وَٱلْأَعْمَالُ بِٱلنِّيَّاتِ، وَدِيبَاجَةُ هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ عَلَى نَسْجِ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلصُّوفِيَّةِ. وَمِمَّنْ حَاكَ[2] هَذِهِ ٱلْبُرُودَ ٱلشَّيْخُ ٱلْأَكْبَرُ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَى ـ وَقِيلَ إِنَّهُ ٱلشَّيْخُ شَعْبَانُ ٱلنَّحْوِيُّ.

« رَجْعٌ » وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

---

(١) مانى: صاحب دين المجوس (٢) حاك: نسج، والبرود جمع برد: وهو الثوب المنقوش الموشى، ويريد بالشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي

شَوْقِي يَزِيدُ، وَقَلْبُ ٱلصَّبِّ مَا بَرَدَا
وَبَانَ يَأْسِي مِنَ ٱلْمَعْشُوقِ حِينَ غَدَا(١)

وَمَدْمَعِي قَنَوَاتٌ ، وَٱلْعَذُولُ حَكَى
ثَوْرَى ، يَلُومُ ٱلْفَتَى فِي عِشْقِهِ حَسَدَا

عَلَى مُغَنِّيَةٍ بِٱلْجَنْكِ جَاوَبَهَا
شَبَّابَةٌ كَمْ بِهَا مِنْ عَاشِقٍ سَهِدَا(٢)

فَٱلْبَدْرُ جَبْهَتُهَا ، وَٱلرِّدْفُ رَبْوَتُهَا
وَخِلُّهَا مَاتَ فِي خَلْخَالِهَا كَمَدَا

---

(١) يزيد ، وبردى ،وثورى:أنهار، وتقدم التعريف بها ، والمعشوق : اسم موضع أو قصر ، وفى أسمائها كلها تورية ،وكذافى«قنوات »واسم المعشوق مأخوذ من اسم قصر عمره الخليفة المعتمد بالله العباسى بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامرا فى وسط البرية بينه وبين تكريت مرحلة ، وكان بمصر رباط به آثار شريفة يسمى رباط المعشوق ، وفيه يقول بدر الدين بن الصاحب:

لنا رباط وبالمعشوق شهرته آثار خير الورى فيه بتحقيق
يصبو فؤادى لمرآه، ولاعجب ان هام قلبى فى آثار معشوق

وقال آخر :

أتيت الى المعشوق من بعد فرقة وهجر، وقلبى بالنوى يتضرم
فقابلنى والثغر بالزهر باسم وما أحسن المعشوق بالصب يبسم

ولد بدر الدين بن الصاحب سنة ٧١٦ ، وتوفى سنة ٧٨٨ «أحمد يوسف نجاتى»
(٢) شبابة : مزمار من القصب ينفخ فيه ــ مولدة ، وتقدم التعريف بالجنك من مواضع دمشق ، وفيه هنا تورية ، اذ الجنك أيضا كما تقدم من آلات الطرب كالعود، وفى البيت الأخير توجيه ببعض أسماء الأماكن بدمشق، وهو ظاهر «أحمد يوسف نجاتى»

﴿ انتهى الجزء الثامن من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ﴾
ويليه الجزء التاسع ان شاء الله تعالى وأوله
﴿ ولنذكر نبذة مما خوطبت به من علماء الشام وأدبائه ﴾

الدكتور أحمد فريد رفاعي بك

فهرست

الجزء الثامن من كتاب نفح الطيب



مكتبة ومطبعة

عيسى البابي الحلبي وشركاه

شارع خان جعفر بجوار سيدنا الحسين بمصر

تليفون رقم ٥٠٨٥٦

